أفواه دعاتنا حاربناه لاسيما مشركى العرب الذين بالغوا فى عداوة الإسلام ، ودعوتنا إلى الإسلام أولا تكون بالحكمة والموعظة الحسنة .

لهذا لانعجب إن رأينا آيات فى القرآن تحثنا على الدعوة إلى الإسلام بالحسنى وآيات تأمرنا بالقتال وتحث عليه ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم .. الآية ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾

فى هذا النص الكريم توجيه وارشاد لنا معشر المسلمين كما أن فيها حثا على مجادلة من أراد الاستبصار من أهل الكتاب بالحسنى كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾[2] وكما قال جل ذكره لموسى وهارون ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أى : حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم قال الله ـ عز وجل ـ ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[4] .

قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف ، قال مجاهد : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية .

وقوله تعالى : ﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ﴾ أى : إيمانا إجماليا بالذى لم يدخله التحريف أو التبديل وفى السنة المطهرة أحاديث ترشد إلى هذا الإيمان الإجمالى والمعنى :

إذا أخبروا بما لانعلم صدقه ولا كذبه فهذا لانقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقا ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلا ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا . قال البخارى رحمه الله حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : « كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »[5] وهذا الحديث تفرد به البخارى وقال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن عمرو وأخبرنا يونس عن الزهرى أخبرنى ابن أبى نملة أن أبا نملة الأنصارى أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود فقال يامحمد هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ .. « الله أعلم »

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٥

(٢) سورة النحل الآية : ١٢٥

(٣) سورة طه الآيتان : ٤٣ ـ ٤٤

(٤) سورة الحديد الآية : ٢٥

(٥) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ١٣٦ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبى : لاتسألوا أهل الكتاب عن شىء » من رواية أبى هريرة » .

قال عثمان بن عفان رضى الله عنه : « سابقنا أهل جهادنا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وظالمنا أهل بدونا ، لايشهدون جماعة ولا جمعة »

وقيل : الظالم : المقصر فى العمل بالقرآن ، والمقتصد العامل به فى أغلب الأوقات ، والسابق الذى يضم التعليم والإرشاد إلى العمل . وقال الحسن : الظالم : من خفت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته . والسابق من رجحت حسناته على سيئاته . وقد اختلف فى هذه الأصناف على نيف وأربعين قولا ، ثم عقب سبحانه وتعالى الآيات المذكورة بقوله - سبحانه وتعالى : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ والظاهر أن الضمير المرفوع فى (يدخلونها) عائد على الأصناف الثلاثة . وهو قول عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى الدرداء ، وعقبة بن عامر ، وأبى سعيد ، وعائشة ، ومحمد بن الحنفية ، وجعفر الصادق ، وغيرهم - رضى الله تعالى عنهم - .

وقال الزمخشرى : هو عائد على السابق فقط ، ولهذا جعل ذلك إشارة إلى (السبق) المفهوم من قوله : (سابق) ، قال : وفى اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم . والسكوت عن الآخرين مافيه من وجوب الحذر ، فليحذر المقتصد ، وليملك الظالم لنفسه حذرا ، وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ، ولا يغتر بما رواه عمر - رضى الله عنه - ، عن رسول الله ﷺ : « سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له »[1] فإن شرط ذلك صحة التوبة ، لقوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾[3] ولقد نطق القرآن بذلك فى مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ، ولم يعلل نفسه بالخدع .

فإن قلت : ما الحكمة فى تأخير السابق وتأخير الظالم : أجيب : لئلا يعجب السابق ، وييأس الظالم من رحمته . ولما كان الظالم له ذلة ، والسابق له صولة ، يرفع تعالى ذلة الظالم بقوله : (لنفسه) وكسر صولة السابق بقوله : (بإذن الله) كأنه يقول : ياظالم - ارفع رأسك ، ظلمت ولكن على نفسك ياسابق - اخفض رأسك ، سبقت ولكن بإذن الله - تعالى - وفى قوله فى بقية الآية : ﴿ إن ربنا لغفور ﴾ إشارة إلى دخول الظالم لنفسه الجنة ، و ﴿ شكورا ﴾[4] إشارة إلى (السابق) ، وأنه كثير الحسنات .

و (دار المقامة) هى الجنة ، لأنها دار مقامه لايرحل عنها .

وقوله تعالى قبل هذه الآية : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾[5] أى يقرأونه ويداومون على تلاوته ، وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير :

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٦٠٠ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث عمر انظر كنز العمال ج ٢ ص ٤٨٥ من سورة فاطر - حديث رقم ٤٥٦١ ، ٤٥٦٣

(٢) سورة التوبة من الآية : ١٠٢

(٣) سورة التوبة من الآية : ١٠٦

(٤) سورة فاطر من الآية : ٣٤

(٥) سورة فاطر من الآية : ٢٩

هذه آية القراء ، والمراد : يتبعون كتاب الله فيعملون بما فيه . وقال الكلبى : يأخذون بما فيه . وقال السدى : هم أصحاب الرسول ﷺ . وقال عطاء : هم المؤمنون . ولما ذكر الله تعالى وصفهم بالخشية ، وهي عمل القلوب ، ذكر أنهم (يتلون كتاب الله) وهو عمل اللسان ، و (أقاموا الصلاة) وهى عمل الجوارح ، (وأنفقوا) ، وهو العمل المالى وقوله : ﴿ يرجون تجارة لن تبور) خبر إن ، أى : لن تكسد ، ولن يتعذر الربح فيها ، وهو إشارة إلى الإخلاص ، أى يفعلون تلك الأفعال من التلاوة وإقام الصلاة والإنفاق ، يقصدون بذلك وجه الله ، لا الرياء والسمعة . وقوله (ليوفيهم) متعلق بـ (يرجون) ، أو بـ (لن تبور) ، أو بمضمر تقديره : فعلوا ذلك . أقوال .

وقال الزمخشرى : وإن شئت جعلت (يرجون) فى موضع الحال ، أى : أنفقوا راجين ليوفيهم ، أى فعلوا جميع ذلك لهذا الغرض .

وخبر إن قوله : ﴿ إنه غفور رحيم ﴾ على معنى : غفور لهم ، شكور لأعمالهم ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قيل : بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم . قاله أبو وائل وفى الحديث . بتضعيف حسناتهم . وقيل : بالنظر إلى وجه الله الكريم .

وفى قوله : ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾[1] مع قوله : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ إشارة ؛ كأنه تعالى قال : إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر ، فاصطفينا عبادا ثم أورثناهم الكتاب .

وفى الصحيحين من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[2] وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله أهلين من الناس ، قالوا : من هم يارسول الله . . ؟ قال : أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته »[3] ، رواه النسائى والحاكم . أى حفظة القرآن ، العاملون به ، هم أولياء الله ، والمختصون به ، إختصاص أهل الإنسان به ، وليس من أهله من حفظ لفظه وضيع حدوده .

وسئل ذو النون المصرى عن حملة القرآن ، فقال : هم الذين مطرت عليهم سحائب الأشجان ، ونصبوا ركبهم والأبدان ، وتسربلوا بالخوف والأحزان ، وشربوا بكأس اليقين ، وراضوا أنفسهم رياضة المتقين ، كحلوا أبصارهم بالسهر ، وغضوها عن النظر ، فقاموا ليلهم أرقا ، وتبادرت دموعهم فرقا ، حتى ضنيت منهم الأبدان ، وتغيرت منهم الأبدان ، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة ، وشفاه ذابلة ، ودموع وابلة ، وزفرات قاتلة ، فحال بينهم وبين نعيم المتنعمين ، وشغلهم عن مطامع

---

(١) سورة فاطر الآية : ٣١

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٥٨ عن رواية عثمان بن عفان سطر ١٩ .
وانظر صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٣٦ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه والحديث مروى عن عثمان بن عفان .
وانظر اتحاف السادة المتقين للعلامة الزبيدى ج ٤ ص ٤٦٤ قال العراقى رواه البخارى من حديث عثمان بن عفان .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢٧ ـ ١٢٨ من رواية أنس .

الراغبين ، فاضت عبراتهم من وعيده ، وشابت ذوائبهم من تحذيره ، ﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾[(١)]

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : (الم) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[(٢)] رواه الترمذى وصححه . وروى السلفى فى البلدانيات عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا هريرة تعلم القرآن وعلمه الناس ، فإنك إن مت وأنت كذلك زارت الملائكة قبرك كما تزور البيت العتيق »[(٣)] .

وعن جبير بن مطعم عن النبى ﷺ : « أبشروا إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله . وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا »[(٤)] رواه : (الطبرانى فى الكبير) وعنه ﷺ : « كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض »[(٥)] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ﴾ هو كتاب الله ، وهذا من أبلغ الاستعارات ، وألطف الإشارات لما كان يتوصل بالحبل والسبب إلى نيل الأغراض استعير للقرآن الموصل إلى نيل السعادة الدنيوية والأخروية . وعن ابن مسعود قال :

قال رسول الله ﷺ « إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ماستطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، نجاة لمن اتبعه ، لايزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، أتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته . كل حرف عشر حسنات ؛ أما إنى لاأقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[(٦)] - رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن إبراهيم الهجرى ، عن أبى الأحوص عنه ، وقال : تفرد به صالح بن عمر عنه ، وهو صحيح .

وفى فتاوى ابن الصلاح قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها البشر ، فقد ورد أن الملائكة لم يعطوا ذلك ، وأنها حريصة لذلك على استماعه من الإنس

---

(١) سورة الزمر الآية : ١٨

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين للعلامة الزبيدى ج ٤ ص ٤٦٥ من رواية ابن مسعود .
وانظر كنز العمال الباب السابع فى تلاوة القرآن وفضائله ج ١ ص ٥٣٤ رقم ٢٣٩٤ بلفظ عوف بن مالك
وانظر الترمذى فى أبواب فضائل القرآن باب ١٦ ماجاء فى من قرأ حرفا من القرآن ج ٤ ص ٢٤٨ برقم ٣٠٧٥ قال : حديث حسن صحيح غريب عن رواية عبد الله بن مسعود .

(٣) انظر اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ج ١ ص ١١٥ فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل لأبى هريرة :

(٤) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٢٢ ص ١٨٨ حديث رقم ٤٩١ رواية عن أبى شريح الخزاعى فيه زيادة فى أوله ولفظه : « أبشروا أليس تشهدون أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله ، قالوا : بلى قال : « إن هذا القرآن .. الخ .

(٥) انظر كنز العمال ج ١ ص ١٨٨ حديث رقم ٩٥٦ برواية (ش وابن جرير عن أبى سعيد)

(٦) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب أخبار فى فضائل القرآن جملة .. ج ١ ص ٥٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن مسعود .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق ، له أجران »[١] وفى رواية : « والذى يقرأ القرآن وهو يشتد عليه له أجران »[٢] رواه البخارى ومسلم واللفظ له ، وأبو داود والترمذى وابن ماجة ، والسفرة : جمع سافر ، ككاتب وكتبة والسافر . الرسول والسفرة الرسل ؛ لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله تعالى . وقيل : السفرة : الكتبة ، والبررة : المطيعون ؛ من البر : وهو الطاعة . والماهر : الحاذق الكامل الحفظ ، الذى لايتوقف ، ولا تشق عليه القراءة ، لجودة حفظه وإتقانه . قال القاضى عياض : يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة أن له فى الآخرة منازل يكون فيها رفيقا للملائكة السفرة ، لاتصافه بصفتهم ، من حمل كتاب الله تعالى . قال :

ويحتمل أن يراد أنه عامل بعملهم ، وسالك مسلكهم . وأما الذى يتعتع فيه فهو الذى يتردد فى تلاوته لضعف حفظه ، فله أجران . أجر القراءة ، وأجر تعبه ومشقته . فإن قلت : يلزم أن يكون المتعتع أفضل من الماهر ؛ من حيث إن له أجرين ، ولم يذكر للماهر أجرين ؟ أجيب : بأنه ﷺ قد ذكر لكل واحد فضيلة ، ليكون حثا له على القراءة ، فذكر للمتعتع أجرين ، وللماهر كونه مع السفرة ، والكون مع السفرة لايتقاعد على حصول الأجرين . وقال القاضى عياض : ليس معناه أن الذى يتعتع له من الأجر أكثر من الماهر به ، بل الماهر أفضل وأكثر أجرا ، فإنه مع السفرة ، وله أجور كثيرة ، وكيف يلتحق به من لم يعتنِ بكتاب الله ، وحفظه وإتقانه ، وكثرة تلاوته ودراسته ، كاعتنائه به حتى مهر فيه .

وفى الأصل التاسع من نوادر الأصول لأبى عبد الله الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأبى الدرداء . قالا : قال رسول الله ﷺ :

« إن بيوتات المؤمنين لمصابيح إلى العرش ، يعرفها مقربو السموات السبع ؛ يقولون : هذا النور من بيوتات المؤمنين التى تتلى فيها القرآن »[٣] .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل الماهر بالقرآن .. الخ .. ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ فقد ورد الحديث برقم ٢٤٤/ ٧٩٨ برواية عن عائشة بلفظه

وانظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن » باب ماجاء فى فضل قارىء القرآن : ج ٤ ص ٣٤٤ حديث رقم ٣٠٦٨ فقد ورد الحديث عن عائشة غير أنه جاء فى آخره « والذى يقرأه - قال هشام - وهو شديد عليه وقال شعبة وهو عليه شاق له أجران » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل الماهر بالقرآن ... الخ ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ فقد ورد الحديث برقم ٢٤٤/ ٧٩٨ بلفظه من رواية وكيع .

وانظر سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن » باب ماجاء فى فضل قارىء القرآن ج ٤ ص ٣٤٤ لحديث عائشة .

(٣) انظر كنز العمال الباب السابع فى تلاوة القرآن وفضائله الاكمال من الفصل الأول ص ٥٥٤ برقم ٢٤٨١ بلفظ أبى هريرة وأبى الدرداء

وأنظر نوادر الأصول للحكيم الترمذى الأصل التاسع فى مرتبة روح المؤمن ص ١٦ فقد ورد هذا الحديث من رواية لأبى هريرة .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ القرآن فاستظهره ، فأحل حلاله ، وحرم حرامه ، أدخله الله الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار »[١].

ورواه الترمذى وأبو عيسى . وقال حديث غريب ، وخرجه أبو داود ، وصححه الحاكم ، من حديث معاذ بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس والده يوم القيامة تاجا من نور ، ضوءه أحسن من ضوء الشمس ، فى بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذى عمل بهذا »[٢].

وروى الحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ، من حديث بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن وتعلمه ، وعمل بما فيه ألبس يوم القيامة تاجا من نور ضوءه مثل ضوء الشمس ، ويكسى والديه حلتان ، لا يقوم بهما الدنيا ، فيقولان : بم كسينا هذا ! ؟ فيقال بأخذ ولدكما القرآن »[٣]

وروى الترمذى وحسنه ، من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يجىء صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يارب ـ حله ، فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول يارب زده ، فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يارب ارض عنه فيقال : إقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة »[٤] وروى الترمذى أيضا ، وصححه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها »[٥].

قال الخطابى فيما نقله عن الحافظ عبد العظيم المنذرى وغيره : جاء فى الأثر « أن عدد آى القرآن على قدر درج الجنة ، فيقال للقارىء : إرق فى الدرج على قدر ماكنت تقرأ من آى القرآن ، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درجة الجنة فى الآخرة ، ومن قرأ جزءا منه كان رقيه فى الدرج على قدر ذلك . فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة .

قوله تعالى : ﴿ ومايجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أى مايكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطى ضوء الشمس بالوصائل وهيهات ، ثم قال تعالى : ﴿ وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ أى : قد لبثت فى قومك يامحمد من قبل أن تأتى بهذا القرآن عمرا لاتقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمى لاتقرأ ولا تكتب وهكذا صفته

---

(١) انظر سنن الترمذى أبواب فضائل القرآن ، باب ماجاء فى فضل قارىء القرآن ج ٤ ص ٢٤٥ حديث رقم ٣٠٦٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن على بن أبى طالب ـ وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه

(٢) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب « ذكر فضائل وآى متفرقة ج ١ ص ٥٦٧ فقد و د الحديث بلفظه عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه » وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

(٣) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب ذكر فضائل وآى متفرقة ج ١ ص ٥٦٧/٥٦٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن بريدة الأسلمى عن أبيه : وقال هذا الحديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن » باب ماجاء فى من قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر ج ٤ ص ٢٤٨ حديث رقم آ ٣٠٧٦ فقد ورد الحديث برواية عن أبى هريرة .

(٥) انظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن : باب ١٨ ج ٤ ص ٢٥٠ حديث رقم ٣٠٨١ فقد ورد الحديث بروايته عن عبد الله بن عمرو .

فى الكتب المتقدمة كما قال تعالى :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾[١] الآية .

وهكذا كان رسول الله ﷺ دائما إلى يوم القيامة لايحسن الكتابة ، ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحى والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخرى الفقهاء كالقاضى أبى الوليد الباجى ومن تابعه أنه ـ عليه السلام ـ كتب يوم الحديبية : هذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية فى صحيح البخارى : ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى : ثم أمر فكتب . ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجى وتبرأوا منه وأنشدوا فى ذلك أقوالا وخطبوا به فى محافلهم : وإنما أراد الرجل ـ أعنى الباجى ـ فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال ﷺ إخبارا عن الدجال : « مكتوب بين عينيه كافر » .

وفى رواية : « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن » وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له ، قال الله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو ﴾ أى تقرأ ﴿ من قبله من كتاب ﴾ لتأكيد النفى ولا تخطه بيمينك تأكيدا أيضا وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إذا لارتاب المبطلون ﴾ أى لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا هذا مع علمهم بأنه أمى لا يحسن الكتابة ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾[٢]

قال الله تعالى : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض ﴾[٣] الآية وقال ههنا : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ أى هذا القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق أمرا ونهيا وخبرا يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا كما قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٤] وقال رسول الله ﷺ : « ما من نبى إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا »[٥] .

وفى حديث عياض بن حماد فى صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إنى مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان »[٦] أى لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٥٧

(٢) سورة الفرقان آية : ٥

(٣) سورة الفرقان من الآية : ٦

(٤) سورة القمر الآية : ١٧

(٥) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٥١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى هريرة وانظر صحيح البخارى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبى ﷺ بعثت بجوامع الكلم ج ٩ ص ١١٣ برواية لأبى هريرة .

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار ج ٤ ص ٢١٩٧ حديث رقم ٦٣/٢٨٦٥ فقد ورد حديث طويل عن عياض ورد فيه الحديث كجزء منه مع اختلاف فى بعض الألفاظ

المحل لأنه قد جاء فى الحديث الآخر : « لو كان القرآن فى إهاب لما أحرقته النار »[١] ولأنه محفوظ فى الصدور ميسر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظا ومعنى ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة فى صفة هذه الأمة أنا جيلهم فى صدورهم ، واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ بل العلم بأنك ماكنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابا ولا تخطه بيمينك آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ، ونقله عن قتادة وابن جريج وحكى الأول عن الحسن البصرى فقط قلت : وهو الذى رواه العوفى عن ابن عباس ونقله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾

أى : مايكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون أى : المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٢] .

* ذكر بعض الشبه والرد عليها *

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

معانى المفردات

(شهيدا) يشهد بصدقى (أجل مسمى) معلوم محدد (بغتة) فجأة (يغشاهم) يصيبهم .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ١٥٤/ ١٥٥ فقد ورد الحديث عن عقبة مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) سورة يونس الآيتان : ٩٦ - ٩٧

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن ذكر الدليل على أن القرآن من عند الله وليس بمفترى من عند محمد ﷺ أردف هذا شبهة أخرى لهم ، وهى أنهم طلبوا من النبى ﷺ أن يأتى لهم بمعجزة محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كناقة صالح وعصا موسى ، فأجابهم بأن أمر ذلك . إلى الله لا إليه ، فلو علم أنكم تهتدون بها لأجابكم إلى ماطلبتم ، ثم بين سخف عقولهم وطلبهم الآيات الدالة على صدقه بعد أن جاءهم بالمعجزة الباقية على وجه الدهر وهى القرآن يتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار ، فيه خبر من قبلهم ونبأ من بعدهم وحكم مابينهم ، وفيه بيان الحق ودحض الباطل وفيه ذكرى حلول العقاب بالمكذبين والعاصين .

ثم أبان أن الله شهيد على صدقه وهو العليم بما فى السموات والأرض .

ثم هدد الكافرين بأن كل من يكذب رسل الله بعد قيام الأدلة على صدقهم ، ويؤمن بالجبت والطاغوت فقد خسرت صفقته ، وسينال العقاب من ربه جزاء وفاقا على جحوده وإنكاره .

أخرج الدارمى وأبو داود عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ماسمعوه من اليهود ، فقال النبى ﷺ - « كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ماجاء به غيره إلى غيرهم »[1] فنزلت : ﴿ أو لم يكفهم ﴾ الآية وأخرج البخارى عند تفسير الآيات قوله ﷺ ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[2] أى يستغنى به عن غيره . وعن عبد الله بن الحارث الأنصارى قال : دخل عمر بن الخطاب على النبى ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك . فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرا شديدا لم أر مثله فقط . فقال عبد الله بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، فسرى عن رسول الله ﷺ وقال : لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، أنا حظكم من النبيين ، وأنتم حظى من الأمم »[3] أخرجه عبد الرازق .

وبعد أن أنذر المشركين بالعذاب ، وهددهم أعظم تهديد قالوا له تهكما واستهزاء : إن كان هذا حقا فأتنابه ، وهم يقطعون بعدم حصوله ، فأجابهم بأنه لايأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم لأن الله أجله لحكمة ، ولولا ذلك الأجل المسمى الذى اقتضته حكمته ، وارتضته رحمته ، لعجله لكم ولأوقعه بكم ، وإنه ليأتينكم فجأة وأنتم لاتشعرون به ، ثم تعجب منهم فى طلبهم الاستعجال وهو سيحيط بهم فى جميع نواحيهم ، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ : ذوقوا جزاء ماكنتم تعملون .

---

(١) انظر تفسير القرطبى « سورة العنكبوت » عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ ج ١٣ ص ٣٥٥ فقد ورد الحديث عن يحيى بن جعدة مع اختلاف فى بعض ألفاظه

(٢) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب ذكر فضائل سور متفرقة ج ١ ص ٥٧٠ فقد جاء الحديث بلفظه عن ابن عباس .

(٣) انظر كنز العمال الباب الثانى فى الاعتصام بالكتاب والسنة ج ١ ص ١٨٣ حديث رقم ٩٢٧ من رواية لعبد الله بن الحارث فقد ورد الحديث بلفظه .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾

يقصدون الآيات هنا المعجزات التى جاء بها الرسل من قبل كناقة صالح وعصا موسى فقال لهم الله ـ تبارك وتعالى ـ إنما الآيات عند الله فلو علم سبحانه أنكم ستهتدون بتلك الآيات لأجراها على يدى حبيبه ومصطفاه لكنكم إنما تطلبون ذلك عنادا وكبرا .

قال تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾(١)

وقال جل شأنه ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾(٢)

وقال عزت حكمته :

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾(٣) .

لقد اقترحوا على رسول الله ﷺ آيات كثيرة ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا ﴾(٤)

هذا هو الرد الحاسم فالرسول البشر والبشر الرسول لايملك الآيات إنما الذى يملكها هو خالق القوى والقدر لذا جاء الرد فى سورة العنكبوت ﴿ قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾

ثم قال تعالى بعد ذلك :

﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾

قال ﷺ : « كفى بقوم ضلالة ان يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ماجاء به غيره إلى غيرهم »(٥)

ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾

ولما قال الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ يارسول الله ، إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أفنكتب بعضها ؟ قال له الرسول الكريم « أمتهوكون أنتم ؟ أى أمتحيرون ـ كما تهوكت اليهود

---

(١) سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥
(٢) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ـ ٩٧
(٣) سورة القمر الآيات : ١ ـ ٥
(٤) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ ـ ٩٣
(٥) انظر فتح البارى للعسقلانى « كتاب فضائل القرآن » ج ٩ ص ٦٨ باب من لم يتغن بالقرآن .

والنصارى - لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ماوسعه إلا اتباعى »[١] .

وفى قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ إخبار منه تعالى عن إنزال الكتاب العظيم الذى فيه خبر ماقبلهم ونبأ مابعدهم وحكم مابينهم أو لم يكفهم ذلك آية وأنت رجل أمى لاتقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب فجئتهم بأخبار مافى الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح المبين الجلى كما قال تعالى :

﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾[٢]

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى ﴾[٣]

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال :

قال رسول الله ﷺ « ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »[٤]

وفى هذا الكتاب رحمة وشفاء ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[٥]

كما أن فيه ذكرى وموعظة لقوم يؤمنون وفيه من الفضائل مالا يحصى ومن المحاسن ما لا يستقصى وإذا تقرر هذا فاعلم أن القرآن هو كلام الله تعالى القائم بذاته غير مخلوق ولا حال فى المصاحف ولا فى القلوب والألسنة والآذان بل معنى قديم قائم بذات الله تعالى مكتوب فى مصاحفنا بنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف الدالة عليه قال الله تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ﴾[٦] مقروء بألسنتنا بحروفه المنظومة المسموعة قال عليه الصلاة والسلام لايقرأ القرآن حائض ولا جنب ، مسموع بآذاننا قال تعالى ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾[٧]

محفوظ فى صدورنا بالألفاظ المخيلة

قال تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾

وهذا كما يقال :

النار جوهر محرق يذكر باللفظ ويكتب بالقلم ولا يلزم منه كون حقيقة النار صوتا وحرفا . وتحقيقه أن للشىء وجودا فى الأعيان ووجودا فى الأذهان ووجودا فى العبارة ووجودا فى الكتابة فالكتابة تدل على العبارة وهى على مافى الأذهان وهو على مافى الاعيان فحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم القديم كما فى قولنا :

---

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٣٨٧ فقد ورد الحديث عن عمر بن الخطاب وفيه اختلاف فى بعض الفاظه . وانظر كنز العمال ج ١ ص ٢٠٠ حديث رقم ١٠٠٩ عن ابن عباس مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) سورة الشعراء آية : ١٩٧

(٣) سورة طه الآية : ١٣٣

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٥١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٥) سورة الإسراء من الآية : ٨٢

(٦) سورة الواقعة الآيتان : ٧٧ - ٧٨

(٧) سورة التوبة من الآية : ٦

القرآن غير مخلوق فالمراد حقيقته الموجودة فى الخارج وحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم المخلوقات والمحدثات يراد به الألفاظ المنطوقة المسموعة (كما فى قولنا قرأت نصف القرآن) أو المخيلة (كما فى قولنا حفظت القرآن) أو الاشكال المنقوشة (كما فى قولنا يحرم على المحدث مس القرآن)

قوله تعالى : ﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ﴾

أى : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ويعلم ماأقول لكم من إخبارى عنه بأنه أرسلنى فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى كما قال تعالى :

﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾[١]

وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات

﴿ يعلم مافى السماوات والأرض ﴾ أى لاتخفى عليه خافية .

﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾

أى : يوم القيامة سيجزيهم على مافعلوا ويقابلهم على ماصنعوا فى تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم .

قوله تعالى :

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم ويقول ذوقوا ماكنتم تعملون ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن جهل المشركين فى استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحل عليهم كما قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٢]

وقال ههنا : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾

أى : لولا ماحكم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب سريعا كما استعجلوه ثم قال ﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ أى : فجأة ﴿ وهم لايشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾

أى يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لامحاله قال شعبة ، عن سماك ، عن عكرمة ، قال فى قوله : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ قال ابن عباس ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ وجهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه وتكور فيه الشمس والقمر ثم يوقد فيكون هو جهنم .

---

(١) سورة الحاقة الآيات : ٤٤ - ٤٧
(٢) سورة الأنفال الآية : ٣٢

ثم قال ـ عز وجل : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾[(١)] وقال تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾[(٢)] وقال تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لايكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾[(٣)] الآية :

فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ فى العذاب الحسى . وقال تعالى : وتقول ذوقوا ماكنتم تعملون ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوى على النفوس كقوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[(٤)] .

وقال تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون . اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ماكنتم تعملون ﴾[(٥)]

قوله تعالى ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾

معانى المفردات

لنبوئنهم : لننزلهم ، غرفا : الغرف جمع غرفة وهى الحجرة (وكأين) أى كم بمعنى كثير ، من

(١) سورة الأعراف من الآية : ٤١
(٢) سورة الزمر من الآية : ١٦
(٣) سورة الأنبياء من الآية : ٣٩
(٤) سورة القمر الآيتان : ٤٨ ، ٤٩
(٥) سورة الطور الآيات : ١٣ ـ ١٦

الدواب ، دابة : كل ما دب على وجه الأرض من الحيوان يقال له دابة . يؤفكون : يصرفون ، يقدر له : يضيق عليه مثل يقتر عليه رزقه ، لهو : اللهو الاشتغال بما لايعنى ، ومالا ينفع عن النافع المفيد ، وفى المصباح ، اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، واللعب : هو العبث . الحيوان : الحياة الدائمة الخالدة .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال المشركين ، وأنذرهم بالخسران ، وجعلهم من أهل النار- اشتد عنادهم للمؤمنين وكثر أذاهم لهم ومنعوهم من العبادة فأمرهم الله بالهجرة إلى دار أخرى إن تعذرت عليهم العبادة فى ديارهم . ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس كريهة لديها ، بين لهم أن المكروه واقع لامحالة إن لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت ، فأولى بكم أن يكون ذلك فى سبيل الله لتنالوا جزاءه ومرجعكم إلى ربكم ، وحينئذ تنالون من النعيم المقيم مالا عين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ، فهنالك الغرف التى تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم هذا الأجر جزاء للعاملين الصابرين المتوكلين على ربهم ، الذين يعلمون أن الله قد تكفل بأرزاقهم ، كما تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته ، وهو السميع لدعائهم العليم بحاجتهم .

روى أن الآية نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة ، وقالوا : نخشى إن نحن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة .

وبعد ما بين للمشركين وذكر لهم مغبة أعمالهم - خاطب المؤمنين بما فيه مذكر لهم ، وإرشاد للمشرك لو تأمله وفكر فيه ، ومثل هذا مثل الوالد له ولدان : احدهما رشيد والآخر مفسد ، فهو ينصح المفسد أولا ، فإن لم يسمع يعرض عنه ، ويلتفت إلى الرشيد قائلا : إن هذا لايستحق أن يخاطب ، فاسمع أنت ولاتكن كهذا المفسد ، فيكون فى هذا نصيحة للمصلح ، وزجرا للمفسد ، ودعوة له إلى سبيل الرشاد .

التفسير

قوله تعالى ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ﴾ هذا خطاب تشريف وتكريم للمؤمنين حيث أضافهم الله تعالى إلى ذاته وخاطبهم بطريق النداء وبشرهم بأن أرضه واسعة ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾[1] وأمرهم بعبادته وحده فكل الوجود ملكه ، وكل قضاء له حكمته وكل الكائنات طوع إرادته ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[2] .

---

(١) الآية ١١٤ من سورة البقرة
(٢) من الآية ١٥ من سورة الملك

أخرج الامام أحمد فى مسنده عن الزبير بن العوام قال . قال رسول الله ﷺ (البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيرا فأقم) ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك النجاشى ملك الحبشة رحمه الله تعالى فآواهم وأيدهم بنصره وجعلهم أصحاب كرامة ببلاده ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية[١] .

وعلى هذا فإن المؤمن إذا ضاقت به أرض بلاده فعليه أن يضرب فى عرصات الأرض فإن الله تعالى جاعل له فرجا ومخرجا ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[٢] .

إذا أنت لم تكرم بأرضك فارتحل فلا خير فى أرض مهان كريمها

وقال آخر

إن الفلا حدثتنى وهى صادقة فيما تحدث أن العز فى النقل

وقال الشافعى رضى الله عنه :

ما فى المقام لذى عقل وذى أدب من راحة فدع الأوطان واغترب

سافر تجد عوضا عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب

إنى رأيت وقوف الماء يفسده ان سال طاب وان لم يجر لم يطب

الأسد لولا فراق الغاب ماافترست والسهم لولا فراق القوس لم يصب

والشمس لو وقفت فى الفلك دائمة لملها الناس من عجم ومن عرب

والتبر كالترب ملقى فى أماكنه والعود فى أرضه نوع من الحطب

فإن تغرب هذا عز مطلبه وان تغرب ذاك عز كالذهب

ثم تأتى الحقيقة التى لاريب فيها ولاتقبل المساومة ولا أنصاف الحلول إنها حقيقة الموت حيث يقول تعالى :

﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾[٣] فلا عجب أن تجد قضايا الموت كلها موجبة كلية أى قد سورت بسور كلى لم يسبقه نفى قال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾[٤] .

وقال عظمت حكمته : ﴿ ولاتدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ [٥].

وقال جلت قدرته : ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[٦] ولو كتب

---

(١) الحديث اخرجه الأمام أحمد فى مسنده ١/ ١٦٦
(٢) الآية ٤١ من سورة النحل
(٣) من الآية ٥٧ من سورة العنكبوت
(٤) من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران
(٥) الآية رقم ٨٨ من سورة القصص
(٦) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن

الخلود لاحد لكان لرسول الله صلوات ربى وسلامه عليه ولكنه تعالى أخبره بمصيره المحتوم حيث قال له ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾(١) وقال له ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإين مت فهم الخالدون ﴾(٢) ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾(٣) (ولقد نام رسول الله ﷺ على فراش الموت وكان يمسح وجهه الشريف بماء بارد ويقول اللهم هون على سكرات الموت . سبحان الله أن للموت سكرات وقال له جبريل : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعلم بأن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس)(٤) . ولما علم المسلمون بموت رسول الله ﷺ غشيتهم غاشية حتى وقف عمر كالأسد الرأبال وقد ديس عرينه يوعد ويهدد : من قال إن محمدا قد مات ضربته بسيفى هذا . لقد ذهب إلى ربه وسيعود كما عاد موسى لولا أن قيض الله لهذا الموقف رجل الساعة الصديق رضى الله عنه وكان غائبا ساعة الوفاة فدخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى فكشف الغطاء عن الوجه الشريف وقبله وقال له: طبت حيا وميتا يا رسول الله . أما الموت الذى كتب عليك فقد ذقته ولن تذوق الموت بعد ذلك أبدا ، ثم خرج على الناس بهذا البيان الحاسم الجازم ايها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت ثم تلا قوله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين ﴾(٥) ونزلت هذه الآية على قلب عمر كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى نزلت بردا وسلاما حتى قال عمر لكأنى لم أسمعها إلا الآن يا أبا بكر وهكذا ودع رسول الله دنيانا هذه إلى الرفيق الأعلى حيث النعيم المقيم والخلود ، والروح والريحان قال الله تعالى ﴿ ثم إلينا ترجعون ﴾(٦) وقال ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾(٧) وقال ﴿ أن اشكر لى ولوالديك الى المصير ﴾(٨) وقال تعالى ﴿ إنا إلينا إيابهم ثم إنا علينا حسابهم ﴾(٩).

تزود من حياتك للمعاد ... وقم لله واجمع خير زاد
ولاتركن الى الدنيا كثيرا ... فإن المال يجمع للنفاد
اترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم بين الله تعالى مصير المؤمنين المتقين فقال سبحانه ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾(١٠).

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الزمر
(٢) الآية ٣٤ من سورة الانبياء
(٣) الآية ٣٥ من سورة الانبياء
(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الجنائز حديث ١٦٢٣
(٥) الآية ١٤٤ من سورة آل عمران
(٦) من الآية ٥٧ من سورة فاطر
(٧) من الآية رقم ١٥ من سورة لقمان
(٨) من الآية رقم ١٤ من سورة لقمان
(٩) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية
(١٠) الآية رقم ٥٨ من سورة العنكبوت

(روى ابن ابى حاتم بسنده عن أبى مالك الأشعرى حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام)[1].

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾[2] المخصوص بالمدح هنا الجنة .

لاتركنن إلى القصور الفاخرة　　　واذكر عظامك حين تمسى ناخرة

وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل　　　يارب إن العيش عيش الآخرة

وقد وصف الله هؤلاء المؤمنين الذين بوأهم من الجنة غرفا وانزلهم بها منازل السعداء وصفهم بالصبر والتوكل فالصبر مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد إلى القبائح أو هو حبس النفس على طاعة الله تعالى ، أو هو ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات .

قال صاحب البردة :

وخالف النفس والشيطان واعصهما　　　وان هما محضاك النصح فاتهم

ولاتطع منهما خصما ولا حكما　　　فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

فالنفس كالطفل ان تهمله شب على　　　حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

كم زينت لذة للمرء قاتلة　　　من حيث لم يدر ان السم فى الدسم

والتوكل على الله هو الأخذ بالأسباب وتفويض العواقب إلى مولانا سبحانه وتعالى مع الاعتقاد بأن الله مالك الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهيط ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى ليس معه أحد إذ رفع لى سواد عظيم فظننت أنهم أمتى فقيل لى : هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا فى الاسلام فلم يشركوا بالله - وذكروا أشياء - فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال « ما الذى تخوضون فيه ؟ » فأخبروه فقال : هم الذين لايرقون ، ولايسترقون ، ولايتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم فقال :

---

(١) الحديث أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا

(٢) الآيات ارقام ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة آل عمران

« أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله ان يجعلنى منهم فقال : سبقك بها عكاشة)[١] متفق عليه . « الرهيط » تصغير رهط وهم دون عشرة أنفس : والأفق : الجانب ، وعكاشة بضم العين وتشديد الكاف صحابى .

وروى البخارى عن ابن عباس أيضا قال : كان آخر قول ابراهيم ﷺ حين ألقى فى النار : حسبى الله ونعم الوكيل[٢] .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال ـ يعنى اذا خرج من بيته ، بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان)[٣] رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

وقد قرن الله تعالى التوكل بالرزق لما بينهما من كمال الاتصال .

عن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)[٤] رواه الترمذى . ومعناه . تذهب أول النهار خماصا،أى ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطانا : أى ممتلئة البطون .

وروى عنه ﷺ (ان روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب)[٥] .

قوله تعالى ﴿ وكأين من دابة لاتحمل رزقها ﴾[٦] أى لاتطيق جمعه وتحصيله ولاتدخر شيئا لغد ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ أى الله يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر فى قرار الأرض ، والطير فى الهواء ، والحيتان فى الماء قال تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[٧] وقال ابن ابى حاتم بسنده عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لى « يا ابن عمر مالك لاتأكل ؟ » قال قلت لاأشتهيه يا رسول الله قال لكنى اشتهيه وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ [٨] قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾[٩]

---

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد ١/ ٢٧١ والبخارى فى كتاب الطب باب ٤٢ ح ٧ ص ٢٥ ، ومسلم فى كتاب الايمان ح ١ ص ٧٩

(٢) الحديث اورده ابن كثير فى تفسير الآية ١٧٣ من سورة آل عمران

(٣) الحديث فى اتحاف السادة المتقين ٤/ ٣٢٦ ، القرطبى ١٠/ ٤٠٧ ، كنز العمال ٤١٥٣٦ والحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى كتاب الأدب باب ما يقول إذا خرج من بيته حديث ٥٠٩٥ ج ٥ ص ٣٢٨ ، والترمذى فى الدعوات حديث ٣٩٢٢ ، ونسبه المنذرى الى النسائى .

(٤) الحديث : أخرجه الترمذى حديث ٢٣٤٤ ، ابن ماجه فى كتاب الزهد حديث ٤٨٦٤ واحمد ١/ ٥٢

(٥) الحديث اخرجه الترمذى فى كتاب الصيد باب ٩

(٦) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

(٧) من الآية ٦ من سورة هود

(٨) الحديث فى تفسير القرطبى ١٣/ ٥ ٣٥٩ ، اتحاف ٩/ ٢٤٥ ، والدر المنثور ٥/ ١٤٥

(٩) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

فقال رسول الله ﷺ (إن الله عز وجل لم يأمرنى بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنى لا أكنز دينارا ولادرهما ولاأخبىء رزقا لغد) وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش فيظل الفرخ فاتحا فاه يتفقد أبويه فيقيض الله تعالى طيرا صغارا كالبرغش فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه والأبوان يتفقدانه كل وقت فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة ولهذا قال الشاعر :

يا رازق النعاب فى عشه ... وجابر العظم الكسير الخافض

وقال البيهقى بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (سافروا تصحوا وتغنموا) وفى رواية لأحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا)[1] وفى لفظ (سافروا مع ذوى الجد والميسرة) وقوله تعالى ﴿ وهو السميع العليم ﴾[2] اى السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم .

قالوا للحسن رضى الله عنه ما سر زهدك فى الدنيا يا تقى الدين قال : علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبى ، وعلمت ان عملى لن يقوم به سواى فاشتغلت به ، وعلمت ان الله مطلع على فاستحييت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعدت الزاد للقاء الله .

إن لله عبادا فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ، ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون ﴾[3] .

إن الذين أقروا بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر وبأنه المالك المتصرف والرزاق أقروا بذلك ولكنهم اشركوا فى عبادته ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال . فأنى تصرفون ﴾[4] .

فيا من آمنتم بالله ربا لم اشركتم به معبودا ﴿ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[5] ثم يقول تعالى مخبرا عن أنه الباسط القابض الرافع الخافض الذى بيده

---

(١) الحديث اخرجه البيهقى فى السنن الكبرى واحمد ٢ / ٣٨٠
(٢) من الآية ٦٠ من سورة العنكبوت
(٣) الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ من سورة العنكبوت
(٤) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس
(٥) من الآية ١١٠ من سورة الكهف

مقاليد الأمور والذى قدر الأرزاق على عباده فيقول سبحانه ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ﴾[١] فالبسط والقبض فى الرزق ليس عبثا إنما لحكمة علمها الله تعالى ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾[٢] وقضية الرزق قضية تتعلق بالعقيدة فلو ركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فم ابن آدم .

لاتعجلن فليس الرزق بالعجل	الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا	لكنه خلق الانسان من عجل

لذا أقسم المولى سبحانه وتعالى فقال ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾[٣] ﴿ فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[٤] .

كما ألقى باللائمة على الذين يظنون ان كثرة الأولاد تضيع الرزق وتضيقه فقال فى سورة الأنعام ﴿ ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾[٥] وقال فى سورة الإسراء ﴿ ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾[٦] .

للأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى	ولا الشئون التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى	أحاط بى علمه من قبل تصويرى

قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقـولن الله قل الحمد بل أكثرهم لايعقلون ﴾ [٧]

وهذه آية أخرى من آيات الله التى لايقوى عليها سواه ، فهو الذى أنزل من السحاب ماء بقدر معلوم فأحيا الأرض بالنبات بعد ما كانت هامدة فأنبتت به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها قال تعالى:﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[٨] .

وقال جل شأنه:﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾[٩] . وقال عظمت حكمته:﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ﴾[١٠]وقال جلت قدرته:﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب

(١) الآية ٦٢ من سورة العنكبوت
(٢) الآية ١٧ من سورة المؤمنون
(٣) الآية ٢٢ من سورة الذاريات
(٤) الآية ٢٣ من سورة الذاريات
(٥) من الآية ١٥١ من سورة الانعام
(٦) الآية ٣١ من سورة الاسراء
(٧) الآية ٦٣ من سورة العنكبوت
(٨) الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ من سورة الحج
(٩) الآية ٣٩ فصلت
(١٠) الآية ٤٨ من سورة الفرقان

ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾[١] وقال تبارك اسمه:﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾[٢] وقال جل جلاله:﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴾[٣] كل هؤلاء لو سألتهم عمن فعل هذا فسوف يقولون انه الله قل الحمد لله بل اكثرهم لايعقلون لانهم لو عقلوا وتدبروا ما أشركوا بعبادته وما اتخذوا من دونه أولياء .

قوله تعالى:﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون . فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا . فسوف يعلمون ﴾[٤] .

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لادوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ﴾[٥] أى الحياة الدائمة الحق الذى لازوال له ولا انقضاء بل هى مستمرة أبد الآباد وقوله تعالى ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾[٦] أى لآثروا ما يبقى على ما يفنى . قال تعالى ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾[٧] ثم يقول سبحانه:﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[٨] .

وقال تبارك اسمه:﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾[٩] ثم يقول سبحانه:﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولايرهق وجوههم قتر ولاذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾[١٠]وقال عز وجل:﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[١١]ثم يقول سبحانه:﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذالكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾[١٢].

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة النحل
(٢) الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ من سورة ق
(٣) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس
(٤) الآيات ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ من سورة العنكبوت
(٥) من الآية ٦٤ من سورة العنكبوت
(٦) من الآية ٦٤ من سورة العنكبوت
(٧) الآية ٢٠ من سورة الحديد
(٨) الآية ٢١ من سورة الحديد
(٩) الآية ٢٤ من سورة يونس
(١٠) الآية ٢٦ من سورة يونس
(١١) الآية ١٤ من سورة آل عمران
(١٢) الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة آل عمران

وقال عز وجل: ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾[1] وقال تبارك اسمه: ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾[2] .

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾[3] وقال وسعت رحمته: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾[4] .

وكان رسول الله ﷺ يقول لابن عمر: (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور) .

وعن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين ؟ فقالوا أجل يا رسول الله فقال ابشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر اخشى عليكم ولكنى اخشى ان تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)[5] متفق عليه .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال: (إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)[6] متفق عليه .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء)[7] رواه مسلم .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة)[8] متفق عليه .

---

(١) الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ من سورة الاسراء
(٢) الآية ٤٥ من سورة الكهف
(٣) الآية ٤٦ من سورة الكهف
(٤) الآية ٢٠ من سورة الشورى
(٥) الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الزهد حديث ٢٩٦١ ج ٤ ص ٢٢٧٣ ، ٢٢٧٤ والبخارى فى الجزية ج ٤ باب ١٢
(٦) الحديث فى احمد ٣/ ٢١ وأخرجه الامام مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة باب ٤١ ج ١ ص ٢٨٧ والبخارى فى باب الزكاة على الرقاب باب ٤ ج ٢ ص ٢١٦ .
(٧) الحديث أخرجه الامام احمد ٣/ ١٩ ، ٢٢ ، ٦١ وأخرجه البخارى فى باب فضائل الصحابة باب ٤٣ ج ٤ ص ٢٠٩
(٨) الحديث أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ٧/ ٤٨ ، ٩/ ٣٩ ، وفى حلية الأولياء ٢/ ٣٠١ والبخارى ١/ ١١٧

وعنه عن رسول الله ﷺ قال:(يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله)(١) متفق عليه .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ـ فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤسا فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط هل مر بك شدة قط ؟ فيقول لا والله ما مر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط)(٢) رواه مسلم .

وعن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع)(٣) رواه مسلم .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه فمر بجدى أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : (أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشىء وما نصنع به ؟ ثم قال : أتحبون انه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا كان عيبا إنه أسك فكيف وهو ميت . فقال (فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم)(٤) رواه مسلم قوله « كنفتيه » أى عن جانبيه ، « والأسك : الصغير الأذن » .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرة (أرض ذات حجارة سود) بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال « يا أبا ذر » قلت : لبيك يا رسول الله . فقال:« ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا تمضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينار إلا شىء أرصده لدين إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا) عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ثم سار فقال:(إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه (وقليل ما هم) ثم قال لى : « مكانك لاتبرح حتى آتيك » ثم انطلق فى سواد الليل حتى توارى فسمعت صوتا قد ارتفع فتخوفت ان يكون أحد عرض للنبى ﷺ فأردت أن آتيه فذكرت قوله : « لاتبرح حتى آتيك » فلم أبرح حتى أتانى فقلت : لقد سمعت صوتا تخوفت منه فذكرت له فقال : « وهل سمعته ؟ قلت نعم قال : « ذاك جبريل أتانى فقال : من مات من أمتك لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت وإن زنى وان سرق ؟ قال:وإن زنى وان سرق)(٥) متفق عليه .

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال:(لو كان لى مثل أحد ذهبا لسرنى ألا تمر على ثلاث ليال وعندى منه شىء إلا شىء أرصده لدين)(٦) متفق عليه .

---

(١) الحديث فى فتح البارى ١١/ ٣٦٢ ، والبخارى ٨/ ١٣٤ ، ومسلم فى الزهد المقدمة رقم ٥ والترمذى حديث ٢٣٧٩ واتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٠٠ ، ٨/ ١٤٦

(٢) الحديث اخرجه الامام احمد ٣/ ٢٠٣

(٣) الحديث اخرجه الامام احمد ٤/ ٢٢٩ ، والحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ج ٤ ص ١٩٣ ، حديث ٥٥/ ٢٨٥٨

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٧٢ حديث ٢/ ٢٩٥٧

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ج ٧ ص ١٦٦ وأخرجه الأمام مسلم فى كتاب الزكاة باب الصدقة ص ٦٨٧ حديث

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب ١٣ ج ٧ ص ١٦٦ وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب تغليظ عقوبة من لا يؤدى الزكاة ص ٦٨٧ حـ ٢

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ :(انظروا إلى من هو أسفل منكم ولاتنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم)(١) متفق عليه .

وعنه عن النبى ﷺ قال : (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطى رضى وان لم يعط لم يرض)(٢) البخارى .

وعنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء : إما إزار وإما كساء قد ربطوا فى اعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساق ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته) (٣) رواه البخارى .

وعنه قال رسول الله ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)(٤) رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى وقال : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) وكان ابن عمر يقول (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك)(٥) رواه البخارى .

وعن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس ، فقال (ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)(٦) حديث حسن رواه ابن ماجه .

وعن النعمان بن بشير قال : ذكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه « والدقل » بفتح الدال والقاف : ردىء التمر .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (توفى رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال على فكلته ففنى)(٧) متفق عليه . قولها شطر شعير قال الترمذى اى شىء من شعير .

وعن عمرو بن الحارث قال : (ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارا ولادرهما ولاعبدا ولاأمة ولاشيئا إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة)(٨) رواه البخارى .

وعن خباب بن الارت قال : (هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله تعالى فوقع أجرنا على

(١) الحديث أخرجه البخارى ح ٨ فى كتاب الرفاق ص ١٢٧ ، ١٢٨ ومسلم ص ٢٢٧٥ ج ٤ كتاب الزهد والرقائق حديث ٨/ ٢٩٦٣

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد والسير باب ٩ ج ٣ ص ٢٠٤

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ج ١ ص ١٢٠

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٧٢ حديث رقم ١/ ٢٩٥٧

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب ٢ ج ٧ ص ١٥٩

(٦) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب الزهد فى الدنيا حديث ٤١٠٢ ج ٢ ص ١٣٧٣ ، ١٣٧٤

(٧) الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الزهد باب ٢٧ ص ٢٢٨٢ ، ٢٢٨٣ حديث ٢٧/ ٢٩٧٣

(٨) الحديث اخرجه البخارى ج ٤ ص ٣ كتاب الوصايا

الله فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير رضى الله عنه قتل يوم أحد وترك تنميرة فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا بها رجليه بدا رأسه فامرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه ونجعل على رجليه شيئا من الاذخر (نبت طيب الرائحة) ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها)[1] متفق عليه .

وعن سهل قال : قال رسول الله ﷺ : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء)[2] رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالما ومتعلما)[3] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

معنى ملعونة : أى مبغوضة ساقطة . وما والاه : أى قاربه من الطاعة الموصلة لمرضاة الله تعالى ولايفهم من هذا الحديث سب الدنيا مطلقا ولعنها بل الملعون منها ما يبعد عن الله تعالى ويشغل عنه كما يوحى إليه آخر الحديث .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لاتتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا)[4] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

ومعنى ضيعة : العقار . لاتتوغلوا فى اتخاذ الضيعة فترغبوا عن صلاة الآخرة كما قال ﷺ : (فترغبوا فى الدنيا) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصاصنا فقال : « ما هذا ؟ » فقلنا : قد وهى فنحن نصلحه فقال : (ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك)[5] رواه أبو داود والترمذى بإسناد البخارى ومسلم وقال الترمذى حديث حسن وصحيح .

ومعنى : الخص (بضم الخاء المعجمة وتشديد الصاء المهملة) بيت من خشب وقصب سمى خصا لما فيه من الخصاص وهى الفرج والأثقاب . قد وهى (بفتحتين) أى ضعف وهم بالسقوط .

وعن كعب بن عياض رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال)[6] رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

ومعنى فتنة (بكسر الفاء) أى ما يمتحنون به .

وعن أبى عمرو ويقال أبو عبد الله ويقال أبو ليلى عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (ليس لابن آدم فى سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته . وجلف الخبز ، والماء)[7] رواه الترمذى وقال : حديث صحيح . قال الترمذى : سمعت أبا داود سليمان بن سالم

---

(١) الحديث ذكره ابن الأثير فى اسد الغابة فى ترجمة مصعب بن عمير ترجمة رقم ٤٩٢٩ ج ٥ ص ١٨١ ، ١٨٣

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى هوان الدنيا ج ٣ ص ٣٨٣ حديث ٤٢١٢

(٣) الحديث أخرجه الترمذى ج ٣ فى كتاب الزهد باب ما جاء فى هوان الدنيا ج ٣ حديث ٢٤٢٤ ص ٣٨٤

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب ما جاء فى هم الدنيا حديث ٢٤٣٨ ج ٣ ص ٣٨٦

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد ما جاء فى قصر الأمل ج ٣ حديث ٢٤٣٨

(٦) الحديث أخرجه الترمذى فى أبواب الزهد باب ما جاء فى أن فتنة هذه الأمة فى المال ج ٣ ص ٣٨٩ حديث ٢٤٣٩

(٧) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ج ٤ ص ٣ حديث ٢٤٤٤

البلخي يقول : سمعت النضر بن شميل يقول : الجلف : الخبز ليس معه إدام . وقال غيره : هو غليظ الخبز . وقال الهروى : المراد به هنا وعاء الخبز ، كالجوالق والخرج والله أعلم .

وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه أنه قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ : (ألهاكم التكاثر) قال : (يقول ابن آدم : مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟!)[1] رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : قال رجل للنبى ﷺ يا رسول الله والله إنى لأحبك فقال : « انظر ماذا تقول ؟ » قال : والله إنى لأحبك ، ثلاث مرات فقال : (إن كنت تحبنى فأعد للفقر تجفافا فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه)[2] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

« التجفاف » بكسر التاء المثناة فوق وإسكان الجيم وبالفاء المكررة وهو شيء يلبسه الفرس ليتقى به الأذى وقد يلبسه الانسان .

وعن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[3] رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه قلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء . فقال : مالى وللدنيا ؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[4] رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

معنى وطاء : « بكسر الواو وبالمد » هو الفراش الوطىء . وفى رواية ابن ماجة فقلت يا رسول الله لو كنت آذنتنا ففرشنا لك شيئا يقيك .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام)[5] رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن ابن عباس وعمران بن الحصين رضى الله عنهم عن النبى ﷺ قال : (إطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء)[6] متفق عليه من رواية ابن عباس ، ورواه البخارى أيضا من رواية عمران بن الحصين .

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين . وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار)[7] متفق عليه و« الجد » الحظ والغنى .

---

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الزهد ج ٣ ص ٢٢٧٣ حديث ٢٩٥٣
(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى فضل الفقر ج ٤ ص ٧ حديث ٢٤٥٤
(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى أخذ المال بحقه ج ٤ ص ١٦ حديث ٢٤٨٢
(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى أخذ المال بحقه ج ٤ ص ١٧ حديث ٢٤٨٣
(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى فضل الفقر ج ٤ ص ٨ حديث ٢٤٥٨
(٦) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ٧٩ ومسلم فى كتاب التركى ج ٢ ص ٣٢٠
(٧) الحديث البخارى فى كتاب النكاح باب ٨٧ ج ٧ ص ١٨٧ ومسلم فى كتاب الذكر ب ٢٦ ج ٢ ص ٣٢٠

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد . ألا كل شىء ما خلا الله باطل)[١] متفق عليه .

* بيان حال الكفار فى الشدة والرخاء *

قوله تعالى : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

معانى المفردات

(الفلك) السفينة فى البحر (مخلصين له الدين) صادقين فى نياتهم (حرما آمنا) حرما ذا أمن وطمأنينة (مثوى) مأوى ومستقر (يتخطف) الخطف الأخذ بسرعة والمراد يقتل بعضهم بعضا بسرعة ويسبى بعضهم بعضا (أظلم) الظلم وضع الشىء فى غير موضعه .

المناسبة واجمال المعنى :

لما ذكر فيما سلف أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق وأنه هو الرازق ، وهم بعد ذلك يتركون عبادته ، ويعبدون من دونه الشركاء اغترارا بزخرف الدنيا وزينتها ـ أردف ذلك أن هذه الدنيا باطل وعبث زائل . وإنما الحياة الحقة هى الحياة الآخرة التى لافناء بعدها ، فلو أوتوا شيئا من العلم ما آثروا تلك على هذه .

ثم أرشد إلى أنهم مع إشراكهم بربهم سواء فى الدعاء والعبادة ، إذا هم ابتلوا فى الشدائد ، كما إذا ركبوا البحر وعلتهم الأمواج من كل جانب ، وخافوا الغرق نادوا الله ، معترفين بوحدانيته ، وأنه لا منجى سواه ، وليتهم استمروا على ذلك ، ولكن سرعان ما يرجعون القهقرى ، ويعودون سيرتهم الأولى ، كما هو دأب من يعمل للخوف لا للعقيدة .

وبعد أن ذكر أن المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا فى الفلك ونحوه لجأوا إلى الله وحده مخلصين له العبادة ـ ذكر هنا أنهم حين الأمن كما إذا كانوا فى حصنهم الحصين وهو مكة التى يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به ويعبدون معه سواه ، وتلك حال من التناقض لا يرضاها لنفسه

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب ٩٠ ج ٧ ص ١٠٠ ومسلم فى كتاب الشعر ص ١٧٦٨ ج ٤

عاقل ، فإن دعاءهم إياه حال الخوف مع الاخلاص ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة النجاة منه لا من سواه ، فكيف يكفرون به حين الأمن ، وهم يوقنون بأن الأصنام حين الخوف لاتجديهم فتيلا ولاقطميرا ؟

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[(١)] وقوله جل شأنه : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾[(٢)] . وقوله جل شأنه: ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾[(٣)] ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾[(٤)] وقوله جل شأنه : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾[(٥)] .

وقال ههنا : ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[(٦)] وقد ذكر محمد بن اسحاق عن عكرمة ابن أبى جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارا منها فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء فإنه لاينجى ههنا الا هو ، فقال عكرمة والله لئن كان لاينجى فى البحر غيره فإنه لاينجى فى البر أيضا غيره ، اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رءوفا رحيما فكان كذلك وقوله تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لايقصدون ذلك ولاشك أنها كذلك بالنسبة إليهم وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل ، قوله تعالى: ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أسلوب وعيد وتهديد كما فى قوله تعالى : ﴿ فذرهم فى غمرتهم حتى حين أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[(٧)] وقوله جل شأنه: ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾[(٨)] وقوله تعالى : ﴿ فذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم

---

(١) الأيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس
(٢) الآية ٦٣ من سورة الانعام
(٣) الآية ٣١ من سورة لقمان
(٤) الآية ٣٢ من سورة لقمان
(٥) الآية ٦٧ من سورة الاسراء
(٦) من الآية ٦٥ من سورة العنكبوت
(٧) الآيات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون
(٨) الأيتان ٢ ، ٣ من سورة الحجر

قليلا ﴾[١] . وقوله تبارك اسمه: ﴿ لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾[٢] .

لاتظلمن إذا ما كنت مقتدرا   فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقال آخر :

يا نائم الليل مسرورا بأوله   إن الحوادث قد يأتين أسحارا

وقال غيره :

هى الدنيا تقول بملء فيها   حذار حذار من بطشى وفتكى
فلا يغرركم منى ابتسام   فقولى مضحك والفعل مبكى

وقال آخر :

لكل شىء إذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان

وقال غيره :

هى الأيام لاتبقى عزيزا   وساعات السرور بها قليلة
إذا نشر الضياء عليك نجم   وأشرق فارتقب يوما أفولا

وقال غيره :

وكم من جبال كم علت شرفاتها   رجال فزالوا والجبال جبال

قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ﴾ أى أو لم يعلم هؤلاء ويبصروا أن الله تعالى قد أنعم عليهم بنعمة الحرم الآمن كما قال تعالى : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[٣] ردا على الذين قالوا : ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾[٤] وكما قال تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾[٥] وقال : ﴿ وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾[٦] والناس من الأعراب يتخطفون من حول الحرم بطريق السلب والنهب . قال

(١) الآية ١١ من سورة المزمل
(٢) الآية ١٩٦ من سورة آل عمران
(٣) من الآية ٥٧ من سورة القصص
(٤) من الآية ٥٧ من سورة القصص
(٥) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران
(٦) من الآية ٢٦ من سورة الحج

تعالى : ﴿ ويتخطف الناس من حولهم ﴾ كان الواجب على هؤلاء أن يقابلوا النعمة الجليلة بالشكر كما قال تعالى : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾(١) لكنهم بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾(٣) والباطل شرك وتكذيب والنعمة إيمان وتصديق لذا قال جل شأنه : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾(٤) أى لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شىء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه فالأول مفتر والثانى مكذب ولهذا قال تعالى : ﴿ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ يعنى الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ أى لنبصرنهم سبلنا أى طرقنا فى الدنيا والآخرة .

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى أخبرنا عباس الهمدانى أبو أحمد من أهل عكا فى قول الله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ قال الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لايعلمون . قال أحمد بن أبى الحوارى فحدثت به أبا سليمان يعنى الدارانى فأعجبه وقال ليس ينبغى من ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما فى قلبه . وقوله : ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى بن جعفر قاضى الرى حدثنا أبو جعفر الرازى عن المغيرة عن الشعبى قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام : إنما الاحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ليس الاحسان أن تحسن الى من أحسن إليك . والله أعلم . فلكى تنال الهداية إلى سبل الخير لابد أن تجاهد نفسك ومجاهدة النفس من أعظم أنواع الجهاد ولكى تنال المعية الكريمة لابد أن تكون محسنا ولكى تنال الهداية والمعية لابد مع المجاهدة المحاسبة .

يقول الامام ابن الجوزى رحمه الله تعالى : اعلم بأن النفس مجبولة على حب الهوى فافتقرت لذلك إلى المجاهدة والمخالفة ومتى لم تزجر عن الهوى هجم عليها الفكر فى طلب ما شغفت به فاستأنست بالآراء الفاسدة ، والأطماع الكاذبة ، والأمانى العجيبة ، خصوصا إن ساعد الشباب الذى هو شعبة من الجنون وامتد ساعد القدرة إلى نيل المطلوب .

عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ،

(١) سورة قريش الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٢) الآيتان ١١٢، ١١٣ من سورة النحل

(٣) من الآية ٦٧ سورة العنكبوت

(٤) الآية ٦٨ سورة العنكبوت

والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)[١] أخرجه الترمذى وقال حسن ، وابن ماجة .

وقال أبو بكر القرشي : (من أتبع نفسه هواه) . وقال ابن الأنبارى : (الكيس من أدان نفسه) و« الفاجر » بدل « العاجز » . قال : وقال لنا أحمد بن يحيى النحوى : الكيس عند العرب العاقل والكيس العقل .

وأنشدنا :

فكن أكيس الكيسى إذا ما لقيتهم وكن جاهلا إذا ما لقيت ذوى الجهل

قال : وقوله : « من أدان نفسه » معناه : أخذ لنفسه من نفسه ، من صحته لسقمه ، ومن غناه لفقره .

ومن روى : « من دان نفسه » معناه : من استعبد نفسه وأذلها لطاعة الله . قال الأعشى :

هو دان الذئاب إذ كرهوا الدين دراكا بعزة وصيال . معناه : هو استعبد الذئاب .

عن ابن البجير ، وكان من أصحاب النبى ﷺ ، قال أصاب النبى يوما جوع شديد ، فوضع حجرا على بطنه ، ثم قال : « ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم ، ألا يارب متخوض متنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له عند الله من خلاق ، ألا وإن عمل الجنة حزنة بربوة ، ألا وإن عمل النار سهل بسهوة ، ألا يارب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا » . (والحزن ضد السهل . والربوة المكان المرتفع من الأرض) والمراد من الحديث أن عمل الجنة صعب ، وعمل النار سهل ، لأن ذلك يخالف الطباع ، وهذا يوافقها .

عن جابر ، قال : قدم النبى ﷺ من غزاة له فقال لهم رسول الله ﷺ : « قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قالوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : « مجاهدة العبد هواه »[٢] .

اعلم أنه إنما كان جهاد النفس أكبر من جهاد الأعداء ، لأن النفس محبوبة وما تدعو إليه محبوب . لأنها لاتدعو إلا إلى ما تشتهى ، وموافقة المحبوب فى المكروه محبوبة ، فكيف إذا دعا إلى محبوب ! فإذا عكست الحال وخولف المحبوب فيما يدعو إليه من المحبوب ، اشتد الجهاد وصعب الأمر ، بخلاف جهاد الكفار ، فإن الطباع تحمل على خصومة الأعداء .

وقال ابن المبارك فى قوله تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ قال : هو جهاد النفس والهوى .

وعن ثابت بن الحجاج ، قال : قال عمر بن الخطاب : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم يوم القيامة . وتزينوا للعرض الأكبر ، يؤمئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب ذكر الموت حديث ٤٢٦٠ ج ٢

(٢) الحديث أورده صاحب كنز العمال حديث ١١٢٦٠ ، ١١٧٧٩ ، والخطيب ج ١٣ ص ٤٩٣

وعن أنس بن مالك قال : سمعت عمر بن الخطاب يوما ، وخرجت معه حتى دخل حائطا ، فسمعته يقول وبيني وبينه جدار : (عمر بن الخطاب ! بخ بخ والله بنى الخطاب ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك) .

وعن الحسن قال : أيسر الناس حسابا يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم لله عز وجل فى الدنيا ، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الذى هموا به لله عز وجل مضوا فيه ، وإن كان عليهم أمسكوا . قال : وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور فى الدنيا اتخذوا على غير محاسبة فوجدوا الله عز وجل قد أحصى عليهم مثاقيل الذر . ثم قرأ : ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾[1] .

وعن الحسن قال : إن المؤمن قوام على نفسه ، يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات هيهات ، حيل بينى وبينك . ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، مالى وهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم . إن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته ، لايأمن شيئا حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه وبصره ولسانه وجوارحه .

وعن الحسن قال : فى وصية لقمان لابنه : يا بنى إن الايمان قائد والعمل سائق ، والنفس حرون ، فإن فتر سائقها ضلت عن الطريق ، وإن فتر قائدها حرنت ، فإذا اجتمعا استقامت . إن النفس إذا أطمعت طمعت ، وإذا فوضت إليها أساءت ، وإذا حملتها على أمر الله صلحت . وإذا تركت الأمر إليها فسدت . فاحذر نفسك واتهمها على دينك ، وأنزلها منزلة من لا حاجة له فيها ولابد له منها . وإن الحكيم يذل نفسه بالمكاره ، حتى تعترف بالحق ، وإن الأحمق يخير نفسه فى الأخلاق ، فما أحبت منها أحب وما كرهت منها كره .

وعن حجاج بن الأسود قال : سمعت قتادة يقول : يا ابن آدم إن كنت تريد ألا يأتى الخير إلا عن نشاط ، فإن نفسك إلى السآمة والفتور والملل اقرب ، ولكن المؤمن هو العجاج ، والمؤمن هو المتوفى والمؤمن هو المتشدد ، وإن المؤمنين هم العجاجون إلى الله عز وجل بالليل والنهار ، والله مازال المؤمنون يقولون ربنا ربنا فى السر والعلانية حتى استجاب لهم .

وعن أبى عبيدة الناجى ، أنه سمع الحسن يقول حادثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدثور ، وأقرعوا هذه الأنفس فإنها طلعة ، وإنها تنازع إلى شر غاية ، وأنكم إن تقاربوها لم تبق لكم من أعمالكم شيئا ، فتصبروا وتشددوا ، فإنما هى ليال تعد ، وإنما أنتم ركب وقوف ، يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم .

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف

إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم ، وإنما صبر على هذا الحق من عرف فضله ورجا عاقبته .

وعن مجاهد ، فى قوله : ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾[1] قال : تندم على ما فات وتلوم نفسها .

وعن ميمون بن مهران قال : لايكون الرجل تقيا حتى يحاسب نفسه محاسبته لشريكه .

وعنه أيضا أنه قال : لايكون الرجل تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه .

عن سلمة بن منصور ، عن مولى لهم كان يصحب الأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء ، وكان يجىء الى المصباح فيضع إصبعه ثم يقول : حس . ثم يقول : يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ! .

وعن مالك بن دينار قال : إن قوما من بنى إسرائيل كانوا فى مسجد لهم فجاء شاب حتى قام على باب المسجد ، فقال ليس مثلى من يدخل معكم ، أنا صاحب كذا أنا صاحب كذا ، يزرى على نفسه ، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن فلانا صديق .

وعن حبيش قال : قال وهب بن الورد : بينما امرأة فى الطواف ذات يوم وهى تقول : يارب ذهبت اللذات وبقيت التبعات ، يارب سبحانك إنك لأرحم الراحمين ، يارب ما لك عقوبة إلا النار .

فقالت صاحبة لها : يا أخية دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقالت : والله ما أرى هاتين القدمين ، وأشارت إلى قدميها ، أهلا للطواف حول بيت ربى عز وجل ، فكيف أراهما أهلا أطوّبها بيت ربى ، وقد علمت حيث مشتا وأين مشتا ! .

وعن عبد الجبار بن النضر قال : مر حسان بن أبى سنان بغرفة ، فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لايعنيك لأعاقبنك بصوم سنة فصامها .

وعن منكدر بن محمد عن أبيه ، أن تميما الدارى نام ليلة لم يقم يتهجد فيها ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع .

قال معاوية بن هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ما بلغ ؟ فذكر كلاما طويلا إلى أن قال : كان أشد الناس على نفسه سلطانا .

وعن محمد بن سعيد الدارمى ، عن أبيه ، قال : قيل لرجل : صف لنا الأحنف بن قيس . فقال : ما رأيت أحدا أعظم سلطانا على نفسه منه .

وعن شّيب بن شيبة قال : قال سليمان بن عبد الملك بن هشام لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ؟ قال : إن شئت أخبرتك عنه ألفا ، وإن شئت حذفت فيه القول حذفا . قال : بل احذفه حذفا . قال : ان شئت ثلاثا ، وإن شئت إثنين وإن شئت واحدة . قال : هات الثلاث . قال : كان لايشره ، ولايحيد ولايمنع أحدا من حق ، قال : فهات الاثنتين . قال : كان موفقا للخير

---

(١) الآية ٢ من سورة القيامة

عن أبي ربيعة قال : قال عمر بن عبد العزيز : أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس .

وعن عمر بن واصل قال : سمعت سهلا يقول : من صحب نفسه هلك ، ومن صحبته نفسه لم يسلم .

وعن محمد بن أحمد بن سعيد قال : سمعت أبا بكر الوراق يقول : استعن على سيرك إلى الله بترك من شغلك عن الله عز وجل ، وليس بشاغل يشغلك عن الله عز وجل كنفسك التي هي بين جنبيك .

وعن أبي على الروذبارى قال : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد مجتهد فى ردها ، فمتى أعنها فهو شريكها فى فسادها .

وعن سمنون قال : أول وصال العبد للحق هجرانه لنفسه ، وأول هجران العبد للحق مواصلته لنفسه .

وعن أبي بكر الكنانى قال : قال لى على بن سعيد : رأيت فى النوم امرأة لاتشبه نساء الدنيا ، فقلت من أنت ؟ قالت : حوراء .

قلت : زوجيني نفسك . فقالت : اخطبنى إلى سيدى . قلت : فما مهرك ؟ قالت : حبس نفسك عن مألوفاتها .

وعن إبراهيم بن الأشعث أنه سمع الفضل بن عياض يقول فى قوله تعالى : ﴿ ولاتقتلوا أنفسكم ﴾[1] قال : لاتغفلوا عن أنفسكم ، فإن من غفل عن نفسه فقد قتلها .

وعن أحمد بن على البوارنجى قال : سمعت أبا عمران الحديثى يقول : ما مددت يدى مذ عقلت عن الله عز وجل ، ولنفسى فيه نصيب ، ولولا أن الله عز وجل أودعنا هذه النفوس بحفظها له لجعلنا على ذروة كل جبل منها قطعة .

وعن على بن عبدالحميد الغضائرى ، قال : سمعت السرى يقول : أقوى الفتوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس .

وعن أحمد بن سليمان قال : وجدت فى كتابى عن حاتم الأصم قال : الموت الأحمر مخالفة النفس .

وعن أحمد بن أبي الحوارى قال : من لم يعرف نفسه فهو من دينه فى غرور .

وعن منصور بن عبد الله قال : سمعت محمد بن حامد يقول : قال رجل لأحمد بن خضروية أوصنى . فقال : أمت نفسك تحيها .

وعن الحسن بن علوية يقول : قال يحيى بن معاذ : لاتربح على نفسك بشيء أجل من أن تشغلها فى كل وقت بما هو أولى بها

---

(١)من الآية ٢٩ من سورة النساء

معصوما عن الشر . قال فهات الواحدة : قال : لم أر أحدا قط كان أقوى سلطانا على نفسه منه .

وعن عبد الله بن محمد ، قال : حدثنى ابن أبى شميلة ، قال : دخل رجل على عبد الملك بن مروان ممن كان يوصف بالعقل والأدب . فقال له عبد الملك تكلم . قال : بم أتكلم . وقد علمت أن كل كلام يتكلم به المتكلم وبال عليه . إلا ما كان لله ! فبكى عبد الملك ثم قال : يرحمك الله ، لم يزل الناس يتواعظون ويتواصلون . قال : يا أمير المؤمنين إن للناس فى القيامة جولة لاينجو من غصص مرارتها إلا من أرضى الله بسخط نفسه .

قال عبد الله الأهتم لابنه : « يا بنى توق نفسك ، فإن فى خلافها رشدك » .

وعن وهب بن منبه أن رجلا تعبد زمانا ، ثم بدت له إلى الله عز وجل حاجة ، فصام سبعين سبتا يأكل فى كل سبت إحدى عشرة تمرة ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه فقال : منك أتيت ، لو كان فيك خير أعطيت حاجتك ، فنزل إليه عند ذلك ملك فقال : يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك .

قال محمد بن المنكدر : إنى خلفت زياد بن أبى زياد مولى ابن عياش وهو يخاصم نفسه فى المسجد ، يقول : اجلسى ، أين تريدين ؟ أين تذهبين ؟ أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد ؟ انظرى إلى ما فيه ، تريدين أن تبصرى دار فلان ودار فلان ؟!

قال : وكان يقول لنفسه : مالك من الطعام إلا هذا الخبز وهذا الزيت ومالك من الثياب إلا هذين الثوبين ، ومالك من النساء إلا هذه العجوز ، أفتحبين أن تموتى ؟ فقالت : أنا أصبر على هذا العيش .

قال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع فى شهوتك ؟ قال : ما فى الأرض نفس أبغض إلى منها ، فكيف أعطيها شهوتها .

وعن عبد الله بن المبارك أنه قال : إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوا ، وإن أنفسنا لاتكاد تواتينا إلا على كره ، فينبغى لنا أن نكرهها .

وعن جميلة بن الحارث أنه كان يقول : اعكسوا هذه الأنفس عكس الخيل باللجم ، فوالذى نفسى بيده إنى لألبس ما يساوى ثلاثة دراهم فأظل أنظر فى عطفى ! .

وعن محمد بن بلال بن أبى الدرداء أن أمة عثامة كف بصرها ، فدخل عليها ابنها يوما وقد صلى ، قالت أصليتم بنى ؟ فقال نعم فقالت :

عثام مالك لاهية	حلت بدارك لاهية
ابكى الصلاة لوقتها	إن كنت يوما باكية
وابكى القرآن إذا تلى	قد كنت يوما تالية
تتلينه بتفكر	ودموع عينك جارية
فاليوم لاتتلينه	إلا وعندك تالية
لهفى عليك صبابة	ما عشت طول حياتيه

وعن أحمد بن حمدون قال : سمعت أبي يقول : من استطاع منكم ألا يعمى عن نقصان نفسه فليفعل .

وعن الحسن بن علوية قال : قال محمد بن الفضل : أنزل نفسك منزلة من لا حاجة له فيها ولابد له منها ، فإن من ملك نفسه عز ، ومن ملكته نفسه ذل .

وعن أبي صالح قال : قال أبو سعيد الخراز : مثل النفس مثل ماء واقف طاهر صاف ، فإن حركته ظهر ما تحته من الحمأة . وكذا النفس تظهر عند المحن والفاقة والمخالفة ، ومن لم يعرف ما فى نفسه فكيف يعرف ربه .

وعن أبي محمد الجريرى قال : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حكم الشهوات ، محصورا فى سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد فلا يستلذ كلامه ولايستحليه ، وإن كثر ترداده على لسانه .

وقال محمد بن أحمد بن سالم البصرى : من صبر على مخالفة نفسه أوصله الله إلى مقام أنسه .

وعن أبي بكر بن الضرير المقرى يقول : دافعت الشهوات حتى صارت شهوتى المدافعة .

وعن الجريرى قال : سمعت الجنيد يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وعن الحسن بن أحمد الصوفى قال : قال فراس العابد : قلت لراهب أوصنى فقال : عليك بما تكره نفسك فألزمه قلبك ، فإنه يقدم بك على ما تحب ، وإياك وما تحبه ، فإنه يقفك على ما تكره .

* ذكر أشعار قيلت فى ذلك :

عن الحسين بن عبد الرحمن قال : حج سعيد بن وهب ماشيا ، فبلغ منه وجهد ، فقال :

قدمى اعتورا رمل الكثيب ... واطرقا الآجن من ماء القليب

رب يوم رحتما فيه على ... زهرة الدنيا وفى واد خصيب

وسماع حسن من حسن ... صخب المزهر كالظبى الربيب

فاحسبا ذاك بهذا واصبرا ... وخذا من كل فن بنصيب

إنما أمشى لأنى مذنب ... فلعل الله يعفو عن ذنوبى

وعن أحمد بن على بن ثابت ، قال : أنشدنى أبو عبد الله محمد بن أحمد الشيرازى الواعظ :

إذا ما أطلعت النفس فى كل لذة ... نسبت إلى غير الحجا والتكرم

إذا ما أجبت النفس فى كل دعوة ... دعتك إلى الأمر القبيح المحرم

وقال عبد الله بن المعتز :

وكم دهى المرء من نفسه ... فلا تؤكلن بأنيابها

وإن أمكنت فرصة فى العدو ... فلا يبد فعلك إلا بها

وإيــاك من نـدم بعـدهــا   وتــأميـل أخــرى وأنى بهــا

أنشدنى أبو زيد بن الحسن الطبرى :

إذا طالبتك النفس يوما بحاجة   فكـان عليهـا للقبيـح طـريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما   هواك عدو والخلاف صديق

واعلم ان المغلوب بموافقة الهوى والنفس مقهور ، ولذلك تجد فى نفسه ذلك لمكان القهر ، وغالب الهوى ذو صولة ، ولذلك وقع عظيم فى الشرع وعند الخلق .

أما فى الشرع فإن قهر الهوى يوجب المباهاة .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : (عجب ربنا من شاب ليس له صبوة)[1] .

وعن يزيد بن ميسرة قال : ان الله عز وجل يقول : (أيها الشاب التارك شهوته من أجلى ، أنت عندى كبعض ملائكتى) .

وعن يزيد بن ميسرة قال : إن الله تبارك وتعالى يقول : (أيها الشاب التارك شهوته لى ، المتبذل شبابه من أجلى ، أنت عندى كبعض ملائكتى) .

وعن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول : قال الله تعالى : (من كان لى مطيعا كنت له وليا ، فليثق بى وليحكم على ، فو عزتى لو سألنى زوال الدنيا لأزلتها له) .

وأما عند الخلق فإنهم يعجبون من الزاهد ، ويذلون له ، ويتبركون به ، لأنه قوى على حمل ما ضعفوا عنه ، وهجر ما يستطيعون هجره .

وقد كان أهل الحزم يعودون أنفسهم مخالفة هواها وإن كان مباحا ، ليقع التمرين للنفس على ترك الهوى مطلقا ، وليطلب الأرباح فى المعاملة بترك المباح .

عن عبد الله بن أبى عثمان ، قال : كان عبد الله بن عمر أعتق جاريته التى يقال لها رميثة ، وقال : إنى سمعت الله قال فى كتابه : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾[2] ، وإنى والله إن كنت لأحبك فى الدنيا اذهبى فأنت لوجه الله .

عن إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدى ، قال : كانت لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجة عمر بن العزيز جارية ذات جمال فائق ، وكان عمر معجبا بها قبل أن تفضى إليه الخلافة . فطلبها منها وحرص ، فأبت دفعها إليه وغارت من ذلك ، فلم تزل فى نفس عمر فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية ، فأصلحت ثم جليت فكانت حديثا فى حسنها وجمالها ، ثم دخلت فاطمة بالجارية على عمر ، فقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت بفلانة جاريتى معجبا وسألتنيها ، فأبيت ذلك عليك ، وإن نفسى قد طابت لك بها اليوم فدونكها ، فلما قالت ذلك استبانت الفرح فى وجهه ، ثم قال : ابعثى بها إلى ،

---

(١) الحديث فى كشف الخفاء ج ٢ ص ٥ ، ٧١

(٢) من الآية ٩٢ من سورة آل عمران

ففعلت فلما دخلت عليه نظر إلى شيء أعجبه فازداد بها عجبا ، فقال لها : ألق ثوبك ، فلما همت أن تفعل ، قال : على رسلك ، اقعدى ، أخبريني لمن كنت ومن أين أنت لفاطمة ؟ قالت : كان الحجاج ابن يوسف أغرم عاملا كان له من أهل الكوفة مالا ، وكنت فى رقيق ذلك العامل ، فاستصفانى عنه مع رقيق له وأموال ، فبعث بى إلى عبد الملك بن مروان ، وأنا يومئذ صبية ، فوهبنى عبد الملك لابنته فاطمة . قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك ، قال : وما ترك ولدا ؟ قالت : بلى . قال : وما حالهم ؟ قالت : سيئة . قال : شدى عليك ثوبك .

ثم كتب إلى عبد الحميد عامله أن سرح لى فلان بن فلان على البريد ، فلما قدم قال له : ارفع إلى جميع ما أغرم الحجاج أباك ، فلم يرفع إليه شيئا إلا دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه ، فلما أخذ بيدها قال : إياك وإياها فإنك حديث السن ، ولعل أباك أن يكون قد وطئها ، فقال الغلام : يا أمير المؤمنين هى لك .

قال : لا حاجة لى فيها . قال : فابتعها منى ، قال : لست إذن ممن ينهى النفس عن الهوى ، فمضى الفتى بها ، فقالت الجارية : فأين موجدتك بى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إنها لعلى حالها ولقد ازدادت فلم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات .

وعن عبد الرحمن بن مهدى قال : رأيت سفيان الثورى فى المنام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وضعت فى اللحد حتى وقفت بين يدى الله تعالى ، فحاسبنى حسابا يسيرا ، ثم أمر بى إلى الجنة ، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها ، ولاأسمع حسا ولا حركة ، إذ سمعت قائلا يقول : سفيان بن سعيد ؟ فقلت : سفيان بن سعيد ، قال : تحفظ أنك آثرت الله على هواك يوما ؟ قال : قلت : إى والله ، فأخذتنى صوانى النثار من جميع الجنة .

وعن محمد بن سهل بن عسكر قال : سمعت عبد الرازق يقول : بعث أبو جعفر الخشابين حين خرج إلى مكة ، فقال : إن رأيتم سفيان الثورى فاصلبوه ، قال : فجاء النجارون ونصبوا الخشب ، ونودى سفيان ، وإذا رأسه فى حجر الفضل ، ورجلاه فى حجر ابن عيينه . قال : فقالوا له : يا أبا عبد الله اتق الله ولاتشمت بنا الأعداء . قال فتقدم إلى الأستار ثم أخذها ، ثم قال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر . قال : فمات قبل أن يدخل مكة . فأخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئا . فتلمح يا أخى أثر خلاف الهوى ، كيف بان فى مقام لو أقسم ! وميز ما بين إدلال المطيع وذل العاصى .

(لو أقسم) يشير إلى قول الرسول : رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره .

وقد سمعت أن عمر لما جاءه منكر ونكير جذب بذؤابة هذا وذؤابة هذا وقال : من ربكما ؟! ولولا انقباض يده عن الهوى ما انبسطت إلى منكر ونكير .

وقد قال بعض الحكماء : ظاهر التقوى شرف الدنيا وباطنها شرف الآخرة ، واعلم أنك إذا عكست هذه الحال فى حق موافق الهوى والنفس ، رأيت الذل ملازما والجاه منكسرا ، وكذلك الأمر عند المخلوقين فى الأمرين جميعا ، فإنه من عرف عندهم بقهر الهوى عظم ، ومن نبذ بأنه مقهور الهوى أهين ، فالعجب من سكرة ذى الهوى ، كيف غلبت عليه فلما أفاق لم ير غير اللوائم .

* سورة الروم *

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا . عدد آياتها خمس وستون عند المكيين ، وستون عند الباقين وكلماتها ثمانمائة وسبع ، وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاثون ، والآيات المختلف فيها أربع : ألم (غلبت الروم) (فى بضع سنين) (يقسم المجرمون) فواصل آياتها نمر ، على الراء آيتان (قدير فى موضعين) وسميت سورة الروم لما فيها من ذكر غلبة الروم .

معظم مقصود السورة : غلبة الروم على فارس ، وعيب الكفار فى إقبالهم على الدنيا ، وأخبار القرون الماضية ، وذكر قيامة الساعة وآيات التوحيد ، والحجج المترادفة الدالة على الذات والصفات ، وبيان بعث القيامة ، وتمثيل حال المؤمنين والكافرين وتقرير المؤمنين على الإيمان ، والأمر بالمعروف ، والإحسان إلى ذوى القربى ، ووعد الثواب على أداء الزكاة ، والاخبار عن ظهور الفساد فى البر والبحر ، وعن آثار القيامة ، وذكر عجائب الصنع فى السحاب والأمطار ، وظهور آثار الرحمة فى الربيع وإصرار الكفار على الكفر ، وتخليق الله الخلق مع الضعف والعجز ، وإحياء الخلق بعد الموت ، والحشر والنشر ، وتسلية رسول الله ﷺ ، وتسكينه عن جفاء المشركين وأذاهم فى قوله : ﴿ **ولايستخفنك الذين لايوقنون** ﴾[(١)] .

قوله : ﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض** ﴾[(٢)] ، وفى فاطر وأول المؤمن بالواو ، وفى غيرهن بالفاء ، لأن ما قبلها فى هذه السورة ﴿ **أو لم يتفكروا** ﴾[(٣)] وكذلك ما بعدها (وأثاروا) بالواو ، فوافق ما قبلها ، وما بعدها وفى فاطر أيضا وافق ما قبله وما بعده ، فإن قبله ﴿ **ولن تجد لسنت الله تحويلا** ﴾[(٤)] ، وبعدها ﴿ **وما كان الله** ﴾[(٥)] وكذلك أول المؤمن قبله ﴿ **والذين يدعون من دونه** ﴾[(٦)] وأما آخر المؤمن فوافق ما قبله وما بعده ، وكان بالفاء ، وهو قوله : ﴿ **فأى آيات الله تنكرون** ﴾[(٧)] ، وبعده ﴿ **فما أغنى عنهم** ﴾[(٨)] .

قوله : ﴿ **كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة** ﴾[(٩)] (من قبلهم) متصل بكون آخر مضمر وقوله : ﴿ **كانوا أشد منهم قوة** ﴾[(١٠)]: إخبار عما كانوا عليه قبل الاهلاك ، وخصت هذه السورة بهذا النسق لما يتصل به من الآيات بعده . وكل إخبار عما كانوا عليه وهو (وأثاروا الأرض وعمروها) وفى فاطر : ﴿ **كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا** ﴾[(١١)]بزيادة الواو ، لأن التقدير : فينظروا كيف أهلكوا وكانوا أشد منهم قوة . وخصت هذه السورة به لقوله : ﴿ **وما كان الله ليعجزه من شيء** ﴾ الآية . وفى المؤمن ﴿ **كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة** ﴾ فأظهر (كان) العامل فى (من قلبهم) وزاد (هم) لأن فى هذه السورة وقعت فى أوائل قصة نوح ، وهى تتم

---

(١) من الآية ٦٠ من سورة الروم
(٢) من الآية ٩ من سورة الروم
(٣) من الآية ٨ من سورة الروم
(٤) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(٥) من الآية ٤٤ من سورة فاطر
(٦) من الآية ١٤ من سورة الرعد
(٧) من الآية ٨١ من سورة غافر
(٨) من الآية ٨٢ من سورة غافر
(٩) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(١٠) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(١١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر

فى ثلاثين آية ، فكان اللائق به البسط ، وفى آخر المؤمن ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم ﴾(١) فلم يبسط القول ، لأن أول السورة يدل عليه .

قوله : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾(٢)، وختم الآية بقوله (يتفكرون) لأن الفكر يؤدى إلى الوقوف على المعانى التى خلقت لها من التوانس والتجانس ، وسكون كل واحد منهما إلى الآخر .

قوله : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾(٣) وختم بقوله : (للعالمين) لأن الكل تظلهم السماء ، وتقلهم الأرض ، فكل واحد منفرد بلطيفة فى صورته يمتاز بها عن غيره ، حتى لاترى اثنين فى ألف يتشابه صورتاهما ويلتبس كلاهما ، وكذلك ينفرد كل واحد بدقيقة فى صورته ، يتميز بها من بين الأنام ، فلا ترى اثنين يشتبهان ، وهذا يشترك فى معرفته الناس جميعا . فلهذا قال : (لآيات للعالمين) ومن حمل اختلاف الألسن على اللغات ، واختلاف الألوان على السواد والبياض ، والشقرة والسمرة . فالاشتراك فى معرفتها أيضا ظاهر . ومن قرأ (للعالمين) بالكسر فقد أحسن ، لأن بالعلم يمكن الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره .

قوله : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار ﴾ وختم بقوله ﴿ يسمعون ﴾ فإن من سمع أن النوم من صنع الله الحكيم لايقدر أحد على اجتلابه إذا امتنع ، ولا على دفعه إذا ورد ، تيقن أن له صانعا مدبرا ، قال الامام : معنى (يسمعون) ههنا : يستجيبون إلى ما يدعوهم إليه الكتاب . وختم الآية الرابعة بقوله : (يعقلون) لأن العقل ملاك الأمر فى هذه الأبواب ، وهو المؤدى إلى العلم ، فختم بذكره .

قوله : ﴿ ومن آياته يريكم ﴾ أى أنه يريكم . وقيل : تقديره : ويريكم من آياته البرق . وقيل : أن يريكم ، فلما حذف (أن) سكن الياء وقيل : (ومن آياته) كلام كاف ، كما تقول : منها كذا ، ومنها كذا ، ومنها . . وتسكت ، تريد بذلك الكثرة .

قوله : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾(٤) وفى الزمر : ﴿ أو لم يعلموا ﴾(٥) لأن بسط الرزق مما يشاهد ويرى ، فجاء فى هذه السورة على ما يقتضيه اللفظ والمعنى . وفى الزمر اتصل بقوله ﴿ أوتيته على علم ﴾ وبعده ﴿ ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ فحسن أو لم يعلموا

قوله : ﴿ ولتجرى الفلك بأمره ﴾(٦) ، وفى الجاثية ﴿ فيه بأمره ﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ذكر الرياح ، وهو قوله ﴿ أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ بالمطر ، وإذاقة الرحمة ، ولتجرى الفلك بالرياح بأمر الله تعالى .

ولم يتقدم ذكر البحر . وفى الجاثية تقدم ذكر البحر ، وهو قوله ﴿ الله الذى سخر لكم البحر ﴾(٧) فكنى عنه ، فقال : ﴿ لتجرى الفلك فيه بأمره ﴾(٨) .

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(٢) من الآية ٢١ من سورة الروم
(٣) من الآية ٢٢ من سورة الروم
(٤) من الآية ٣٧ من سورة الروم
(٥) من الآية ٥١ من سورة الزمر
(٦) من الآية ٤٦ من سورة الروم
(٧) من الآية ١٢ من سورة الجاثية
(٨) من الآية ١٢ من سورة الجاثية

* **مناسبتها ما قبلها من وجوه :**

(١) إن السورة السابقة بدئت بالجهاد وختمت به ، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا فى الأرض لينامو على مهاد الراحة ، بل خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم ، وأنهم يلاقون شتى المصاعب من الأهل والأمم التى يكونون فيها ، وهذه السورة قد بدئت بما يتضمن نصرة المؤمنين ودفع شماتة أعدائهم المشركين ، وهم يجاهدون فى الله ولوجهه فكأن هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة .

(٢) إن ما فى هذه السورة من الحجج على التوحيد والنظر فى الآفاق ، والأنفس مفصل لما جاء منه مجملا فى السورة السالفة ، إذ قال فى السالفة : ﴿ فانظر كيف بدأ الخلق ﴾[١] إلخ ، وهنا بين ذلك ، فقال : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض ﴾[٢] إلخ ، وقال : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾[٣] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

معانى المفردات

(ألم) فيها ما مر فى أخواتها من حيث القراءة والمراد (الروم) هى مملكة الرومان وعاصمتها القسطنطينية (فى أدنى الأرض) المراد أقرب الأرض إلى العرب من جهة الشام مما يلى فارس . (فى بضع سنين) البضع ما بين الثلاثة إلى التسع من السنين .

نزلت هذه الآيات عندما غزا الفرس الرومان ، وغلبوهم فى مشارف الشام ، مما يلى بلاد العرب ، ففرح بذلك مشركو العرب إذ قالوا : إن الفرس لا كتاب لهم مثلنا ، والرومان لهم كتاب مثلكم لأنهم من النصارى ، ولننتصرن عليكم كما انتصر الفرس ، فحلف أبو بكر بعد نزول الآية أن الرومان سيغلبون الفرس بعد هزيمتهم هذه ، فقالوا له : إجعل لنا موعدا ونراهنك على ذلك فضرب موعدا بسيطا ثم استشار النبى ﷺ فقال له : زد فى الرهان ومد الأجل فإن البضع من ثلاث إلى تسع

(١) من الآية ٢٠ من سورة العنكبوت
(٢) من الآية ٩ من سورة الروم
(٣) من الآية ١١ من سورة الروم

ففعل وانتصر الرومان فى السنة التاسعة ، وأخذ أبو بكر الجعل وتصدق به .

*** التفسير ***

(ألم) حروف هجائية افتتح القرآن الكريم بها بعض سوره إذا جمعناها وحذفنا المكرر منها أنتجت لنا عبارة تقول : (نص حكيم قاطع له سر) وفيها إشارة إلى إعجاز هذا الكتاب الخالد : قال تعالى : **﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾**[1] .

قوله تعالى : **﴿ غلبت الروم فى أدنى الأرض ﴾** قال ابن عباس كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب فذكر ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : (أما إنهم سيغلبون) فذكره أبو بكر لهم فقالوا إجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : (ألا جعلتها إلى دون - أراه قال العشر -)[2] قال سعيد بن جبير البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد قال فذلك قوله : **﴿ ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾** .

والروم من سلالة العيص بن إسحق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر وكانوا على دين اليونان واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له قيصر فكان أول من دخل فى دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين بن قسطس وأمه مريم الهيلانية الغندقانية من أرض حران كانت قد تنصرت قبله فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوف فتابعها يقال له تقية واجتمعت به النصارى وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس واختلفوا اختلافا كثيرا منتشرا متشتتا لاينضبط إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هى الخيانة الحقيرة ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون اليه وغيروا دين المسيح عليه السلام وزادوا فيه ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعابين وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنة ثم الأساقفة والقساقسة ثم الشمامسة وابتدعوا

---

(١) الآية ٢٣ من سورة البقرة

(٢) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده ١/ ٢٧٦ ، ٣٠٤

الرهبانية وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد وأسس المدينة المنسوبة اليه وهى القسطنطينية يقال إنه بنى فى أيامه اثنى عشر ألف كنيسة وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب وبنت أمه القمامة وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة كما قال رسول الله ﷺ (إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة)[1] والغرض أنهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا فتملك عليهم فى رياسة عظيمة وأبهة كثيرة فناوأه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والرى وجميع بلاد العجم وهو سابور ذو الاكتاف وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر وله رياسة العجم وحماقة الفرس وكانوا مجوسا يعبدون النار فتقدم عن عكرمة أنه قال بعث اليه نوابه وجيشه فقاتلوه والمشهود أن كسرى غزاه بنفسه فى بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك لحصانتها لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة ورأى فى نفسه خديعة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصالحه عليه .

ويشترط عليه ما شاء فأجابه إلى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لايقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ما طلب واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشره وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه فأطلق سراحه فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إنى خارج فى أمر قد أبرمته فى جند قد عينته من جيش فان رجعت اليكم من قبل الحول فأنا ملككم وإن لم أرجع اليكم قبلها فأنتم بالخيار إن شئتم استمررتم على بيعتى وإن شئتم وليتم عليكم غيرى فأجابوه بأنك ملكنا مادمت حيا ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهى كرسى مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة وكتب إلى كسرى يقول هذا ما طلبت فخذه فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم مالا يحصيه إلا الله تعالى واشتد حنقه على البلد فجد فى حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التى لاسبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها . فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق اليها وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة وركب فى بعض الجيش وأمر بأحمال من التبن والبعر

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه ـ كتاب السنة باب شرح السنة الحديث ٤٥٩٦ ج ٤/ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ وابن ماجه فى كتاب الفتن باب افتراق الأمم الحديث ٣٩٩٢ ج ٢ ص ١٣٢٢

والروث فحملت معه وسار الى قريب من يوم فى الماء مصعدا ثم أمر بالقاء تلك الأحمال فى النهر فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يوما مشهودا عند النصارى وبقى كسرى وجيوشه حائرين لايدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر وبلادهم قد خربتها الروم وأخذوا حواصلهم وسبوا ذراريهم ونساءهم فكان هذا من غلب الروم لفارس وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما وهى طرف بلاد الشام مما يلى بلاد الحجاز وقال مجاهد كان ذلك فى الجزيرة وهى أقرب بلاد الروم من فارس فالله أعلم ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهى تسع فان البضع فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع : وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجمحى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مناحبه ﴿ الم . غلبت الروم ﴾ الآية (ألا احتطت يا أبا بكر فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟)[1] ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وروى ابن جرير عن عبد الله ابن عمرو أنه قال ذلك والله أعلم وقوله تعالى ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ أى من قبل ذلك ومن بعده فبنى على الضم لما قطع المضاف وهو قوله قبل عن الاضافة ونويت ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ أى للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثورى والسدى وغيرهم وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن حاتم عن أبى سعيد قال : (لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به)[2] وأنزل الله ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

وليس ثمة أدنى شك كان يوم عيد للأمة الاسلامية بنصر الله لعباده المؤمنين . قال تعالى : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام.إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾[3] ثم يقول تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ﴾[4] ويقول سبحانه ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾[5] وقد

(١) الحديث فى تحفة الاحوذى ، تفسير سورة الروم ٩/ ٥٢ ، وتفسير الطبرى ٢١/ ١٢ وأخرجه الترمذى
(٢) الحديث أخرجه الامام احمد فى مسنده ج ١/ ٢٧٦ ، ٣٠٤
(٣) الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة الأنفال
(٤) الآية ١٧ من سورة الانفال
(٥) الآية ١٢٣ من سورة آل عمران

كتب الله تعالى النصر للأتقى فالتقوى هى السلاح الأقوى فإن لم يكن هناك أتقى كان النصر للأقوى . قال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ وقال سبحانه : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق . فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[1] .

قوله تعالى ﴿ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾[2] العزيز الذى لايغلب ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز ﴾[3] فهو المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه ﴿ إعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾ قوله تعالى : ﴿ وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾[4] سبحانه إذا وعد وفى وإذا قال صدق وإذا حكم عدل وقد وعد بنصر إحدى الطائفتين وقد صدق الله وعده إنه لايخلف الميعاد وما سبق فى علم الله لابد من نفاذه ولكن أكثر الناس لايعلمون ذلك إنما يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وشئونها المادية ولايعلمون عن الآخرة إلا القليل وقد يغفلون عن هذا القليل فقد جل جلال الله إذ يقول : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[5]. قال الحسن البصرى : والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلى . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[6] يعنى الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم فى أمر الدين جهال .

لفت أنظار المشركين وتهديد لهم

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ

(١) الآيات من ١ الى ٧ من سورة محمد
(٢) من الآية ٥ من سورة الروم
(٣) الآية ٢١ من سورة المجادلة
(٤) الآية ٦ من سورة الروم
(٥) الآية ٧ من سورة الروم
(٦) الآية ٧ من سورة الروم

أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

معانى المفردات

(وأثاروا الأرض) حرثوها وزرعوها (السوءى) مؤنث الأسوء والمراد بها النار (يبلس) أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته ، ولم يؤمل أن تكون له حجة ، والمبلس الساكت المنقطع فى حجته اليائس من أن يهتدى إليها (روضة) الروضة الجنة وأصلها النبات حول الغدير من البقول (يحبرون) ينعمون ويسرون من الحبور وهو السرور .

المناسبة وإجمال المعنى

لما أنكر المشركون الإله بإنكار وعده ، وأنكروا البعث كما قال وهم عن الآخرة هم غافلون ـ أردف هذا أن الأدلة متظاهرة فى الأنفس والآفاق على وجوه وتفرده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، وأنها لم تخلق سدى ولا باطلا ، بل خلقت بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة ، ثم أمرهم بالسير فى أقطار الأرض ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبلهم ، وقد كانوا أشد منهم بأسا وقوة ، فكذبوا رسلهم فأهلكهم الله وصاروا كأمس الدابر والمثل الغابر ، وما كان ذلك إلا بظلمهم وفساد أنفسهم لا بظلم الله لهم .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ . المقصود بالتفكر : التدبر والنظر . قال تعالى : ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾[1] وقال جل شأنه : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة الاعراف

والأرض ﴾[١] وقال : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ وقال : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ﴾[٣] وقال جل شأنه : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾[٤] والنظر هو التدبر فى الأمور الجزئية بقصد الوصول إلى حكم كلى وقد أمر الله تعالى بالتفكر قال تعالى : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾[٥] كما أمر هنا بالتفكر فى الأنفس والعالم العلوى والسفلى من السموات والأرض ليعلموا أن الله واحد وأن البعث حق وإن كثيرا من الناس بعد وضوح الأدلة وظهور الآيات بلقاء ربهم لكافرون .

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى ... بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

* كنوز الأسرار *

ولكى نسلك مدارج الأنوار ونقف على حقائق الأسرار فبين أيدينا الآن كتاب : (مفتاح دار السعادة) للامام إبن القيم يحدثنا فيه عن الآيات الباهرة والبراهين الساطعة والحجج القاطعة على عظمة الله تعالى ووحدانيته وقدرته . فيقول رحمه الله : إذا تأملت ما دعا الله سبحانه وتعالى فى كتابه إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر فى آياته . ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه فى كتابه ليستدل بها على غيرها (فمن ذلك خلق الأنسان وقد ندب سبحانه) إلى التفكر فيه والنظر فى غير موضع من كتابه كقوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾[٦] وقوله تعالى : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[٧] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾[٨] وقال تعالى : ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾[٩] وقال

(١) الآية ١٠١ من سورة يونس
(٢) الآيات ٢٤ الى ٣٢ من سورة عبس
(٣) من الآية ٢٥٩ من سورة البقرة
(٤) من الآية ٩٩ من سورة الأنعام
(٥) الآية ٤٦ من سورة سبأ
(٦) الآية ٥ من سورة الطارق
(٧) الآية ٢١ من سورة الذرايات
(٨) من الآية ٥ من سورة الحج
(٩) الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ من سورة القيامة

تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ﴾ . وقال : ﴿ أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾[1] وقال : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[2] وهذا كثير فى القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر فى مبدأ خلقه ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شىء إلى الانسان نفسه ، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما يقتضى الأعمار فى الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه ولو فكر فى نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره .

قال الله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾[3] فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والترائب ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث (فانظر الآن إلى النطفة) بعين البصيرة وهى قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذى هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه ، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما فى موضع واحد جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده ولابرد يجمده ولا عارض يصل إليه ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء إلى سواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة فى لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة فى شكلها وهيأتها وقدرها وملبسها ولونها .

(وانظر) كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال وكيف كساها لحما ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهى محفوظة به ، وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤوسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه (ثم انظر) الحكمة البالغة فى تركيب العظام قواما للبدن وعمادا له وكيف قدرها ربها وخالقها

---

(١) الآية ٧٧ من سورة يس
(٢) الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ من سورة المؤمنون
(٣) الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ من سورة عبس

بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب بعضها فى بعض فمنها ما تركبه تركب الذكر فى الأنثى ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها كالأضراس فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الانسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد فى حاجته لم يجعل عظامه عظما واحدا بل عظاما متعددة وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفى العظم وألصق أحد طرفى العظم بالطرف الآخر كالرباط له ثم جعل فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة عنه وفى الآخر نقرا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها فإذا أراد العبد أن يحرك جزءا من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل إنها خمس وخمسون عظما مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن وجعله عاليا علو الراكب على مركوبه ولما كان عاليا على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الادراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر فى مقدمه ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الابصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس فتبارك الله أحسن الخالقين .

(فانظر) كيف حسن شكل العينين وهيئتهما ومقدارهما ثم جملهما بالأجفان غطاء لهما وسترا وحفظا وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذى والغبار ويقيانهما من البارد المؤذى والحار المؤذى ثم غرس فى أطراف تلك الأجفان والأهداب جمالا وزينة ولمنافع آخر وراء الجمال والزينة ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذى يخرق ما بين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية ما فوقها من الكواكب وقد أودع سبحانه هذا السر العجيب فى هذا المقيد الصغير بحيث تنطبع فيه صورة السموات مع إتساع أكنافها وتباعد أقطارها وشق له السمع (وخلق) الأذن أحسن خلقة وأبلغها فى حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ وليحس بدبيب الحيوان فيها فيبادر بإخراجه وجعل فيها غضونا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لامساكه وفيه أيضا حكم غير ذلك ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا فى غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولايقطعه داخلا إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة فى رجوعه وجعل ماء العينين ملحا ليحفظهما فإنها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظا وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ما هى عليه إذ لو كان على غير

ذلك الصفة لأحالها إلى طبيعته كما أن من عرض لفمه المرارة استمر طعم الأشياء التى ليست بمرة كما قيل .

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

(ونصب سبحانه) قصبة الأنف فى الوجه فأحسن شكله وهيأته ووضعه وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة الشم التى تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل فى داخله من الاعوجاجات والغضون ما جعل فى الأذن لئلا يمسك الرائحة ـ فيضعفها ويقطع مجراها وجعل سبحانه مصبا تنحدر إليه فضلات الدماغ فتتجمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد فى مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولا لايضره ولايزعجه .
ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة ورحمة فإنه لما كان قصبة ومجرى ساترا لما ينحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى النفس الصاعد منه جعل فى وسطه حاجزا لئلا يفسد بما يجرى فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين فى الغالب فيبقى الآخر للتنفس وإما أن يجرى فيهما فينقسم فلا يفسد الأنف جملة بل يبقى فيه مدخل للتنفس وأيضا فإنه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فانه ربما أصيبت إحداها أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة وكان وجود أنفين فى الوجه شيئا ظاهرا فنصب فيه أنفا واحدا وجعل فيه منفذين خجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين والأذنين فى المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين (وشق سبحانه) للعبد الفم فى أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه فأودعه اللسان الذى هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجمانا لملك الأعضاء مبينا مؤديا عنه كما جعل الأذن رسولا مؤديا مبلغا إليه فهى رسوله وبريده الذى يؤدى إليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد .
(واقتضت حكمته سبحانه) أن جعل هذا الرسول مصونا محفوظا مستورا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤديا منه إلى الخارج جعل له سترا مصونا لعدم الفائدة فى إبرازه لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب (وأيضا) فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق يستره ويصونه وجعل فى ذلك السرادق كالقلب فى الصدر وأيضا فإنه من ألطف الأعضاء وألينها وأشدها رطوبة وهو لايتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد (ثم زين سبحانه الفم بما فيه) من الأسنان التى هى جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها

الدر المنظوم بياضا وصفاء وحسنا وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهيأتهما وجعلهما غطاء للفم وطبقا له وجعلهما إتماما لمخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل أقصى الحلق بداية له واللسان وما جاوره وسطا ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة واقتضت حكمته أنه جعل الشفتين لحما صرفا لا عظم فيه ولا عصب ليتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخف أحسن ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها فى الحركة .

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولايكاد يشتبه صوتان إلا نادرا ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بأصواتهم والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور (وزين سبحانه) الرأس بالشعر وجعله لباسا له لاحتياجه إليه وزين الوجه بما أنبت به من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزينه بالحاجبين وجعلهما وقاية لما ينحدر من بشرة الرأس إلى العينين وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الوجه أيضا باللحية وجعلها كمالا ووقارا ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفقة (وكذلك خلقه سبحانه) لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس حال معاشه فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل والابهام بإثنتين ووضع الأصابع الأربع فى جانب والابهام فى جانب لتدور الابهام على الجميع فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقا واحدا كالصحيفة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك فإن بسط أصابعه كانت طبقا يضع عليه ما يريد وإن ضمها وقبضها كانت دبوسا وآلة للضرب وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله وركب الأظفار على رءوسها زينة لها وعمادا ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لاينالها جسم للأصابع وجعلها سلاحا لغيره من الحيوان والطير وآلة لمعاشه وليحك الانسان بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذى هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الانسان ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته اليه ولم يقم مقامه شيء فى حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد اليد ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة ثم انظر إلى الحكمة البالغة فى جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساس له وعظام أعاليه دونها فى الثخانة والصلابة لأنها محمولة .

(ثم انظر كيف جعل) الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيبا محكما متقنا حتى صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها

فى بعض هى مجمع أضلاعه والتى تمسكها أن تنحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والأصابع (وانظر) كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظم الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك عظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظما مائتان وثمانية وأربعون مفاصل وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظما واحدا لكان مضرة على الانسان يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظما واحدا كان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فى هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج فى جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكم بين النظرين (ثم إنه سبحانه ربط تلك) الأعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها أسرها وجعلها كالأوتار تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهى مختلفة فى الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالها فجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وابصارها لو نقصت منهن رباطا واحدا اختل أمر العين وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هى له كالآلات التى بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم فى قطرة ماء مهين فويل للمكذبين ويعدا للجاحدين (ومن عجائب خلقه) أنه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذا بعضها إلى بعض ، خزانة فى مقدمه وخزانة فى وسطه وخزانة فى آخره وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل (ومن عجائب خلقه) ما فيه من الأمور الباطنة التى لاتشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة وسائر ما فى بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع (فأما القلب) فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود مخدوم مستقر فى الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيوانى والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هى جند من أجناد القلب فإن العين طليعته ورائده الذى يكشف له المرئيات . فإن رأت شيئا أدته إليه ولشدة الارتباط الذى بينها وبينه إذا إستقر فيه شيء ظهر فيها فهى مرآته المترجمة للناظر ما فيه كما أن اللسان ترجمانه المؤدى لسمع ما فيه .

ولهذا كثيرا ما يقرن سبحانه فى كتابه بين هذه الثلاث كقوله:﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[1] وقوله:﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾[2] وقوله:﴿ صم بكم عمى ﴾[3] وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله:﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾[4] وقوله فى حق رسوله محمد ﷺ:﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾[5] ثم قال:﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[6] وكذلك الأذن هى رسوله المؤدى إليه (وكذلك) اللسان ترجمانه وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده

(١) من الآية ٣٦ من سورة الأسراء
(٢) الآية رقم ٢٦ من سورة الاحقاف
(٣) من الآية رقم ١٨ من سورة البقرة
(٤) من الآية ١١٠ من سورة الانعام
(٥) الآية ١١ من سورة النجم
(٦) الآية ١٧ من سورة النجم

وقال النبي ﷺ:(ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب)[١] (وقال أبو هريرة) القلب ملك والأعضاء جنوده فإن طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وجعلت الرئة كالمروحة تروح عليه دائما لأنه أشد الأعضاء حرارة بل هو منبع الحرارة (وأما الدماغ) وهو المخ فإنه جعل باردا واختلف فى حكمة ذلك فقالت طائفة إنما كان الدماغ باردا لتبريد الحرارة التى فى القلب ليردها عن الافراط إلى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدا عن القلب بل كان ينبغى أن يحيط به كالرئة أو يكون قريبا منه فى الصدر ليكسر حرارته قالت الفرقة الأولى : بعد الدماغ من القلب لايمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لايتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فإنها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته وتوسطت فرقة أخرى وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فإنه مبدأ للذهن ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الأقذار والكدر خال من الجلبة والزجل ، ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر وإستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته ، ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلا فى ذلك صالحا له ولهذا تجود هذه الأفعال فى الليل وفى المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية (وهذا بحث متصل بقاعدة أخرى) وهى أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ (فقالت طائفة) : مبدؤها كلها القلب وهى مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق ، قالوا وكل واحد من هذه الأعضاء التى هى آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتى إلى كل واحد من هذه الأجسام التى فيها هذه الحواس (قالوا فالعين) إذا أبصرت شيئا أدته بالآلة التى فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب والسمع إذا أحس صوتا أداه إلى القلب وكذلك كل حاسة .

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا فقالوا (إن قيل كيف) يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمده عدة حواس مختلفة وأجسام هذه الحواس مختلفة وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى (وأجابوا عن ذلك) بأن جميع العروق التى فى البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة ، فما من عرق ولا عضو إلا وله اتصال بالقلب اتصالا قريبا أو بعيدا قالوا وينبعث منه فى تلك العروق والمجارى إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق ، وإلى كل ذى قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى ، ولهذا كان الرأى الصحيح أنه أول الأعضاء تكوينا . قالوا ولاريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف فى ذلك آخرون وقالوا بل العقل فى الرأس (فالصواب أن مبدأه) ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته فى الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الايمان باب ٤٠ ج ١ ص ٢٠ طبع الشعب

فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ وقال : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب . ونازعهم فى ذلك طائفة أخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على الخلقة (والصواب التوسط) بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهى قوة معنوية لاتحتاج فى وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لايتوقف إلا على قبولها واستعدادها وإمداد القلب لا على مجار وأعصاب وبهذا يزول الالتباس فى هذا المقام الذى طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب (والمقصود التنبيه) على أقل القليل من وجوه الحكمة التى فى خلق الانسان والأمر أضعاف ما يخطر بالبال أو يجرى فيه المقال وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التى هى شىء بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه . وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط فى مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم يدخل منه آلة تقطعه صغارا ثم طاحون تطحنه ثم أعين بماء يعجنه ثم جعل له مجرى وطريقا إلى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقا توصله إلى المعدة فهى خزانة وموضع إجتماعه ولها بابان : أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه تفله والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحاصل والأسفل مصرف للضار منه .

والأسفل منطبق دائما ليستقر الطعام فى موضعه فإذا انتهى الهضم فإن ذلك الباب ينفتح إلى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك ، والأعلى يسمى فم المعدة . والطعام ينزل إلى المعدة متكيا فإذا استقر فيها إنماع وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام فى القدرة بالنار المحيطة به ولذلك يذيب ما هو مستحجر كالحصا وغيره حتى يتركه مائعا فإذا أذابه علا صفوه إلى فوق ورسى كدره إلى أسفل ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث أشرف ما فى ذلك والطفه وأخفه إلى الأرواح فيبعث إلى البصر بصرا أو إلى السمع سمعا وإلى الشم شما وإلى كل حاسة بحسبها فهذا ألطف ما يتولد عن الغذاء ثم ينبعث منه إلى الدماغ ما يناسبه فى اللطافة والاعتدال ثم ينبعث من الباقى إلى الأعضاء فى تلك المجارى بحسبها وينبعث منه إلى العظام والشعر والأظفار ما يغذيها ويحفظها فيكون الغذاء داخلا إلى المعدة من طرق ومجار وخارجا منها إلى الأعضاء من طرق ومجار هذا وارد إليها وهذا صادر عنها حكمة بالغة ونعمة سابغة ولما كان الغذاء إذا استحال فى المعدة استحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغما اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن جعل لكل واحد من هذه الأخلاط مصرفا ينصب إليه ويجتمع فيه ولاينبعث إلى الأعضاء الشريفة إلا أكمله فوضع المرارة مصبها للمرة الصفراء ووضع الطحال مقرا للمرة السوداء والكبد تمتص أشرف ما فى ذلك وهو الدم ثم تبعثه إلى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل إلى كل واحد من الشعور والأعصاب والعظام والعروق ما يكون به قوامه ثم إذا نظرت إلى ما فيه من القوى الباطنة والظاهرة المختلفة فى أنفسها ومنافعها رأيت العجب العجاب كقوة سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه وحبه وبغضه ورضاه وغضبه

وغير ذلك من القوى المتعلقة بالادراك والارادة وكذلك القوى المنصرفة فى غذائه كالقوة المنضجة له وكالقوة الماسكة له والدافقة له إلى الأعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتها منه إلى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة .

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وأنه لو إجتمع الانس والجن على أن يخلقوا لها سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا بل عظما واحدا من أصغر عظامها بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله الذى أتقن كل شيء فى قطرة من ماء مهين . فمن هذا صنعه فى قطرة ماء فكيف صنعه فى ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة بل هى أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع العجائب من بدن الانسان بل لا نسبة لجميع ما فى الأرض إلى عجائب السموات قال الله تعالى : ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾[2] وهذا كثير فى القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالاضافة إلى السموات كقطرة فى بحر .

ولهذا قل أن تجيء سورة فى القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخبارا عن عظمها وسعتها وإما إقساما بها وإما دعاء إلى النظر فيها وإما إرشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها وإما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة وإما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذى لا إله إلا هو وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التى تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكم من قسم فى القرآن بها كقوله ﴿ **والسماء ذات البروج** ﴾[3] ﴿ **والسماء والطارق** ﴾[4] ﴿ **والسماء وما بناها** ﴾[5] ﴿ **والسماء ذات الرجع** ﴾[6] ﴿ **والشمس وضحاها** ﴾[7] ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾[8] ﴿ **والنجم الثاقب** ﴾[9] ﴿ **فلا أقسم بالخنس** ﴾[10] وهى الكواكب التى تكون خنسا عند طلوعها جوار فى مجراها ومسيرها كنسا عند غروبها فأقسم بها فى أحوالها الثلاثة ولم يقسم فى كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ فى الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ، ولهذا يعظم سبحانه هذا القسم كقوله ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾[11] وأظهر القولين أنه أقسم بمواقع هذه النجوم التى فى السماء فإن إسم النجوم عند الاطلاق إنما ينصرف إليها

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النزاعات
(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران
(٣) الآية ١ من سورة البروج
(٤) الآية ١ من سورة الطارق
(٥) الآية ٥ من سورة الشمس
(٦) الآية ١١ من سورة الطارق
(٧) الآية ١ من سورة الشمس
(٨) الآية ١ من سورة النجم
(٩) الآية ٣ من سورة الطارق
(١٠) الآية ١٥ من سورة التكوير
(١١) الآيتان ٧٥ ، ٧٦ من سورة الواقعة

وأيضا فإنه لم تجر عادته سبحانه باستعمال النجوم فى آيات القرآن ولا فى موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عادته باستعمال النجوم فى الكواكب فى جميع القرآن وأيضا فإن نظير الاقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى النجم فى قوله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾[1] وأيضا فإن هذا قول جمهور أهل التفسير وأيضا فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده . هذه طريقة القرآن قال الله تعالى ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾[2] ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾[3] ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾[4] ﴿ حم والكتاب المبين ﴾[5] ونظائره (والمقصود أنه سبحانه) إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته وقد أثنى سبحانه فى كتابه على المفكرين فى خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾[6] وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء قال الله تعالى ﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ﴾[7] وقال تعالى ﴿ أأنتم أشد خلق أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾[8] وقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذى رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتدأ خلقه من بخار إرتفع من الماء وهو الدخان .

فسبحان من لايقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها وفى كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها وإختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الداوم من غير فتور فى حركتها ولاتغير فى سيرها بل تجرى فى منازل قد رتبت لها بحساب مقدر لايزيد ولاينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها وانظر إلى كثرة كواكبها وإختلاف ألوانها ومقاديرها .

فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى (ثم انظر) إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هى فى كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم ، أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة ، وكيف قدر لها العزيز العليم سفرين متباعدين ، أحدهما سفرها صاعدة إلى أوجها والثانى سفرها هابطة إلى حضيضها ، تنتقل فى منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول من

(١) سورة النجم الآية ١
(٢) الآية ١ من سورة ص
(٣) الآيتان ١ ، ٢ من سورة يس
(٤) الآية ١ من سورة ق
(٥) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الزخرف
(٦) من الآية ٣٢ من سورة الأنبياء
(٧) من الآية ١٢ من سورة النبأ
(٨) الآية ٢٧ من سورة النازعات

الصيف والشتاء والخريف والربيع ، فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ ، وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها . (وانظر) إلى القمر وعجائب آياته كيف يبديه الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئا فشيئا كل ليلة حتى ينتهى إلى إبداره وكماله وتمامه ، ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد فى معاشاتهم وعباداتهم ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنون ، وقام حساب العالم مع ما فى ذلك من الحكمة والآيات والعبر التى لا يحصيها إلا الله (وبالجملة فما من كوكب من الكواكب) إلا وللرب تبارك وتعالى فى خلقه حكم كثيرة ، ثم فى مقداره ، ثم فى شكله ولونه ، ثم فى موضعه من السماء وقربه من وسطها ، وقربه وبعده من الكوكب الذى يليه ، وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الاجمال فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوت ما بين المتجاورات منها وبعد ما بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له ، وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها . وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفا وستين مرة . والكواكب التى تراها كثيرا منها أصغرها بقدر الأرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها وفى حديث ابى هريرة الذى رواه الترمذى ، ان بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك[1] ، وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر ، وذلك بقدر لحظة واحدة لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلا ثم سار فى اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة فى لحظة من اللحظات وهكذا يسير على الدوام ، والعبد غافل عنه وعن آياته ، وقال بعضهم إذا تلفظت بقولك لا ، نعم ، فبين اللفظين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام ، ثم انه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين** ﴾[2]

والنظر فى هذه الآيات وأمثالها نوعان ، نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلا فوقه السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الانسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر . والثانى ان يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول فى أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهى به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ، ومجده ورفعته ، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٥ ص ٧٧ ، ٧٨ فى تفسير سورة الحديد من حديث أبى هريرة

(٢) سورة لقمان الآيتان : ٩ـ ١٠

بتدبير الممالك والجنود التى لا يعلمها إلا ربها مليكها ، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم وإذلال آخرين ، وإسعاد قوم وشقاوة آخرين ، وإنشاء ملك وسلب ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل ، وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر ، وإغناء فقير ، وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ، ورد آبق ، وأمان خائف ، واجارة مستجير ومدد لضعيف ، وإغاثة للهوف ، وإعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف العدوان . فهى مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ فى اقطار العوام لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فحينئذ يقوم القلب بين يدى الرحمن مطرقا لهيبته خاشعا لعظمته عان لعزته فيسجد بين يدى الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد . فهذا سفر القلب وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فياله من سفر ، ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه واجل منفعته وأحسن عاقبته ، سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب .

واذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده ، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم . وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها فى حوائجهم وتصرفاتهم . وأرساها بالجبال فجعلها أوتادا تحفظها لئلا تميد بهم وسع أكنافها ، ودحاها فمدها وبسطها ، وطحاها فوسعها من جوانبها ، وجعلها كفاتا للأحياء تضمهم على ظهرها ماداموا أحياء ، وكفاتا للأموات تضمهم فى بطنها إذا ماتوا ، فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات وقد أكثر تعالى من ذكر الارض فى كتابه ، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر فى خلقها فقال تعالى (**والأرض فرشناها فنعم الماهدون** ﴾[١] ، ﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قرارا** ﴾[٢] ، ﴿ **الذى جعل لكم الأرض فراشا** ﴾[٣] ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾[٤] ﴿ **إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين** ﴾[٥] وهذا كثير فى القرآن ، فانظر إليها وهى ميتة هامدة خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبتت من كل زوج بهيج فأخرجت عجائب النبات فى المنظر والمخبر ، بهيج للناظرين ، كريم للمتناولين فأخرجت الأقوات على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار ، وأنواع الأدوية . ومراعى الدواب والطير . (ثم انظر) قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحد فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة فى اللون

---

(١) سورة الذاريات الآية ٤٨

(٢) سورة غافر الآية ٦٤

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢

(٤) سورة الغاشية الآية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

(٥) سورة الجاثية الآية ٣ .

والشكل والرائحة والطعم والمنفعة ، واللقاح واحد والأم واحدة كما قال تعالى : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾(١) فكيف كانت هذه الأجنة المختلفة مودعة فى بطن هذه الأم ، وكيف كان حملها من لقاح واحد ، صنع الله الذى أتقن كل شىء لا إله إلا هو ، ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده ، وهداهم إلى التفكر فيه . قال الله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(٢) . فجعل النظر فى هذه الآية وما قبلها من خلق الجنين دليلا على هذه النتائج الخمس مستلزما للعلم بها ، ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات ، الشوامخ ، الصم الصلاب ، وكيف نصبها فأحسن نصبها ، وكيف رفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض لئلا تضمحل على تطاول السنين ، وترادف الأمطار والرياح بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ، ثم هدى الناس إلى استخراج تلك المعادن منها ، وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلى والزينة واللباس والسلاح وآلة المعاش على اختلافها ، ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم على شىء منه ولا قدرة عليه .

(من آياته الباهرة) هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض ، يدرك بحس اللمس عند هبوبه ، يدرك جسمه ولا يرى شخصه ، فهو يجرى بين السماء والأرض ، والطير مختلفة فيه ، سابحة بأجنحتها فى أمواجه كما تسبح حيوانات البحر فى الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر ، فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدى رحمته ، ولا قحا للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل . وتسمى رياح الرحمة بالمبشرات والنشر والذاريات والمراسلات والرخاء واللواقح . ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما فى البحر ، والعقيم ، والصرصر ، وهما فى البر ، ان شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيما وأودعه عذابا اليما وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصرا ونحسا وعاتيا ومفسدا لما يمر عليه ، وهى مختلفة فى مهابها فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال ، وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذى النبات وابدان الحيوان ، واخرى تجففه ، واخرى تهلكه ، وتعطبه ، وأخرى تشده وتصلبه ، واخرى توهنه وتضعفه . ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها . فريح تثير السحاب ، وريح تلقحه ، وريح تحمله على متونها ، وريح تغذى النبات . لما كانت الرياح مختلفة فى مهابها وطبائعها ، جعل لكل ريح ريحا مقابلتها تكسر سورتها وحدتها ، ويبقى لينها ورحمتها ، فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لاهلاك ما ترسل لإهلاكه ، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها بل تكون

---

(١) سورة الرعد آية ٤
(٢) سورة الحج آية ٥ ، ٦ ، ٧

كالجيش العظيم الذى لايقاومه شىء ، يدمر كل ما أتى عليه . وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا فى البر ، واما فى البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ (١) فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة التى تأتى من وجه واحد فإذا اختلفت الريح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها ، فالمقصود منها فى البحر خلاف المقصود منها فى البر ، اذ المقصود فى البحر ان تكون واحدة طيبة لا يعارضها شىء فأفردت هنا وجمعت فى البر . ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذى يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يتعلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ، ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه ، فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل فى الزمن مثلا وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه لتغمسه فى الماء لم يطف، وضع الحديد والصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوى الشديد ، وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه ، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فإنه لا يرسب فيه لان الهواء يمتنع من الغوص فى الماء فتعلق به السفينة المشحونة الموقرة ، فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف ، وتعلق به حتى أَمِنَ من الغرق ، وهذا كالذى يهوى فى قليب فيتعلق بذيل رجل قوى شديد يمتنع من السقوط فى القليب فينجو بتعلقه به ، فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد ، ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض ، كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتسيره كثفا ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض ، ثم تلحقه الريح وهى التى سماها سبحانه لواقح ، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه ، فإذا علاها واستوى عليها اهراق ماءه عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو فى الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذى ويهدم ما ينزل عليه بجملته حتى اذا رويت واخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها فهى روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح . وفى الترمذى وغيره ان النبى ﷺ لما رأى السحاب قال : « هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه »(٢) فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التى عليها ميرتهم . وكان الحسن إذا رأى السحاب قال فى هذا : والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم . وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : (بينما رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا فى سحابة اسق حديقة فلان ، فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها فإذا برجل معه مسحاة يسجى الماء بها فقال : ما اسمك ياعبد الله ؟ قال فلان للاسم الذى سمعه فى السحابة)(٣) (وبالجملة) فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه ، وكيف يخلقه الله متى شاء ، وإذا شاء ، وهو مع لينه ورخاوته

---

(١) سورة يونس آية ٢٢

(٢) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٥ ص ٧٧ تفسير سورة الحديد . مع اختلاف فى لفظ يذكرونه قال ولا يدعونه .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق باب الصدقة فى المساكين حـ ٤ ص ٢٢٨٨ رقم ٤٥/ ٢٩٨٤

حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه فى إرسال ما معه من الماء فيرسله وينزل منه مقطعا بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الأرض رشا ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ، ولا يتأخر متقدمها ، وتدرك القطرة صاحبتهافلا تمزج بهابل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة قد عنيت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخرجوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر فى لحظة واحدة لعجزوا عنه . فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقا للعباد والدواب والطير والذر والنمل يسوقه رزقا للحيوان الفلانية فى الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلانى فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش فى وقت كذا ، وكذا ، ثم كيف أودعه فى الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية ، والأثواب فهذا النبات يغذى ، وهذا يصلح الغذاء ، وهذا ينقذه ، وهذا يضعف ، وهذا سم قاتل ، وهذا شفاء من السم ، وهذا يمرض ، وهذا دواء من المرض ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق . وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال إليها ، وهذا يدفع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل اليهما ، وهذا يهيج الدم ، وهذا يسكنه ، وهذا ينوم ، وهذا يمنع النوم ، وهذا يفرح ، وهذا يجلب الغم ، إلى غير ذلك من عجائب النبات التى لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الاحاطة بها وتفصيلها . وانظر إلى مجارى الماء فى تلك العروق الرقيقة الضئيلة الضعيفة التى لا يكاد البصر يدركها إلا بعد تحديقه كيف يقوى قسره واجتذابه من مقره ومركزه إلى فوق ثم ينصرف فى تلك المجارى بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم تتفرق وتتشعب وتدق إلى غاية لا ينالها البصر .

ثم انظر إلى تكون حمل الشجرة ونقلته من حال إلى حال كتنقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار ترى العجب العجاب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين . بينا تراها حطبا قائما عاريا لا كسوة عليها اذا كساها ربها وخالقها من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة ، وكساها من الورق كسوة هى أثبت من الأولى ، ثم اطلع فيها حملها ضعيفا ضئيلا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبا لتلك الثمرة الضعيفة لتستجن به من الحر والبرد والآفات ، ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاها فى تلك العروق والمجارى فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبن أمه ، ثم رباها ونماها شيئا فشيئا حتى استوت وكملت وتناهى ادراكها فأخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء ، هذا وكم لله من آية فى كل ما يقع الحس عليه ويبصره العباد وما لا يبصرونه تفنى الأعمار دون الاحاطة بها وبجميع تفاصيلها .

ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما فى القرآن ويبديه كقوله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾[1]

وقوله ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴾[2] وقوله عز وجل

---

(١) سورة فصلت آية ٣٧

(٢) سورة الفرقان آية ٤٧

﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾[١] وقوله عز وجل ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾[٢] وهذا كثير فى القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من الصبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعى والتعب حتى إذا اخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة وفرقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون فانتشر الحيوان وتصرف فى معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفا منها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم ، ولا ضعف فى قدرة القادر التام القدرة ، ولا قصور فى حكمته ، ولا فى علمه ، يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهذا ايضا من آياته الباهرة أن يعمى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدى بها ، ولا يبصرها لمن هو واقف فى الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش ويتكرر وجود الماء وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع اليه ويسأل .

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكثفة لأقطار الأرض التى هى خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا امساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها ، هذا طبع الماء ، ولهذا حار عقلاء الطبيعة فى سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وأن يغمره ، ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك الا الاعتراف بالعناية الأزلية . والحكمة الألهية التى اقتضت ذلك ليعيش الحيوان الأرضى فى الأرض ، وهذا حق ولكنه يوجد الاعتراف بقدرة الله ، وارادته ومشيئته ، وعلمه ، وحكمته ، وصفات كماله ، ولا محيص عنه .

وفى مسند الامام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال : (ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بنى آدم)[٣] وهذا أحد الأقوال فى قوله عز وجل ﴿ والبحر المسجور ﴾[٤] إنه المحبوس حكاه ابن عطيه وغيره . قالوا ومنه ساجور الكلب وهى القلادة من عود أو حديد التى تمسكه ، وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض ، فالأرض فى البحر كبيت فى جملة الأرض ، وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها . وأشكالها ، ومقاديرها ، ومنافعها ، ومضارها ، وألوانها ، حتى أن فيها حيوانات أمثال الجبال لا يقوم له شىء ، وحتى أن منه من الحيوانات

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٣
(٢) سورة غافر آية ٦١
(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند عمر بن الخطاب ح ١ ص ٤٣ مع اختلاف فى الألفاظ
(٤) سورة الطور آية ٦

ما يرى ظهورها فنظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان ، وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفى البحر أمثاله ، حتى الانسان والفرس والبعير وأصنافها وفيه أجناس لا يعهد لها نظير فى البر أصلا هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فترى اللؤلؤ كيف أودعت فى كل كالبيت لها وهى الصدفة تكنها ، وتحفظها ، ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذى فى صدفه لم تمسه الأيدى . وتأمل كيف نبت المرجان فى قعره فى الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر .

هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر ولا تستخرج منه ، ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها فى البحر تشقه وتمخره بلا قائد ليقودها ولا سائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التى يسخرها الله لاجرائها ، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء ، قال الله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾[١] وقال الله تعالى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٢] فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها فى كتابه كثيرا :

وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه . وقال الله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾[٣] .

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشى على بطنه ومنه الماشى على رجليه ومنه الماشى على أربع ، ومنه ما جعل سلاحه فى رجليه وهو ذو مخالب ، ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسر والرخم والغراب ، ومنه ما سلاحه الأسنان ، ومنه ما سلاحه العياصى وهى القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه ، ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالأسد فان سلاحه قوته ، ومنه ما سلاحه فى ذرقة وهو نوع من الطير إذا دنا منه يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه ويكرر فى القرآن أمر عباده بالنظر فى الآيات مرة أخرى فهو من أجل مقاصد القرآن ؟

قال الله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾[٧] وقال تعالى : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا

(١) سورة الشورى آية : ٣٢ ، ٣٣
(٢) سورة النحل آية : ١٤
(٣) سورة الحاقة آية : ١١ ، ١٢
(٤) سورة يونس آية ١٠١
(٥) سورة آل عمران آية ١٩٠
(٦) سورة الغاشية الآيات ١٧٠ ـ ٢٠
(٧) سورة الأعراف آية ١٨٥

ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾[1] فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه واثماره ووقت نضجه وإدراكه . يقال أينعت الثمار إذا نضجت وطابت لأن فى خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة ، ثم خروجه من حد العقوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع ، والطعم اللذيذ الشهى لآيات لقوم يؤمنون وقال بعض السلف حق على الناس ان يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها فينظروا اليها . . ثم تلا : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾[2] ولو أردنا أن نستوعب ما فى آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأنه الله الذى لا إله إلا هو الذى ليس كمثله شيء ، وأنه الذى لا أعظم منه ، ولا أكمل منه ، ولا أبر ولا ألطف لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك ، ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغى ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك .

تأمل فى وضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه ، فانك اذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل ما يحتاج اليه ، فالسماء سقفه المرفوع عليه ، والأرض مهاد وبساط ، وفراش ، ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه ، والنجوم مصابيح له ، وزينة وادلة للمنتقل فى طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر ، والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذى يصلح له وضروب النبات مهيأة لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه ، فمنها الركوب ومنها الحلوب ، ومنها الغناء ، ومنها اللباس ، والأمتعة ، والآلات ، ومنها الحرس الذى وكل بحرس الانسان يحرسه ـ وهو نائم وقاعد ـ مما هو مستعد لاهلاكه وأذاه ، فلولا ما سلط عليه من ضده لم يقر للانسان قرار بينهم وجعل الانسان كالملك المخول فى ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ، ففى هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم ، قدره أحسن تقدير ، ونظمه أحسن نظام ، وأن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الاله واحد لا إله إلا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، وأنه لو كان فى السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامها وتعطلت مصالحها ، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدير له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع امكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال فى أوائل العقول وبداية الفطر ، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، اذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم

(١) سورة الأنعام الآيات ٩٥ ـ ٩٩

(٢) سورة الانعام آية ٩٩

الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدح صحيح ، أو يأتوا بأحسن منهما ، ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما ، ولولا خشية الاطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر ، وسنفرد ان شاء الله كتابا مستقلا لأدلة التوحيد .

فتأمل خلق السماء ، وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات فى علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ، ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها ، بل هى ممسوكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والأرض ان تزولا ، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له ، حتى ان من أصابه شىء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجانة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المستقبلة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له ، هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

ثم تأمل حال الشمس والقمر فى طلوعهما وغروبهما لاقامة دولتى الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون فى معايشهم ، ويتصرفون فى أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ، ثم تأمل الحكمة فى غروبها فإنه لولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات ، وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة كظهور سلطانها فى النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها ، من حيوان ، ونبات ، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدأوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا ، مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم . وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنوا فيه أفلا تبصرون** ﴾[1] .

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل ، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع فى النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وعمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر ، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله أفلا تسمعون راجع إلى قوله : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ راجع إلى قوله : « **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة** » وقال تعالى : ﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا** . وهو

---

(١) سورة القصص آية ٧١ ، ٧٢

الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾[١] فذكر تعالى خلق الليل والنهار وأنهما خلفة أى يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر ، لا يجامعه ، ولا يحاذيه بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثا حتى يزيله عن سلطانه ثم يجىء الآخر عقبه فيطلبه حثيثا ويزيله عن سلطانه فهما دائما يطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه .

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس فى انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه فلو كان صيفا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء ولو كان صيفا كله لفاتت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفا كله ففى الشتاء تغور الحرارة فى الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ويستكشف فيه الهواء فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذى به حياة الأرض وأهلها واشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف ما حللته حرارة الصيف من الأبدان ، وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل ، وفى الصيف يحتد الهواء ويسخن جدا فتنضج الثمار وتنحل فضلات الابدان والاخلاط التى انعقدت فى الشتاء ، وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ، ولهذا تبرد العيون والآبار ، ولا وتهضم المعدة الطعام التى كانت تهضمه فى الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التى سكنت فى البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا يتنقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره ، فإذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه فانه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتى جمرة البرد بعد استعداد وقبول ، حكمة بالغة وآية باهرة . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج ، وترتيب ، وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والاضاءة ، وكيف جعل لهما بروجا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لاقامة دولة السنة ، وتمام مصالح حساب العالم الذى لا غناء لهم فى مصالحهم عنه ، فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والاجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك ، فلولا حلول الشمس والقمر فى تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شىء من ذلك وقد نبه تعالى على هذا فى غير موضع من كتابه كقوله : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾[٣]

---

(١) سورة الفرقان آية ٦١ ، ٦٢
(٢) سورة يونس آية ٥
(٣) سورة الاسراء آية ١٢

ثم تأمل الحكمة فى طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم ـ سبحانه ـ فإنها لو كانت تطلع فى موضع فى السماء فتقف فيه ولا تغدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل احد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر ، وكان يكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليهم ، والنهار سرمدا على من هى طالعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء ، فاقتضت الحكمة الالهية ، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربى ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة من جهة حتى تنتهى إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها فى أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم .

ثم تأمل الحكمة فى مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك ، بل جعل مكبا لها أربعا وعشرين ساعة وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد فى احدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه . قال الله تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾[1] وفيه قولان : احدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا فى مكان ضياء ذلك وضياء هذا فى مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما فى موضع صاحبه . وعلى هذا فهى عامة فى كل ليل ونهار للقول الثانى أنه يزيد فى أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج فى الآخر لا يذهب جملة وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار فى غير زمن الاعتدال فهى خاصة فى الزمان وفى مقدار ما يلج فى أحدهما من الآخر وهو فى الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الاقليم فى الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهى إلى حد لا يسكنه الانسان ولا يتكون فيه النبات ، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ، ولا نبات لفرط برده ويبسه ، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه ، والمواضع التى يعيش فيها الحيوان ، والنبات ، هى التى تطلع عليها الشمس وتغيب ، واعدلها المواضع التى تتعاقب عليها الفصول الأربعة ؛ ويكون فيها اعتدالان ، خريفان وربيعان ، ثم تأمل إنارة القمر والكواكب فى ظلمة الليل ، والحكمة فى ذلك فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان ، وبرد الهواء على الأبدان ، والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشىء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لا ضوء فيه أصلا فكان لا يتمتع الحيوان فيه من شىء من الحركة ولا الأعمال ، ولما كان الحيوان قد يحتاج فى الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق النهار ، او لشدة الحرارة أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان ، جعل فى الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة كالسفر والحرث وغير ذلك من أهل الحروث والزروع ، فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات ، وجعل طلوعه فى بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس لئلا يستوى الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما ، والتفاوت الذى قدره العزيز العليم ، فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذى اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ، ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه

(١) سورة فاطر آية ١٣

وإحسانا ، فسبحان من أتقن من صنع وأحسن كل شيء خلقه .

ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى فى هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يتهدى بها فى طرق البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت ، ثم تأمل تسخيرها منقادة بأمر ربها ـ تبارك وتعالى ـ جارية على سنن واحد اقتضت حكمته وعلمه ألا تخرج عنه فجعل منها البروج والمنازل والثوابت والسيارة والكبار والصغار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر ، ومنها ما يخفى على الناظر فلا يدركه وجعل منطقة البروج قسمين ، مرتفعة ، ومنخفضة ، وقدر سيرها تقديرا واحدا ونزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها ، فمنها ما يقطعها فى شهر واحد وهو القمر ، ومنها ما يقطعها فى عام ، ومنها ما يقطعها فى عدة أعوام ، كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسبابا لما يحدثه ـ سبحانه ـ فى هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التى تقارنها كمعرفتهم بما يكون مع طلوع الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التى تقارنها ، وكذلك غيرها من المنازل والسيارات ، ثم تأمل جعله سبحانه بنات نعش وما قرب منها ظاهر لا تغيب لقربها من المركز ولما فى ذلك من الحكمة الالهية ، وإنها بمنزلة الاعلام التى يهتدى بها الناس فى الطرق المجهولة فى البر والبحر ، فهم ينظرون إليها وإلى الجدى والفرقدين كل وقت ارادوا فيهتدون بها حيث شاءوا .

ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا يسير إلا مع رفقته ، ولا يفرد عنهم سيره ابدا بل لا يسيرون إلا جميعا ، وبعضها يسير سيرا مطلقا غير مقيد برفيق ولا صاحب ، بل إذا اتفق له مصاحبته منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى ، فبينما تراه ورفيقه وقرينه إذا رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط ، وهذه السيارة لها فى سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف ، سير عام يسير بها فلكها ، وسير خاص تسير هى فى فلكها كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحى ذات الشمال ، والرحى تأخذ ذات اليمين فللنملة فى ذلك حركتان مختلفتان إلى جبهتين متباينتين ، احداهما بنفسها ، والأخرى مكرهة عليها تبعا للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها ، وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ،

ثم يسير فلكها وبمنزلها إلى جهة الغرب ، فسل الزنادقة والمعطلة أى طبيعة اقتضت هذا ؟ وأى فلك أوجبه ؟ ، وهلا كانت كلها راتبة أو متنقلة ؟ أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان واحد ؟ وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارىء المصور الذى ليس كمثله شيء أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنعه وأنه العليم الحكيم الذى خلق فسوى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه وأنه خلق مسخر مربوب مدبر ! : **﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾**[1] فإن قلت : فما الحكمة فى كون بعض النجوم راتبا وبعضها

(١) سورة الأعراف آية ٥٤

متنقلا ؟ قيل إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالة والحكم التى نشأت من تنقلها فى منازلها ومسيرها فى بروجها ، ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ، ولا رسم يقاس عليها ، لأنه انما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب كما تقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التى يمرون عليها ، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التى فى اختلافها ، ولتشبث المعطل بذلك وقال لو كان فاعلها ومبدعها مختارا لم تكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد ، فهذا الترتيب والنظام الذى هى عليه من ادلة الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته .

ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه ، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام ، وما فى طى ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد ، وما فى ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات ، وهل يخفى على ذى بصيرة أن هذا ابداع المبدع الحكيم ، وتقدير العزيز العليم ، ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده فى الله ، وإنما دعوهم إلى عبادتهوحده لا إلى الاقرار به ، فقالت لهم : ﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾[1] فوجوده ـ سبحانه ـ وربوبيته وقدرته أظهر من كل شىء على الاطلاق ، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار ، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده ، فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى : ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الأرض قطع متجاورات** ﴾[2] الآية .

وقال تعالى : ﴿ **إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وآياته يؤمنون** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **خلق الإنسان من نطفة فإذا هم خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون** ﴾ إلى قوله: ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون** ﴾[5] وتأمل كيف وجد سبحانه الآية من قوله : ﴿ **هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب** ﴾ إلى آخرها[6] . وختمها بأصحاب الفكرة فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد ، وهو الماء الذى أنزله من السماء ، فأخرج به كل ما ذكره من الأرض وهو على اختلاف انواعه لقاحه واحد ، وأمه واحدة ، فهذا نوع واحد من آياته . وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التى ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب فى حكمة ذلك وبديع صنعه

---

(١) سورة إبراهيم آية ١٠
(٢) سورة الرعد آية ٢ ـ ٤
(٣) سورة الجاثية آية ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦
(٤) سورة لقمان آية ١٠ ١١
(٥) سورة النحل لآية ٤ ـ ١٧
(٦) سورة النحل اية ١٠

والاستدلال به على خالقه وباريه ، وذلك هو الفكر بعينه . وأما قوله تعالى فى الآية التى بعدها: ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وهى آيات متعددة مختلفة فى أنفسها وخلقها ، وكيفياتها ، إظلام الجو لغروب الشمس ومجىء الليل الذى يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ، ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فيهزم عسكر الظلام ، وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملته آية اخرى ، ثم فى الشمس التى هى آية النهار آية اخرى ، وفى القمر الذى هو آية الليل آية اخرى ، وفى النجوم آيات اخر ، كما قدمناه ، هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الريح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أخر ، فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر ، والأولى كالباب لهذه فمن استدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر فلما دلهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التى هى أعظم منها إلى العقل الذى هو فوق الفكر فتأمله ، فأما قوله فى الآية الثالثة ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ فوحد الآية وخصها بأهل التذكر . فأما توحيدها فكتوحيد الأولى سواء ، فإن ما ذرأ فى الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله فى محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وان تعددت أصنافه وأنواعه . وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر فطريقة القرآن فى ذلك ان يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى فى سورة ق : ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾[1] فالتبصر التعقل والتذكرة والتذكر والفكر باب ذلك ومدخله فإذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر فجاء التذكير فى الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ، ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته . واخر التذكر اذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل فإن قلت ما الفرق بين التذكر والتفكر فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة . قلت التفكر والتذكر اصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسعنا الكلام فى التفكر فى هذا الوجه لعظم المنفعة ، وشدة الحاجة إليه قال الحسن : مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكر فى التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسماع وأبصار . فاعلم ان التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها هذا حقيقته فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون موردا للفكر استحال الفكر لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال ، وتلك المواد هى الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلا عنده لم يتفكر فيه فإذا عرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادىء التى عنده الى المطلوب الذى يريده فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغى إيثاره وما ينبغى اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلا عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره مادام عاقلا ، لأن العلم والادارة لا يقفان على حد بل هو دائما سائر بين العلم والادارة . (وإذا عرفت) معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة

---

(١) سورة ق آية ٧ ، ٨

وذكرى ، يتبصر بها من عمى القلب ، ويتذكر بها من غفلته ، فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر . والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالاشارة إلى شىء من بعض آيات الله ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام ، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة وأحسن ما انقضت فيه الأنفاس التفكر فى آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها إلى تعليق القلب والهمة به دون شىء من مخلوقاته .

فسل المعطل الجاحد ما تقول فى دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خللا فى مادته ولا فى صورته وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها ، وفى تلك الحديقة من يلم شعثها ، ويحسن مراعاتها وتعهدها ، والقيام بجميع مصالحها ، فلا يختل منها شىء ولا يتلف ثمارها ، ثم يقسم قيمتها عند الجذانا على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم ، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام ، أترى هذا إتقانا بلا صانع ؟ ولا مختار ولا مدبر ؟ بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة وكل ذلك إتقانا من غير فاعل ، ولا قيم ، ولا مدبر ، افترى ما يقول لك عقلك فى ذلك لو كان ؟ وما الذى يفتيك به ؟ وما الذى يرشدك إليه ؟ ولكن من حكمة العزيز الحكيم ان خلق قلوبا عميا لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية كما خلق اعينا لا أبصار لها ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهى لا تراها ، فما ذنبها ان أنكرتها وجحدتها ، فهى تقول فى ضوء النهار هذا ليل ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئا ولقد أحسن القائل :

وهبنى قلت هـذا الصباح ليـلا أيعمى العـالمـون عن الضيـاء

ثم تأمل الممسك للسماوات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض ما فيهما أفترى من الممسك لذلك ؟ ومن القيم بأمره ؟ ومن المقيم له ؟ فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة . من كان يصلحه ؟ وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة فى رده كما كان ؟ فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس فجعل عليهم الليل سرمدا . من الذى كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار ؟ ولو حبسها فى الأفق ولم يسيرها ، فمن ذا الذى كان يسيرها ويأتيهم بالليل ؟ ولو أن السماء والأرض زالتا ، فمن ذا الذى كان يمسكهما من بعده ؟ ثم تأمل هذه الحكمة البالغة فى الحر والبرد وقيام النبات والحيوان عليهما ، وفكر فى دخول احدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى يبلغ لنهايته ، ولو دخل عليه مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها ، وبالنبات ، كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط فى البرودة ولولا العناية والحكمة والرحمة والاحسان لما كان ذلك فإن قلت هذا التدريج والمهلة إنما كان لابطاء سير الشمس فى ارتفاعها وانخفاضها ، قيل لك فما السبب فى ذلك الانخفاض والارتفاع ؟ فإن قلت السبب فى ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها ، قيل لك ، فما السبب فى بعد المسافة ؟ ولا تزال المسألة متوجهة عليك كلما عينت سببها حتى تقضى بك إلى أحد أمرين ؟ اما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك إتقان من غير مدبر ولا صانع ، وإما الاعتراف برب

العالمين ، والاقرار بقيوم السموات والأرضين ، والدخول فى زمرة اولى العقل من العالمين . ولن تجد بين القسمين واسطة ابدا ، فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحدين ، فإنها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين ، واذا طلع فجر الهدى واشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس فى أول المنهزمين ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

ثم تأمل الحكمة فى خلق النار على ما هى عليه من الكمون والظهور ، فإنها لو كانت ظاهرة ابدا كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لا تظهر ابدا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة فى الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته اليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعل فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانفعال والسلامة من الضرر قال تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التى تورون ﴾ إلى قوله ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾[1] فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف الينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين ، فأخبر سبحانه انه جعلها تذكرة بنار الآخرة فتستجير منها ونهرب إليه منها ، ومتاعا للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء ، ـ والقواء هى الأرض الخالية ـ وهى أحوج إلى الانتفاع بالنار للاضاءة والطبخ والخبز والتدفى والأنس وغير ذلك ثم تأمل حكمته تعالى فى كونه خص بها الانسان دون غيره من الحيوانات ، فلا حاجة بالحيوان اليها بخلاف الانسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه فى معاشه ومصالحه ، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ، وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهى هذا المصباح الذى يتخذه الناس فيقضون به من حوائجهم ما شاءوا من ليلهم ، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف اعمارهم بمنزلة أصحاب القبور ، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة او صناعة أو تصرفا فى ظلمة الليل الداجى ، وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع فى وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم او غير ذلك ، ثم انظر إلى ذلك النور المحمول فى ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضىء ما حولك كله فترى به القريب والبعيد ، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يقرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف ، وأمامنا فع النار فى انضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينتفع الا بجفافه وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى . ثم تأمل ما أعطته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة ، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلا ، فمن أعطى هذه القوة التى يطلب بها الهبوط إلى مستقره واعطى هذه القوى التى تطلب بها الصعود إلى مستقرها ؟ وهل هذا ؟ الا بتقدير العزيز العليم .

ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان ، والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذى به ظاهرا وباطنا ، وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها

---

(١) سورة الواقعة آيات ٧١ ـ ٩٦

وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذى شأنه حمل الأخبار والرسائل ، وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضع إلى موضع فتأتى العبد الرائحة من حيث تهب الريح ، وكذلك تأتيه الأصوات ، وهو ايضا الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات ، وتأمل منفعة الريح وما يجرى له فى البر والبحر وما هيئت له من الرحمة والعذاب ، وتأمل كم سخر السحاب من ريح حتى امطر فسخرت له المثيرة أولا فتثيره بين السماء والأرض ، ثم سخرت له الحاملة متى تحمله على متنها كالجمل الذى يحمل الراوية ، ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كفه وقطعه ، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقا واحدا ، ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذى يلقح الأنثى فتلقحه بالماء ولولاه لكان جهاما لا ماء فيه ، ثم سخرت له المزجية التى تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك ، ثم سخرت له بعد اعصاره المفرقة التى تبثه وتفرقه فى الجو فلا ينزل ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطرا ، وكذلك الرياح التى تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيما وكذلك الرياح التى تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر ، ومن منافعها أنها تبرد الماء ، وتضرم النار التى يراد اضرامها ، وتجفف الأشياء التى يحتاج إلى جفافها . وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح ، فإنها لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وانتن العالم وفسد ، الا ترى اذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذى لو دام لأتلف النفوس واسقم الحيوان وامرض الاصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع واحدث الوباء فى الجو ، فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتى بروحه ورحمته ولطفه ونعمته ، كما قال النبى ﷺ فى الرياح : « إنها من روح الله تأتى بالرحمة »[1] وتنبه للطيفة فى هذا الهواء وهو أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام وليس نفس الاصطكاك ، كما قال ذلك من قاله ولكنه موجب الاصطكاك ، وقرع الجسم للجسم ، أو قلعة عنده فسببه قرع أو قلع فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء ويؤديه الى مسامع الناس فينتفعون به فى حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم ، فلو كان اثر هذه الحركات والأصوات يبقى فى الهواء كما يبقى الكتاب فى القرطاس لامتلأ العالم منه ولعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء ، والاستبدال به أعظم من حاجاتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة فإن ما يلقى من الكلام فى الهواء أضعاف ما يودع فى القرطاس ، فاقتضت حكمة العزيز الحكيم ان جعل هذا الهواء قرطاسا خفيا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ، ثم يمحى بإذن ربه فيعود جديدا نقيا لا شىء فيه فيحمل ما حمل كل وقت ثم تأمل خلق الأرض على ما هى عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهادا ومستقرا للحيوان

---

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد حـ ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ عن أبى هريرة قال ، (حدثنا عبد الله ، حدثنى أبى حدثنا عبد الرازق حدثنا معمر عن الزهرى حدثنى ثابت ابن قيس ان ابا هريرة قال أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر بن الخطاب حاج فاشتدت عليهم الريح فقال عمر لمن حوله من يحدثنا عن الريح فلم يرجعوا إليه شيئا فبلغنى الذى سأل عنه عمر من ذلك فاستحثثت براحلتى حتى ادركته فقلت ياأمير المؤمنين اخبرت انك سألت عن الريح وانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الريح من روح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها واستعيذوا به من شرها)

والنبات والامتعة ، ويتمكن الحيوان والناس من السعى عليها فى مآربهم ، والجلوس لراحتهم والنوم لهدوئهم والتمكن من أعمالهم ، ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوءا ، ولا ثبت لهم عليها بناء ، ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم الى ترك منازلهم والهرب منها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم** . . . ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قرارا** . . ﴾[2] وقوله: ﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا** . . . ﴾[3] وفى القراءة الأخرى مهادا .

وفى جامع الترمذى وغيره من حديث انس ابن مالك عن النبى ﷺ قال : (لما خلق الله الأرضين جعلت تميد فخلق الجبال عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد قالوا يارب هل من خلقك شىء أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله)[4] ثم تأمل الحكمة البالغة فى ليونة الأرض مع يبسها فإنها لو أفرطت اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمكنا من الانتفاع بها ولو أفرطت فى اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها ، فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك أن تنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها ثم تفيض فتصب فى البحر . فكما أن البانى إذا رفع سطحا رفع أحد جانبيه وخفض الأخر ليكون مصبا للماء ولو جعله مستويا لقام عليه الماء فأفسده .

كذلك جعل مهب الشمال فى كل بلد أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقى الماء واقفا على وجه الأرض فمنع الناس من العمل والانتفاع وقطع الطرق والمسالك واضر بالخلق ، أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذى اتقن كل شىء .

ثم تأمل الحكمة العجيبة فى الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلة فى الأرض لا حاجة إليها وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها ، وفى حديث اسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبى ﷺ : (بالذى نصب الجبال وأدع فيها المنافع آلله أمرك بكذا وكذا ؟ ، قال اللهم نعم) . فمن منافعها أن

---

(١) سورة النحل آية ١٥

(٢) سورة غافر آية ٦٤

(٣) سورة الزخرف آية ١٠

(٤) الحديث فى مسند الامام أحمد حـ ٣ ص ١٢٤ عن رواية انس بن مالك ثم انظر الحديث فى كنز العمال حـ ٦ ص ٣٩٨ رقم ١٦٢٤٠ ، وانظر صحيح الترمذى حـ ٥ ص ٤٢٣ أبواب تفسير القرآن - باب المعوقين رقم ٣٣٦٩ . محقيق الشيخ شاكر .

الثلج يسقط عليها فيبقى فى قللها حاصلا لشراب الناس الى حين نفاده ، وجعل فيها ليذوب اولا فأولا فتجيء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت فى المروج والوهاد ، والربا ضروب النبات والفواكة والأدوية التى يكون مثلها فى السهل والرمل ، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه وكان فى انحلاله جملة السيول التى تهلك ما مرت عليه فيضر بالناس ضررا لا يمكن تلافيه ولا دفعة لأذيته . ومن منافعها ما يكون فى حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التى بمنزلة الحصون والقلاع ، وهى ايضا اكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من احجارها للأبنية على اختلاف اصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد ، واضعاف ذلك من أنواع المعادن الذى يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة ، وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه . ومن منافعها ايضا انها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا فالساكنون تحتها فى أمان من الرياح العظام المؤذية ، ومن منافعها انها ترد عنهم السيول اذا كانت فى مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول فى مجاريها ما مرت به ، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن ، ومن منافعها انها أعلام يستدل بها فى الطرقات فهى بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة الى الطرق ، ولهذا سماها الله أعلاما فقال ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ﴾[1] فالجوارى هى السفن وأعلام الجبال واحدها علم فسمى الجبل علما من العلامة والظهور .

ومن منافعها أيضا ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التى لا تكون فى السهول والرمال كما أن ما ينبت فى السهول والرمال لا ينبت مثله فى الجبال ، وفى كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط بهما إلا الخلاق العليم .

ومن منافعها أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع ، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن ، ومن منافعها ما ذكره الله تعالى فى كتابه أن جعلها للأرض أوتادا تثبتها ، ورواسى بمنزلة مراسى السفن ، أعظم بها من منفعة وحكمة ، هذا وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها فى غاية المطابقة للحكمة فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها . ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والغارات والأكنان ، ولما سترت عنهم الرياح ، ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام . فكان اولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذى نصبت عليه ، ولقد دعانا الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز الى النظر فيها وفى كيفية خلقه

---

(١) سورة الشورى آية ٣٢

فقال ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت ﴾[١] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته ، هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته ، وهى التى خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها واشفقت من حملها ، ومنها الجبل الذى كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه ، ومنها الجبل الذى حبب الله رسوله وأصحابه اليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه ، ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سورا على نبيه ، وجعل الصفا فى ذيل احدهما ، والمروة فى ذيل الأخر ، وشرع لعباده السعى بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم . ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات ، فلله كم به من ذنب مغفور ، وعثرة مقالة وزلة معفو عنها ، وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة ، كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاءوا من كل فج عميق ، وقوفا لربهم خاضعين لعظمته ، خاشعين لعزته ، شعثا غبرا ، حاسرين عن رؤوسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنو منهم ثم يباهى بهم الملائكة ، فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام . ومنها جبل حراء الذى كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته وهو فى غاره فهو الجبل الذى فاض منه النور على أقطار العالم ، فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك ، فسبحان من أختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالا هى مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه ، فهى تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها ، كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ، ووضع له القبول فى الأرض .

وإذا تأملت البقاع وجدتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلانى وجبل بنى فلان وجبل كذا

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ... فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

هذا وإنها لتعلم لها موعدا ويوما تنسف فيها نسفا وتصير كالعهن من هوله وعظمه فهى مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له . وكانت أم الدرداء - رضى الله عنها - إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها ، أسمعت الجبال ما وعدها ربها فيقال ما أسمعها فتقول ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾[٢] .

فهذا حال الجبال وهى الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته وقد اخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله .

فياعجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب ، فليس بمستنكر على الله عز وجل ، ولا يخالف حكمته أن تخلق لها

---

(١) سورة الغاشية آية ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(٢) سورة طه آية ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧

نارا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه ، فمن لم يلن الله فى هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلا فإن أمامه الملين الأعظم ، وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم .

ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمال لينتفع بكل ذلك فى وجهه ويحصل منه ما خلق له وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التى تحمل فى بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج الى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه ثم يرد إليها ما خرج منها وجعلها ـ سبحانه ـ كفاتا للأحياء ما داموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم فى بطنها ، فكانت كفنا لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفى بطنها أمواتا ، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد اثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول رب هذا ما استودعتنى وتخرج كنوزها بإذنه تعالى ثم تحدث اخبارها وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر .

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل فى تجاويفها وتحدث فيها الأبخرة وتخفق الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله ـ سبحانه ـ لها فى الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والانابة والاقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم .

وقد قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض إن ربكم يستعتبكم وقال عمر بن الخطاب فخطبهم ووعظهم وقال : « لئن عادت لا أساكنكم فيها »

ثم تأمل حكمة الله عز وجل فى عزة هذين النقدين ، الذهب والفضة وقصور خيرة العالم عما حاولوا من صنعتهما والتشبه بخلق الله إياهما مع شدة حرصهم وبلوغ اقصى جهدهم واجتهادهم فى ذلك فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكنوا أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك لفسد أمر العالم واستفاض الذهب والفضة فى الناس حتى صارا كالسعف والفخار ، وكانت تتعطل المصلحة التى وضعا لأجلها وكانت كثرتهما جدا سبب تعطل الانتفاع بهما فإنه لا يبقى لهما قيمة ، ويبطل كونهما قيما لنفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ، ولم يتسخر بعض لبعض اذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة ، فلو اغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بامتهانها منها فى الصنائع التى لا قوام للعالم إلا بها فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما فى العزة كالكبريت الأحمر الذى لا يوصل إليه فتفوت المصلحة بالكلية بل وضعهما وأنبتهما فى العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمتـــه ومصالح عباده .

وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الانبارى قال اخبرنى بعض من تداول المعادن أنهم أوغلوا فى طلبها إلى بعض نواحى الجبل فانتهوا إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصلبا بماء غزير لا يدرك ولا حيلة فى عبوره فانصرفوا إلى حيث يعملون ما يعبرون به فلما هيئوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولا عرفوا إلى أين يتوجهون فانصرفوا آيسين . ومن ثم فقد اقتضت حكمة الله عز وجل عزة هذين الجوهرين وقلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشىء الظريف المستحسن مما يحدثه الناس من الأمتعة كان

نفيسا عزيزا مادام فيه قلة وهو مرغوب فيه فإذا فشى وكثر فى أيدى الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه .

ومن هذا قول القائل : نفاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهد الناس فى العالم أهله وجيرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه .

وتأمل الحكمة البعيدة تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذله فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع وكلما استغنوا عنه كان أقل ، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده ، فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها ، فاعتبر هذا بالأصول الاربعة التراب ، والماء ، والهواء ، والنار .

وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته ، فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق فى البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه اينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده فى أقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد .

فتأمل حكمة الله فى أن سخر له الرياح فاذا تصاعد إلى الجو احالته سحابا أو ضبابا فأذهبت عن العالم شره واذاه ، فسل الجاحد ، من الذى دبر هذا التدبير ؟ ، وقدر هذا التقدير وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحابا ، أو ضبابا ، أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ، ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .

ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ، ولولا ذلك لضاقت عن ساكن الانس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم واعشابهم . فإن قلت فما حكمة هذه القفار الخالية والفلوات الفارغة الموحشة فاعلم أن فيها معايش لا يحصيه الا الله من الوحوش والدواب وعليها ارزاقهم وفيها مطردهم ومنزلهم ، كالمدن والمساكن للانس وفيها مجالهم ومرعاهم ومصيفهم ومشتاهم ، ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب اذا احتاجوا الى الانتقال والبدو والاستبدال بالأوطان فكم من بيداء صارت قصورا وجنانا ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين فى أماكنهم لا يجدون عنها انتقالا اذا فدحهم ما يزعجهم عنها ويضطرهم إلى النقلة منها . وكذلك الماء لولا كثرته وتدفقه فى الأودية والأنهار لضاق عن حاجة الناس إليه ولغلب القوى الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان إليه من الطير والوحوش والسباع فاقتضت الحكمة أن كان بهذه الكثرة والسعة فى كل وقت . وأما النار فقد تقدم ان الحكمة اقتضت مكونها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهى ةإن لم تكن مبثوثة فى كل مكان فإنها عتيدة حاصلة متى احتيج إليها ، واسعة لكل ما يحتاج إليه منها غير أنها مودعة فى أجسام جعلت معادن لها للحكمة التى تقدمت .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلولها وظرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها ولو كان ربها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع فى السفلى وكثر ، وفى ذلك فساد فاقتضت حكمته ان سقاها من فوقها فينشىء

سبحانه السحاب وهى روايا الأرمن ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار واذا بعدت من البحر قل مطرها وفى هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب :

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج

وفى الموطأ مرفوعا وهو أحد الأحاديث الأربعة المقطوعة (إذا نشأت سحابة بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة)[1] فالله سبحانه وتعالى ينشىء الماء فى السحاب انشاء تارة يقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم التى ذكرناها ولو أنه ساقه من البحر إلى الأرض جاريا على ظهورها لم يحصل عموم السقى الا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقى لأجزائها فصاعده - سبحانه - إلى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الأرض بغاية اللطف والحكمة التى لا اقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمته على الأرض .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما- أعنى الصحو والغيم - يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام احدهما كان فيه فساده ، فلو توالت الأمطار لأهلكت ما على الأرض ، ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزرع والخضراوات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء ، فحدثت ضروب من الأمراض ، وفسد اكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل ، ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضر واصطدم الهواء فيبس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس واحدث ذلك ضروبا من الأماض عسرة الزوال ، فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلح .

ثم تأمل الحكمة الالهية فى اخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شىء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة ، فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التى رتبت على تلاحقها وتتابعها ، فإن كل فصل وأوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر ، فهذا حار وهذا بارد ، وهذا معتدل وكل فى فصله موافق للمصلحة ، لا يليق به غير ما خلقكم فيه . ثم انه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع اخر من العصف والخشب والورق والنور والسعف والكرب وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم واداة الأبينة والسفن والرحال والأوانى وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذى يشوق الناظرين وحسن مرائى الشجر وخلقتها البديعة الشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف . ثم اذا تأملت اخراج ذلك النور البهى من نفس ذلك الحطب ثم الورق الأخضر ثم

---

(١) الحديث فى موطأ مالك حـ ١ ص ١٩٢ كتاب الاستسقاء باب الاستمطار بالنجوم وقال بن عبد البر : هذا الحديث لا أعرفه بوجه من الوجوه ، فى غير الموطأ ، إلا ما ذكره الشافعى فى الأم .

اخراج تلك الثمار على اختلاف انواعها واشكالها ومقاديرها والوانها وطعومها وروائحتها ومنافعها وما يراد منها ، ثم تأمل أين كانت مستودعة فى تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم ، فهل كان فى قدرة الأب العاجز الضعيف ابراز هذا التصوير العجيب ! وهذا التقدير المحكم ! وهذه الأصباغ الفائقة ، وهذه الطعوم اللذيذة ، والروائح الطيبة ، وهذه المناظر العجيبة . فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وابرازه وترتيبه شيئا فشيئا ؟ وسوق الغذاء إليه فى تلك العروق اللطاف التى يكاد البصر يعجز عن ادراكها وتلك المجارى الدقاق فمن الذى تولى ذلك كله ؟ ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات ؟ وتأمل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة افواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة فى الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثمر

كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه فى مجار وطرق قد احكمت غاية الأحكام ، فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ، ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيده على قدر صاحبه ، فسل الجاحد من اعطاها هذا ، ومن هداها إليه ووضعه فيها ؟ فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وارادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة او صناعة أو حيلة أو مزاولة ؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته ! ، كما قيل :

فواعجبا كيف يعصى الاله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة ... وتسكينه أبدا شاهد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

ثم تأمل اذا نصبت خيمة وفطاطا تمده من كل جانب بالاطناب ليثبت فلا يسقط ولا يتعوج هكذا تجد النبات والشجر له عروق ممتدة فى الأرض منتشرة الى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما انتشرت اعاليه امتدت عروقه واطنابه من اسفل فى الجهات ، ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف ، وتأمل سبق الخلق الالهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفاطيط من خلقه للشجر والنبات لان عروقها اطناب لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها الفاطيط ثم يحاكى بها الشجرة .

ثم تأمل الحكمة فى خلق الورق فإنك ترى فى الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها ما يبهر الناظر ، فمنها غلاظ ممتدة فى الطول والعرض ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا معجبا لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة فى عام كامل ولا احتاجوا فيه إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فبث الخلاق العليم فى أيام قلائل من ذلك ما

يملأ الأرض سهلها وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة ، إن هى إلا إرادته النافذة فى كل شىء ، وقدرته التى لا يمنع منها شىء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقوله له كن فيكون ﴾[1] ، فتأمل الحكمة فى تلك العروق المتخلله الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل اليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبثوثة فى الأبدان التى توصل الغذاء إلى كل جزء منه ، وتأمل ما فى العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل فهى بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد احكمت صنعتها ومدت العروق فى طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق .

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فى كونها جعلت زينة للشجر وسترا ولباسا للثمرة ووقاية لها من الآفات التى تمنع كمالها ولهذا اذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها ، وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فإذا ذهبت الثمرة بقى الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى اذا طفئت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسى لباسا جديدا احسن منه ، فتبارك الله رب العالمين الذى يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج منه ورقة الا بإذنه ولا تسقط إلا بعلمه ، ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهى تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرا آخر ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى . قال تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾[2] فالنجم ما ليس له ساق من النبات والشجر ما له ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده ﴿ وإن من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[3] ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط ثم تأمل حكمته سبحانه فى ابداع العجم والنوى فى جوف الثمرة وما فى ذلك من الحكم والفوائد التى منها انه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع إليها الفساد فهو بمنزلة العظام والثمرة بمنزلة اللحم الذى يكسوه الله عز وجل العظام . ومنها ان فى ذلك بقاء المادة وحفظها إذ ربما تعطلت الشجرة أو نوعها فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذى يغرس فيعود مثلها . ومنها ما فى تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والأدهان والأدوية والاصباغ وضروب اخر من المصالح التى يعلمها الناس وما خفى عليهم منها أكثر ، فتأمل الحكمة فى اخراجه سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحما لذيذا شهيا يتفكه به ابن آدم ، ثم تأمل هذه الحكمة البديعة فى أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التى يفسدها الهواء والشمس غشاء يحفظها ، وغشاء يواريها كالرمان والجوز واللوز ونحوه ، وأما ما لا يفسد إذا كان بارزا فجعل له أول خروجه غشاء يواريه لضعفه ولقلة صبره على الحر فإذا اشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحى للشمس والهواء كطلع النخل وغيره .

ثم تأمل خلقه الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب فإنك ترى داخل الرمانة كأمثال القلاق سحما مترا كما فى نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفا رصفا ومنضودا نضدا لا تمكن الأيدى ان تنضد ، وترى الحب مقسوما أقساما وفرقا وكل قسم وفرقة منه ملفوفا بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج

---

(١) سورة يس آية ٨٢

(٢) سورة الرحمن آية ٦ .

(٣) سورة الاسراء آية ٤٤ .

والطفه وأدقه على غير منوال ، الا منوال كن فيكون ، ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه احسن ضم ، فتأمل هذه الحكمة البديعة فى الشحم المودع فيها فإن الحب لا يمد بعضه بعضا إذ لو مد بعضه بعضا لاختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه أنك ترى أصول الحب مركوزه فى ذلك الشحم ، وهذا بخلاف حب العنب فإنه استغنى عن ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حق اختها بل يجرى الغذاء فى تلك العرق مجرى واحد ثم ينقسم منه فى مجارى الحبوب كلها فينبعث منه فى كل مجرى غذاء تلك الحبة فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم انه لف ذلك الحب فى تلك الرمانة بتلك اللفائف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صونا له وحفظا وممسكا له بإذن الله وقدرته ، فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ، واللبيب يكتفى ببعض ذلك . وأما من غلبت عليه الشقاوة ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾[1] غافلون عن موضوع الدلالة فيها ، - ثم تأمل هذا الريع والنماء الذى وضعه الله فى الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما انبتت سبعمائة حبة ولو انبتت حبة واحدة مثلها لا يكون فى القلة متسع لما يرد فى الأرض من الحب وما يكفى الناس ويفوت الزارع الى ادراك زرعه فصار الزرع يريع هذا الريع ليفى بما يحتاج إليه للقوت والزراعة ، وكذلك ثمار الأشجار والنخيل ، وكذلك ما يخرج مع الاصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه فى مآربهم خلفا فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص ، ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لاعطى اهله ما يبذرونه فيه وما يقيتهم الى استواء الزرع فاقتضت حكمة اللطيف الخبير ان اخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقيت الخارج الناس ويدخرون منه ما يزرعون .

- ثم تأمل الحكمة فى الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجا فى قشور على رؤسها أمثال الاسنة فلا يتمكن جند الطير من إفسادها والعبث فيها ، فإنه لو صادف الحب بارزا لا صوان عليه ولا وقاية تحول درنه لتمكن منه كل التمكن فأفسد وعاب وعاث واكب عليه اكلا ما استطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره للانسان فانه اولى به لأنه هو الذى كدح فيه وشقى به وكان الذى يحتاج اليه أضعاف حاجة الطير .

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى هذه الأشجار كيف تراها فى كل عام لها حمل ووضع فهى دائما فى حمل وولادة فإذا أذن لها ربها فى الحمل احتسبت الحرارة الطبيعية فى داخلها واختبأت فيها ليكون فيها حملها فى الوقت المقدر لها فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ تكوين النطف فتعمل المادة فى اجوافها عملها وتهيئها للعلوق حتى إذا آن وقت الحمل دب فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للجمل وسرى الماء فى أفنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق وما تتبختر فيه وتميس به وتفخر على العقيم فإذا ظهرت أولادها وبان للناظر عملها علم حينئذ كرمها وطيبها من لؤمها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة فى بطون امهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد فإذا تكامل الحمل وآن

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٥

وقت الفطام وتدلت إليك إقفانها كأنما تناولك ثمرة درها فإذا قابلتها رأيت الافنان كأنها تلقاك بأولادها وتحبيك وتكرمك بهم وتقدمهم اليك حتى كأن مناولا يناولك إياهم بيده ولا سيا قطوف جنات النعيم الدانية التى يتناولها المؤمن قائما وقاعدا ومضجعا وكذلك ترى الرياحين كأنها تحبيك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا اكراما لك وعناية بأمرك وتخصيصا لك وتفضيلا على غيرك من الحيوانات افيجمل بك الاشتغال بهذه النعم عن المنعم بها ، فكيف اذا استعنت بها على معاصيه ، وصرفتها فى مساخطه ، فكيف اذا جحدته وأضفتها إلى غيره كما قال سبحانه : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾[١] فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره فى هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوفقه على المراد منها ما هو؟ ولأى شىء خلق ؟ ، ولماذ هيىء ؟ ، وأى امر طلب منه على هذه النعم ؟، كما قال تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾[٢] فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده الفلاح والسعادة لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله وحمدا وشكرا وطاعة ، وشهود تقصيره بل تفريطه فى القليل مما يجب لله عليه ولله در القائل .

قد هيأك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك ان ترعى مع الهمل

ـ ثم تأمل الحكمة فى شجر اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة ان يكون حمله ثمارا كبارا جعل نباته منبسطا على الأرض اذ لو انتصب قائما كما ينتصب الزرع لضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولنقصت قبل ادراكها وانتهائها الى غاياتها فاقتضت حكمة مبدعها وخالقها ان بسطه ومده على الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه الأرض فترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطا على الأرض وثماره مبثوثة حواليه كأنها حيوان قد اكتنفها اجزاؤها فهى ترضعهم ولما كان شجر اللوبياء والباذنجان والباقلاء وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته انبته الله منتصبا قائما على ساقه إذ لا يلقى من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه .

ـ ثم تأمل كيف اقتضت الحكمة الالهية موافات اصناف الفواكه الثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقتضى لها فتوافيهم كموافات الماء للظمآن فتتلقاها الطبيعة بانشراح واشتياق منتظرة لقدومها كانتظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف إنما يوافى الشتاء لصادف من الناس كراهية واستثقالا بوروده مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها وكذلك لو وافى ما فى ربيعها فى الخريف او ما فى خريفها فى الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاذ ، ولهذا نجد المتأخر منها عن وقته مملولا محلول الطعم ولا يظن ان هذا لجريان العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التى لا يخل بها الحكيم الخبير .

ثم تأمل هذه النخلة التى هى احدى آيات الله ، تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك ، فإنه لما قدر أن يكون فيه أناث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثه ، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الاشجار بالانسان خصوصا بالمؤمن كما مثله النبى ﷺ من وجوه كثيرة .

(احدها) ثبات اصلها فى الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التى اجتثت من فوق

---

(١) سورة الواقعة آية ٨٢

(٢) سورة الجمعة آية ١٠

الأرض ما لها من قرار .

(الثانى) طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها ، كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل ، فيه المنفعة لنفسه ولغيره .

(الثالث) دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفا ولا شتاء ،

كذلك المؤمن لايزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافى ربه تعالى .

(الرابع) سهولة تناول ثمرتها وتيسره اما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها . وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها هيئت منها المراقى والدرج الى اعلاها ، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللئيم .

(الخامس) ان ثمرتها من أنفع ثمار العام فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة ويابسة يكون قوتا وادما وفاكهة ، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ، ويدخل فى الأدوية والاشربة وعموم المنفعة به وبالعنب فوق الثمار .

(السادس) من وجوه التشبيه ان النخلة اصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف افنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة ، فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح .

(السابع) ان النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شىء بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من النافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك ، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والخلل ، وخـوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها ، وليفها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس ، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة فى المسلم تقابلها فلما جاء الى الشوك الذى فى النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على اعداء الله واهل الفجور ، فيكون عليهم فى الشدة والغلظة بمنزلة الشوك ، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينا ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ... ﴾[1]

(الثامن) انها كلما اطال عمرها ازداد خيرها وجاء ثمرها وكذلك المؤمن اذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله .

(التاسع) ان قلبها من أطيب القلوب وأحلاها وهذا امر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من اطيب القلوب .

(العاشر) انها لا يتعطل نفعها بالكلية ابدا بل ان تعطلت منها منفعة ففيها منافع آخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس فى سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع ، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شىء من خصال الخير قط ان أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب آخر فلا يزال خيره مأمولا وشره مأمونا .

فتأمل خلقة الجذع الذى لها كيف هو ؟ ! تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا وأخرى

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩

معترضة كاللحمة كنحو المنسوج باليد وذلك لتشدد وتصلب الجذع فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل ، وتصبر على هز الرياح العاصفة ولبثها فى السقوف والجسور والأوانى وغير ذلك مما يتخذ منها ، وهكذا سائر الخشب وغيرها إذ تأملته شبه النسج ولا تراه مصمتا كالحجر الصلد بل ترى بعضه كأنه دخل بعضا طولا وعرضا كتداخل اجزاء اللحم بعضها فى بعض فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه . فإنه لو كان مصمتا كالحجارة لم يمكن ان يستعمل فى الآلات والأبواب والأوانى والامتعة والاسرة والتوابيت وما اشبهها ، ومن بديع الحكمة فى الخشب ان جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة الكثيرة ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت فى البر لعظمت المؤنة فى نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى إعطائه ـ سبحانه ـ بهيمة الانعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الانسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ، ثم سلبها العقول ـ على كبر ـ خلقها التى للانسان ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له ، فأعطيت من التميز والادراك ما يتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الانسان وليظهر ايضا فضيلة التمييز والاختصاص .

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر اجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيره قال الله تعالى : **﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾**[1] أى مطيقين ضابطين . وقال تعالى : **﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾**[2]

فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبى الصغير ذليلا منقادا ، ولو ناخ عليه لسواه بالأرض .

ثم تأمل الحكمة فى خلق آلات البطش فى الحيوانات من الانسان وغيره ، فالانسان لما خلق مهيئا لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطى والنشر والجمع والتفريق وضم الشيء إلى مثله ، والحيوان البهيم لما لم يتهيأ لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع ، بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا كله فى أكلة اللحم من الحيوان ، وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها اظلافا تقيها خشونة الأرض اذا جالت فى طلب المرعى ، ولبعضها حوافر ململمة مقعرة كأخمص القدم لتنطبق على الأرض وتتهيأ للركوب والحمولة ولم يخلق لها براثن ولا أنيابا لان غذاءها لا يحتاج إلى ذلك **﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ... ﴾**[3]

---

(١) سورة الزخرف آية ١٢ ، ١٣

(٢) سورة يس آية ٧١ ، ٧٢

(٣) سورة النحل آية ١٨

فأعد النظر فيك وفى نفسك من الذى دبرك بالطف التدبير وانت جنين فى بطن أمك فى موضع لا يد تنالك ، ولا بصر يدركك ، ولا حيلة لك فى التماس الغذاء ، ولا فى دفع الضرر . فمن الذى أجرى اليك من دم الأم ما يغذوك ؟ كما يغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به فى أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم وقوى اديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقاة الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الأيدى والتقلب على الغبراء ، هاج الطلق بأمك فأزعجك إلى الخروج أيما إزعاج إلى عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول ، والاشتمال حين وضعت نطفة وبين هذا الدفع والطرد والاخراج وكان مبتهجا بحملك فصار يستغيث ويعج الى ربك من ثقلك فمن الذى فتح لك بابه حتى ولجت ؟ ، ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه لمح البصر لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه ، فلو تأملت حالك فى دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب ، فمن الذى أوحى إليه ان يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لا تفسد هناك ، وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليما إلى أن خرجت فريدا وحيدا ضعيفا لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال ، أحوج خلق الله واضعفهم وافقرهم ، فصرف ذلك اللبن الذى كنت تتغذى به فى بطن أمك إلى خزانتين معلقتين الطف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له فلا يزال واقفا فى طرقه ومجاريه ، حتى تستوفى ما فى الخزانة فيجرى وينساق إليك فهو بئر لا تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها ، يسوقها اليك فى طرق لا يهتدى اليها الطواف ولا يسلكها الرجال ، فمن صفاه لك وأطاب طعمه وحسن لونه واحكم طبخه اعدل إحكام ؟ ! لا بالحار المؤذى ولا بالبارد الردى ، ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة ، بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلال ما كان فى البطن فوافاك فى أشد اوقات الحاجة إليه على حين ظمأ شديد ، وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدى المعلق كالأدواة قد تدلى اليك وأقبل بدره عليك ثم جعل فى رأسه تلك الحلمة التى هى بمقدار صغر فمك فلا يضيق عنها ، ولا تتعب بالتقامها ،ثم نقب لك فى رأسها نقبا لطيفا بحسب احتمالك ، ولم يوسعه فتنخنق باللبن ، ولم يضيقه فيمتصه بكلفة ، بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة ؟ حتى تكون فى أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها فإذا أحست منك بأدق صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة اليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شىء وان حياتها تزاد فى حياتك ، فمن الذى وضع ذلك فى قلبها ؟ حتى إذا قوى بدنك واتسعت امعاؤك وخشنت عظامك واحتجت الى غذاء اصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليك لحمك ، وضع فى فيك آلة القطع والطحن فنصب لك أسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها ، فمن الذى حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك ولطفا بها ، ثم أعطاكها أيام الكلل رحمة بك وإحسانا إليك ولطفا بك ، فلو إنك خرجت من البطن ذا سن

وناب وناجذ وضرس كيف كان حال أمك بك ، ولو أنك فعلتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التى لا تسبغها إلا بعد تقطيعها وطحنها ، وكلما ازددت قوة وحاجة إلى الأسنان فى أكل الأطعمة المختلفة زيد لك فى تلك الآلات حتى تنتهى إلى النواجذ فتطيق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب ، ثم اذا ازددت قوة زيد لك فيها حتى تنتهى إلى الطواحين التى هى أخر الاضراس فمن الذى ساعدك بهذه الآلات وانجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء ؟ ثم انه اقتضت ان أخرجك من بطن امك لا تعلم شيئا بل غبيا لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل ولا الفهم والمعرفة ، بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئا فشيئا ، فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل يصادفك يسيرا يسيرا حتى يتكامل فيك ، فاعتبر ذلك ، وكان دخولك هذا العالم وانت غبى لا تعقل شيئا ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير ، فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئا فشيئا حتى تألف الاشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير والاتقان لها ، وفى ذلك وجوه اخر من الحكمة غير ما ذكرناه ، فمن هذا الذى هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شىء من المنافع والآداب والآلات فى وقت حاجتك ؟ ، لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ، ثم انه اعطاك الأظفار وقت حاجتك إليها لمنافع شتى فإنها تعين الأصابع وتقويها فإن اكثر العمل لما كان برءوس الاصابع وعليها الاعتماد أعينت بالاظافر قوة لها مع ما فيها من منفعة حك الجسم وقشط الأذى الذى لا يخرج اللحم عنه إلى غير ذلك من فوائدها ، ثم جملك بالشعر على الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد ، اذ هو مجمع الحواس ومعدن الفكر والذكر وثمرة العقل تنتهى إليه ثم خص الذكر بان جمل وجهه باللحية وتوابعها وقارا وهيبة له وجمالا وفصلا له عن سن الصبا ، وفرقا بينه وبين الاناث ، وبقيت الأنثى على حالها لما خلقت من استمتاع الذكر بها فبقى وجهها على حاله ونضارته ليكون اهيج للرجل على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع ، فالماء واحد والجوهر واحد والوعاء واحد واللقاح واحد ، فمن الذى اعطى الذكر الذكورية والأنثى الأنوثية ؟ إنه ذلك المرسوم الألهى الذى يلقيه إلى ملك التصوير حين يقول : يارب ذكر أم أنثى ؟ شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيوحى ربك ما يشاء ويكتب الملك ﴿ **لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير** ﴾[1] فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال . احدها من تلد الأناث فقط . الثانية من تلد الذكر فقط . الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى ، وهو معنى التزويج هنا أن يجعل ما يهب له من زوجين ذكرا وأنثى الرابعة العقيم التى لا تلد أصلا .

وانظر كيف جعلت آلات الجماع فى الذكر والأنثى جميعا على وفق الحكمة فجعلت فى حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المنى إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئا فهو يمد يده إليه حتى يوصله إياه ولأنه يحتاج إلى أن يقذف ماءه فى قعر الرحم ، وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوفا لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشمل عليه فأعطيت آلة تليق بها ، ثم لما كان ماء الرجل ينحدر من اجزاء

(١) سورة الشورى آية ٤٩ ، ٥٠

الجسد رقيقا ضعيفا لا يخلق منه الولد جعل له الانثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم انضاجه ليشتد وينعقد ويصير قابلا لأن يكون مبدأ التخليق ، ولم تحتج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائها ولطافته إذا مازج ما الرجل غلظ وشدته قوى به واستحكم ، ولو كان الماءان رقيقان ضعيفان لم يتكون الولد منهما وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبخ الماء وانضاجه فيها ، ومنها أن ماءها لا يخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها إلى محله . وفيها أنها لما كانت محلا للجماع اعطيت من الآلة ما يليق بها ، فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والاستمتاع ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقه . . كل منهما عليه .

فارجع الى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك ، وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو منها للأرب والمنفعة المهيأ لها ، فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والاعطاء والمحاربة والدفع ، والرجلان لحمل البدن والسعى والركوب وانتصاب القامة ، والعينان للاهتداء والجمال والزينة والملاحة ورؤية ما فى السموات والأرض وآياتها وعجائبهما ، والفم للغذاء والكلام والجمال وغير ذلك ، والأنف للنفس واخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه ، واللسان للبيان والترجمة عنك ، والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك ، واللسان يبلغ عنك ، والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه اصلاحا آخر وطبخا اخر غير الاصلاح والطبخ الذى توليته من الخارج فأنت تعانى انضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن انه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وانضاج آخر ، وطباخة الداخل ومنضجه يعانى من نضجه وطبخه ما لا تهتدى إليه ولا تقدر عليه ، فهو يوقد عليه نيرانا تذيب الحصى وتذيب ما لا تذيبه النار وهى فى ألطف موضع منك لا تحرقك ولا تلتهب وهى أشد حرارة من النار والا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جدا حتى يجعلها ماء ذائبا ، وجعل الكبد للتخليص واخذ صفوة الغذاء والطفه ، ثم رتب منها مجارى وطرقا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر ، وجعل المنازل والأبواب لادخال ما ينفعك واخراج ما يضرك . وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك ، فهذه خزانة للطعام ، وهذه خزانة للحرارة ، وهذه خزانة للدم ، وجعل منها خزائن مؤديات لئلا تختلط بالخزائن الأخر ، فجعل خزائن للمرة السوداء ، واخرى للمرة الصفراء ، واخرى للبول ، واخرى للمنى . فتأمل حال الطعام فى وصوله إلى المعدة وكيف يسرى منها إلى البدن فإنه اذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتجيد صنعته ثم تبعثه الى الكبد فى مجار دقائق ، وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجارى غشاء رقيقا كالمصفاة الضيقة الأنجاش تصفيه فلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها لأن الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ فإذا قبلته الكبد انفذته إلى البدن كله فى مجار مهيأة له بمنزلة المجارى المعدة للماء ليسلك فى الأرض فيعمها بالسقى ، ثم يبعث ما بقى من الخبث والفضول إلى مقابض ومصارف قد اعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة . فمن ذا الذى تولى ذلك كله واحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير؟ . ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[1] .

---

(١) سورة الاعراف آية ٥٤

فأعد النظر فى نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير فى تركيب البدن ووضع هذه الاعضاء مواضعها منه واعدادها لما أعدت له واعداد هذه الاوعية المعدة لحمل الفضلات وحجمها لكيلا تنتشر فى البدن فتفسده ، ثم تأمل الحكمة البالغة فى تنميتك وكثرة اجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل ، ولو أن صانعا اخذ تمثالا من ذهب او فضة او نحاس فأراد ان يجعله اكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك الا بعد ان يكسره ويصوغه صياغة اخرى ؟ والرب تبارك وتعالى ينمى جسم الطفل واعضاءه الظاهرة والباطنة وجميع اجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيئته لا يتزايل ولا ينفك ولا ينقص .

وأعجب من هذا كله تصويره فى الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدى ولا تصل إليه الآلات فيخرج بشرا سويا مستوفيا لكل ما فيه مصلحته وقوامه من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع ، إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ ، وما فى ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفى الحكمة وبديع الصنعة ، كل هذا صنع الله أحسن الخالقين .

فاعد النظر فى نفسك وحكمة الخلاق العليم فى خلقك وانظر إلى الحواس التى منها تشرف على الاشياء كيف جعلها الله فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ، ولم تجعل فى الأعضاء التى تمتهن كاليدين والرجلين فتتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات ، ولا جعلها فى الاعضاء التى وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليك الالتفات والاطلاع على الاشياء . فلما لم يكن لها فى شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس اليق المواضع بها وأجملها ، فالرأس صومعة الحواس ثم تأمل الحكمة فى ان جعل الحواس خمسا فى مقابلة المحسوسات الخمس فجعل البصر فى مقابلة المبصرات ، والسمع فى مقابلة الأصوات ، والشم فى مقابلة انواع الروائح المختلفات ، والذوق فى مقابلة الكيفيات المذوقات ، واللمس فى مقابلة الملموسات ، فأى محسوس بقى بلا حاسة ؟ ولو كان فى المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ، ولما كان ما عداها انما يدرك بالباطن اعطاك الحواس الباطنة وهى هذه الأخماس التى جرت عليها السنة العامة والخاصة حيث يقولون : المفكر المتأمل ضرب أخماسه فى اسداسه فأخماسه حواسه الخمس واسداسه جهاته الست وارادوا بذلك نه جذبه القلب وسار به فى الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس فى جهاته الست وضربها فيها لشدة فكره .

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات اخرى منفصلة عنها تكون واسعة فى إحساسها ، فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئا ، وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الاصوات فى الجو يلقيها إلى الأذن فتحويه ثم تنقله إلى القوة السامعه ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئا ، واعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئا ، واعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل فى الفم تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ، ولهذا لم يكن له طعم ولاحامض ولا مالح ولا حريف لأنه يحيل تلك الطعوم الى طعمه ولايحصل به مقصوده واعنى حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج الى شيء من خارج بخلاف غيرها من الحواس ، بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملامسة فلم تحتج إلى واسطة .

ثم تأمل حال عدم البصر وما يناله من الخلل فى أمور فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ، ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر فى عجائب ملك الله ، هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوى فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له ولا بعدو يهوى نحوه ليقتله ، ولا يتمكن من هرب إن طلب بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه اقرب من سلامته . ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة ، ومن كمال لطفه ان عكس نور بصره إلى بصيرته فهوى اقوى الناس بصيرة وحدسا وجمع عليه همه فقلبه مجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش وتتم مصلحته ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف ، فأما من أصيب بعينه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية الى البلية فالمحنة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما الفه من المرائى والصور ووجوه الانتفاع ببصره

فهذا له حكم آخر . وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس فى خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئا من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب ، وحى كميت ، وقريب كبعيد ، وقد اختلف النظار فى أيهما اقرب إلى الكمال وأقل اختلالا لأموره الضرير أو الأطروش والذى يليق بهذا الموضع - أن يقال عادم البصر أشدهما ضررا وأسلمهما دينا واحدهما عاقبة ، وعادم السمع أقلهما ضررا فى دنياه وأجلهما بدينه واسوأ عاقبة فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وافسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التى يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها ، فضرره فى دينه اكثر ، وضرر الأعمى فى دنياه أكثر ، ولهذا لم يكن فى الصحابة أطرش وكان فيهم جماعة أضراء وقل ان يبتلى الله أولياءه بالطرش ويبتلى كثيرا منهم بالعمى فهذا فصل الخطاب فى هذه المسألة . فمضرة الطرش فى الدين ، ومضرة العمى فى الدنيا ، والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه .

ثم تأمل حكمته فى الأعضاء التى خلقت فيك آحادا ومثنى وثلاث ورباع وما فى ذلك من الحكم البالغة ، فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منها واحدا فقط اذ لا مصلحة فى كونه أكثر من ذلك الا ترى انه لو اضيف إلى الرأس رأس آخر لأثقلا بدنه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التى يحتاج اليها مجتمعة فى رأس واحد ، ثم إن الانسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم من احدهما وسمع به وابصر وشم وذاق بقى الآخر معطلا لا أرب فيه وإن تكلم وابصر وسمع بهما معا كلاما واحدا وسمعا واحدا وبصرا واحدا كان الآخر فضلة لا فائدة فيه ، وان اختلف إدراكهما اختلفت عليه أحواله وادراكاته وكذلك لو كان له لسانان فى فم واحد فإن تكلم بهما كلاما واحدا كان أحدهما ضائعا ، وان تكلم بأحدهما دون الآخر فكذلك وان تكلم بهما معا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأى الكلامين يأخذ . وهذا بخلاف الاعضاء التى خلقت مثنى كالعينين والاذنيين والشفتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والثديين فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بينة والجمال والزينة عليها بادية ، فلو كان الانسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها وكذلك الحاجبان وأما اليدان

والرجلان والساقان والفخذان فتعددهما ضرورى للانسان لا تتم مصلحته الا بذاك ، الا ترى من قطعت احدى يديه او رجليه كيف تبقى حاله وعجزه فاقتضت الحكمة ان اعطى من هذا الضرب من الجوارح اثنين اثنين . وكذلك اعطى شفتين لأنه لا تكمل مصلحته الا بهما ، وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومر الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك ، وأما الأعضاء الثلاثة فهى جوانب انفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم ، وأما الأعضاء الرباعية فالكعاب الأربعة التى هى مجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحركتهما وفيهما منافع الساقين ، وكذلك أجفان العينين ، فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء العينين ، ووقاية لهما ، وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم فاقتضت الحكمة البالغة أن جعلت الأعضاء على ما هى عليه من العدد والشكل والهيئة ، فلو زادت أو نقصت لكان نقصا فى الخلقة ، ولهذا يوجد فى النوع الانسانى من زائد فى الخلقة وناقص منها ما يدل على حكمة الرب تعالى ، وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا ، وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه ، وأنه خلق خلقا سويا معتدلا لم يزد فى خلقه مالا يحتاج إليه ولم ينقص منه ما يحتاج إليه ، كما يراه فى غيره ، فهو أجدر أن يزداد شكرا وحمدا لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك من صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه وأنه يخلق ما يشاء .

الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات أجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن

من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل فى النوع الانسانى بين صورهم فقل أن يرى اثنان متشابهان من كل وجه ، وذلك من اندر ما فى العالم ، بخلاف أصناف الحيوان كالنعم والوحوش والطير وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الظباء والثلة من الغنم والذود من الأبل والصوار من البقر تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر الا بعد طول تأمل ، أو بعلامة ظاهرة ، والناس مختلفة صورهم وخلقتهم فلا يكاد إثنان منهم يجتمعان فى صفة واحدة وخلقة واحدة ، بل ولا صوت واحد وحنجرة واحدة ، والحكمة البالغة فى ذلك ان الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم لما يجرى من المعاملات ، فلولا الفرق والاختلاف فى الصور لفسدت أحوالهم ، وتشتت نظامهم ، ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ، ولا المدين من رب الدين ، ولا البائع من المشترى ، ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها للاختلاط ، ولا هى تعرف بعلها من غيره ، وفى هذا أعظم الفساد والخلل ، فمن الذى ميز بين حلاهم وصورهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لا تنالها العبارة ولا يدركها الوصف ؟ ! فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة وهل فى الطبيعة اقتضاء هذا الاختلاف والافتراق فى النوع ؟ ! وأين قول الطبائعيين ان فعلها متشابه لأنها واحدة فى نفسها لا تفعل بإرادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها ؟ ! فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا ؟ ! ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، وربما وقع فى النوع الانسانى تشابه بين اثنين لا يكاد يميز بينهما لتعظم عليهم المؤنة فى معاملتهما وتشتد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق ، وإذا كان هذا يعرض فى التشابه فى الأسماء كثيرا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقى ، فما الظن لو وضع التشابه فى الخلقة والصورة ؟ ! ولما كان الحيوان البهيم والطير والوحوش لا يضرها هذا التشابه شيئا لم

تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها فتبارك الله أحسن الخالقين الذى وسعت حكمته كل شىء
ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل إذا ادركا اشتركا فى نبات العانة ، ثم ينفرد الرجل عن المرأة باللحية ،
فإن الله عز وجل لما جعل الرجل قيما على المرأة وجعلها كالخول له والعانى فى يديه ميزه عليها بما فيه ، له
من المهابة والعز والوقار والجلالة لكماله وحاجته إلى ذلك ، ومنعتها المرأة لكمال الاستمتاع بها والتلذذ
لتبقى نضارة وجهها وحسنه لا يشينه الشعر واشتراكا فى سائر الشعور والحكمة والمنفعة التى فيها .

ثم تأمل فى هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجد الحكمة بالباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف فيستهلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفتين والاسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات أجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة حتى ينتهى إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفا يدور عليها الكلام كل أمره ونهيه وخبره واستخباره ونظمه ونثره وخطبه ومواعظه وفضوله ، فمنه المضحك ، ومنه المبكى ، ومنه المؤيس، ومنه المطمع ومنه المخوف ، ومنه المرجى المسلى ، والمحزن ، والقابض للنفس والجوارح ، والمنشط لها ، والذى يسقم الصحيح ويبرىء السقيم ، ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم ، ومنه ما يستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء ، وتستمال به القلوب ، ويؤلف به بين المتباغضين ، ويوالى به بين المتعادين ، ومنه ما هو بضد ذلك ، ومنه الكلمة التى لا يلقى لها صاحبها بالا يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب ، والكلمة التى لا يلقى لها بالا صاحبها يركض بها فى أعلى عليين فى جوار رب العالمين ، فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لا يدرى ما يراد به ، ولا أين ينتهى ولا أين مستقره ، هذا إلى ما فى ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التى لا يحصيها إلا الله ، فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلغته فتسمع لغات مختلفة وكلاما منتظما مؤلفا ولا يدرى كل منهم ما يقول الآخر واللسان الذى هو جارحة واحدة فى الشكل والمنظر ، وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت ، فالآية فى ذلك كالآية فى الأرض التى تسقى بماء واحد وتخرج من ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار ، تلك الأنواع المختلفة المتباينة ، ولهذا اخبر الله سبحانه فى كتابه ان فى كل منها آيات ، قال : ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾[1] وقال : ﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد** ﴾[2] الآية فانظر الآية فى الحنجرة كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت ، واللسان ، والشفتان ، والاسنان لصياغة الحروف والنغمات ، الا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان ، ومن سقطت شفته كيف لم يقم الراء واللام ، ومن عرضت له آفة فى حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية . وقد شبه أصحاب التشريح

(١) سورة الروم آية ٢٢
(٢) سورة الرعد آية ٤

مخرج الصوت بالمزمار ، والرئة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه ، والعضلات التى تقبض على الرئة ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التى تقبض على الزق حتى يخرج الهواء فى القصب والشفتين والاسنان التى تصوغ الصوت حروفا ونغما بالأصابع التى تختلف على المزمار فتصوغه ألحانا .

والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأبخاش التى فى القصبة حتى قيل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذلك من الإنسان فإذا تعجبت من الصناعة التى تعملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التى أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ويابعد مابينهما ، ولكن المألوف المعتاد لايقع عند النفوس موقع التعجب ، فإذا رأت مالا نسبة له إليه أصلا إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب ـ تعالى ـ وعندها من آياته العجيبة الباهرة ماهو أعظم من ذلك مما لايدركه القياس .

ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاة والأسنان ، فمن الذى ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم .

وفى هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام ففى الحنجرة مسالك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع ، وفى اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتدرك لذتها ويميز به بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها ، وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق ، وفى الأسنان من المنافع ماهو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم ، وفيها إسناد الشفتين وإمساكها عن الاسترخاء وتشويه الصورة ، ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخى شفتاه ، وفى الشفتين منافع عديدة يرشف بهما الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر ، فلا يشرق به الشارب ثم هما باب مغلق على الفم الذى ينتهى إليه مايخرج من الجوف ، ومنه يبتدىء مايلج فيه ، فهما غطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ، ويغلقهما إذا شاء ، وهما أيضا جمال وزينة للوجه ، وفيهما منافع أخرى سوى ذلك ، وانظر إلى من سقطت شفتاه مأشوه منظره . وقد بان أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى ، هذا ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت العجب العجاب وتكشف لك عن تركيب يحار فيه العقل ، قد لف بحجب وأغشية بعضها فوق بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الاضطراب ، ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمه والسقطة والضربة التى تصل إليه فتتلقاها تلك البيضة عنه بمنزلة الخوذة التى على رأس المحارب ، ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذى هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات ، ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبرد والأذى وجمالا وزينة له ، فسل المعطل من الذى حصن الدماغ هذا التحصين ؟ ! وقدره هذا التقدير ؟ !

وجعله خزانة أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ماأودعه ، ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها أتم تحصين ، وصانها أعظم صيانة ، وجعلها معدن الحواس والإدراكات ، ومن الذى جعل الأجفان على العينين كالغشاء والأشفار كالأشراج والأهداب كالرفوف عليها إذا أفتحت ؟ ! ومن الذى ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبعا ؟ ! ، وجعل لكل طبقة منفعة

وفائدة ؟ ! ، فلو اختلت طبقة منها لاختل البصر ، ومن شقهما فى الوجه أحسن شق ؟ ! وأعطاهما أحسن شكل ؟ ! وأودع الملاحة فيهما وجعلهما مرآة للقلب وطليعة وحارسا البدن ؟ ! ، ورائدا يرسله كالجند فى مهماته ، فلا يتعب ولا يعيا على كثرة ظعنه وطول سفره ، ومن أودع النور الباصر فيه فى قدر جرم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب من داخل سبع طبقات ؟ ! ، وجعلهما فى أعلا الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العالية ربيئة للبدن ! ، ومن حجب الملك فى الصدر وأجلسه هناك على كرسى المملكة ، وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة فى خدمته وذللها له ؟ ! ، فهى مؤتمرة إذا أمرها منتهية إذا نهاها سامعة له مطيعة تكدح وتسعى فى مرضاته فلا تستطيع منه خلاصا ولا خروجا عن أمره ، فمنها رسوله ، ومنها بريده ، ومنها ترجمانه ، ومنها أعوانه ، وكل منها على عمل لايتعداه ولا يتصرف فى غير عمله حتى إذا أراد الراحة أو عز إليها بالهدوء والسكون ليأخذ الملك راحته ، فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائبة لاتفتر ، فلو شاهدته فى محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر فى خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنا عجيبا ، فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التى لايحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار قال تعالى : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[1] فدعا عباده إلى التفكر فى أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم نوسع الكلام فى هذا الباب ولا أطلنا النفس إلى هذه الغاية ، ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانا فكم دون القلب من حرس ، وكم له من خادم ، وكم له من عبيد ولايشعر به ، والله ماخلق له وهيأ له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب ، فإما على سرير الملك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه ، وإما أسير فى السجن الأعظم بين أطباق النيران فى العذاب الأليم ، فلو عقل هذا السلطان ماهيىء له لضن بملكه ولسعى فى الملك الذى لاينقطع ولا يبيد ، ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

* ومن جعل فى الحلق منفذين ؟ ! ، أحدهما للصوت والنفس الواصل الى الرئة ، والآخر للطعام والشراب وهو المرىء الواصل إلى المعدة ، وجعل بينهما حاجزا يمنع عبور أحدهما فى طريق الآخر ، فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان ، ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لاتئن ولا تفتر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك . ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجا تقبضها لكيلا تجرى جريا دائما فتفسد على الإنسان عيشه ، ويمنع الناس مجالسة بعضهم بعضا . ومن جعل المعدة كأشد مايكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وانضاجها فلو كانت لحما غضا لانطبخت هى ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولا تنهكها النار التى تحتها ،

ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة ؟ ! ، لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو ألطف من عمل المعدة . ومن حصن المخ اللطيف الرقيق فى أنابيب صلبة من العظام ليحفظها

(١) سورة الذاريات الآيات ٢٠ ، ٢١

ويصونها فلا تفسد ولاتذوب ؟ ! ، ومن جعل الدم السيال محبوسا محصورا فى العروق بمنزلة الماء فى الوعاء ليضبط فلا يجرى ؟ ! ، ومن جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقاية لها وصيانة من الأعمال والصناعات ؟ ! ، ومن جعل داخل الأذن مستويا كهيئة الكوكب ليطرد فيه الصوت حتى ينتهى إلى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء فلا يتكوأه وليعذر على الهولم النفوذ إليها قبل أن يمسك وليمسك ماعساه أن يغشاه من الوسخ ولغير ذلك من الحكم . ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الأعضاء ليقيها من الأرض ؟ ! ، فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل . ومن جعل ماء العينين ملحا يحفظها من الذوبان ؟وماء الأذن مرا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض ، وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها طعم غيرها ، ومن جعل باب الخلاء فى الإنسان فى أستر موضع ؟ ! ، كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلى فى أستر موضع فى الدار ، وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان فى أستر موضع ليس بارزا من خلفه ولاناشزا بين يديه بل مغيب فى موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متواريا ، فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج للأرض . ومن جعل الأسنان حدادا لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضا لرضه وطحنه،ومن سلب الإحساس الحيوانى الشعور والأظفار التى فى الآدمى لأنها قد تطول وتمتد ، وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها فلو أعطاها الحس لآلمته وشق عليه أخذ ماشاء منها ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها فى إحدى البليتين إما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه وإما مقاساة الألم والوجع عند أخذها ومن جعل باطن الكف غير قابل لانبات الشعر ؟ ! ، لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللمس ولشق عليه كثير من الأعمال التى تباشر بالكف . ولهذه الحكمة لم يكن هن الرجل قابلا لانباته لأنه يمنعه من الجماع . ولما كانت المادة تقتضى انباته هناك نبت حول هن الرجل والمرأة ، ولهذه الحكمة سلب عن الشفتين ، وكذا باطن الفم ، وكذا أيضا القدم أخمصها وظاهرها لأنها تلاقى التراب والوسخ والطين والشوك ، فلو كان هناك شعر لأذى الإنسان جدا وحمل من الأرض كل وقت مايثقل الانسان ، وليس هذا للإنسان وحده ، بل ترى البهائم قد جللها الشعر كلها وأخليت هذه المواضع منه لهذه الحكمة ، أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة ؟ ! ، وجاءت بكل صواب ، وكل منفعة ، وكل مصلحة ، و لما اجتهد الطاعنون فى الحكمة العائبون للخلقة فيما يطعنون به ، عابوا الشعور تحت الآباط ، وشعر العانة ، وشعر باطن الأنف ، وشعر الركبتين ، وقالوا أى حكمة فيها وأى فائدة وهذا من فرط جهلهم ، فإن الحكمة لايجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر ولا أكثرها ، بل لانسبة لما علموه إلى ماجهلوه فيها لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى فى خلقه وأمره إلى ماخفى عنهم منها كانت كنقرة عصفور فى البحر وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على مالايعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيما علمه بل أعظم وأدق ،

وما مثل هؤلاء الحمقى إلا كمثل رجل لاعلم له بدقائق الصنائع والعلوم من البناء والهندسة والطب بل والحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها فى شىء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعاتهم فخفيت عليه ، فجعل كلما خفى عليه منها شىء ، قال هذا لافائدة فيه ،

وأى حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم فى صنائعهم ويفوقهم فيها ، فما الظن بمن بهرت حكمته القول الذى لايشاركه مشارك فى حكمته كما لايشاركه فى خلقه ، فلا شريك له بوجه ، فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله ، أو يجعل عقله عيارا عليها ، فما أدركه أقر به وما لم يدركه نفاه ، فهو من أجهل الجاهلين ولله فى كل ماخفى على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لاتدفع ولاتنكر . فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة مااقتضت الطبيعة إخراج هذه الشعور عليها ، ألا ترى أن العشب ينبت فى مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة ولهذا كانت هذه المواضع من أرطب مواضع البدن ، وهى أقبل لنبات الشعر وأهيأ ، فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات إلى خارج فصارت شعرا ولو حبست فى داخل البدن لأضرته وآذت باطنه ، فخروجها عين مصلحة الحيوان ، واحتباسها إنما يكون لنقص وآفة فيه ، وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فإنه عين مصلحتها وكمالها ، ولهذا يكون احتباسه لفساد الطبيعة ونقص فيها . ألا ترى أن من احتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إبانه كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخلقة ضعيف التركيب ، فإذا شاهدت ذلك فى الشعر الذى عرفت بعض حكمته فمالك لاتعتبره فى الشعر الذى خفيت عليك حكمته . ومن جعل الريق يجرى دائما فى الفم لاينقطع عنه ؟ ! ، ليبل الحلق واللهوات ويسهل الكلام ويسيغ الطعام . قال بقراط: الرطوبة فى الفم مطية الغذاء ، فتأمل حالك عندما يجف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التى لايستغنى عنه .

ثم تأمل حكمة الله تعالى فى كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة . فإن الأطباء والطبائعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا فى أدمغة الأطفال رطوبة لو بقت فى أدمغتهم لأحدثت أحداثا عظيمة ، فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتصح . وأيضا فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجارى النفس ويفتح العروق ويصلبها ويقوى الأعصاب ، وكم للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه ، فإذا كانت هذه الحكمة فى البكاء الذى سببه ورود الألم المؤذى وأنت لاتعرفها ولا تكاد تخطر ببالك فهكذا إيلام الأطفال فيه وفى أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ماقد خفى على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام فى حكمه اضطراب الأرشية وسلكوا فى هذا الباب مسالك .

فقالت طائفة ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة ، وكلما سئلوا عن شىء أجابوا بلا« يسأل عما يفعل» وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفى حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبة منها ، وإنما المراد بالآية إفراده بالإلهية والربوبية وأنه لكمال حكمته لامعقب لحكمه ولا يعترض عليه بالسؤال لأنه لايفعل شيئا سدى ولا خلق شيئا عبثا وإنما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة ، ألا ترى إلى قوله :

﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾[1] كيف ساق الآية فى الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لاتساويه فسواها به مع أعظم الفرق فقوله لايسأل عما يفعل إثبات لحقيقة الإلهية وإفراد له بالربوبية

(١) سورة الأنبياء الآيات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

والإلهية ، وقوله:وهم يسئلون ، ففى صلاح تلك الألهة المتخذة للإلهية فإنها مسئولة مربوبة مدبرة ، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرق ؟ فهذا الذى سبق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا فى إنكار حكمته وتعليل أفعاله بآياتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب . وقالت طائفة الحكمة فى ابتلائهم تعويضهم فى الآخرة بالثواب التام،فقيل لهم قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلام.فأجابوا بأن توسط الإيلام فى حقهم كتوسط التكاليف فى حق المكلفين،فقيل لهم فهذا ينتقض عليكم بإيلام أطفال الكفار ؟ فأجابوا بأنا لانقول إنهم فى النار كما قاله من قاله من الناس ، والنار لايدخلها أحد إلا بذنب وهؤلاء لاذنب لهم ، وكذا الكلام معهم فى مسألة الأطفال والحجاج فيها من الجانبين بما ليس هذا موضعه فإن هذا لاتعويض فيه قطعا ، ولا هو عقوبة على الكفر ، فإن العقوبة لاتكون سلفا وتعجيلا فحاروا فى هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل . وقالت طائفة ثالثة هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وإن تكلف الجواب عنه مالايلزم فإن هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التى لم يخلق منفكا عنها فهى كالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم والضعف والعجز ، فالسؤال عن حكم الحاجة إلى الأكل عند الجوع ، والحاجة إلى الشرب عند الظمأ ، وإلى النوم والراحة عند التعب ، فإن هذه الآلام هى من لوازم النشأة الإنسانية التى لاينفك عنها الإنسان ولا الحيوان ، فلو تجرد عنها لم يكن إنسانا بل كان ملكا أو خلقا آخر ، وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين . ولكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم ، وكم بين مايقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل ، وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة ، فلو لم يخلق كذلك لكان خلقا آخر ، فيرى أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير فإيلامه بغير ذلك من الأوجاع والأسقام كإيلامه بالجوع والعطش والبرد والحر ودون ذلك أو فوقه وماخلق الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة .

قالوا : فإن سأل سائل وقال فلم خلق كذلك ؟ وهلا خلق خلقة غير قابلة للألم ؟ فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه فى عالم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة فهى عرضة للآفات ، وركبه تركيبا معرضا للأنواع من الآلام وجعل فيه الأخلاط الأربعة التى لاقوام له إلا بها ولا يكون إلا عليها ، وهى لامحالة توجب امتزاجا واختلاطا وتفاعلا يبغى بعضها على بعض بكيفيته تارة ، وبكميته تارة ، وبهما تارة ، وذلك موجب للآلام قطعا ووجود الملزوم بدون لازمه محال ، ثم إنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة مايوجب حركته الدائبة وسعيه فى طلب مايصلحه ودفع مايضره بنفسه تارة وبمن يعنيه تارة،فأحوج النوع بعضه إلى بعض ، فحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبغى بعضهم على بعض ، فحدث من ذلك الآلام والشرور بنحو مايحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها وبغى بعضها على بعض . والآلام لاتختلف عن هذا الامتزاج أبدا إلا فى دار البقاء والنعيم المقيم لا فى دار الابتلاء والامتحان ، فمن ظن أن الحكمة فى أن تجعل خصائص تلك الدار فى هذه فقد ظن باطلا،بل الحكمة التامة البالغة اقتضت أن تكون هذه الدار ممزوجة عافيتها ببلائها ، وراحتها بعنائها ، ولذتها بآلامها وصحتها بسقمها،وفرحها بغمها،فهى دار ابتلاء تدفع بعض آفاتها ببعض كما قال القائل :

أصبحت فى دار بليات ** أدفع آفات بآفات

ولقد صدق ، فإنك إذا فكرت فى الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر ما يستلذ به رأيته يدفع بها ماقابله من الآلام والبليات ، أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع ، وبالشرب ألم العطش ، وباللباس ألم الحر والبرد ، وكذا سائرها ، ومن هنا قال بعض العقلاء :

إن لذاتها لنا هى دفع الآلام لاغير ، فأما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحل آخر غير هذه، فوجود هذه الآلام واللذات الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد وإن الحكمة التى اقتضت ذلك هى أولى باقتضاء دارين دار خاصة للذات لايشوبها ألم ، ودار خالصة للآلام لايشوبها لذة ما ، والدار الأولى الجنة والدار الثانية النار ، أفلا ترى كيف دلك ذلك على ماأنت مجبول عليه فى هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار ، ورأيت شواهدهما وأدلة فى وجودهما من نفسك حتى كأنك تعاينهما عيانا وانظر كيف دل العيان والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار ، فتأمل كيف قاد النظر فى حكمة الله إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله وماأخبروا به تفصيلا يدل عليه العقل مجملا ، فأين هذا من مقام من أداة عمله إلى المعارضة بين ماجاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلته ، ولكن تلك العقول كادها باريها ووكلها إلى أنفسها فحلت بها عساكر الخذلان من كل جانب . فارجع الآن إلى نفسك وفكر فى هذه الأفعال الطبيعية التى جعلت فى الإنسان ومافيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها فى الطبع المجرد والداعى الذى يقتضيه ويستحثه ، فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته ، والكرى يقتضى النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن ، والأعضاء وإجمام القوى وعودتها إلى قوتها جديدة غير كالة ، والشبق يقتضى الجماع الذى به دوام النسل ، وقضاء الوطر وتمام اللذة ، فتجد هذه الدواعى تستحث الإنسان هذه الأمور ، وتتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة ، فإنه لو كان الإنسان إنما يستدعى هذه المستحثات إذا أراد لأوشك أن يشتغل عنها بما يعروه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لايشعر ، كماإذا احتاج بدنه إلى شىء من الدواء والصلاح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحكم به الداء أهلكه ، فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزه أزا إلى مافيه قوامه وبقاؤه ومصلحته ، وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه . ثم انظر إلى مايعطيه من القوى المختلفة التى بها قوامه فأعطى القوة الجاذبية الطالبة المستحثة التى تقتضى معلوما من الغذاء فتأخذه ويورده على الأعضاء بحسب قبولها ، ثم أعطى القوة الممسكة التى تمسك الطعام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبخه وتهيىء لمصارفه وتبعثه لمستحقه . ثم أعطى القوة الهاضمة التى تصرفه فى البدن وتهضمه عن المعدة . ثم أعطى القوة الدافعة وهى التى تدفع ثقله ومالا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لئلا يؤذيه وينهكه ، فمن أعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك إليها ؟ ! ، ومن جعلها خادما لك ؟ ! ، ومن أعطاها أفعالها واستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر ؟ ! ، ومن ألف بينها على تباينها حتى اجتمعت فى شخص واحد ؟ ومحل واحد ؟ ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضا ، فمن كان يحول بينه وبين ذلك ، فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركا لطلب الغذاء الذى به قوام البدن ؟ ، ولولا الممسكة كيف كان الطعام يذهب فى الجوف حتى تهضمه المعدة ؟ ، ولولا الهاضمة

كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماقه ؟ ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذى القاتل لو انحبس يخرج أولا بأول ؟ فيستريح البدن فيخف وينشط ، فتأمل كيف وكلت هذه القوة بك والقيام بمصالحك ، فالبدن كدار للملك فيها حشمه وخدمه ، قد وكل بتلك الدار أقواما يقومون بمصالحها ، فبعضهم لاقتضاء حوائجها وإيرادها عليها ، وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزنه إلى أن يهيأ ويصلح ، وبعضهم يقبضه فيهيئه ويصلحه ويدفعه إلى أهل الدار ويفرقه عليهم بحسب حاجتهم ، وبعضهم لمسح الدار ، وتنظيفها ، وكنسها من المزابل والأقذار ، فالملك هو الملك الحق المبين ـ جل جلاله ـ والدار أنت. والحشم، والخدم، الأعضاء ، والجوارح، والقوام عليها هذه القوى التى ذكرناها .

فرق بين نظر الطبيب والطبائعى فى هذه الأمور ، فنظرهما فيها مقصور على النظر فى حفظ الصحة ودفع السقم ، فهو ينظر فيها من هذه الجهة فقط ، وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلالتها على خلقها وباريها وماله فيها من الحكم البالغة والنعم السابغة والآلاء التى دعا العباد إلى شكرها وذكرها .

● ثم تأمل حكمة الله عز وجل فى الحفظ والنسيان الذى خص به نوع الإنسان وماله فيها من الحكم وما للعبد فيها من المصالح فإنه لولا القوة الحافظة التى خص بها لدخل عليها الخلل فى أموره كلها ، ولم يعرف ماله وما عليه ، ولا ما أخذو لا ماأعطى ، ولا ماسمع ورأى ، ولا ماقال ولا ماقيل له ، ولا ذكر من أحسن إليه ومن أساء إليه ، ولا من عامله ولا من نفعة فيقرب منه ، ولا من ضره فينأى عنه ، ثم كان لايهتدى إلى الطريق الذى سلكه أول مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف علما ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ، ولا يستطيع أن يعتبر شيئا على مامضى ، بل كان خليقا أن ينسلخ من الإنسانية أصلا ، فتأمل عظيم المنفعة عليك فى هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلا عن جميعهن ، ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان فإنه لولا النسيان لما سلا شيئا ، ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبته ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ، ولا تمتع بشىء من متاع الدنيا مع ذكر الآفات ، ولا رجا غفلة عدو ، ولا نقمة من حاسد ، فتأمل نعمة الله فى الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما وجعله فى كل واحد منهما ضربا من المصلحة .

● ثم تأمل هذا الخلق الذى خص به الإنسان ـ دون جميع الحيوان ـ وهو خلق الحياء الذى هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرا وأكثرها نفعا ، بل هو خاصة الإنسانية ، فمن لاحياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة ، كما أنه ليس معه من الخير شىء ، ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف ، ولم يوف بالوعد ، ولم تؤد أمانة ، ولم يقض لأحد حاجة ، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره ، والقبيح فتجنبه ، ولاستر له عورة ، ولا امتنع من فاحشة ، وكثير من الناس لولا الحياء الذى فيه لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه ، ولم يرع لمخلوق حقا ، ولم يصل له رحما ، ولا بر له والدا ، فإن الباعث على هذه الأفعال إما دينى وهو رجاء عاقبتها الحميدة ، وإما دنيوى علوى وهو حياء فاعلها من الخلق ، فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها . وفى الترمذى وغيره مرفوعا : (استحيوا من الله حق الحياء قالوا : وماحق الحياء ؟ قال : أن تحفظ الرأس

وما حوى والبصر وما وعى وتذكر المقابر . . والبلى[١] . وقال ﷺ : إذا لم تستح فاصنع ما شئت »[٢] .
وأصح القولين فيه قول أبو عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى : ﴿ إعملوا ماشئتم ﴾[٣] وقوله ﴿ كلوا وتمتعوا قليلا . . ﴾[٤] وقالت طائفة هو إذن وإباحة ، والمعنى أنك إذا أردت أن تفعل فعلا فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله ، وإن كان مما لايستحيا منه فافعله ، فإنه ليس بقبيح ، وعندى أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر ، وهو فى قوة قولهم من لايستحى صنع مايشتهى ، فليس بإذن ولا هو مجرد تهديد وإنما هو فى معنى الخبر والمعنى أن الردع عن القبيح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ماشاء وإخراج هذا المعنى فى صيغة الطلب لنكتة بديعة جدا ، وهى أن للإنسان آمرين وزاجرين : آمر وزاجر من جهة الحياء ، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل مايشتهى ، وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة ، ولابد فإخراج الكلام فى قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال من لايستحى صنع مايشتهى .
وهكذا تبين لنا مما تقدم مدى حكمة الله البالغة وقدرته الباهرة وسلطانه القاهر وآياته الظاهرة ، يشاهدها كل مخلوق فتبارك الله رب العالمين .

إنذار المشركين

قوله تعالى : **﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾**
أى:أقعد هؤلاء المكذبون الجاحدون ولم يسيروا فى جنبات الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الأمم الطاغية الباغية،لقد كانوا أشد منهم قوة بل لقد بلغ من جبروتهم أن قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجاء الجواب من الله تعالى : **﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ﴾**[٥] لقد كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا وأثاروا الأرض وحرثوها ، ونقبوا فى بطنها حتى أخرجوا منها الكنوز كما عمروها ، واتخذوا من سهولها قصورا ونحتوا الجبال بيوتا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ولكنهم فرحوا بما عندهم من العلم فكان العذاب عاقبتهم ومصيرهم جزاء تكذيبهم وإستهزائهم بآيات الله ورسله ، كما قال تعالى : ﴿ ثم كان

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٣ ، ٥٤ أبواب صفة القيامة رقم ٢٥٧٥
ـ انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٣ ص ٢٤٦ رقم ٣١٩٢
(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٣٨٣ مسند حذيفة بن اليمان
انظر سنن أبى داود ج ٥ ص ١٤٨ ، ١٤٩ كتاب الأدب باب فى الحياء . رقم ٤٧٩٧
(٣) سورة فصلت جزء من الآية ٤٠
(٤) سورة المرسلات آية ٤٦
(٥) سورة فصلت الآيات ١٥ ، ١٦

عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ فكان هذا العذاب جزاءهم ، وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ونحو الآية قوله تعالى :

﴿ وماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزءون . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾[١] .

ولقوله تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزءون . كل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[٢] وكقوله جل شأنه : ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾[٣] وقوله جل شأنه : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[٥] .

وقوله جل شأنه : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وماكان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض أنه كان عليما قديرا ﴾[٦] .

وقوله جل شأنه : ﴿ ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾[٧] بعد أن قال سبحانه ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون ﴾[٨] وقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لسبيل مقيم . إنه فى ذلك لآية للمؤمنين . وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾[٩] وقوله جل جلاله : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾[١٠] . وقوله جل جلاله : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾[١١] .

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٤ ، ٥ ، ٦.
(٢) سورة الأنعام الآيتان ١٠ ، ١١
(٣) سورة محمد الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠
(٤) سورة غافر الآيات ٢١ ، ٢٢
(٥) سورة غافر الآيات ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥
(٦) سورة فاطر آية ٤٤
(٧) سورة الأحقاف آية ٢٧
(٨) سورة الأحقاف آية ٢٦
(٩) سورة الحجر الآيات من ٧٣ - ٧٩
(١٠) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨
(١١) سورة السجدة آية ٢٦

قوله تعالى : ﴿ الله يبدؤا الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون . ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعؤا وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآيتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون ﴾.

﴿ يقول تعالى ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أى كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله . ثم قال ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ قال ابن عباس :

ييأس المجرمون . وقال مجاهد : يفتضح المجرمون وفى رواية يكتئب المجرمون ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ أى ماشفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ماكانوا إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ قال قتادة : هى والله الفرقة التى لااجتماع بعدها . يعنى أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين فذلك آخر العهد بينهما ولهذا قال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون كثيرا.

﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ أى جحدوا آيات الله التى بعث بها أنبياءه وجحدوا اليوم الآخر ﴿ وقالوا ان هى إلا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين ﴾[1] . فجزاء هؤلاء أنهم محضرون فى العذاب لايخفف عنهم ولا هم ينصرون ﴿ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾[2] . قال تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾.

* أوقات التسبيح والعبادة *

قوله تعالى : فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ

(١) سورة الزخرف الآيتان ٧٧ ، ٧٨
(٢) سورة فاطر الآيتان ٣٦ ، ٣٧

بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

- معانى المفردات

(فسبحان) : علم على التسبيح وهو التنزيه ، وقيل هو الصلاة . (تمسون) : تدخلون فى المساء وهو انتشار الظلام (وعشيا) : العشى والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة وقيل العشاء آخر النهار عند ميل الشمس للمغيب ، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر وذلك هو وقت العصر .

المناسبة وإجمال المعنى

لما بين سبحانه أن المقام الأعلى لمن آمن وعمل صالحا حيث قال : ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون** ﴾ قال إذا علمتم ذلك ، فاعلموا أن الإيمان تنزيه بالجنان ، وتوحيد باللسان ، وعمل صالح يشمل جميع الأركان ، وكل هذا تنزيه وتقديس ، وتحميد وتسبيح ﴿ **فسبحان الله** ﴾ أى سبحوا الله تسبيحا ، علمه سبحان الله وهو بهذه المعانى ، إيمان وتوحيد وعمل ـ فإنه الموصل إلى الحبور والجالب للسرور فى جنا الخلد والنعيم . .

عنه ـ الصلوت الخمس فى القرآن قيل له : أين ؟ فقال : قال الله : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿ **وحين تصبحون** ﴾ صلاة الفجر ﴿ **وعشيا** ﴾ صلاة العصر ﴿ **وحين تظهرون** ﴾ صلاة الظهر ، ولعل تخصيص هذه الأوقات للعبادة إشارة إلى مايجب عمله فى تحصيل المعاش ، وجلب الرزق ، فالإسلام دين الجد والعمل ، لادين الرهبانية والكسل .

ولله الحمد سبحانه وتعالى فى السموات والأرض ، نعم له الحمد من كل مخلوق ، وهذه الجملة معترضة بين الأوقات للإشارة إلى أن هذا التسبيح لله فى الصلاة إنما هو لأصحابه ولا يعود منه شيء على الله ، فعليهم أن يحمدوه حمدا يوازى نعماءه وهدايته .

والله سبحانه وتعالى يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بالنبات بعد موتها وجدبها ، ومثل ذلك الإخراج والانتقال من حال إلى حال مخالفة تخرجون وتبعثون من موت وفناء إلى حياة خاصة للثواب والعقاب .

وعلى هذا فالمراد بالتسبيح فى الآية مايعم الصلاة والتنزيه لله عن صفات النقص ووصفه بصفات الكمال والجلال ، ولاشك أن الصلاة عماد ذلك وعموده .

ولعل المناسبة بين هذه الآية والآية التى قبلها أن الإنسان فى الصباح يخرج من الموت الأصغر وهو النوم إلى الحياة ، فكذلك تبعثون من الموت إلى الحياة الآخرة .

- وانظر صحيح البخارى ـ كتاب الدعوات باب فضل التسبيح ج ٨ ص ١٠٧
- انظر سنن الترمذى كتاب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣٤ . وقال هذا حديث حسن صحيح غريب .
- ثم انظر سنن ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل التسبيح ج ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦
- والحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٣٢ مسند أبى هريرة

وعن رسول الله ﷺ : (من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾[1] الآية

*** التفسير ***

قوله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد فقال تعالى : ﴿ وله الحمد فى السموات والأرض ﴾ أى هو المحمود على ماخلق فى السموات والأرض ثم قال تعالى : ﴿ وعشيا وحين تظهرون ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام والإظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا ، وهذا فالق الإصباح وجعل الليل سكنا .

كما قال تعالى : ﴿ والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ والضحى . والليل إذا سجى ﴾[4] وقال الإمام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ! لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون »[5] وروى الطبرانى بسنده عن عبد الله بن عباس عن رسول الله - ﷺ - قال : « من قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . الآية بكمالها أدرك مافاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته »[6] .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال . قال رسول الله - ﷺ - :

(كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) . رواه البخارى ومسلم ، والترمذى والنسائى ، وابن ماجه[7] .

---

(١) الحديث فى جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطى ص ٧٨٥ بلفظ « من سره أن يكتال بالميكيال الأوفى يوم القيامة فليقل عند انصرافه من الصلاة سبحان ربك رب العزة عما يصفون ..) إلى آخر السورة الديلمى عن على .

(٢) سورة الشمس الآيتان ٣ ، ٤

(٣) سورة الليل الآيتان ١ ، ٢

(٤) سورة الضحى الآيتان ١ ، ٢

(٥) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٣٩ مسند سهل بن معاذ عن أبيه .

(٦) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ١٢ ص ٢٣٩ رقم ١٢٩٩١

وقال محقق الطبرانى . ورواه أبو داود ٥٠٥٥ وقال الحافظ فى تخريج الكشاف ٣/٤٧٢ أخرجه أبو داود والعقيلى وابن عدى من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف . وقال البخارى لايصح . وقال المنذرى فى إسناده محمد بن عبد الرحمن البيلمانى عن أبيه وكلاهما لايحتج به . وقال ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٤٢٨ اسناد ضعيف .

(٧) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٣١/٢٦٩٤ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . باب فضل التهليل والتسبيح .

وعن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ . قلت : يارسول الله أخبرنى بأحب الكلام إلى الله ، فقال : إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده) . رواه مسلم والنسائى والترمذى إلا أنه قال :

سبحان ربى وبحمده . وقال حديث حسن .

وفى رواية مسلم : أن رسول الله ﷺ سئل أى الكلام أفضل ؟

قال : مااصطفى الله لملائكته ، أو لعباده : سبحان الله وبحمده .[1]

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : (من قال سبحان الله وبحمده ، كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ومن قال : لاإله إلا الله كان له بها عهد عند الله يوم القيامة) رواه الطبرانى بإسناد فيه نظر[2] .

زاد فى رواية له عن أيوب بن عقبة عن عطاء عنه بنحوه ، فقال رجل :

(كيف نهلك بعد هذا يارسول الله ؟ قال : إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله تكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يتطول الله برحمته)[3] .

- معنى (تستنفد) : تذهب .

- معنى (يتطول) : يتفضل وينعم ويسامح ، وفيه الإكثار من ذكر الله .

ورواه الحاكم من حديث إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أبيه عن جده ولفظه : قال رسول الله - ﷺ - : (من قال لاإله إلا الله دخل الجنة ، أو وجبت له الجنة ، ومن قال : سبحان الله وبحمده مائة مرة كتب الله له مائة ألف حسنة وأربعا وعشرين ألف حسنة . قالوا : يارسول الله إذا لايهلك منا أحد ؟ قال : قال بلى إن أحدكم ليجيىء بالحسنات لو وضعت على جبل أثقلته

ثم تجيء النعم فتذهب بتلك ثم يتطاول الرب بعد ذلك برحمته) .

قال الحاكم : صحيح الإسناد[4] .

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

(من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة)[5] . رواه البزار بإسناد حسن

وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال قال : رسول الله - ﷺ - :

(من هاله الليل أن يكابده ، أو بخل بالمال أن ينفقه ، أو جبن عن العدو أن يقاتله فليكثر من : سبحان

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب فضل سبحان الله وبحمده . ج ٤ ص ٢٠٩٤ رقم ٨٥/ ٢٧٣١

(٢) انظر الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ١٢ ص ٤٣٧ رقم ١٣٥٩٧ .

وقال محققه . قال فى المجمع ١٠/ ٨٧ وفى النضر بن عبيد ولم أعرفه وبقية رجاله وثقوا .

(٣) هذه الرواية الزائدة فى المعجم الكبير للطبرانى وهى جزء من الحديث رقم ١٣٥٩٥ ج ١٢ ص ٤٣٧ .

(٤) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٤ ص ٢٥١ . وقال (صحيح)

(٥) الحديث فى سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣١

الله وبحمده ، فإنها أحب إلى الله من جبل ذهب ينفقه فى سبيل الله عز وجل) . رواه الفريانى والطبرانى واللفظ لـه[١].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (ومن قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة غفرت له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر)[٢] رواه مسلم والترمذى .

ـ (زبد البحر) : كناية عن المبالغة فى الكثرة

وعن مصعب بن سعد رضى الله عنه قال : حدثنى أبى قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : (أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : يسبح مائة تسبيحة فتكتب له ألف حسنة ، أو تحط عنه ألف خطيئة)

رواه مسلم والترمذى وصححه[٣] .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس)[٤] رواه مسلم والترمذى .

ـ وعن سمرة بن جندب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر ، لايضرك بأيهن بدأت)[٥] رواه مسلم والنسائى وزاد : وهن من القرآن

ـ وعن رجل من أصحاب النبى ـ قال : (أفضل الكلام سبحان الله والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر)[٦] رواه أحمد .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ مر به وهو يغرس غرسا ، فقال : (ياأبا هريرة ، ماالذى تغرس ؟ قلت غراسا . قال : ألا أدلك على غراس خير من هذا ؟ سبحان الله والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر تغرس لك بكل واحدة شجرة فى الجنة)[٧] رواه ابن ماجه بإسناد

---

(١) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ص ٢٣٠ رقم ٧٨٠٠ وقال محققه . قال فى المجمع ١٠ / ٩٤ وفيه سلمان بن أحمد الوسطى وثقه عبدان وضعفه الجمهور ، والغالب على بقية رجاله التوثيق .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم . وهو جزء من الحديث رقم ٢٨ / ٢٦٩١ ج ٤ ص ٢٠٧١ (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء .
وأنظر سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣٣ وقال . هذا حديث حسن صحيح..

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ج ٤ ص ٢٠٧٣ رقم ٢٦٩٨/٣٧ .
وأنظر سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ رقم ٣٥٣٠ . وقال . هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار . باب فضل التهليل والتسبيح ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٣٢/ ٢٦٩٥ .
وأنظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٦ أبواب الذكر والدعاء حديث ٣٦٦٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الآداب) باب كرهة التسمية بالأسماء القبيحة ج ٢ ص ١٦٨٥ رقم ٢١٣٧/١٢ . فقد ورد هذا الحديث بلفظه .

الحديث فى سنن الإمام أحمد ج ٤ ص ٣٦ مسند حديث بعض أصحاب النبى .

(٧) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٥١ (كتاب الأدب) باب فضل التسبيح برقم ٣٨٠٧ ، وقال : فى الزوائد : إسناده حسن . وأبو سنان اسمه عيسى بن سنان الحنفى ، مختلف فيه .

حسن .

ـ وعن ابن سعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لقيت ابراهيم عليه السلام ليلة أسرى بى فقال : يامحمد : أقرىء أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد الله ولاإله إلا الله والله أكبر ﴾ [١]. رواه الترمذى والطبرانى فى الأوسط والصغير وزاد : ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(القيعان : أمكنة مستوية منبسطة واسعة فى وطأة من الأرض يعلوها ماء السماء : أى المطر فتمسكه ويستوى نباتها والقيعان جمع قاع)

وعن أبى هريرة وأبى سعيد ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (إن الله اصطفى من الكلام أربعا : سبحان الله ، والحمد لله ولاإله إلا الله ، والله أكبر ، فمن قال : سبحان الله كتبت له عشرون حسنة ، وحطت عنه عشرون سيئة ، ومن قال الله أكبر فمثل ذلك ، ومن قال لاإله إلا الله ، فمثل ذلك ، ومن قال الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة ، وحطت عنه ثلاثون سيئة)[٢]. رواه أحمد والنسائى واللفظ له ، والبيهقى ، وفى آخره : ومن أكثر ذكر الله فقد برىء من النفاق

وعن أبى مالك الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (الطهور : شطر الإيمان ، والحمد لله : تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله : تملآن أو تملأ مابين السماء والأرض ، والصلاة : نور ، والصدقة : برهان ، والصبر : ضياء ، والقرآن : حجة لك ، أو عليك ، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها) رواه مسلم[٣]

وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أن ناسا من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ قالوا للنبى ـ ﷺ ـ : يارسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم قال : (أو ليس قد جعل الله لكم ماتصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام كان عليه وزر ؟ ! فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر)[٤] رواه مسلم .

(والبضع) بضم الباء : هو الجماع .

ـ وعن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء أعرابى إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : علمنى كلاما أقوله ، قال (قل : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم)

---

(١) أنظر سنن الترمذى (أبواب الدعوات) باب ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ رقم ٣٥٢٩ . وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود .

(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٠٢ مسند أبى هريرة

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الطهارة) باب فضل الوضوء ج ١ ص ٢٠٣ رقم ١/ ٢٢٣

(٤) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الزكاة) باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ج ٢ ص ٦٩٧ رقم ٥٣/ ١٠٠٦ .

قال : هؤلاء لربى فمالى ؟ قال قل : (اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى . وفى رواية أخرى قال : فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك). رواه مسلم[١] .

ـ وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ (قال : استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل : وماهن يارسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل ، والتسبيح ،والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) رواه أحمد ، وأبو يعلى والنسائى[٢] .

ـ وعن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :(إن مما تذكرون من جلال الله ، التسبيح ، والتهليل ، والتحميد ينعطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل تذكر بصاحبها أما يحب أحدكم أن يكون له ، أو لايزال له من يذكر به). رواه ابن أبى الدنيا ، وابن ماجة واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم[٣] .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أخذ غصنا فنفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فانتفض فقال رسول الله ـ ﷺ ـ :(إنه سبحان الله ، والحمد الله ، ولاإله إلا الله والله أكبر تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها) . . رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح[٤] .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

(أول من يدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : . رواه ابن إبى الدنيا ، والبزار والطبرانى . والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم[٥] .

قوله تعالى : ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ فهو سبحانه القادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض ، فيخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ، كما يفعل ضد هذا ، فيخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر ، وفى هذا دلالة على كمال قدرته وبديع صنعه ، وكون البيضة والنطفة كائنا حيا لاتعرفه العرب ولا تعترف به . . ﴿ ويحيى الأرض بعد موتها ﴾ أى ويحيى الأرض بالمطر ، فتخرج النبات الغض بعد أن كانت صعيدا جرزا .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾[٧] .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والاستغفار) ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٣٣/ ٢٦٩٦ .
وانظر الحديث أيضا بمعناه فى مسند أحمد ج ٤ ص ٣٥٦ مسند ابن أبى أوفى .

(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ (مسند أبى سعيد الخدرى)
وانظر الحاكم كتاب الدعاء ج ١ ص ٥١٢

(٣) والحديث فى مسند أحمد ج ٤ ص ٢٧١ مسند النعمان بن بشير
وانظر كتاب المستدرك (كتاب الدعاء) ج ١ ص ٥٠٣
ثم انظر الحديث فى سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٢٥٢ (كتاب الأدب) باب ٥٦ برقم ٣٨٠٩

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٥٢ مسند أنس

(٥) الحديث فى كتاب المستدرك للحاكم ج ١ ص ٥٠٢ . وقال ، هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٦) سورة يس آية ٣٣ .

(٧) سورة الحج آية ٥ .

﴿ وكذلك تخرجون ﴾ أى وكما سهل حركة النائم الساكن بالانتباه وإنماء الأرض بإنباتها بعد موتها - يسهل عليه إحياء الميت وإخراجه من قبره لفصل القضاء .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾[2] .

بعض آيات الله الناطقة بقدرته ووحدانيته

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

معانى المفردات

(تنتشرون : أى منتشرون فى الأرض تبتغون من فضل الله . لتسكنوا إليها : يقال سكن إليه إذا مال إليه واطمأن .

(١) سورة الروم آية ٥٠ . (٢) سورة فصلت آية ٣٩ .

مودة ورحمة : قال السدى : المودة ؛ المحبة . والرحمة ؛ الشفقة ، البرق : هو الشرارة الكهربائية التى تظهر فى الجو وخاصة عند السحب وينشأ عنها الرعد . قانتون : مخلصون فى طاعته . المثل الأعلى : الصفة العليا .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن أمر - سبحانه - بتنزيهه عن الأسواء والنقائص التى لاتليق بجلاله وكماله ذكر أن الحمد له على خلقه جميع الموجودات ، وبين قدرته على الإماتة والإحياء ، ذكر هنا - سبحانه - أدلة باهرة ، وحججا ظاهرة على البعث والإعادة ، ومنها خلقكم من التراب الذى لم يشم رائحة الحياة ، ولا مناسبة بينه وبين ماأنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم ، ثم إبقاء نوعكم بالتوالد ، فإذا مات الأب قام ابنه مقامه لتبقى سلسلة الحياة متصلة بهذا النوع وبسائر الأنواع الأخرى بالأزدواج والتوالد إلى الأجل الذى قدره الله لأمد هذه الحياة .

ثم أعقب ذلك بدلائل أخرى فى الأكوان المشاهدة ، والعوالم المختلفة ، وفى اختلاف ألوان البشر ولغاتهم التى لاحصر لها ، مع كونهم من أب واحد وأصل واحد ، وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلا ، وحركتهم السريعة نهارا . فى السعى على الأرزاق ، والجد والكد فيها . ثم ذكر سبحانه مايعرض للأكوان والآفاق ونشاهده رأى العين الفينة بعد الفينة ، مما فيه العبرة لمن اذكر ، ونظر فى العوالم نظرة متأمل معتبر فى بدائع الأكوان ، ليتوصل إلى معرفة مدبرها وخالقها الذى أحسن كل شىء خلقه ثم هدى . وبعد أن أقام الأدلة على الوحدانية وهى الأصل الأول ، وعلى القدرة على الحشر وهى الأصل الثانى - أعقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾

يقول الله تعالى ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ **ثم إذا أنتم ، بشر تنتشرون** ﴾ فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقة ، ثم مضغة ثم صار عظاما شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ، ويسافر فى أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ، ويكتسب ويجمع الأموال ، وله فكر وغور ودهاء ومكر ورأى وعلم واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب ، وفاوت بينهم فى العلوم والفكر والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾

أخرج الأمام أحمد بسنده عن أبى موسى قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين

ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن وبين ذلك » رواه أبو داود والترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح .[١]

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ أى خلق لكم من جنسكم إناثا لتكون لكم أزواجا . ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ أى لتأنسوا بها ، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام ، ونحو الآية قوله ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾[٢] . يعنى بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بن آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم أو من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة وهى المحبة ، ورحمة وهى الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو لرحمته بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه فى الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

ـ الآيات القرآنية فى الترغيب فى النكاح .

١ ـ قال تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله ﴾ ٣٢ من سورة النور وهذا أمر .

٢ ـ وقال تعالى : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ ٢٣٢ من سورة البقرة ، وهذا منع من العضل ، ونهى عنه .

٣ ـ وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية .. ﴾ ٣٨ من سورة الرعد ، فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل .

٤ ـ وقال تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ ٧٤ من سورة الفرقان : سبحانه مدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء .

فوائد النكاح وآفاته الناجمة من الانحراف عن جادة الصواب .

أولا : الولد لأنه المقصود بهذا العقد والتمتع البهيمى ، وفى التوسل إلى الولد قربة ، فلا يحب الصالح أن يلقى الله عزبا وتلبية الأمر بالزواج كما قال الغزالى :

١ ـ موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .

٢ ـ محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته .

٣ ـ طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده .

---

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٤٠٠ مسند أبى موسى .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٩

٤ ـ طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

ثانيا : التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة وغض البصر ، وحفظ الفرج .

ثالثا : ترويح النفس ، وإيناسها بالمجالسة ، والنظر ، والملاعبة إراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول ، وهى عن الحق نفور قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(١)

رابعا : تفريغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل الطبخ ، والكنس ، والفرش وتنظيف الأوانى وتهيئة أسباب المعيشة ، ولولا شهوة الوقاع لتعذر على الإنسان العيش فى منزله وحده .

قال أبو سليمان الدارنى فى رحمة الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فإنها تفرغك للآخرة ، وإنما تفريغها بتدبير المنزل ، وبقضاء الشهوة جميعا . وقال محمد بن كعب القرطبى به فى معنى قوله تعالى : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة . . ﴾ قال : المرأة الصالحة .

خامسا : مجاهدة النفس ورياضتها بالرغاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيته لأولاده .

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

(ماأنفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر على اللقمة يرفعها إلى فى امرأته)(٢)

وآفات النكاح

أولا : االعجز عن طلب الحلال خشية التوسع للطلب ، والإطعام من الحرام ، وربما يتبع هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه .

ثانيا : القصور عن القيام بحقهن ، والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن ، وفى هذا خطر لأنه راع ومسئول عن رعيته

قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول »(٣) .

وقال تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ أمرنا أن نقيهم النار كما نقى أنفسنا وذلك بفعل الطاعات وترك المحرمات .

ثالثا : أن يكون الأهل والولد شاغلا عن الله تعالى وجاذبا إلى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة

---

(١) سورة الروم آية ٢١

(٢) الحديث فى اتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ج ٥ ص ٣١٤ .

(٣) الحديث فى سنن أبى داود (كتاب الزكاة) باب صلة الرحم ج ٢ ص ٣٢١ وقال (أن يضيع من يقوت . ـ انظر صحيح مسلم كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك ج ٢ ص ٦٩٢ رقم ٦٩٦/٤٠ . وقال « كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته) .

للأولاد بكثرة جمع المال ، وادخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ماأشغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشئوم على صاحبه فينقل من التنعم المباح إلى الإغراق فى ملاعبة النساء ومؤانشتهن والإمعان فى التمتع بهن . .

ترغيب الزوج فى الوفاء بحق زوجته ، وحسن عشرتها والمرأة بحق زوجها وطاعته ، وترهيبها من إسقاطه ومخالفته .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كلكم راع ومسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ، ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » . رواه البخارى ومسلم(١)

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح(٢)

وقوله ﷺ خياركم لنسائهم أى أفضل المسلمين : المحسنون إلى أزواجهم

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ -

(خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى)(٣) . رواه ابن حبان فى صحيحه وقوله : (وأنا خيركم لأهلى) : برا ونفعا وفى هذا حث للمؤمنين على الاقتداء به ﷺ فى حسن معاملة الزوجة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : (استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وان أعوج مافى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء)(٤) رواه البخارى ومسلم وغيره .

(وإن أعوج مافى الضلع أعلاه) إشارة إلى أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع مبالغة فى إثبات هذه الصفة لهن ، ويحتمل أن يكون ضرب ذلك مثلا لأعلى المرأة لأن أعلاها رأسها ، وفيه لسانها ، وهو الذى يحصل منه الأذى ، واستعمال أعوج ، وإن كان من العيوب لأنه أفعل الصفة ، وأنه شاذ ،

---

(١) - الحديث فى صحيح البخارى ج ٢ ص ٦ كتاب الجمعة

- وانظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٩ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر رقم ٢٠/ ١٨٢٩

انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٩ - كتاب الإماره - باب فضيلة الإمام العادل . رقم ٢٠/ ١٨٢٩ .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٥ أبواب النكاح باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٢ . وقال حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ رقم ٤٣٦ : باب ذكر استحباب الاقتداء بالمصطفى .

انظر بسنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٣٦ كتاب النكاح باب حسن معاشرة النساء . رقم ١٩٧٧ .

(٤) انظر صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٤ كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء

الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ٦٠/ ١٤٦٨ .

انظر كنز العمال ج ١٦ ص ٣٧٣ حديث رقم ٤٤٩٥٨

وإنما يمتنع عند الالتباس بالصفة ، فإذا تميز عنه بالقرينة جاء البناء . (وكسره - طلاقها) .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لايَفْرَكْ مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر)[1] رواه مسلم

يفرك بسكون الفاء ، وفتح الياء ، والراء أيضا : أى يبغض .

والمعنى لايكره الزوج زوجته الصالحة الطائعة ، فإن لها محامد ومساوىء .

ولتضيع أخلاقها الحسنة شذوذها أحيانا ، فلكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة .

- وعن معاوية بن حيدة - رضى الله عنه - قال : قلت يارسول الله ماحق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : (أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ، ولاتقبح ولا تهجر إلا فى البيت)[2] رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه .

(لاتقبح) بتشديد الباء : أى لاتسمعها المكروه ، ولاتشتمها ، ولا تقل قبحك الله ، ونحو ذلك .

وعن عمر بن الأحوص الجشمى - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - فى حجة الوداع يقول : بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ . ثم قال : (ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان عندكم ، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ألا إن لكم على نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ، فحقكم عليهن أن لايوطئن فرشكم من تكرهون ، ولايأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن)[3] رواه ابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن صحيح . (عوان : أُسيرات)

(فاحشة مبينة) أى معصية ثابتة بيقين ، بعيدة عن التهم الكاذبة .

(غير مبرح) غير مهلك لم يؤذ بكسر .

(فلا تبغوا) فلا تطلبوا غير الطاعة طريقا .

(ألا يوطئن فرشكم من تكرهون) لايكون الفراش لأجنبى وطاء سهلا يتمتع بلذته

وعن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - :

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ٦١/ ١٤٦٩

(٢) الحديث فى سنن أبى داود ج ٢ ص ٦٠٦ كتاب النكاح باب حق المرأة على زوجها . رقم ٢١٤٢

- انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٤ كتاب النكاح باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥٠ .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٥ كتاب النكاح باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٣ وقال هذا حديث حسن صحيح .

- انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٤ كتاب النكاح باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥١

(أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة)[١] رواه الترمذى وحسنه
(وفيه الحث على إرضاء الزوج وطاعته والإخلاص له رجاء كسب نعيم الله ورضوانه .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -
(إذا صلت المرأة خمسها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها ، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت)[٢] رواه ابن حبان فى صحيحه .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سألت رسول الله - ﷺ -
(أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال : زوجها . قلت فأى الناس أعظم حقا على الرجل ؟ قال أمه)[٣] . رواه البزار وإسناده حسن

- وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : (جاءت امرأة إلى النبى ﷺ - فقالت : يارسول الله ! أنا وافدة النساء إليك هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا أجروا ، وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم عليهم ، فمالنا من ذلك ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله)[٤] رواه البزار هكذا مختصرا .
(وقليل منكن من يفعله أى من يقوم بحق الزوج) .

وعن ابن أبى أوفى - رضى الله عنه - قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبى - ﷺ - ، فقال رسول الله - ﷺ - « ماهذا ؟ قال يارسول الله . قدمت الشام ، فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفهم فأردت أن أفعل ذلك بك ؟ قال : لاتفعل فإنى لو أمرت شيئا أن يسجد لشىء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذى نفسى بيده لاتؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها »[٥] رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)[٦] . رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٤ .
انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٤ أبواب الرضاع باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٧١ . وقال هذا حديث حسن غريب .
(٢) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٦ ص ١٨٤ كتاب النكاح باب إيجاب الجنة للمرأة إذا أطاعت زوجها رقم ٤١٥١ . وقال . أبو حاتم . تفرد بهذا الحديث عبد الملك بن عمير من حديث أبى سلمة ومارواه عن عبد الملك إلا هدبة بن المنهال وهو شيخ أهوازى
- وانظر مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ كتاب النكاح باب ثواب المرأة على طاعتها لزوجها .
(٣) الحديث فى كشف الأستار عن زوائد البزار ج ٢ ص ١٧٦ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٤٦٢ . قال البزار ؛ لانعلمه مرفوعا إلا بهذا الإسناد ، وأبو عتبة لانعلم حدث عنه إلا مسعر .
(٤) الحديث فى زوائد البزار ج ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ كتاب النكاح باب ثواب من أطاعت زوجها رقم ١٤٧٤ . وقال البزار : لانعلم رواه عن ثابت إلا روح ، وهو بصرى مشهور
(٥) الحديث فى مسند ابن ماجة ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣ انظر صحيح ابن حبان ج ٦ ص ١٨٦ ، ١٨٧ كتاب النكاح باب استحباب الاجتهاد للمرأة فى قضاء حقوق زوجها رقم ٤١٥٩
(٦) الحديث فى سنن ابن ماجة ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٢
- انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٤ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٦٩ . وقال (وفى الباب عن معاذ بن جبل وسراقة بن مالك ابن جعشم وعائشة وابن عباس وعبد الله بن أبى أوفى وطلق بن على وأم سلمة ، أنس وابن عمر . حديث أبى هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه ، من حديث محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (لا يحل لامرأة أن تصوم ، وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه)[١] رواه البخارى ومسلم .

المراد صيام النفل والأفضل أن تفطر حتى إذا أراد منها شيئا فعل ولا تأذن بدخول أحد ، أو بتصدق ، أو ببيع شىء إلا بإذنه .

وعن زيد بن أرقم - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (المرأة لاتؤدى حق الله عليها حتى تؤدى حق زوجها كله ، ولو سألها وهى على ظهر قتب لم تمنعه نفسها)[٢] رواه الطبرانى بإسناد جيد .

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا)[٣] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح »[٤] رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى (إلى فراشه : كناية عن طلبها بجواره ليتمتع بها فظل طول ليله ساخطا عليها لعدم إجابتها اكتسبت دعوات الملائكة عليها بالطرد ، والاقصاء والعذاب : ودعاء الملائكة مستجاب .

وفى رواية للبخارى ومسلم قال رسول الله - ﷺ - : « والذى نفسى بيده مامن رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها »[٥] .

وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (ثلاثة لا تقبل لهم صلاة ، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة : العبد الآبق حتى يرجع إلى مواليه فيضع يده فى أيديهم ، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى ، والسكران حتى يصحو)[٦] رواه الطبرانى فى الأوسط وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٩ كتاب النكاح باب صوم المرأة بإذن زوجها تطوعا ط / الشعب .
(٢) الحديث فى مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٠٨ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة
- انظر صحيح ابن حبان ج ٦ ص ١٨٧ رقم ٤١٥٩ كتاب النكاح باب استحباب للمرأة فى قضاء حقوق زوجها .
- الحديث فى سنن ابن ماجة ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣
(٣) الحديث فى سنن ابن ماجة ج ١ ص ٦٤٩ كتاب النكاح باب فى المرأة تؤذى زوجها رقم ٢٠١٤
وانظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣٢٠ أبواب الرضاع باب ٠١٩ رقم ١١٨٤ وقال هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ورواية اسماعيل بن عياش عن الشاميين أصلح . وله عن أهل الحجاز وأهل العراق مناكير .
الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦ كتاب النكاح باب تحريم امتناعها من فراش زوجها رقم ١٢٢/ ١٤٣٦
(٤) الحديث فى صحيح البخارى كتاب النكاح باب اذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ج ٧ ص ٣٩
(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦٠ كتاب النكاح باب تحريم امتناعها من فراش زوجها رقم ١٢١/ ١٤٣٦
(٦) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٧ ص ٣٧٠ رقم ٥٣٣١
انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٣ رقم ٣٤

وعن ابن عمر - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره ، لعنها كل ملك فى السماء وكل شىء مرت عليه غير الجن والإنس حتى ترجع)[١] . رواه الطبرانى فى الأوسط .

وقد رهب الإسلام من الظلم عند تعدد الزوجات

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة ، وشقه ساقط)[٢] ، رواه الترمذى والحاكم وقال صحيح على شرطهما . وقال صحيح على شرطهما .

(شقه ساقط : أى مائل معوج والمعنى جاء على حالة نقص .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : (كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ، ويقول : (اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك)[٣] ، يعنى القلب ، رواه أبو داود والترمذى وقال مرسلا وهو أصح .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا)[٤] رواه مسلم .

ولو علم المسلم مدى ماعند الله تعالى من الأجر العظيم له لوقام على أهله بالمعروف والعدل والإحسان ، وأحسن تربيتهم ، وكان راعيا صالحا لشئونهم ، لو علم ذلك ماغمض له جفن عن رعايتهم وإسداء المعروف لهم .

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك)[٥] رواه مسلم .

وعن ثوبان - رضى الله عنه - مولى رسول الله ﷺ : قال - قال رسول الله ﷺ (أفضل دينار ينفقه الرجل . دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه على فرسه فى سبيل الله ، ودينار ينفقه

---

(١) الحديث فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٣ ، ١٠٤ . وقال رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورواته ثقات إلا سويد بن عبدالعزيز ، قال فى الميزان (سويد بن عبدالعزيز الدمشقى قاضى بعلبك أصله واسطى . قال ابن معين ليس حديثه بشىء ، وقال النسائى ليس بثقه ، وقال أبو حاتم لين ، وقال الدارقطنى يعتبر به .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٣٠٤ أبواب النكاح باب ماجاء فى التسوية بين الضرائر رقم ١١٥٠ . وقال : ولانعرف هذا الحديث مرفوعا إلا من حديث همام

- الحديث فى سنن أبى داود ج ٢ ص ٦٠١ كتاب النكاح باب فى القسم بين النساء رقم ٣١٣٣

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٣٠٤ . أبواب النكاح باب ماجاء فى التسوية بين الضرائر رقم ١١٤٩ . قال . وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة .

- انظر سنن أبى داود ج ٢ ص ٦٠١ كتاب النكاح باب فى القسم بين النساء . رقم ٢١٣٤ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨ / ١٨٢٧

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٢ رقم ٣٩ / ٩٩٥ كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك .

على أصحابه فى سبيل الله). قال أبو قلابة : بدأ بالعيال : ثم قال : أى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار ينفعهم الله به ويغنيهم ؟(١) رواه مسلم والترمذى .

وعن ابن مسعود البدرى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - :
قال : (إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة)(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

وعن عبد الله بن سعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعول أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك)(٣)
(أى اختر الأقرب فالأقرب) رواه الطبرانى بإسناد حسن .

وعن كعب بن عجرة - رضى الله عنه - قال : مر على النبى - ﷺ - رجل فرأى أصحاب رسول الله - ﷺ - جلده ونشاطه ، فقالوا يارسول الله . لو كان هذا فى سبيل الله فقال رسول الله - ﷺ - : (إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان)(٤) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

وروى عن جابر - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (أول مايوضع فى ميزان العبد نفقته على أهله)(٥) رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : (مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفا)(٦) . رواه البخارى خلفا : أى عوضا وزيادة ، والممسك : البخيل المقتر ، تلفا : خرابا ودمارا

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال قال رسول الله - ﷺ - : (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت)(٧) رواه أبو داود والنسائى .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩١ ، ٦٩٢ كتاب (الزكاة) باب فضل النفقة على العيال والمملوك . رقم ٩٩٤/٣٨
- وانظر سنن الترمذى ج ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ . أبواب البر والصلة . باب ماجاء فى النفقة على الأهل . وقال هذا حديث حسن صحيح .
(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ١ ص ٢١ ، ٢٢ كتاب الايمان باب ماجاء إن الأعمال بالنيات .
وانظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٥ رقم ٤٨/ ١٠٠٢
(٣) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ١ ص ٧٩ رقم ١٣٨٤ مع اختلاف فى الألفاظ : ورجاله رجال الصحيح .
- وانظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٦٤ مسند (حديث رجل من بنى يربوع رضى الله عنه)
- انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٩ ، ١١٠ . باب فى النفقة على الزوجة والعيال برقم ٧ وقال اسناد حسن .
(٤) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٩ ص ١٢٩ رقم ٢٨٢ . وقال فى المجمع ورجاله رجال الصحيح . وهو فى الثلاثة بإسناد واحد . وقال المنذرى فى الترغيب ورجاله رجال الصحيح .
- وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١١ . قال ورجاله رجال الصحيح .
(٥) الحديث فى الترغيب والترهيب ج ٣ باب نفقة الرجل على أهله صدقة ص ١١٣ رقم ١٤
(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٠ رقم ٥٧/ ١٠١٠
- وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٤ . وقال . وهو حديث مرسل فإن الحسن وهو البصرى لم يذكر الصحابى الذى روى عنه ولعله رواه عن أنس رضى الله عنه بدليل الحديث الذى بعده .
(٧) الحديث فى سنن أبى داود . كتاب الزكاة باب صلة الرحم ج ٢ ص ٣٢١

وعن الحسن - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : (إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته)(٥) رواه ابن حبان فى صحيحه .

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندى شيئا غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبى ﷺ علينا فأخبرته فقال :(من ابتلى من هذه البنات بشىء ، فأحسن إليهن كن له سترا من النار)(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى وفى لفظ له : من ابتلى بشىء من البنات فصبر عليهن كن له حجابا من النار) (فأحسن إليهن : بالإنفاق والتأديب وتعليم الدين وتقوى الله .

وعن أنس - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : (من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو ، وضم أصابعه)(٣) رواه مسلم .

(وعال : ربى وعاهد ، والمعنى تقرب منزلته فى الجنة بجوار منزلة رسول الله ﷺ) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

(مامن مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ماصحبتاه ، أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة)(٤)رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

وروى الطبرانى عن عوف بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال (مامن مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن حتى يبن أو يمتن إلا كن له حجابا من النار ، فقالت له امرأة : أو بنتان قال : وبنتان)(٥) .

وعن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ

(من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن ، وجبت له الجنة البتة ، قيل : يارسول الله فإن كانتا اثنتين ؟ قال : وإن كانتا اثنتين قال : فرأى بعض القوم أنه لو قال . واحدة لقال : واحدة)(٦) رواه أحمد بإسناد جيد .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألستكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾

يقول تعالى : **﴿ ومن آياته ﴾** الدالة على قدرته العظيمة **﴿ خلق السموات والأرض ﴾** أى خلق

---

(١) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٧ ص ١٢ كتاب السير باب ذكر الأخبار بسؤال الله عز وجل من استرعى رعية رقم ٤٤٧٥ - وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٥

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٧ كتاب البر والصلة باب فضل الإنسان إلى البنات رقم ١٤٧/ ٢٦٢٩ - انظر سنن الترمذى ج ٣ ص ٢١٣ ، ٢١٤ كتاب البر والصلة رقم ١٩٨٠ . وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٧ ، ٢٠٢٨ كتاب البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات رقم ١٤٩/ ٢٦٣١

(٤) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢١٠ كتاب الأدب باب بر الوالد والإحسان إلى البنات رقم ٣٦٧٠ .. بلفظ مامن رجل .

(٥) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ١٨ ص ٥٦ رقم ١٠٢ . وقال محققه وفيه النهاس بن فهم وهو ضعيف . قلت ورواه أحمد ولم ينسبه إليه .

(٦) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٠٣.

السماوات فى ارتفاعها واتساعها ، وشقوق أجرامها ، وزهارة كواكبها ، ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها ومافيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار .

وقوله تعالى : ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ يعنى اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، وهؤلاء فرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء تكرور ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء اكراد ، إلى غير ذلك مما لايعلمه إلا الله - تعالى - من اختلاف لغات بنى آدم واختلاف ألوانهم ، وهى حلاهم فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشىء من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا . يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئته لاتشبه أخرى ، ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿ **إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ ﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله** ﴾ أى ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم فى الليل والنهار فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾

أى يعون . قال الطبرانى حدثنا حجاج بن عمران السدوسى حدثنا عمرو بن الحصين العقيلى حدثنا محمد بن عبد الله بن علانه' حدثنا ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - قال أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال « قل اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حى قيوم ، ياحى ياقيوم أنم عينى - واهدىء ليلى »[1] فقلتها فذهب عنى . »

قوله تعالى :

﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾

ومن آيات الله تعالى فى كونه البرق . وهو تلك الشرارة الكهربائية التى تظهر فى الجو وخاصة عند السحب وينشأ عنها الرعد . فيكون فى رؤيته الخوف مما قد يكون وراء ذلك من الصواعق المهلكة المدمرة .

قال تعالى : ﴿ **ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال** ﴾[2] وقد يكون فى رؤية البرق الرجاء والطمع فيما يكون وراءه من المطر الذى يحيى الله به

---

(١) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٥ ص ١٣٤ رقم ٤٨١٧
وقال محققه قال فى المجمع ١٠/ ١٢٨ وفيه عمرو بن الحصين العقيلى وهو متروك .
(٢) سورة الرعد جزء من الآية ١٣

الأرض بعد موتها . إن فى ذلك ، الذى سبق ، لآيات لقوم يعقلون ويتدبرون ويعلمون أن هذه الآيات لايمكن أن تكون ناشئة عن الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء إنما هذه الآيات تصيح بلسان الحال والمقال قائلة : أنا مخلوقة للواحد الديان .

قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾

كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إذا اجتهد فى اليمين أقسم قائلا والذى تقوم السماء والأرض بأمره . ونحو الآية قوله تعالى

﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا** ﴾[1] .

وقوله جل شأنه ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه** ﴾[2]

وهذا منتهى الإتقان ولا عجب فإنه صنع الله الذى أتقن كل شيء . وستظل الحال هكذا ، فالسموات قائمة بأمره ، والأرض قائمة بأمره إلى أن يأذن ربك بقيام الساعة ، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية ، ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ **إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ماقدمت وأخرت** ﴾[3] . واقرأ قوله جل شأنه :

﴿ **فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك مايوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين** ﴾[4]

قوله تعالى : ﴿ **ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾

والمراد بالخروج هنا هو البعث والدعوة هى ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة** ﴾[5] وقوله جل شأنه : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾[6]

وقوله تبارك اسمه . ﴿ **وماأمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾[7] فسبحان من أقام الأدلة فى الأنفس والآفاق ليقطع المعاذير على كل ختار كفور وأفاك أثيم .

قوله تعالى : ﴿ **وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

ورد فى الحديث الشريف عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا (كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة)(٨)

---

(١) سورة فاطر آية ٤١
(٢) جزء من الآية ٦٥ من سورة الحج
(٣) سورة الإنفطار الآيات ١ ـ ٥
(٤) سورة المرسلات الآيات ٨ ـ ١٥
(٥) سورة النازعات آية ١٣ ، ١٤
(٦) سورة يس آية ٥٣
(٧) سورة القمر آية ٥٠
(٨) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ مسند أبى سعيد

فالكل عبيده ، والسموات والأرض ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته وله أسلم من فى السموات والأرض وإليه يرجعون . ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ للمفسرين أقوال فى هذا النص الكريم .

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس ، يعنى أيسر عليه ، وقال مجاهد الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هينة ، وكذا قال عكرمة وغيره.وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له

ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)(٢)

وقوله ﴿ **وله المثل الأعلى فى السموات والأرض** ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ وقال قتادة مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

فسبحان من دلت آياته على عظيم قدرته،وبرهنت آياته على دليل قدرته .

إذا سكن الغدير على صفاء رجنب أن يحركه النسيم
يرى فيه السماء بلا امتراء كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى يرى فى صفوها الله العظيم

وهو العزيز الذى لايغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شيء وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه الحكيم فى أقواله وأفعاله شرعا وقدرا . وعن مالك فى تفسيره المروى عنه عن محمد بن المنكدر فى قوله تعالى ﴿ **وله المثل الأعلى** ﴾ قال لاإله إلا الله .

مثل فى التوحيد

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٥ ، ٢٦

(٢) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٧٣٩ تفسير سورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ باب ٤٩٧٤

تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

معانى المفردات

مثلا : صفة غريبة تشبه المثل فى الغرابة .

نفصل : نوضح ونبين بعد ماظهرت الآيات الناطقة بالوحدانية والقدرة فى الإنسان وأطواره . وهذا الكون العجيب وأحواله وثبت بهذا أنه له المثل الأعلى والصفات العلى التى منها الوحدانية وغيرها ، ضرب مثلا لهؤلاء المشركين كشف به سترهم وقوض به حجتهم وكان المثل فى أقرب شىء لهم وهى نفوسهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾

قال الإمام بن القيم فى تفسير هذه الآية .

هذا دليل قياسى . احتج الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبده وملكه شركاء ، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم لايحتاجون فيها إلى غيرهم .

ومن أبلغ الحجاج . أن يأخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو فى نفسه مقرر عندها ، معلوم لها . فقال ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم ﴾ من عبيدكم وإمائكم شركاء فى المال والأهل ؟ أى هل يشارككم عبيدكم فى أموالكم وأهليكم فأنتم وهم فى ذلك سواء ؟ تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها ويستكثرون ببعضها عليكم ، كم يخاف الشريك شريكه ؟ !

وقال ابن عباس : تخافونهم أن يرثوكم ، يرث بعضكم بعضا .

والمعنى : هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه فى ماله وأهله حتى يساويه فى التصرف فى ذلك ؟ فهو يخاف أن ينفرد فى ماله بأمر يتصرف فيه ، كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار ، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بى من خلقى من هو مملوك لى ؟ فإن كان هذا الحكم باطلا فى فطركم وعقولكم ، مع أنه جائز عليكم ممكن فى حقكم ، إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة وإنما هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم وأنتم وهم عباد لى ، فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم فى حقى ؟ مع أن من جعلتموهم لى شركاء عبيدى وملكى وخلقى ؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولى العقول .

قوله تعالى : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين ﴾

لكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله ، اتبعوا أهواءهم جهلا منهم لحق الله عليهم ، فأشركوا

الآلهة والأوثان فى عبادته ، ولو قلبوا وجوه الرأى واستعملوا الفكر والتدبر لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق ووصلوا إلى سبيل الرشد ولكن أنى لهم ذلك ؟

﴿ فمن يهدى من أضل الله ﴾ أى فمن يهدى من خلق الله فيه الضلال وجعله كاسبا له باختياره لسوء استعداده وميله بالفطرة إليه وعلم الله فيه ذلك ؟

﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ أى وليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله وشديد انتقامه إذا حل بهم لأنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن .

الإسلام دين الفطرة

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

معانى المفردات

(حنيفا) : مائلا عن جميع الأديان المحرفة (فطرة الله) : خلقة الله (القيم) : المستقيم على الطريق الحق ، (منيبين إليه) : مقبلين عليه . (شيعا) : جمع شيعة وهى الحزب والجماعة المتشيعة لإمامها (حزب) : الحزب الجماعة المتحزبة المتجمعة حول رأى خاص .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عدد سبحانه البينات والأدلة على وحدانيته ، وأثبت الحشر وضرب لذلك المثل ، وسلى رسوله ووطن عزيمته على اليأس من إيمانهم ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، فلا مخلص لهم مما هم فيه ، ولا ينقذهم من ذلك لاهو ولا غيره فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . أعقب ذلك بأمره بالاهتمام بنفسه ، وعدم المبالاة بأمرهم ، وإقامة وجهه لهذا الدين غير ملتفت عنه يمنة ولا يسرة ، فهو فطرة الله التى خلق العقول معترفة بها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ﴾ هذا أمر من الله تعالى إلى رسوله بتسديد وجهه إلى دين الله الحنيف المائل عن كل انحراف ، والخطاب كذلك موجه إلى كل عاقل رشيد رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ذلك لأن التوحيد هو فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل

لخلق الله،ذلك لأن الله تعالى خلق جميع عباده على تلك الفطرة دون تبديل أو تغيير . جاء فى الحديث : « إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم »[١] وقد يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ لاتبديل لخلق الله ﴾ أى لاتبدلوا خلق الله بتغيير فطرة التوحيد ، فيكون خبرا يفيد النهى والإنشاء كما فى قوله : ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾[٢] أى أمنوا من دخله . ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أى المستقيم الذى لاانحراف ولا اعوجاج فيه ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[٣] إن المستقيم أقرب صلة بين نقطتين وقد لقننا الله تعالى تلك الدعوة فى سورة الفاتحة ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ كما أمر باتباع هذا الصراط فقال : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[٤]. قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ لأنهم اتبعوا الهوى ، والنفس الأمارة بالسوء ، وأصروا واستكبروا استكبارا عن الحق ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾[٥] والناس أعداء ماجهلوا وإذا كانوا لايعلمون فإنهم جاهلون وعلى أعينهم غشاوة . قال تعالى :

﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا.الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لايستطيعون سمعا ﴾[٦]

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « مامن مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »[٧]. ثم يقول ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾

وروى الإمام أحمد بسنده عن الحسن عن الأسود بن سريع قال :

أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه فأصبت ظفرا فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « مابال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟

---

(١) هذا الحديث جزء من حديث (ألا إن ربى أمرنى أعلمكم ماجهلتم . .)
صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٩٧ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة رقم ٦٣/ ٢٨٦٥

(٢) جزء من الآية ٩٧ من سورة آل عمران

(٣) سورة الأنعام الآيات ١٦١ ـ ١٦٤

(٤) سورة الأنعام آية ١٥٣

(٥) سورة فصلت الآيتان ٥ ، ٦

(٦) سورة الكهف الآيتان ١٠٠ ، ١٠١

(٧) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ مسند أبى هريرة .

فقال رجل : يارسول الله أما هم أبناء المشركين فقال لا إنما خياركم أبناء المشركين - ثم قال - لاتقتلوا ذرية لاتقتلوا ذرية - وقال - كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها »[1]

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول أولاد المسلمين مع المسلمين وأولاد المشركين مع المشركين حتى حدثنى فلان عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » قال : فلقيت الرجل فأخبرنى فامسكت عن قولى »[2]

وروى الإمام أحمد بسنده عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته : « إن ربى عز وجل أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علمنى فى يومى هذا : كل مانحلته عبادى حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ماأحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك ، وأنزلت عليك كتابا لايغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ثم إن الله أمرنى أن أحرق قريشا ، فقلت ربى إذا يثلغ رأسى فيدعه خبزة قال : استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك ، وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك - قال - : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، ورجل عفيف متعفف ذو عيال ؤ قال -وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لازبر له الذين هم فيكم تبعا لايبتغون أهلا ولامالا ، والخائن الذى لايخفى له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لايصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك »[3]

قوله تعالى : ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ . الإنابة : هى الرجوع إلى الله تعالى . والتقوى هى : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

تزود من التقوى فإنك لاتدرى ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ... وقد نسجت أكفانه وهو لايدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

وإقامة الصلاة الإتيان بها مستقيمة كاملة بأركانها وشروطها وسننها ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ أى اثبتوا على التوحيد فإلهكم إله واحد لاإله إلا هو الرحمن الرحيم .

---

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٣٥ مسند الأسود بن سريع
(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢١٥ مسند ابن عباس
(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٦٦ مسند عياض بن حماد وانظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٩٧ ، ٢١٩٨ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب الطفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة رقم ٦٣/ ٢٨٦٥ .

روى ابن جرير بسنده عن يزيد بن أبي مريم قال : مر عمر - رضى الله عنه - بمعاذ بن جبل فقال عمر . ماقوام هذه الأمة قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات الإخلاص وهى الفطرة . . فطرة الله التى فطر الناس عليها . والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة . فقال عمر صدقت .

قوله تعالى : ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أى لاتكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أى بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم : فارقوا دينهم . أى تركوه وراء ظهورهم وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ﴾ الآية[1] فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء ، وهذه الأمة أيضا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال : « من كان على من أنا عليه اليوم وأصحابى » .

بيان طبيعة الناس مع توجيهات لهم

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

معانى المفردات

(ضر) : المراد شدة وبلاء : (سلطانا) : حجة قوية تتسلط عليهم (يقنطون) : القنوط اليأس من رحمة الله . (يبسط) : يوسع (يقدر) : يضيق ﴿ وما آتيتم من ربا ﴾ : المراد مافعلتم من ربا وجئتم به . (المضعفون) : مأخوذ من أضعف إذا صار ذا ضعف بأن يضاعف له ثواب ماأعطاه كأقوى وأيسر إذا صار ذا قوة ويسار .

المناسبة وإجمال المعنى

لما أرشد سبحانه إلى التوحيد ، وأقام الأدلة عليه ، وضرب له المثل ؛ أعقبه بذكر حال للمشركين يعرفون بها ، وسيماء لاينكرونها ، وهى أنهم حين الشدة يتضرعون إلى ربهم ، وينيبون إليه ، فإذا خلصوا منها رجعوا إلى شنشنتهم الأولى ، وأشركوا به الأوثان والأصنام ، فليضلوا ماشاءوا ، فإن لهم يوما يرجعون فيه إلى ربهم ، فيحاسبهم على مااجترحوا من السيئات ، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل ، حتى يكون لهم شبه العذر فيما يفعلون ، بل هو الهوى المطاع ، والرأى المتبع ، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقيهم ، وهم من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا ، فإن آتاهم ربهم منها رضوا ؛ وإذا منعوا منها سخطوا وقنطوا ، وقد كان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقتارها بيده وحده ، وقد جعل ذلك أسبابا متى سلكها فاعلها وصل إلى مايريد ، وليس علينا إلا أن تطمئن نفوسنا إلى مايكون ، فكله بقدر الله وقضائه ، وعلينا أن نستسلم له ، ونعمل ، ونعمل ماطلب إلينا عمله من الأخذ فى الأسباب والجد فى العمل جهد الطاقة .

وبعد أن بين سبحانه أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر - أردف ذلك ببيان أنه يحب الإحسان على ذوى القربى وذوى الحاجات من المساكين وأبناء السبيل فإنه إذا بسط الرزق لمن ينقصه الإنفاق ، وإذا قدر لم يزده الإمساك .

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ⁂ على الناس طرا إنها تتقلب
فلا الجود يغنيها إذا هى أقبلت ⁂ ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن حال فريق من الناس فى الضراء والسراء إنهم إن أصابهم ضر من فقر أو مرض أو شدة توجهوا إلى الله بالدعاء طالبين كشف الضر ، فإذا ماأذاقهم الله منه رحمة فكشف مابهم من ضر وأسبغ عليهم نعمة أشركوا به غيره وأسندوا الفضل إلى من لايملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا

أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ماكانوا يعملون ﴾[١]
ماعاقبة هؤلاء الضالين . قال تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ أى ستكون عاقبتهم الكفر بما آتاهم الله من نعم وأسبغ عليهم من آلاء فتمتعوا فسوف تعلمون . هذا تهديد ووعيد منه تعالى لهؤلاء كما فى قوله جل شأنه ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾[٢] . قال بعضهم والله لوتوعدنى حارس درب لخفت منه فكيف والمتوعد ههنا هو الذى يقول للشيء كن فيكون . ثم قال تعالى منكرا على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان .

﴿ أم أنزلنا عليهم سلطانا ﴾ أى حجة ﴿ فهو يتكلم ﴾ أى ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ وهذا استفهام إنكار أى لم يكن لهم شيء من ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه ، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر . وقال ﴿ ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ﴾[١] أى يفرح فى نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾[٤] أى صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء كما ثبت فى الصحيح « عجبا للمؤمن لايقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »[٩] . وقال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ قوله تعالى : ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ هذا أمر منه ـ سبحانه وتعالى ـ بإيتاء ذى القربى حقه من البر والصلة والإحسان كذلك إعطاء المسكين الذى لايملك شيئا أو يملك مالا يكفيه ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر الذى يحتاج إلى مايعينه من النفقة فذلك كله خير للذين يقصدون ماعند الله ويؤدون العمل خالصا لوجهه تبارك وتعالى ، وهؤلاء هم الذين حكم الله لهم بالفلاح فى قوله : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ أى من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لاثواب له عند الله ، بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبى ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله

---

(١) سورة يونس آية ١٠
(٢) سورة الحجر آية ٣
(٣) سورة هود جزء من آية ١٠
(٤) سورة هود جزء من الآية ١١
(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٥ كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير رقم ٦٤/ ٢٩٩٩

الضحاك وآستدل بقوله تعالى : ﴿ ولاتمنن تستكثر ﴾[(١)]
أى لاتعط العطاء تريد أكثر منه ؛ فمن كان يريد ثواب الله فليدفع من ماله الزكاة فإنها نماء وطهارة وبركة ويريد بها وجه الله تعالى دون رياء أو سمعة . إن الذين يفعلون هذا هم المضعفون الذين يضاعف لهم الثواب يوم القيامة ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾[(٢)] ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ماأنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[(٣)]
وقال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾[(٤)]
وقال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾[(٥)]
وفى الصحيح : « ماتصدق أحد بعدل ثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيلة حتى تصير التمرة أعظم من أحد »[(٦)]
وروى عن أبى برزة الأسلمى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله عز وجل حتى تكون مثل أحد)[(٧)] . رواه الطبرانى فى الكبير .
ـ معنى الكسرة : القطعة من الخبز .
وروى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله عز وجل ليدخل باللقمة الخبز ، وقبصة التمر ، ومثله مما ينتفع به المسكين ثلاثة الجنة : رب البيت الآمر به ، والزوجة تصلحه ، والخادم الذى يناول المسكين ، فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى لم ينس خدمنا)[(٨)] . رواه الحاكم والطبرانى فى الأوسط .
ـ معنى (القبصة) بفتح القاف وضمها ، وإسكان الباء ، وبالصاد المهملة : هو مايتناوله الآخذ برءوس أنامله الثلاث .
وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال :
(مانقصت صدقة من مال ، ومازاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل)[(٩)] رواه مسلم والترمذى ، ورواه مالك مرسلا .
وروى عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (ياأيها

---

(١) سورة المدثر آية : ٦
(٢) سورة البقرة آية : ٢٦١
(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٢
(٤) سورة البقرة آية : ٢٦٥
(٥) جزء من الآية ٣٩ من سورة سبأ
(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٢ كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب رقم ٦٣/ ١٠١٤
(٧) الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٢٦٨ ، مسند أبى هريرة .
وأنظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ٣٣٣
(٨) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٤ ص ١٣٤ ، ١٣٥ كتاب الأطعمة . وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .
(٩) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٠١ كتاب البر والصلة باب استحباب العفو والتواضع رقم ٦٩/ ٢٥٨٨

الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا)[1] . رواه ابن ماجة .

- معنى : ﴿ كثرة ذكركم له ﴾ أى داوموا على ذكر الله وحمده وتسبيحه واستغفاره والصلاة على حبيبه ﷺ .

- ومعنى ﴿ تجبروا ﴾ تجب دعواتكم وتغتنوا .

من دلائل التوحيد ونتائج الأعمال

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

معانى المفردات

(الفساد) : الجدب ، وأخذ المال ظلما ، والمفسدة ، ضد المصلحة .

(يرجعون) : يثوبون إلى رشدهم ويؤمنون بربهم . (لامرد له) : لا راد له ولا مانع منه .
(يصدعون) : يتفرقون (يمهدون) : يوطئون لأنفسهم فراشا ومسكنا وقرارا .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه ، وأشركوا به غيره ، والشرك سبب الفساد ، كما

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٣٤٣ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب فى فرض الجمعة رقم ١٠٨١

يرشد إلى ذلك قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[1] - أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمات الله ، واجترحوا المعاصى ، وفشا بينهم الظلم والطمع ، وأكل القوى مال الضعيف ، فصب عليهم ربهم سوط عذابه ، فكثرت الحروب ، وافتن الناس فى أدوات التدمير والإهلاك ، فمن غائصات البحار تهلك السفن الماخرة فيها ، إلى طائرات قاذفات للحمم والمواد المحرقة ، إلى مدافع تحصد الناس حصدا ، إلى دبابات سميكة الدروع تهد المدن هدا ؛ وما الحرب القائمة الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية ، والمجازر البشرية التى سلط الله فيها العالم بعضه على بعض ، فارتكب المظالم ، واجترح المآثم ، والإنسان فى كل عصر هو الإنسان .

وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم ، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم ، فليجعلوا من سبقهم مثلا لهم ، ليتذكروا عقاب الله وشديد عذابه للمكذبين . وبعد أن نهى الكافر عن بقائه على حاله التى هو عليها خيفة أن يحل به سوء العذاب أردف ذلك أمر رسوله ومن تبعه بالثبات على ماهم عليه ، بعبادتهم الواحد الأحد ، قبل أن يأتى يوم الحساب ، الذى يتفرق فيه العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، فمن كفر فعليه وبال كفره ، ومن عمل صالحا فقد أعد لنفسه مهادا يستريح عليه بما قدم من صالح العمل . وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه مالا يخطر له ببال ، ولا يدور له فى حسبان والكافر سيلقى فى هذا اليوم العذاب والنكال ، لأن ربه يبغضه ويمقته جزاء مادسى به نفسه من سيىء العمل .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ الخالق الرازق هو الله وحده ، والمحيى المميت هو الله وحده . الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل . ﴿ ذلكم الله ربكم لاإله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل. لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[2] . يقول جل شأنه : ﴿ ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾[3] وهكذا جمعت الآيتان بين الخلق والرزق .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى ﴾[5] وقال : ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾[6] وقال : ﴿ ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . الذى

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢
(٢) سورة الأنعام الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣
(٣) سورة البقرة آية ٢١ ، ٢٢
(٤) سورة النساء آية ١
(٥) سورة الأعلى آية ١ ، ٢
(٦) سورة الأعراف آية ١٨٩

خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ماشاء ركبك . ﴾[1] . ثم قرن الرزق بالخلق لأن الرزق قضية طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها أعماق القلوب . ومن ثم فقد أكدها القرآن إلى أبعد مدى من التوكيدات . قال تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[2] وقال : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[3] وقال جل شأنه : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[4] وقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾[5] وقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾[6] وقال : ﴿ وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾[7]

فاعلم ياابن آدم أنه لايملك الروح والرزق إلا الله فلو ركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فمه .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل	الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا	لكنه خلق الإنسان من عجل

واعلم أنه ماقدر على ماضغيك أن تمضغاه فلابد أن تمضغاه فامضغه بعزة .

لاتخضعن لمخلوق على طمع	فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة	إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعز به	وكن عفيفا وعظم حرمة الدين
واستغن بالله عن دنيا الملوك	كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه	فإن رزقك بين الكاف والنون

ومن هنا فإن الله تعالى ذكر الخلق والرزق بصيغة الماضى ليفيد معنى الثبوت والاستقرار، ثم ذكر الموت والحياة بصيغة المضارع ليفيد أنهما سيأتيان فيما بعد لامحالة فقال : ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ ثم قال : ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ﴾ ثم أجاب سبحانه قائلا : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ واقرأ معنى قوله جل جلاله : ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[8] سبحانك اللهم خلقتنا فأنت على كل شىء قدير ورزقتنا فأنت أكرم الأكرمين ، وتميتنا لأنك أنت الجبار ذوة القوة المتين،

---

(١) سورة الانفطار الآيات ٦ ، ٧ ، ٨
(٢) سورة الذاريات آية ٢٢ ، ٢٣
(٣) سورة الذاريات الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨
(٤) سورة هود آية ٦
(٥) سورة الأنعام جزء من الآية ١٥١
(٦) سورة الإسراء آية ٣١
(٧) سورة العنكبوت آية ٦٠
(٨) سورة النمل آية ٦٤

وتحيينا فأنت أعدل العادلين وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين .

قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ لأئمة التفسير فى هذه الآية أقوال نبينها فى مايلى : قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدى وغيرهم : المراد بالبر ههنا الفيافى وبالبحر الأمصار والقرى ، وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار ، والقرى ماكان منها على جانب نهر ، وقال آخرون بل المراد بالبر هو البر المعروف وبالبحر هو البحر المعروف ، وقال زيد بن رفيع ﴿ ظهر الفساد ﴾ يعنى انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعنى دوابه ، رواه ابن أبى حاتم . وقال : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد بن المقرى عن سفيان عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر ﴾ قال فساد البر قتل ابن آدم ، وفساد البحر أخذ السفينة غصبا ، وقال عطاء الخراسانى المراد بالبر مافيه من المدائن والقرى ، وبالبحر جزائره . والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون ، ويؤيده ماقاله محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة وكتب إليه ببحره يعنى ببلده .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ﴾ أى بأن النقص فى الزروع والثمار بسبب المعاصى .

وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : (لَحَدٌّ يقام فى الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا)[١] والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطى المحرمات ، وإذا تركت المعاصى كان سببا فى حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام فى آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية وهو تركها فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج قيل للأرض أخرجى بركتك فيأكل من الرمانة الفئام من الناس ويستظلون بحقفها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس وماذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد - ﷺ - فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير ، ولهذا ثبت فى الصحيحين (أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)[٢] . وقال الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن أبى مخذم قال : وجد رجل فى زمان زياد أو ابن زياد حبرة فيها حب يعنى من بر أمثال النوى مكتوب فيها هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل ، وروى مالك عن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ههنا الشرك ، وفيه نظر وقوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ الآية . أى يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارا منه لهم ومجازاة على صنيعهم . ﴿ لعلهم يرجعون ﴾

---

(١) الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى ج ٨ ص ١٦٢ كتاب قتال أهل البغى باب فضل الإمام العادل .
- الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٦٢ مسند أبى هريرة
- انظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ٨٤٨ كتاب الحدود باب إقامة الحدود رقم ٢٥٣٧ ، ٢٥٣٨

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الجنائز باب ماجاء فى مستريح ومستراح منه ج ٢ ص ٦٥٦ رقم ٦١/ ٩٥٠

أى عن المعاصى . كما قال تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾[١] قال ابن زيد المراد بالفساد الذنوب .

قال الإمام ابن القيم : قلت : أراد أن الذنب سبب الفساد الذى ظهر ، وإن أراد أن الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها .

فيكون اللام فى قوله ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الأول : فالمراد بالفساد : النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصى العباد فكلما أحدثوا ذنبا أحدث الله لهم عقوبة . كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ فهذا حالنا دائما ، أذاقنا الله الشىء اليسير من أعمالنا ، فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾

أى الذين من قبلكم . ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ أى فانظروا ماحل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم وذلك كقوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[٢] ثم يقول سبحانه : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٣]

قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لايحب الكافرين ﴾

يقول تعالى آمرا عباده بالمبادرة إلى الاستقامة فى طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات ، ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله ﴾ أى يوم القيامة إذا أراد كونه ، فلا راد له ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ أى يتفرقون . ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ولهذا قال تعالى :

﴿ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ أى يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى مايشاء الله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم الذى لايجور .

من آياته فى الرياح والمطر

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ

(١) جزء من الآية ١٦٨ سورة الأعراف

(٢) سورة الانعام آية ١١

(٣) سورة العنكبوت آية ٤٠

وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

معانى المفردات

(مبشرات) : تبشر بالخير (أجرموا) : فعلوا جرما وارتكبوا إثما . (فتثير) : تهيجه وتحركه (فيبسطه) : المراد ينشره متصلا بعضه ببعض . (كسفا) : جمع كسفة وهى القطعة من الشىء (لمبلسين) : يقال أبلس الرجل فهو مبلس سكت فلم ينطق وقيل أيس . (مصفرا) : أى رأوا الزرع مصفرا لجفافه (الرياح) : جمع ريح قال أبو عمر : كل ماكان بمعنى الرحمة فهو جمع . وماكان بمعنى العذاب فهو مفرد ، وعليه قول النبى - ﷺ - : (اللهم اجعلها رياحا ولاتجعلها ريحا)[1] : (فترى الودق) الودق هو المطر .

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه أن الفساد ظهر فى البر والبحر بسبب الشرك والمعاصى ، نبههم إلى دلائل وحدانيته بما يشاهدونه أمامهم من إرسال الرياح وبالأمطار ، فتحيا بها الأرض بعد موتها . وجرى الفلك حاملة لما هم فى حاجة إليه ، مما فيه غذاؤهم ، وعليه مدار حياتهم .

---

(١) الحديث فى كنز العمال ج ٧ ص ٧٥ حديث رقم ١٨٠٣٣ . وقال محققه . رواه الطبرانى وفيه حسن بن قيس - وهو متروك وبقية رجاله رجال الصحيح ؛

ولما ذكر سبحانه البراهين الساطعة الدالة على الوحدانية والبعث والنشور ، ولم يرعوِ بها المشركون ، بل لجوا فى طغيانهم يعمهون ، سلى رسوله - ﷺ - فذكر له أنك لست أول من كذب ، فكثير ممن قبلك جاءوا أقوامهم بالبينات ، فلم تغنهم الآيات والنذر ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون ، ولنجرين عليك وعلى قومك سنننا ، ولننتقمن منهم ، ولننصرنك عليهم ، فالعاقبة للمتقين .

وبعد أن سلى رسوله - ﷺ - على مايلاقيه من أذى قومهُ ببيان أنه ليس ببدع فى الرسل ، فكأين من رسول قبله قد كذب ، ثم دالت الدولة على المكذبين ، ونصر الله رسوله والمؤمنين ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فأتبع البرهان بالبرهان لإثبات الوحدانية ، وإمكان البعث والنشور بما يشاهد من الأدلة فى الآفاق ، مرشدة إلى قدرته ، وعظيم رحمته ، ثم بما يرى فى الأرض الموات من إحيائها بالمطر ، وهو دليل لائح يشاهدونه ، ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين ، والفينة بعد الفينة ، أفليس فيه حجة لمن اعتبر ومقنع لم ادكر ؟

وبعد أن ذكر سبحانه صنوف الأدلة ، ثم ضرب المثل على توحيده . ووجوب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وصحة بعث الأجسام يوم القيامة .

ووعد وأوعد بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ثم مازادهم دعاء الرسول إلا إعراضا ، ولا تكرار النصح إلا إصرارا وعنادا - أردف هذا تسليته على مايراه من التمادى فى الإعراض ، وكثرة العناد واللجاج ، فأبان أن هؤلاء كأنهم موتى ، فأنى لك أن تسمعهم ، وكأنهم صم ، فكيف يسمعون دعاءك حتى يستجيبوا لك ؟ إنما الذى يستجيب من يؤمن بآيات الله ، فهو إذا سمع كتابه تدبره وفهمه ، فيخضع لك بطاعته ، ويتذلل لمواعظ كتابه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله** ﴾

أى ومن الأدلة على وحدانيته تعالى ، والحجج القائمة على أنه رب كل شىء أنه يرسل الرياح من حين إلى آخر مبشرات بالغيث الذى به تحيا الأرض وينبت الثمر والزرع فتأكلون منه مالذ ، حاملة للأقوات وأنواع الثمار منتقلة من قطر إلى قطر ، فتأتى بما فى أقصى المعمور من الشرق إلى أقصاه فى الغرب والعكس بالعكس ، فلا تحتجبن الثمرات والأقوات فى أماكنها وتكون وقفا على قوم بأعيانهم .

﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أى وليعدكم لشكره كفاء ماأسدى إليكم من نعمه الوفيرة وخيراته العميمة التى لاتحصى كما قال: ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾

أى ولقد أرسلنا أيها الرسول رسلا من قبلك إلى أقوامهم الكافرين كما أرسلناك إلى قومك عابدى

الأوثان من دون الله فجاءوهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند الله فكذبوهم كما كذبك قومك، وردوا عليهم ماجاءوهم به من عنده ، كما ردوا عليك ماجئتهم به ، فانتقمنا من الذين اجترحوا الآثام واكتسبوا السيئات من أقوامهم ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله ، ونحن فاعلو ذلك بمجرمى قومك وبمن آمن بك سنة الله التى شرعها لعباده ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو لايخلف الميعاد . أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه والترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « مامن مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة »[1] ثم تلا ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ .

ولا يخفى مافى هذا من الوعد والبشارة بالظفر على أعدائه والوعيد والنكال والخسران فى المآل ، لمن كذب به من قومه .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾

أى : الله الذى يرسل الرياح فتنشىء سحابا فينشره ويجمعه جهة السماء تارة سائرا وأخرى واقفا وحينا قطعا فترى المطر يخرج من وسطه فإذا أصاب به بعض عباده فرحوا به لحاجتهم إليه .

﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾

أى : وقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم قانطين يائسين من نزوله ، فلما جاءهم على فاقة وحاجة وقع منهم موقعا عظيما .

والخلاصة : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ومن قبل ذلك أيضا إذا هم ترقبوه فى إبانه فتأخر ، ثم مضت فترة فترقبوه فيها فتأخر ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط وبعد أن كانت أرضهم هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

﴿ فانظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾ أى:فانظر أيها الرسول أثر الغيث الذى أنبت من الزرع والأشجار والثمار وفيه الدليل الكافى على عظيم القدرة وواسع الرحمة .

وإذا قد ثبتت قدرته على إحياء الميت من الأرض بالغيث ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها وتفرقها وتمزقها إربا إربا ومن ثم قال :

﴿ إن ذلك لمحى الموتى ﴾ أى:أن ذلك الذى قدر على إحياء الأرض قادر على إحياء الأجسام حين البعث .

ثم أكد هذا بقوله ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ فلا يعجزه شىء فإحياؤكم من قبوركم هين عليه ونحو الآية قوله ﴿ قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾[2]

---

(١) الحديث فى شرح السنة للبغوى ج ١٣ ص ١٠٦ حديث رقم ٣٥٢٨ وقال فيه ليث وشهر وحى ضعيفان ـ الحديث فى سنن الترمذى ج ٣ ص ٢١٩ أبواب البر والصلة باب ماجاء فى الذب عن المسلم . رقم ١٩٩٦ .

(٢) سورة يس جزء من الآيتان ٧٨ ، ٧٩

ثم ذمهم على تزلزلهم وسوء اضطرابهم ، فإذا أصابهم الخير فرحوا به وإن أصابهم السوء يئسوا وأبلسوا وانقطع رجاؤهم من الخير فقال :

﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾

أى ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة على الزرع الذى زرعوه ونما واستوى على سوقه فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرته ـ لظلوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يجحدون نعم الله السابقة عليهم . ولا يخفى ماقى ذلك من المبالغة فى احتقارهم لتزلزلهم فى عقيدتهم ، إذا كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله فى كل حال ويلجأوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر ولا ييأسوا من روح الله ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جل وعلا برحمته وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه لكنهم قد عكسوا الأمر ، وأبوا مايجديهم وأتوا بما يؤذيهم .

إفراد الريح وجمعها

بعد أن تحدث ابن القيم فى كتابه « بدائع الفوائد » عن إفراد السماء فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾(١) من سورة يونس وجمعها فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾(٢) من سورة سبأ ، قال : ومن هذا الباب ذكر الرياح فى القرآن جمعا ومفردة ، فحيث كانت فى سياق الرحمة أتت مجموعة ، وحيث وقعت فى سياق العذاب أتت مفردة ، وسر ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها مما يكسر سورتها ، ويصدم حدتها فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكل ريح منها فى مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها ، فكانت فى الرحمة ريحا ، وأما فى العذاب فإنها تأتى من وجه واحد وحمام واحد لا يقوم لها شىء ولا يعارضها غيرها حتى تنتهى إلى حيث أمرت ، لا يرد سورتها ولا يكسر شدتها ، فتمتثل ما أمرت به وتصيب ما أرسلت إليه ، ولهذا وصف ـ سبحانه ـ الريح التى أرسلها على عاد بأنها عقيم ، فقال : ﴿ فأرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾(٣) وهى التى لا تلقح ، ولا خير فيها ، والتى تعقم ما مرت عليه ، ثم تأمل كيف اطرد هذا إلا فى قوله فى سورة يونس : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ﴾(٤) فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الافراد ؛ لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها ، فإذا اختلف عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك ،

---

(١) من الآية : ٣١ من سورة يونس
(٢) من الآية : ٢٤ من سورة سبأ
(٣) من الآية : ٤١ من سورة الذاريات .
(٤) من الآية ٢٢ من سورة يونس .

فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح ، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعا لتوهم أن تكون ريحا عاصفة ، بل هى مما يفرح بها لطيبها ، فلينزه الفطن بصيرته فى هذه الرياض الموفقة المعجبة التى ترقص القلوب لها فرحا ويتغذى بها عن الطعام والشراب ، والحمد لله الفتاح العليم . فمثل هذا الفصل يعض عليه بالنواجز وتثنى عليه الخناصر ، فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله ، والله الموفق للصواب .

منطق العلم

وللعلم كلمته الدالة على قدرة العلى الحكيم وعظمته ووحدانيته وما له من قوة فائقة فى صنع هذا الكون وظواهره : من سحاب ومطر ورياح وجبال وكهربائية جوية ، ولنسلط الأضواء على تلك المخلوقات لنقف على مدى ما تشتمل عليه من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

السحاب

هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العلوية كما يتكاثف الضباب فى الطبقات القريبة من الأرض ، ولابد لتكوين السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرهما فى الهواء العلوى ، الأول : أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار . والثانى : أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكل هواء يكفى فى زيادة تشبعه ان يبرد تبريدا كافيا ، لكن من الواضح انه كلما كانت نسبة الرطوبة فى الهواء اكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر ، فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الاساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجو فى تلك المناطق ، وثانيا قلة الضغط فى المناطق الجوية العليا ، فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدريج كلما زاد الارتفاع ، ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد ؛ لأنه يتمدد أثناء صعوده ، ويزداد تمدده كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها ، فالهواء إذا صعد يبرد مرتين ، مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ، ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معا حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد فكونت سحبا عظيمة ، قاعدتها أفقية حيث ابتداء زيادة التشبع ، وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل فى تمددها ، هذا هو السحاب الركام ، ويكثر فى العواصف الرعدية ، ويكون عندئذ عظيم العمق عظيم الارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية ، فإن الريح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت بريح باردة انخفضت درجة حرارة الأولى ، وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيرا ما تكون فوق مقدرة الريحين أن تحملاها فى درجة الحرارة الناتجة ، أى : كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين : دافئة وباردة ريح واحدة فوق المشبعة وقد كان

الريحان من قبل غير مشبعتين .

وقد تمر الباردة من تحت الساخنة فى الطبقات العلوية فيتكون السحاب بينها عند محتكها ويكون السحاب عندئذ متموجا لتموج الهواء عند ملتقى الريحين ، وللرياح دخل عظيم فى تكوين السحاب وتوزيعه لكن سر الرياح وتقلباتها لم يدرك العلم غوره إلى الآن .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال ، وهذه تفعل فعلها بطريقتين : طريق تبريد الرياح الأفقية التى تصطدم بأعاليها ؛ لأن أعالى الجبال الشاخة شديدة البرودة ، فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع ، وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ماء يسيل على جوانب الجبال ، هذا طريق . والطريق الثانى : طريق تحويل مجرى الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية حيث يتكاثف بخارها سحابا ، ويتكاثف سحابها مطرا على أعالى تلك الجبال .

لكن التبريد إلى ما فوق التشبع لا يكفى وحده فى تكوين السحاب إلا إذا بلغ مبلغا عظيما ، بخلاف ما إذا كان فى الهواء ما يتكاثف البخار حوله كالغبار ، فإن البخار عندئذ يتكاثف بمجرد انخفاض درجة حرارته ولو قليلا عن درجة التشبع أو درجة (الندى) كما يسمونها . وجسيمات الغبار الخفية والمرئية ليست هى كل ما يتكاثف عليه بخار الماء فى الهواء ، ولو كانت هى كل ما يمكن أن يصلح نوى لقطيرات الماء فى الهواء فوق المتشبع لعز تكون السحاب ، ولاقتصر على المناطق التى يكثر فى أجوائها العليا هذا الغبار ، لكن الذى قدر الأشياء ، وعلم حاجة الزرع والحيوان إلى الماء ، جعل مما يتكاثف عليه البخار فى أعالى الجو أشياء أخرى غير الهواء ، هى الذرات والجزئيات الغازية المجهرية المعروفة بالأيونات أو الأويلبات جمع الأويلب ، تصغير آلب ، من الفعل : ألبى ، بمعنى : ساق وجمع واجتمع وأسرع ـ كما فى القاموس ـ .

وعوامل أولية أو تأيين الهواء ، أى : تكوين الأيونات أو الأويلبات فيه متعددة :

منها النيران ، فإن النار فيها غازات محملة بالنوعين الموجب والسالب ، ومنها الضوء ، فإن أشعة الشمس إذا اخترقت الهواء أينته أو أولبته ، فيتكون فى مسار كل شعاع عدد كبير أو صغير من الأيونات ، ومنها الأشعة النفاذة الجيمية التى تخرج من العناصر الشعاعة الموجودة فى القشرة الأرضية ، أو الأشعة النفاذة الكهربائية المصدر المعروفة بأشعة رنتجن . ومنها احتكاك الماء فى البحار بتلاطم الأمواج بعضها ببعض وبالساحل أو بالصخور ، فقد عرف أن الكهرباء تتولد بالاحتكاك . والبخار الذى يتصاعد من المياه المتلاطمة يحمل هذه الكهرباء بعضها أو كلها إلى الطبقات العليا الجوية ، وكل جزء من جزئيات هذا البخار المكهرب ، كغيره من الأيونات ـ يصلح أن يكون نواة يتكاثف عليها البخار .

فأنت ترى أن جميع ما يساعد على تكوين السحاب موجود فى الطبقات العليا الجوية ، سواء أكان من ناحية البرودة أم من ناحية النويات اللازمة لتكاثف البخار اذا تجاوز الهواء درجة التشبع ـ ولو قليلا ـ التبريد .

المطر

لكن تكون السحاب لا ينفع الناس شيئا إذا لم يكن فى الإمكان أن ينزل ماؤه عليهم مطرا ، وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا نمت قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء ، إن القطيرات السحابية خاضعة طبقا للجاذبية ، فهى تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ولو كان ساكنا يقاوم مرورها فيها ، والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء .

وإن الجاذبية إنما تنفع نفعها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية . وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهربائية الجوية ، وإن كان العلم لم يحط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

الرياح والجبال والكهربائية الجوية

والرياح كما لها أبعد الأثر فى تكوين السحاب لها أبعد الأثر فى تكثيفه مطرا بفعل الجبال أو بفعل الكهربائية الجوية ، فأما الجبال فإنها مكثفات هائلة نصبها الله لتكثيف السحاب من الجو إذا حملته إليها الرياح ، لكن السحاب إذا لامس أعلى الجبال الباردة سواء أكان متكونا عليها أو محمولا إليها تكاثف على سطحها ماء بالتجمع وبالتبريد ، ومن هنا كانت الأنهار منابعها كلها من الجبال .

وإلى هذا كله تشير الآية الكريمة التى من الله فيها بالجبال من هذه الناحية على الإنسان إذ يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾[1]

وأظنك الآن تدرك بعض سر ترتيب سقيا الناس الماء على شموخ الجبال ، وإذا تذكرت أن هذا الماء كله مصدره البحار المالحة أدركت سر وصف الماء هنا بالذات .

والكهربائية التى تتولد فى الهواء والتى ذكرنا لك بعض مصادرها يكتسبها السحاب عند تكونه على الأيونات أو الأويلبات التى تحملها هذه فى الطبقات العليا الجوية ، وأنت تعرف أن نوعى الكهربائية يتجاذبان ، وأن الموجب والموجب أو السالب والسالب يتدافعان أو يتنافران كما تشاء أن تقول ، هذا التدافع او التنافر من شأنه . تفريق السحاب ذى النوع الواحد .

لكن الله ـ سبحانه ـ قد يجمعه برغمه بواسطة الرياح ، وعندئذ تكبر السحابة ، وقد كانت قبل سحابتين أو أكثر ، وتكبر شحنتها الكهربائية ، ثم إذا شاء الله ساق السحاب بالريح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قربا كافيا فى اتجاه أفقى أو فى اتجاه رأسى ، أو فيما شاء الله من الاتجاهات ، فإذا اقتربا تجاذبا ، ومن شأن اقترابهما هذا أن يزيد فى كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ، ولايزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى لايكون محيص من اختلاطهما واتحاد كهربائيتهما بهدوء ، أو من اتحاد كهربائيتهما من بعد ، وعندئذ تحدث شبه شرارة عظمى كهربائية ، هى البرق الذى كثيرا ما يرى فى

---

(١) الآيات : ٢٥ ـ ٢٧ من سورة المرسلات .

البلاد الكثيرة الأمطار .

والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائى ، سواء حدث فى هدوء أو بلا براق ، فإذا حدث بهدوء حدث بين القطيرات المختلفة فى السحابتين فتجذب كل منها قرينتها أو قريناتها حتى تتحد وتكون قطرة فيها ثقل فتنزل ، وتكبر أثناء نزولها بما تكتسب من كهربائية وما تجتذب من قطيرات أثناء اختراقها السحاب المكهرب الذى يكون بعضه فوق بعض فى السحاب الركام ، أما إذا حدث الاتحاد الكهربائى فى شدة البرق وعنفه فإنه يحدث لابين القطيرات ولكن بين الكتل من السحاب ويسهل حدوثه عند تخلخل الهواء ، أى : قلة ضغطه فى تلك الطبقات .

والبرق يمثل قوة كهربائية هائلة ، تستطيع أن تكون فكرة عنها إذا عرفت أن شرارته قد تبلغ أميالا فى طولها أو تزيد ، وأن أكبر شرارة كهربائية أحدثها الإنسان لا تزيد على بضعة أمتار ، فالحرارة الناشئة عن البرق لا شك هائلة فهى تمدد الهواء بشدة ، وتحدث مناطق جوية عظيمة مخلخلة ، الضغط داخلها يعادل الضغط خارجها مادام الهواء داخل المنطقة ساخنا ، حتى إذا تشعمت حرارته وبردت تلك المناطق برودة كافية - وما أسرع ما تبرد - خف منها الضغط وصار أقل كثيرا من ضغط الطبقات الهوائية السحابية المحيطة بها ، فهجمت عليها فجأة بحكم الفرق العظيم بين الضغطين وتمددت فيها وحدث لذلك صوت شديد هو صوت الرعد وهزيمه أو هديره ، هذا الصوت قد يكون صدى الرعد بين كتل السحاب يتردد ، فنسميه قعقعة الرعد ، أو حدوث الشرارة الكهربائية البرقية ، فهو بدء الرعد ، ويكون ضعيفا بالنسبة لهزيمه وقعقعته ، لذلك نسمع الرعد ضعيفا فى الأول ثم يزداد كأنما أوله إيذان بتضخمه ، كما قد تؤذن الطلقة المفردة بانطلاق بطاريات برمتها من المدافع الضخمة فى الحروب ، فالرعد يحدث لا عند اتحاد الكهربائيتين حين يحدث البرق فقط ، ولكن يحدث أكثره بعد ذلك عند تمدد الكتل الهوائية العظيمة الهاجمة فى المنطقة المفرغة ، وهى إذا تمددت بردت برودة شديدة فيتكاثف ما فيها من البخار ومن كتل السحاب فينزل على الأرض إما مطرا واما بردا حسب مقدار البرودة الحادثة فى تلك المناطق ، وهذا هو السبب فى أن الرعد والبرق يعقبهما فى الغالب مطرات شديدة ، سواء أكانت المطرة مائية أم بردية ، وقطرات الماء أو حبات البرد تنمو بعد ذلك باختراقها كتل السحاب المتراكم تحت المنطقة التى حدث فيها التفريغ .

سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، حكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، وبطنت فخبرت ، وملكت فقدرت .

فواعجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

قوله - تعالى - ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾[1]

---

(١) الآيتان : ٨٠ - ٨١ من سورة النمل .

قال العلامة ابن كثير :

يقول - تعالى - كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لايسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله ؛ - تعالى - بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء - إذا شاء - ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال - تعالى - ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾

أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال - تعالى - ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾(١) وقد استدلت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - بهذه الآية : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قليب بدر بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يارسول الله ما يخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال : (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون)(٢) وتأولته عائشة - على أنه قال : (إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق) وقال قتادة : أحياهم الله حتى سمعوا مقالته تقريعا وتوبيخا ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا : (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ﴾(٣) وثبت عنه ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه ، فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين . وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر ، فروى ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : (ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم)(٤) وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : إذا مر الرجل بقبر يعرفه فسلم عليه رد علية السلام . وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدرى قال : رأيت عاصما الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى . قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا - والله - فى روضة من رياض الجنة ؟ أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله

---

(١) الآية : ٣٦ من سورة الأنعام

(٢) رواه احمد فى مسند عبدالله بن عمر حـ٢ ص ١٣١ والرواية التى معنا هى رواية انس فى صحيح مسلم برقمى ٢٨٧٣/٧٦ ، ٢٨٧٤/٧٧ حـ ٤ ص ٢٢٠٢ ، ٢٢٠٣ وانظر مسند انس فى مسند الامام أحمد .

(٣) ابن كثير فى تفسيره حـ ٦ ص ٣٣٠

(٤) الحديث فى اتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين حـ ١٠ ص ٣٦٥ وقال العراقى بـ رواه ابن ابى الدنيا فى كتاب القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله. ورواه ابن عبد البر فى التمهيد من حديث ابن عباس نحوه ، وصححه عبد الحق الاشبيلى .

المزنى فنتلقى أخباركم . قال : قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! ! قد بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس . قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته . قال : وحدثنا محمد ابن الحسين بسنده عن حسن القصاب قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الإثنين ؟ قال : بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها . قال : حدثنا محمد ، حدثنا عبد العزيز ابن أبان قال : حدثنا سفيان الثورى قال : بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبرا يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

حدثنا خالد بن خداش ، حدثنا جعفر بن سليمان عن أبى التياح يقول : كان مطرف يغدو فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال : وسمعت أبا التياح يقول : بلغنا أنه كان ينزل بغوطة فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قد جالسا على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتى الجمعة ، ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم : ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت : وما يقولون ؟ قال : يقولون : سلام عليكم .

حدثنى محمد بن الحسن بسنده عن الموفق ابن خال سفيان بن عينية قال : لما مات أبى جزعت عليه جزعا شديدا ، فكنت آتى قبره فى كل يوم ، ثم قعدت عن ذلك ما شاء الله ، ثم إنى أتيته يوما فبينا أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناى فنمت ، فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشح أكفانه عليه سحنة الموتى ، قال : فكأنى بكيت لما رأيته قال : يابنى ما أبطأ بك عنى ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتينى فأسر بك ويسر من حولى بدعائك .

قال : فكنت آتيه بعد ذلك كثيرا .

حدثنى محمد ، حدثنا يحيى بن بسطام عن عثمان بن سويد الطفاوى قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : ياذخرى وذخيرتى ، من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى ، لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى . قال : فماتت فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها واستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها : ياأمى كيف أنت ؟ قالت : أى بنى : إن للموت لكربة شديدة ، وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود يفرش فيه الريحان ونتوسد السندس والاستبرق إلى يوم النشور . فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم . قلت : وما هى ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا ؛ فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا اقبلت من أهلك ، يقال لى : ياراهبة هذا ابنك قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

حدثنى محمد ، عن محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال :

آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأنسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال : فبينا أنا نائم إذا بخلق قد جاءونى ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا: الدعوات التى كنت تدعو بها ، قال : قلت : فإنى أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه .

قال عبد الله بن المبارك بسنده عن أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسنا فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءا قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال : حدثنا محمد أخى قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظنى قال : بم أعظك أصلحك الله ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك . فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته . .

قال ابن أبى الدنيا ، وحدثنى محمد بن الحسين ، حدثنى خالد بن عمرو الأموى ، حدثنا صدقة ابن سليمان الجعفرى ، قال : كانت لى شرة سمجة فمات أبى فتبت وندمت على ما فرطت ، ثم زللت أيما زلة ، فرأيت أبى فى المنام فقال : أى بنى : ما كان أشد فرحى بك وأعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديدا ، فلا تخزنى فيمن حولى من الأموات . قال : فكنت اسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر ـ وكان جارا لى بالكوفة : أسألك إيابة لا رجعة فيها ولا حور ، يامصلح الصالحين ، وياهادى المضلين ، وياأرحم الراحمين .

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة ، وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول :

اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة . كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسَلِّم محال ، وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد .

الآيات التى فى الإنسان وختام السورة

* ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ

سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

معانى المفردات

(ضعف) الضعف : ما قابل القوة . (شيبة) أى : شيبا ، وهو بياض الشعر الأسود ،

(الساعة) : مدة من الزمن قليلة .

(يؤفكون) : يقال : أفك الرجل : إذا صرف عن الصدق والخير .

(ولا هم يستعتبون) أى : لا يطلب منهم الإعتاب ، وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه ، فالإعتاب : إزالة العتب بفعل ما يرضى ،

يقال : استعتبته ، فأعتبنى ، أى : استرضيته فأرضانى .

(مبطلون) أى : متبعون الباطل والسحر .

(ولا يستخفنك) يقال : استخف فلان فلانا ، أى : استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغى .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر دلائل الآفاق على وحدانيته أردفها دلائل الأنفس ، فذكر خلق الأنفس ، فى أطوارها المختلفة من ضعف إلى قوة ، ثم انتكاسها وتغيير حالها من قوة إلى ضعف ، ثم إلى شيخوخة وهرم . وبين أنه العليم بها فى مختلف أحوالها ، القدير على تغييرها واختلاف أشكالها ،

وبعد أن ذكر فيما سلف بدء النشأة الأولى ، وذكر الإعادة والبعث ، وأقام عليه الأدلة فى شتى السور ؛ وضرب له الأمثال ، أردف ذلك ذكر أحوال البعث وما يجرى فيه من الأفعال والأقوال من الاشقياء والسعداء ؛ ليكون فى ذلك عبرة لمن يدكر .

وبعد أن ذكر من الأدلة على الوحدانية والبعث ما ذكر ، وأعاد وكرر ، بشتى البراهين ، وبديع الأمثال ـ أردف ذلك أنه لم يبق بعد هذا زيادة لمستزيد ، وأن الرسول ﷺ قد أدى واجبه ، وأن من طلب

شيئا بعد ذلك فهو معاند مكابر ، فإن من كذب الدليل الواضح اللائح ، لا يصعب عليه تكذيب غيره من الدلائل .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

التفسير

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ﴾ هذا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الله ـ تعالى ـ لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، فإنه خلق الإنسان من ماء مهين ، فجعله فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، ثم خلقه إنسانا سويا ، ثم أمده بالقوة من بعد ضعف ، ثم عاد ضعيفا حال الشيخوخة والهرم ، ثم غزا الشيب رأسه ، أليس ذلك بقادر على أن يعيده مرة أخرى يوم القيامة ؟ ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾[1] واسمع إلى قوله ـ جل شأنه ـ ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث . فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[2]

فسبحان الخالق المحيى المميت الباعث الوارث المعز المذل الرافع الخافض الباسط القابض الأول الآخر الظاهر الباطن يخلق ما يشاء بقدرته ، ويحكم ما يريد بحكمته ، وهو العليم الذى أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، القدير الذى لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، سبحانه يحيى العظام وهى رميم ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾[3]

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ .

---

(١) الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ من سورة غافر
(٢) الآيات : ٥ ـ ٧ من سورة الحج
(٣) الآيات : ٥ ـ ٨ من سورة الطارق

وهذا مشهد من مشاهد القيامة ، وما أكثر مشاهدها ! !

﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾(١) إن المجرمين كما كذبوا على الله فى الدنيا وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، كذلك يقسمون فى الآخرة كذبا وبهتانا قائلين : ما لبثنا غير ساعة . أى : ما لبثنا فى الدنيا إلى هذا اليوم غير ساعة ، أى : ما لبثنا إلا زمنا يسيرا . قال - تعالى - ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾(٢)

وقال - جل شأنه : - ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون . تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون . قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى . وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون . قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾(٣) نعم قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . إن هؤلاء ضيعوا أعمارهم فى شهوات البطن والفرج ، وغرتهم أموالهم وأولادهم حتى ماتوا وفوجئوا بالبعث ، فأقسموا مالبثوا غير ساعة

قال - تعالى - ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾(٤) لقد جهلوا حق الله فى الدنيا وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ، وبمثل هذا الجهل كانوا يؤفكون ويصرفون عن الحق ،

أما المؤمنون من أولى العلم بالعقيدة والإيمان ، والذين قال الله فيهم : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ﴾(٥) فإنهم يردون عليهم قائلين : لقد لبثتم فيما كتبه الله لكم من الأعمار فى الدنيا ، وبعد البرزخ إلى يوم البعث ، أتدرون ما يوم البعث الذى أنكرتموه وجحدتموه وقلتم وأقسمتم بالله جهد أيمانكم لا يبعث الله من يموت ؟ هذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون فقد

---

(١) الآيات : ٥١ - ٥٤ من سورة يس
(٢) الآية : ٦٠ من سورة الزمر .
(٣) الآيات : ١٠١ : ١١٦ من سورة المؤمنون
(٤) الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ من سورة فاطر .
من الآية : ١٨ من سورة آل عمران .

يعلمون . قال ـ تعالى ـ : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ (١) وقال : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ (٢) وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ (٣) وقال : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ (٤) وقال : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ (٥) .

أما أنت ياصاحب الرسالة العصماء ، يامبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، فاصبر إن وعد الله حق ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ (٦) وكما قال : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ (٧) وكما قال : ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ (٨) .

﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ أى : لا يحملنك أفعال هؤلاء الذين خلت قلوبهم من اليقين والإيمان على الجزع والقلق ، فإن الله معك يرعاك بعنايته ورعايته ، فتوكل على الله إنك على الحق المبين .

سورة لقمان

مقدمة :

قال صاحب البصائر : السورة مكية ، سوى آيتين : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام . . ﴾ إلى آخر الآيتين . عدد آياتها ثلاث وثلاثون عند الحجازيين ، وأربع وثلاثون عند الباقين . وكلماتها خمسمائة وثمان وأربعون . وحروفها ألفان ومائة وعشر . .

معظم مقصود السورة :

بشارة المؤمنين بنزول القرآن ، والأمر بإقامة الصلاة ، وأداء الزكاة ، والشكاية من قوم اشتغلوا بلهو الحديث ، والشكاية من المشركين فى الإعراض عن الحق ، وإقامة الحجة عليهم ، والمنة على لقمان

---

(١) الآية : ١٧ من سورة فصلت
(٢) الآيتان : ٦ ، ٧ من سورة البقرة
(٣) من الآية : ٥ من سورة الصف
(٤) من الآية : ١٥٥ من سورة النساء
(٥) الآيات : ١٠٦ ـ ١٠٨ من سورة النحل
(٦) الآية : ١٠٩ من سورة يونس
(٧) الآيات : ١٢١ ـ ١٢٣ من سورة هود
(٨) الآية ١٢٩ من سورة التوبة .

حجبكم عن العلم عنادكم وجحودكم ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾(١) ففى هذا اليوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم . قال ـ تعالى ـ ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾(٢) .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أى : ولا هم يرجعون إلى الدنيا إن طلبوا ذلك ، أو لا يعاتبون وإنما يعاقبون أو . وإن يطلبوا الرضا فلن ينالوه ؛ فما هم من أهل الرضا . ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين . فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾(٣) .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾

يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ أنه وضح لعباده وبين لهم كل ما يلزمهم فى معاشهم ومعادهم ، ومن أساليب الايضاح والتبيين أنه ضرب لهم فى القرآن من كل مثل سواء فى أصول العقيدة ، أو شعائر العبادات ، أو شرائع السلوك ، أو مناهج الأخلاق ، أو مبادىء الأحكام ، أو قواعد النظام .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾(٤) وقال : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾(٥) وقال : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾(٦) ومع هذا الإيضاح وذلك البيان فإنك لو جئتهم بآية كما اقترحوا عليك فسوف يقول الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون وكاذبون ؛ لأنهم جبلوا على العناد والجحود ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾(٧) ومثل ذلك الجحود يؤدى إلى الطبع على قلوبهم والختم عليها حتى لا يتسرب إليها نور المعرفة ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا

---

(١) الآيات : ٢٧ ـ ٢٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات : ٤٤ ـ ٤٦ من سورة إبراهيم
(٣) الآيات : ١٩ ـ ٢٤ من سورة فصلت
(٤) الآية : ٤٣ من سورة العنكبوت
(٥) من الآية : ٢٥ من سورة ابراهيم
(٦) من الآية ٣٥ من سورة النور .
(٧) الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

بما أعطى من الحكمة ، والوصية ببر الوالدين ، ووصية لقمان لأولاده ، والمنة بإسباغ النعمة ، وإلزام الحجة على أهل الضلالة ، وبيان أن كلمات القرآن بحور المعانى ، والحجة على حقية البعث ، والشكاية من المشركين بإقبالهم على الحق فى وقت المحنة ، وإعراضهم عنه فى وقت النعمة ، وتخويف الخلق بصعوبة القيامة وهولها ، وبيان أن خمسة علوم مما يختص به الرب الواحد ـ تعالى ـ فى قوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ إلى آخرها .

المتشابهات التى فى سورة لقمان :

قوله : ﴿ كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ﴾ وفى الجاثية : ﴿ كأن لم يسمعها فبشره ﴾[1] زاد فى هذه السورة : ﴿ وكأن فى أذنيه وقرا ﴾ جل المفسرين على أن الآيتين نزلتا فى النضر بن الحارث ، وذلك أنه ذهب إلى فارس ، فاشترى كتاب كليلة ودمنة ، وأخبار رستم واسفنديار ، وأحاديث الأكاسرة ، فجعل يرويها ويحدث بها قريشا ، ويقول : إن محمدا يحدثكم بحديث عاد ، وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار ، ويستملحون حديثه ، ويتركون استماع القرآن ، فأنزل الله هذه الآيات ، وبالغ فى ذمه ، لتركه استماع القرآن . فقال : ﴿ كأن فى أذنيه وقرا ﴾ أى : صمما ، لا يقرع مسامعه صوت . ولم يبالغ فى الجاثية هذه المبالغة ؛ لما ذكره بعده : ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئا ﴾[2] لأن ذلك العلم لا يحصل إلا بالسماع ، أو ما يقوم مقامه : من خط وغيره .

قوله ﴿ يجرى إلى أجل مسمى ﴾ وفى الزمر ﴿ لأجل ﴾ قد سبق شطر من هذا . ونزيد بيانا أن (إلى) متصل بآخر الكلام ، ودال على الانتهاء ، واللام متصلة بأول الكلام ، ودالة على الصلة .

مناسبتها لما قبلها من وجوه : -

(١) إنه ـ تعالى ـ قال فى السورة السالفة : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ وأشار إلى ذلك فى مفتتح هذه السورة .

(٢) إنه قال فى آخر ما قبلها : ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ وقال فى هذه : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا ﴾

(٣) إنه قال فى السورة السابقة : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقال هنا : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ ففى كلتيهما إفادة سهولة البعث .

(٤) إنه ذكر هناك قوله : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ وقال هنا : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ فذكر فى كل من الآيتين قسما لم يذكره فى الآخر .

(٥) إنه ذكر فى السورة التى قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا ، وذكر هنا قصة عبد مملوك زهد فيها ، وأوصى ابنه بالصبر والمسالمة وذلك يقتضى ترك المحاربة . وبين الأمرين التقابل وشاسع البون كما لا يخفى .

---

(١) من الآية ٨ من سورة الجاثية

(٢) من الآية ٩ من سورة الجاثية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

وهذا بدء سورة كريمة جاء على وفق ما هو معروف غالبا فى السُّور المكية التى تبدأ بأحرف هجائية ، حيث تكلمت عن القرآن وآياته ، وهو افتتاح شبيه بافتتاح سورة البقرة .

التفسير

﴿ الم ﴾ : بعض حروف الهجاء التى يقصد بها إعجاز هذا الكتاب الحكيم الذى تلك آياته ، والحكيم : اسم من أسمائه .

قال صاحب البصائر :

اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، أو كماله فى أمر من الأمور . أما ترى أن كثرة اسماء الأسد دلت على كمال قوته ؟ وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته ؟ وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها ؟ وكذلك كثرة أسماء الله ـ تعالى ـ دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء النبى ـ ﷺ ـ دلت على علو رتبته ، وسمو درجته ، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه ، وفضيلته .

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ للقرآن مائة اسم نسوقها على نسق واحد :

الأول : العظيم (سبعا من المثانى والقرآن العظيم) الحجر

الثانى : العزيز (وإنه لكتاب عزيز) فصلت

الثالث : العلى ﴿ لدينا لعلى ﴾ الزخرف

الرابع : المجيد ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ البروج

الخامس : المهيمن ﴿ ومهيمنا عليه ﴾ المائدة

السادس : النور ﴿ واتبعوا النور الذى أنزل معه ﴾ الأعراف

السابع : الحق ﴿ قد جاءكم الحق ﴾ يونس

الثامن : الحكيم ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ يس

التاسع : الكريم ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ الواقعة

العاشر : المبين ﴿ حم والكتاب المبين ﴾ الزخرف

الحادى عشر : المنير ﴿ والكتاب المنير ﴾ آل عمران
الثانى عشر : الهدى ﴿ هدى للمتقين ﴾ البقرة
الثالث عشر : المبشر ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ الكهف
الرابع عشر : الشفاء ﴿ وشفاء لما فى الصدور ﴾ يونس
الخامس عشر : الرحمة ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ النمل
السادس عشر : الكتاب ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ الأنعام
السابع عشر : المبارك ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ الأنعام
الثامن عشر : القرآن ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ الرحمن
التاسع عشر : الفرقان ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان ﴾ الفرقان
العشرون : البرهان ﴿ برهان من ربكم ﴾ النساء
الحادى والعشرون : التبيان ﴿ وتبيانا لكل شىء ﴾ النحل
الثانى والعشرون : البيان ﴿ بيان للناس ﴾ آل عمران
الثالث والعشرون : التفصيل ﴿ وتفصيلا لكل شىء ﴾ الأنعام ـ الأعراف
الرابع والعشرون : المفصل ﴿ الكتاب مفصلا ﴾ الأنعام
الخامس والعشرون : الفصل ﴿ إنه لقول فصل ﴾ الطارق
السادس والعشرون : الصدق ﴿ والذى جاء بالصدق ﴾ الزمر
السابع والعشرون : المصدق ﴿ مصدق الذى بين يديه ﴾ الأنعام
الثامن والعشرون : ذكرى ﴿ وذكرى لكل عبد منيب ﴾ ق
التاسع والعشرون : الذكر ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ الأنبياء
الثلاثون : التذكرة ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ الإنسان
الحادى والثلاثون : الحكم ﴿ أنزلناه حكما عربيا ﴾ الرعد
الثانى والثلاثون : الحكمة ﴿ حكمة بالغة ﴾ القمر
الثالث والثلاثون : محكمة ﴿ سورة محكمة ﴾ محمد
الرابع والثلاثون : الإنزال ﴿ وأنزلنا إليكم ﴾ النساء
الخامس والثلاثون : التنزيل ﴿ وإنه لتنزيل ﴾ الشعراء
السادس والثلاثون : التصديق ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ يونس
السابع والثلاثون : المنزل ﴿ منزل من ربك ﴾ الأنعام
الثامن والثلاثون : التبصرة ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ ق
التاسع والثلاثون : البصائر ﴿ هذا بصائر للناس ﴾ الجاثية
الأربعون : الموعظة ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ البقرة
الحادى والأربعون : البينة ﴿ بينة من ربكم ﴾ الأنعام

الثانى والأربعون : البشير ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ البقرة وفاطر
الثالث والأربعون : الوحى ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ النجم
الرابع والأربعون : الرسالة ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ المائدة
الخامس والأربعون : النبأ ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ ص
السادس والأربعون : القيم ﴿ قيما لينذر ﴾ الكهف
السابع والأربعون : قيمة ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ البينة
الثامن والأربعون : الروح ﴿ روحا من أمرنا ﴾ الشورى
التاسع والأربعون : الكلام ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ التوبة
الخمسون : الكلمات ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ لقمان
الحادى والخمسون : الكلمة ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ الأنعام
الثانى والخمسون : الآيات ﴿ تلك آيات الله ﴾ البقرة
الثالث والخمسون : البينات ﴿ بل هو آيات بينات ﴾ العنكبوت
الرابع والخمسون : الفضل ﴿ قل بفضل الله ﴾ يونس
الخامس والخمسون : القول ﴿ يستمعون القول ﴾ الزمر
السادس والخمسون : القيل ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ النساء
السابع والخمسون : الحديث ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ الأعراف
الثامن والخمسون : أحسن الحديث ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الزمر
التاسع والخمسون : العربى ﴿ قرآنا عربيا ﴾ يوسف
الستون : الحبل ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ آل عمران
الحادى والستون : الخير ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ﴾ النحل
الثانى والستون : البلاغ ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ إبراهيم
الثالث والستون : البالغة ﴿ حكمة بالغة ﴾ القمر
الرابع والستون : الحق ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ الحاقة
الخامس والستون : المتشابه والمثانى ﴿ كتابا متشابها مثانى ﴾ الزمر
السادس والستون : الغيب ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ البقرة
السابع والستون : الصراط المستقيم ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ الفاتحة
الثامن والستون : المبين : ﴿ قرآن مبين ﴾ الحجر
التاسع والستون : الحجة ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ الأنعام
السبعون : العروة الوثقى ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ البقرة ـ لقمان
الحادى والسبعون : القصص ﴿ فاقصص القصص ﴾ الأعراف
الثانى والسبعون : المثل ﴿ ضرب الله مثلا ﴾ ابراهيم ـ النحل

الثالث والسبعون : العجب ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ الجن
الرابع والسبعون : الأثارة ﴿ أو أثارة من علم ﴾ أى : ما يؤثر عن الأولين أى : يروى عنهم الأحقاف
الخامس والسبعون : القسط ﴿ فاحكم بينهم بالقسط ﴾ المائدة .
السادس والسبعون : الإمام ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ الإسراء .
السابع والسبعون : النجوم ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ الواقعة .
الثامن والسبعون : النعمة ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ القلم
التاسع والسبعون : الكوثر ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ الكوثر
الثمانون : الماء ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ المؤمنون
الحادى والثمانون : المتلو ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ البقرة
الثانى والثمانون : المقروء ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ الإسراء
الثالث والثمانون : العدل ﴿ كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ الأنعام
الرابع والثمانون : البشرى ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ البقرة
الخامس والثمانون : المسطور ﴿ وكتاب مسطور ﴾ الطور
السادس والثمانون : الثقيل ﴿ قولا ثقيلا ﴾ المزمل
السابع والثمانون : المرتل ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ المزمل
الثامن والثمانون : التفسير ﴿ وأحسن تفسيرا ﴾ .الفرقان
التاسع والثمانون : المثبت ﴿ ما نثبت به فؤادك ﴾ هود
ومنها : الصحف ، والمكرم ، والمرفوع ، والمطهر (فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ﴾

ومن أسماء القرآن الواردة فى الحديث النبوى : القرآن ، حبل الله المتين ، وشفاؤه النافع ، بحر لا تنقضى عجائبه ، والمرشد : من عمل به رشد ، العدل : من حكم به عدل .
المعتصم الهادى : من اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم .
العصمة : عصمة لمن تمسك به .
قاصم الظهر : من بدله من جبار قصمه الله . مأدبة الله فى أرضه
النجاة : (ونجاة لمن اتبعه)
النبأ والخبر : (فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم)
الدافع : يدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة
صاحب المؤمن : يقول القرآن للمؤمن يوم القيامة : أنا صاحبك)
كلام الرحمن : الحرس من الشيطان . الرجحان فى الميزان

فهذا الكتاب الذى أبى الله أن يؤتى بمثله ولو كان الناس بعضهم لبعض ظهيرا وذلك لأنه كتاب جاء من غيب الغيب ، بعالم من العلم ، وصل إلى القول ، ومن القول إلى القلم ، ومن القلم إلى

صفحة اللوح ، إلى حد الوحى ومن الوحى إلى سفارة الروح الأمين ، ومن سفارته إلى حضرة النبوة العظمى .

واتصل منها إلى أهل الولاية حتى اشعلوا سرج الهداية ، وظفروا منها بكاف الكفاية ، فلم يزل متعلقة بحروفها وكلماته الراحة فالرحمة والعزة والنعمة ، ففى حال الحياة للمؤمن رقيب ، وبعد الوفاة له رفيق ، وفى القبر له عديل ، وفى القيامة له دليل ، وميزان طاعته به ثقيل . وفى عرضات الحشر له شفيع وكفيل ، وعلى الصراط له سائق ورسيل ، وفى الجنة أبدا الآبدين له أنيس وخليل . جعله الله لنا شفيعا ، ومنزلنا بالعلم والعمل بما فيه رفيعا .

قوله - تعالى - ﴿ **هدى ورحمة للمحسنين** ﴾ أى : هذا الكتاب الكريم هدى ورحمة ، فالهدى : هو الإرشاد إلى طريق النجاة والرحمة : ما يرحم الله به عباده فى البأساء والضراء وحين البأس ، فهذا الكتاب من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، والمحسنون هم الذين قال الله فيهم : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون** ﴾ أى : هم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فهم على علم ويقين بأنه يراهم . والصلاة نموذج للعبادة البدنية والقلبية ، والزكاة نموذج للعبادة المالية ، والإيمان باليوم الآخر نموذج العقيدة الصحيحة ، فالصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات ، رياضة أبدان وطهارة أردان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يريد به المخلوق التوجه إلى الخالق ، فانظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع .

وكيف سادت العلية بالزمع ، والزكاة فيها النماء والطهارة والبركة والإصلاح الإجتماعى ، فلن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾[1] .

والإيمان باليوم الآخر هو صمام الأمن لنظام المجتمع ، وهو محور الإرتكاز لحسن السلوك فى الدنيا ، وهو حجر الزاوية لإصلاح أى أمة تؤمن باليوم الآخر ، قال - تعالى - ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾[2] لذا جاء الحكم لهؤلاء صادقا شافيا كافيا وافيا ﴿ **أولئك على هدى من ربهم** ﴾ (وعلى) هنا تفيد التمكن والثبات ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ وضمير الفصل هنا وتعريف الطرفين المسند والمسند إليه كل هذا يفيد الحصر والقصر ، أى : أولئك هم المفلحون لا سواهم ، وهذا تشريف وتعظيم وتكريم من رافع السماء بلا عمد فطوبى لكم أيها المحسنون المهتدون المفلحون . طوبى لكم وحسن مآب .

---

(١) من الآية ٣٤ والآية ٣٥ من سورة التوبة

(٢) الآيات : ٤ - ٦ من سورة المطففين

الكافرون بالقرآن والمؤمنون به

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

معانى المفردات

(لهو الحديث) اللهو : كل باطل ألهى عن الخير .
(هزوا) أى : مهزوءا بها .
(وقرا) : ثقلا وصمما .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾[1] أردف ذلك ذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت فى بن الحارث : اشترى قينة (مغنية) وكان لايسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق بها إليه فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه .

وروى عن مقاتل أنه كان يخرج تاجرا إلى فارس فيشترى كتب الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشا ويقول لهم : إن محمدا يحدثكم حديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم حديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستلمون حديثه ويتركون سماع القرآن .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الزمر .

هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾

لما ذكر - تعالى - حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ، كما قال - تعالى - ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾[1] عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، واقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود فى قوله - تعالى - ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾ قال : هو والله الغناء .

روى ابن جرير بسنده عن أبى الصهباء البكرى أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾ فقال عبد الله بن مسعود : الغناء - والله الذى لا إله إلا هو - يرددها ثلاث مرات . حدثنا عمرو بن على بسنده عن أبى الصهباء أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ قال : الغناء . وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول وعمرو بن شعيب وعلى بن بذيمة .

وقال الحسن البصرى : نزلت هذه الآية : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم** ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراءه استحبابه ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع ، وقيل : أراد بقوله : ﴿ **يشترى لهو الحديث** ﴾ اشتراء المغنيات من الجوارى .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : (لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ، وأكل أثمانهن حرام ، وفيهن أنزل الله - عز وجل - على ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾[2]

وقال الضحاك فى قوله - تعالى - : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ قال : يعنى الشرك

وقوله : ﴿ **ليضل عن سبيل الله** ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله ، وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدرى ، أى : قيضوا لذلك ليكونوا كذلك . وقوله - تعالى - ﴿ **ويتخذها هزوا** ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا يستهزىء بها . وقال قتادة : يعنى ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله : ﴿ **أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر ، ثم قال - تعالى - ﴿ **وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا** ﴾ أى : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم ، كأنه ما سمعها : لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا

---

(١) من الآية : ٢٣ من سورة الزمر

(٢) الحديث فى مسند الامام احمد (مسند أبى أمامة - رضى الله عنه) جـ ٥ ص ٢٥٢ بدون قوله : « وأنزل الله على فيهن . . الخ » وانظر سنن ابن ماجه (كتاب التجارات) باب : ما لا يحل بيعه جـ ٢ ص ٧٣٣ رقم ٣١٦٨

أرب له فيها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أى : يوم القيامة يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم . خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ويأتى نور الوعد بعد نيران الوعيد لتكون حال المؤمن بين الخوف والرجاء ، فالمؤمنون الصالحون لهم جنات النعيم ، لهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾(١) وما أجمل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾(٢)

وما أجل قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾(٣) وما أعظم قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾(٤) .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ خالدين فيها وعد الله حقا ﴾ كقوله ـ تعالى ـ ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾(٥) فأنت ترى هنا أن الإيمان قد اقترن بالعمل الصالح ، فبين المؤمنين ولاية نصرة ومحبة ومودة ، ومن أعمالهم الصالحة أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، وليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، فالإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ، والذى حكم لهم بالجنة والخلود فيها هو العزيز الغالب الذى لا راد لقضائه ، وهو الحكيم الذى لا معقب لحكمه ، والذى تنزهت أفعاله عن العبث إذا قال صدق ، وإذا وعد أنجز ، وإذا حكم عدل .

لاتركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

---

(١) الآيتان : ٩ ، ١٠ من سورة يونس
(٢) الآية ٢٥ من سورة البقرة
(٣) الآيتان : ٣٠ ، ٣١ من سورة الكهف .
(٤) الآيتان : ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة الكهف
(٥) الآيتان : ٧١ ، ٧٢ من سورة التوبة

هذا خلق الله

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

معانى المفردات

(عمد) جمع عماد، وهو ما يعمد به، أى: يسند، يقال: عمدت الحائط: إذا دعمته. والدعامة: ما يسند به الحائط إذا مال لتمنعه السقوط.

(رواسى): ثوابت

(أن تميد بكم): تضطرب

(وبث): نشر وفرق

(زوج): صنف.

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان فيما سلف كمال قدرته وعلمه وإتقان عمله، أردف ذلك الاستشهاد لما سلف بخلق السموات والأرض وما بعده مع تقرير وحدانيته وإبطال أمر الشرك وتبكيت أهله.

التفسير

من آيات قدرة الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وعظمته أنه رفع السموات بغير عمد، والكل يشاهد ذلك ويراه، كما ألقى الجبال على الأرض رواسى ثابتات شامخات حتى لا تميد وتهتز. ونشر فى الأرض من كل دابة، فهو مبدع الكائنات وخالق كل شىء، وهو على كل شىء وكيل، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأنبت فى الأرض من كل نوع كريم وزوج بهيج ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] .

---

(١) الآيات : ٢ - ٤ من سورة الرعد

من الخالق لكل هذا ؟ الطبيعة الصماء ؟ أم الصدفة العمياء ، كلا،بل هو الله العزيز الحكيم . هذا خلق الله وحده لا شريك له ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾(١) .

تأمل فى نبات الأرض وانظر — إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات — بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد ، شاهدات — بأن الله ليس له شريك

فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ إنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

﴿ ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾(٢) .

فمن يقل إن هناك خالقا غير الله فهو من الظالمين ، والظالمون فى ضلال مبين .

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين . وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(٣) فاللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنك أنت الله وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ونبيك ورسولك ، رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا .

كلمات ربى

من كتاب (قصة الإيمان) يقول الشيخ نديم الجسر مفصلا هذا الحوار بين التلميذ واسمه (حيران) والشيخ واسمه (الموزون) يقول (الشيخ نديم الجسر)

يقول حيران بن الأضعف خرجت من غرفة الشيخ بعد أن ناولته المصحف ، وأويت إلى فراشى فلم أجد إلى النوم سبيلا ؛ لأنى ما تعودت أن أنام فى هذه الساعة ، ولم أجد إلى المطالعة سبيلا ، لأن المصباح لا يزال عند الشيخ ، فأخذت أتناوم .

وبعد لأى أغفيت إغفاءة خفيفة صحوت منها على صوت سعال الشيخ . فرأيت أنه لا يزال ساهرا . . ثم استغرقت فى النوم إلى أن صحوت على الخادم العجوز يقرع الباب،ولما نهضت من فراشى

---

(١) الأيتان : ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة الأنعام
(٢) الأيتان : ٧٣ ، ٧٤ من سورة الحج .
(٣) الآيات : ٦٢ - ٦٧ من سورة الزمر .

لأفتح له وجدت المصباح فى غرفة الشيخ لا يزال منيرا ، ولما أذن المؤذن لصلاة الصبح وخرج الشيخ إلى وضوئه سألته عن سهره ، فقال : إننى لم أنته من التلاوة إلا الساعة .

قلت : إن السهر يامولاى يضنيك

قال : كل هذا من أجلك ياحيران .

قلت : من أجلى أنا ؟

فتبسم ومر إلى وضوئه ، ثم صلينا الصبح ، وانفتل بعد الصلاة إلى غرفته وهو يقول : لن أخرج اليوم إلى الغياض . . إننى بحاجة إلى النوم .

وقضيت نهارى كله بين الغياض أُراجع ما أملاه على الشيخ ليلة أمس ، وأعيد الجمع والحساب فى ﴿ أحجية الورقة المقطعة ﴾ . . فوجدتها يقينية فآمنت بأن عقولنا تكل أحيانا عن تصور حقائق كثيرة يقوم البرهان العقلى على صحتها . . . وعرفت أنه لا يجوز لنا أن نجمد أمام هذا الكلال العقلى ، بل علينا أن نأخذ بالبرهان القاطع الذى قام لدينا ، ونؤمن بأن ذلك الكلال وهم ، والوهم لا يقاوم البرهان . فتذكرت ما قاله الغزالى فى هذا الباب ، فراجعته ، وأدركت الآن معنى قوله : (إنه لم يجد لنفسه علاجا من الشك وأوهامه إلا بالدليل ، والدليل لا يكون إلا من تركيب الأوليات والضروريات التى لا يصل العقل إلى اليقين إلا بها) .

ثم قلت : ياويل نفسى ! ! كيف كنت أدْرك كل هذا ؟ وكيف كنت أتعلم إطراح الوهم عند قيام البرهان القاطع لو لم يقيض الله لى هذا الرجل المرشد الصبور ؟

ثم قلت : ياويل الناس من هذه الشكوك التى لا يخلص منها أحد كما قال الشيخ ، أتراهم يستطيعون أن يتوفروا على مثل هذه الدراسة الطويلة ؟ إن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . فكيف يدفعون هذه الشكوك عن إيمانهم .

ولما كان المساء دخلت على الشيخ ، فرأيته يكتب فى دفتر كبير بعض آيات القرآن ، فألقيت السلام وأهويت على يديه أقبلهما ، فتبسم وقال الشيخ : مالك تقبل يدى بلا داع ؟ أأراك تودعنى . . . ؟ أتحسب أنك انتهيت من الدرس فأردت أن ترجع إلى بلدك ؟ كلا ياحيران ؛ فشوطك فى الدرس لا يزال بعيد المدى .

حيران : لم يخطر ببالى أن أفارقك يامولاى . ولو ذهبت لزيارة أبى لعدت إليك فقد انقطعت عن العلم فى جامعة (بشاور) ولا أجد ـ والله ـ خيرا منك لوصل ما انقطع ، وإنما قبلت يديك لأنى أحب أن أناجيك بنجوى ثقيلة ، فأردت أن أقدم بين يدى نجواى صدقة .

الشيخ : قل ما تريد ، فلا أجد منك شيئا ثقيلا .

حيران : لقد فكرت مليا فيما كشفته لى ليلة أمس من الحق ، فكيف بالله يامولاى كنت أدرك كل هذا ؟ وكيف كنت أتعلم اطراح الوهم عند قيام البرهان العقلى القاطع ، لو لم يقيض الله لى هاديا مرشدا مخلصا ، صبورا ، واسع الصدر مثلك يامولاى الكريم ؟ الشيخ : الهداة المرشدون كنز ياحيران ، وعنهم أخذنا . وليس على طالب الهدى إلا أن ينعم النظر ، ويطيل التأمل ، ويسأل أهل الذكر .

حيران : وهل يتاح لكل الناس أن يتركوا مشاغل الحياة وأسباب الرزق ليتفرغوا للنظر العميق ، والبحث الطويل ، والاستدلال المرهق العسير ، وهل يكلف الله نفسا إلا وسعها ؟

الشيخ : هذا حق ياحيران : وهذا الذى كنت أريد أن أصل بك إليه ، وأدلك عليه ، وأنصحك به ، بعد أن بلغت ما أردته من إرشادك إلى صحة البراهين النظرية المركبة وصدقها ، بل أنصح به كل إنسان من الذين لا يتاح لهم أن يتفرغوا للنظر والبحث والتأمل . . ألم تر أنى قضيت الليل كله أقرأ القرآن من أجلك ؟

حيران : بماذا تنصحنى يامولاى ؟

الشيخ : إننى انصحك وأنصح نفسى ، بل كل إنسان بما نصح به ابن رشد : وهو أن نلجأ فى إثبات وجود الله إلى البراهين البديهية السهلة ، البسيطة ، الواضحة ، التى يدركها العقل بدون أن يحتاج إلى الغوص فى حجج الاستدلال والجدل ، ومن غير أن يعتريه ارتباك أو كلال أو عجز أو وهم ، وهى البراهين التى أكثر من ذكرها القرآن واعتمد عليها أكثر مما اعتمد على البراهين العقلية المركبة الأخرى ؛ لأنه يستوى فى إدراكها الجاهل الساذج والعالم الفيلسوف ، أما الساذج فيدركها إجمالا لبساطتها ووضوحها وبداهتها ، وأما العالم فيدركها تفصيلا ويعلم أن هذه البداهة فى أدلة القرآن تعتمد على شواهد كثيرة ، تؤلف بمجموعها حكما عقليا يكون إنكاره بمثابة الإنكار لقضية رياضية صحيحة .

حيران : هذا ـ والله ـ عجيب وعظيم . فقد سبق لمولاى الشيخ أن نوه بما فى القرآن من إعجاز ، فى باب التدليل على وجود الله وخلق العالم ، وسبق لى أن لاحظت عند التلاوة بعض هذه الأدلة ، ولكنى لم أكن أظن أنها تؤلف بمجموعها حكما عقليا يعد إنكاره بمثابة الإنكار لقضية رياضية صحيحة .

الشيخ : كم مرة قرأت القرآن ياحيران ؟

حيران : أظن أننى قرأته أكثر من عشر مرات .

الشيخ : الا تذكر قول أبيك لك فى الرؤيا : (ألا تقرأ القرآن ؟)

حيران : أذكره ولا أنساه .

الشيخ : هل خطر على بالك أن تنعم النظر فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1] لتدرك أنه ـ سبحانه ـ حصر الخشية فى العلماء ، وأنه أراد بهم العالمين بأسرار الوجود وأسرار الخلق ، كما قال ابن رشد والجسر ،

حيران : لقد سألت عن هذا ، فقيل لى : إن المقصود بالآية (علماء الدين)

الشيخ : وهل المفروض من علماء الدين أن يكون علمهم مقصورا على المعنى الإصطلاحى (للفقه) الذى يراد به استنباط أحكام العبادات والمعاملات ، وألا يكونوا مطلعين على أسرار الوجود والخلق عن طريق العلم والفلسفة ؟ كلا ياحيران ، فالفقه هو (الفهم) لكل شىء ، ولكل ما فى الدين من أسرار وحكم وأحكام ، وأول ما يجب أن نفهمه هو كلام الله ، وأول شىء يجب أن نفهمه من

(١) من الآية : ٢٨ من سورة فاطر

كلام الله هو الآيات الدالة على وجود الله ، وعلى أنه الخالق العليم ، القادر المريد ، البارىء المصور الحكيم . وهذه الآيات لا تفسر على الوجه الأكمل إلا إذا اطلعنا على ما فى الكون من أسرار الخلق والنظام والإحكام والإتقان . فعلماء الدين هم أولى الناس بالاطلاع على أسرار العلم ، ولا يصدق عليهم (الحصر) الوارد فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ والمراد به الخشية الكاملة ، إلا إذا كانوا عارفين من العلوم الكونية كل ما يتعلق بأسرار الوجود والخلق التى دلنا عليها القرآن ، وذكر لنا بعضها ؛ لأن هذه الآية لم ترد فى سياق الكلام عن أمر يتعلق بالعبادات أو المعاملات أو الأخلاق ، بل وردت فى سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته فى إنزال المطر وخلق النباتات والحيوانات على اختلاف أنواعها وألوانها ، حيث يقول الله ـ تعالت قدرته ـ : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[1] .

حيران : لا ريب فى أن المراد بالآية هم العلماء المطلعون على أسرار الخلق ونواميسه .

الشيخ : فالفهم الكامل لما جاء فى القرآن من البراهين الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، يفتقر إلى ثلاثة أمور : جمع هذه الآيات كلها فى صعيد واحد حتى تكون فى متناول البصر والبصيرة عند المقارنة ؛ فلا يتشتت الفكر للبحث عنها فى خضم القرآن . ورغبة صادقة فى درس هذه الآيات على ضوء العلم والفلسفة ، لاستنباط ما فيها من البراهين ، وما فيها من الردود على المنكرين . وانطلاق من قيود التعصب الأعمى لأى رأى دينى أو فلسفى .

حيران : إننى سمعت من بعض العلماء أن القرآن لم يترك شيئا من العلوم إلا وأشار إليه .

الشيخ : كلا ياحيران كلا . وهؤلاء الذين يقولون ذلك ليسوا بعلماء ولا عقلاء ولا أذكياء ، فالقرآن ليس بدائرة معارف علمية ، ولا من مقاصده إرشاد الناس إلى العلوم الكونية من باب التعليم ، ولكن ما ورد فيه من الآيات التى تشير إلى حقائق كونية كشفها العلم ، إنما ورد بقصد التنبيه إلى ما فى خلق العالم من آثار الإرادة والقدرة والعلم والحكمة والإتقان والاتزان الدالة على وجود الله ، النافية للتكوين بالمصادفة ، ولم يقصد به تقرير العلوم الكونية ؛ لأن القرآن خطاب للبشر بلغة البشر ، والله أحكم من أن يخاطب الناس بأمور لا يعرفون أسماءها فضلا عن أسرارها ، ولكنه أشار إلى دلائل وجوده وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ببيان عجيب يفهمه على ظاهره البدوى الساذج فى القرن السابع ، ويفهم أسراره رجل العلم فى القرن العشرين . وفى هذا يتجلى إعجاز القرآن ، لا فى بلاغته وحدها كما سبق القول ؛ فإعجاز البلاغة والفصاحة إنما يدركه العرب ، والقرآن خطاب للناس كافة ، وإلى هذا الضرب من الإعجاز أشار العليم الحكيم بقوله : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[2] . وقد أراهم ـ سبحانه ـ بعد عصور وعصور آياته فى آفاق السموات والأرض وفى أنفسهم كما وعدهم فتبين لهم أنه الحق ، وألفوا فى ذلك المطولات فى بلاد المغرب . ولكننا ـ نحن

---

(١) الآية : ٢٧ وبعض الآية : ٢٨ من سورة فاطر .

(٢) من الآية : ٥٣ من سورة فصلت .

المسلمين ـ الذين كان لنا السبق والفضل فى كشف كثير من تلك الآيات من طريق العلم قصرنا فى إراءة أولئك العلماء أن هذا القرآن قدم هذا الوعد ، وأشار إلى الكثير من دلائل وجود الله ، ووحدانيته وقدرته ، وحكمته ، منذ ألف وأربعمائة سنة .

وخلاصة القول ياحيران أن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين دعوة إلى الله وإرشاد إلى دلائل وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وإرادته وعنايته ورحمته وجميع صفات كماله ، ووعد ووعيد للترغيب فى طاعته والتحذير من معصيته ، وتوكيد ليوم البعث والدين ، وأحكام فى العبادات والمعاملات ، وحكمة عملية فى الحياة ، وحض على مكارم الأخلاق ، وقصص يمت بسبب إلى هذه الأقسام الستة ، ولكن أهم هذه الأقسام وأعظمها عند الله هو القسم الأول ؛ لأن الايمان بالله هو الأصل وهو الأساس لكل ما عداه .

ولذلك ترى ـ وأنت تتصفح القرآن ـ أن الآيات الدالة على الله لاتكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها أحيانا فى السورة الواحدة .

يقول حيران بن الأضعف : وهنا ناولنى الشيخ الدفتر الذى كان يكتب فيه الآيات وقال :

الشيخ ـ هذا هو الدفتر الذى جمعت لك به على ترتيب النزول أكثر آيات القرآن التى أراد بها الله ـ تعالى ـ إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، البارىء ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم ، وأكثر فيها ـ سبحانه ـ من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والإحكام والإتقان والتقدير والاتزان فى خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر والكواكب والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والجبال والأنهار والبحار والنبات والحيوان والإنسان والأسماع والأبصار والافئدة ، وما ينطوى عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس ، فتعال ياحيران نقرأ هذه الآيات ونستغرقها جملة واحدة ، ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من أسرار الوجود والخلق .

حيران : لماذا اختار مولاى إيراد الآيات على ترتيب النزول ولم يوردها على ترتيب السور ؟

الشيخ : لأنى أردت لك أن تتصور نفسك من أهل العصر الذى نزل به القرآن لترى كيف توالى الوحى وتتابع الهدى فى خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله ، فإن ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات أبلغ أثرا فى نفسك وأيسر فى تفهم أسلوب الهدى الكريم الذى اتبعه القرآن .

يقول حيران : ثم دفع إلى الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ وأسمعنى . فقرأت الآيات الآتية :

﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾(١) .

وللآيات بقية نذكرها عند تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعد سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ . من سورة لقمان

---

(١) الآيات : ١ ـ ٥ من سورة العلق

وصية لقمان لابنه

قوله - تعالى - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

معانى المفردات

(لقمان) : كان نجارا أسود من سودان مصر ، آتاه الله الحكمة ، ومنحه النبوة .

(الحكمة) : العقل والفطنة ، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شيء كثير ، كقوله لابنه : أى بنى : إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثيرون ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على الله ، لعلك تنجو ، ولا أراك ناجيا .

وقوله : من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزا . والذل فى طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية .

وقوله : يابنى لا تكن حلوا فتبتلع ولا مرا فتلفظ

وقوله : يابنى إذا أردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه فآخه ، وإلا فاحذره .

والشكر : الثناء على الله - تعالى - وإصابة الحق ، وحب الخير للناس وتوجيه الأعضاء وجميع

النعم لما خلقت له .

العظة : تذكير بالخير يرق له القلب ، والوهن : الضعف ، والفصال : الفطام .

(جاهداك) أى : حرصا على متابعتك لهما فى الكفر .

(أناب) : أى رجع .

المثقال : ما يوزن به غيره ، ومثقال حبة الخردل : مثل فى الصغر .

(لطيف) أى : يصل علمه إلى كل خفى .

(خبير) أى : عليم بكنه الأشياء وحقائقها .

(من عزم الأمور) أى : من الأمور المعزومة التى قطعها الله قطع إيجاب . تصعير الخد : ميله وإبداء صفحة الوجه ، وهو من فعل المتكبرين . .

وفى الحديث : (يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتر)[1]

والأصعر : المعرض بوجهه كبرا . وفى الحديث : (كل صعار ملعون)[2]

أى : كل ذى أبهة وكبر هو كذلك .

(مرحا) أى : فرحا وبطرا .

والمختال : هو الذى يفعل الخيلاء ، وهى التبختر فى المشى كبرا .

والفخور : من الفخر ، وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك .

(اقصد) أى : توسط .

(اغضض) أى : انقص منه وأقصر ، من قولهم فلان يغض من فلان : إذا قصر به ، ووضع منه ، وحط من قدره .

(أنكر الأصوات) أى : أقبحها وأصعبها على السمع ، من نكر بالضم أى : صعب

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن بين فساد اعتقاد المشركين بإشراك من لا يخلق شيئا بمن خلق كل شىء ، ثم بين أن المشرك ظالم ضال ، أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة فى السموات والأرض ، والباطنة : من العلم والحكمة ترشد إلى وحدانيته ، وقد آتاها لبعض عباده كلقمان الذى فطر عليها ، ثم بين - سبحانه - أن لقمان أوتى الحكمة ، فشكر ربه على نعمه المتظاهرة عليه ، وهو يرى آثارها فى الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار ، أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضا ، ثم استطرد فى أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصى بها - سبحانه - الأولاد فى معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم وردا لما أسدوه من جميل النعم إليهم ، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى ثم رجع إلى ذكر بقية التى بعضها بحقوقه ، وبعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض .

---

(١) انظر تفسير القرطبى : طبع الشعب ، (تفسير لقمان) ص ٥١٥١

(٢) القرطبى (تفسير سورة لقمان) ص ٥١٥٣

التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾

هذا إخبار منه - تعالى - عن جزيل نعمته على عبده لقمان ؛ فقد آتاه الحكمة ، والحكمة : علم غزير ، وحكم صواب ، وعمل موفق ، قال - تعالى - ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾[١] وقد دعا الخليل ربه أن يهبه الحكمة ، فقال : ﴿ رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ﴾[٢] وقال تعالى - فى شأن يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾[٣] وقال فى شأن موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ﴾[٤] وقال فى شأن خاتم الأنبياء محمد ﷺ : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[٥]

ثم أمر الله - تعالى - لقمان بالشكر ، وهو صرف الجوارح إلى طاعة الله ، فلكل جارحة شكر وذكر ، فذكر العينين : البكاء ، وذكر الأذنين : الإصغاء ، وذكر اللسان : الثناء ، وذكر اليدين : العطاء ، وذكر البدن : الوفاء ، وذكر الروح : الخوف والرجاء ، وذكر القلب : التسليم والرضاء ، فمن ذكر فقد شكر ، قال موسى لربه : ﴿ يارب كيف أشكرك ؟ قال : ياموسى تذكرنى ولا تنسانى ، إنك ذكرتنى شكرتنى ، وإن نسيتنى كفرتنى،اقرأوا إن شئتم قول الله - عز وجل : - ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[٦]

ثم قال - تعالى - : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ إذ العمل الصالح يعود على صاحبه ، قال - تعالى - : ﴿ ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ﴾[٧] والكفر يقابل الشكر ، فشكر النعمة يقابله الجحود ، لذا قال - تعالى - : ﴿ ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾ كما جاء فى قوله - جل شأنه - ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾[٨].

ولما رأى نبى الله سليمان عرش بلقيس مستقرا عنده ، وقد سخر الله له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين بالاصفاد ، وقال له ربه : ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾[٩] فماذا قال سليمان بعد هذه النعم ؟ هل استطاع الغرور ان يقتحم عليه أسوار نفسه المنيعة ؟ إن الغرور مقبرة النجاح ، لقد قال سليمان بلسان العبد الشاكر : ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾[١٠] ولقد كان ﷺ سيد الذاكرين الشاكرين ، خير بين أن يكون نبيا عبدا ونبيا ملكا ، فتواضع لله وقال بل نبيا عبدا ، أجوع يوما فأذكرك وأشبع يوما فأشكرك .

---

(١) الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ٨٣ من سورة الشعراء .
(٣) الآية : ٢٢ من سورة يوسف .
(٤) الآية : ١٤ من سورة القصص .
(٥) الآية : ١٦٤ من سورة آل عمران .
(٦) الآية : ١٥٢ من سورة البقرة .
(٧) الآية : ٤٤ من سورة الروم .
(٨) الآية : ٧ من سورة ابراهيم .
(٩) الآية : ٣٩ من سورة ص .
(١٠) الآية : ٤٠ من سورة النمل .

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم

فصبرت ، وأعطيت فشكرت ، وظلمت فغفرت ، ولقد أقمتنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فجزاك الله خير ما جزى به نبيا عن أمته ، ورسولا عن قومه .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعمها وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

وأخذ لقمان يعظ ابنه ، فنهاه عن الشرك ، وفى النهى عن الشرك أمر بالتوحيد ، وفى التوحيد الأساس المتين لكل إصلاح ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾[1] وفى الشرك إحباط لكل عمل ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[2] وكان لقمان عبدا صالحا يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ؛ فقد بدأ الموعظة بالأصل الأول الذى تبنى عليه الأعمال وهو توحيد الألوهية والربوبية ، والأسماء والصفات ، ولم يقف عند هذا الحد بل بين عاقبة الشرك فى قوله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ أى : هو من أعظم الظلم ، قال البخارى بسنده عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾[3] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ـ وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ (إنه ليس بذلك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾[4] والموعظة فيها حياة للقلوب ، ويقظة للعقول ، فهى تسرى فى الأفئدة سريان الماء فى العود الأخضر ، لذا كان الرسول ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة حتى ينبه الغافل ، ويذكر الناسى ، إن النفس البشرية كالزجاجة إن لم يملأها شىء ملأها الهواء ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، والموعظة كالدواء الذى لابد أن يرج قبل تعاطيه وإلا رسبت العقاقير ، ومن ثم فعلى الواعظ الحكيم ، أن يتعهد الناس بالمواعظ كما يتعهد الطبيب مريضه ، والفلاح زرعه ، والأم أطفالها ، ولقد عقد ابن رجب الحنبلى مجلسا فى التذكر والوعظ قال فيه :

(١) الآية : ١٦٣ من سورة البقرة
(٢) الآية : ٣١ من سورة الحج .
(٣) الآية : ٨٢ من سورة الأنعام .
(٤) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى (كتاب أحاديث الأنبياء) جـ ٦ ص ٤١٧ رقم ١٠١ (البخارى بشرح الشيخ زروق) طبع مطبعة
وانظره فى تفسير سورة الأنعام فى صحيح البخارى .
وأخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (ابواب تفسير القرآن) حـ ٥ ص ٢٦٢ باب : ومن سورة الأنعام رقم ٣٠٦٧ قال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

أخرج الامام أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحة من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قلنا : يارسول الله ؛ مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا ، وزهدنا فى الدنيا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا خرجنا من عندك فآنسنا أهلنا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : (لو أنكم إذا خرجتم من عندى كنتم على حالكم ذلكم لزارتكم الملائكة فى بيوتكم ، ولو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذنبوا فيغفر لهم ﴾[١] كانت مجالس النبى ﷺ مع أصحابه عامتها مجالس تذكير بالله ، وترغيب وترهيب ، إما بتلاوة القرآن أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة ، وتعليم ما ينفع فى الدين ، كما أمره الله ـ تعالى ـ فى كتابه أن يذكر ويعظ ويقص ، وأن يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يبشر وينذر ، وسماه الله مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فقيل : سراجا للمؤمنين فى الدنيا ، ومنيرا للمذنبين يوم القيامة بالشفاعة ، وسمى سراجا لأن السراج الواحد يوقد منه ألف سراج ولا ينتقص من نوره شيء .

والتبشير والإنذار هو الترغيب والترهيب ، فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه كما ذكر ابو هريرة فى هذا الحديث رقة القلوب ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة فى الآخرة ، فأما رقة القلوب فتنشأ عن الذكر ؛ فإن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ، ويذهب الغفلة عنه ، قال الله تعالى : ـ ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القوب ﴾[٢] وقال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾[٤] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾[٥] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾[٦] وفى السنن عن الوباخى بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون . وقال ابن مسعود : نعم المجلس المجلس الذى تنشر فيه الحكمة وترجى فيه الرحمة هى مجالس الذكر . وشكا رجل إلى الحسن قساوة قلبه ، فقال : أدنه من الذكر ، وقال : مجلس الذكر محياة العلم ويحدث فى القلب الخشوع .

وفى مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة ، وتحف الملائكة ، ويذكر الله أهلها فيمن عنده ، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، فربما رحم معهم من جلس إليهم وإن كان مذنبا ، وربما بكى فيهم

---

(١) انظر مسند الامام احمد ٢/٣٠٥ ورواه الترمذى فى جامعه الصحيح برقم ٢٥٢٦ والاحسان بترتيب صحيح ابن حبان حـ ٩ ص ٢٤١

(٢) الآية : ٢٨ من سورة الرعد .

(٣) الآية : ٢ من سورة الأنفال .

(٤) من الآيتين : ٣٤ ، ٣٥ من سورة الحج

(٥) الآية : ١٦ من سورة الحديد .

(٦) من الآية : ٢٣ من سورة الزمر

باك من خشية الله فوهب أهل المجلس كلهم له ، وهى رياض الجنة ، قال ﷺ (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة يارسول الله ؟ قال : مجالس الذكر)[1] وإذا انفض مجلس الذكر فأهله بعد ذلك على أقسام : فمنهم من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشيء مما سمعه فى مجلس الذكر ، ولا يزداد هدى ، ولا يرتدع عن ردى ، وهؤلاء أشر الأقسام ، ويكون ما سمعوه حجة عليهم ، فتزداد به عقوبتهم ، وهؤلاء الظالمون لأنفسهم ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾[2].

ومنهم من ينتفع بما سمعه وهم على أقسام :

فمنهم من يرده ما سمعه عن المحرمات ويوجب له التزام الواجبات وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين ، ومنهم من يرتقى عن ذلك إلى التشمير فى نوافل الطاعات والتورع عن دقائق المكروهات ، ويشتاق إلى اتباع آثار السلف الصالح ، وهؤلاء السابقون المقربون .

وينقسم المنتفعون بسماع الذكر فى استحضار ما سمعوه فى المجلس والغفلة عنه إلى ثلاثة أقسام :

فقسم يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة فيشتغلون بها ، فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه فى مجلس الذكر من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه ووعده ووعيده ، وثوابه وعقابه ، وهذا هو الذى شكاه الصحابة إلى النبى ﷺ وخشوا لكمال معرفتهم وشدة خوفهم - أن يكون نفاقا ، فأعلمهم النبى ﷺ أنه ليس بنفاق .

وفى صحيح مسلم عن حنظلة أنه قال : يارسول الله نافق حنظلة . قال : وما ذاك ؟ قال : نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنها رأى عين ، فإذا رجعنا من عندك عافنا (أى عالجنا) الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا . فقال : (لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم ، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة) .

ومعنى هذا أن استحضار ذكر الآخرة بالقلب فى جميع الأحوال عزيز جدا ولا يقدر كثير من الناس عليه ، فيكتفى منهم بذكر ذلك أحيانا وإن وقعت الغفلة عنه فى حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة ، ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك ، بل يلوم نفسه عليه ، ويحزنه ذلك من نفسه ؛ فالعارف يتأسف فى وقت الكدر على زمن الصفا ، ويحن إلى زمان القرب والوصال فى حال الجفا .

ما أذكر عيشنا الذى قد سلفا إلا وجف القلب وكم قد وجفا
واها لزماننا الذى كان صفا هل يرجع بعد فوته ؟ وا أسفا

---

(١) الحديث اخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (ابواب الدعوات) باب ٨٣ حـ ٥ ص ٥٣٢ رقم ٣٥١٠ من رواية أنس - رضى الله عنه -

وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس .

(٢) الآية : ١٠٨ من سورة النحل

(٣) الحديث اخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) حـ ١٧ ص ٦٦ باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة (مسلم بشرح النووى)

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الجمعة) باب خطبته ﷺ - فى الجمعة حـ ٦ ص ١٥٣ .

وقسم آخر يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر ، فلا يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازما لهم . وهؤلاء على قسمين ، أحدهما : من يشغله ذلك عن مصالح الدنيا المباحة ، فينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم ، ولا القيام بوفاء حقوقهم ، وكان كثير من السلف على هذه الحال ، فمنهم من كان لا يضحك أبدا ، ومنهم من كان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة لفسد .

والثانى من يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه ، ويدخل ببدنه فى مصالح دنياه : من اكتساب الحلال ، والقيام على العيال ، ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع ، مما هو عبادة فى نفسه : كتعلم العلم ، والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وهؤلاء أشرف القسمين ، وهم خلفاء الرسل ، وهم الذين قال فيهم على - رضى الله عنه - (صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى) وقد كان حال النبى ﷺ عند الذكر تتغير ، ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم .

وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم أن النبى ﷺ قال : (اتقوا النار وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ، ثم أعرض وأشاح - ثلاثا - حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة) .

وفى صحيح مسلم عن جابر أن النبى ﷺ (كان إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته ، كأن منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم)[1] وسئلت عائشة ؟ كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا مع نسائه ؟ قالت : كان كرجل من رجالكم ، إلا أنه كان أكرم الناس وأحسن الناس خلقا ، وكان ضحاكا بساما . فهذه الطبقة خلفاء الرسل عاملوا الله بقلوبهم ، وعاشروا الخلق بأبدانهم .

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

(والمواعظ) سياط تضرب بها القلوب فتؤثر فى القلوب كتأثير السياط فى البدن ، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره فى حال وجوده ، لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه ، فكلما قوى الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر .

كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار ، فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعاما عقب ذلك ، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة .

وإنما يصح التأديب بالسوط من صحيح البدن ، ثابت القلب ، قوى الذراعين فيؤلم ضربه فيردع ، فأما من هو سقيم البدن لا قوة له ، فماذا ينفع تأديبه بالضرب ؟ كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها ، وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئا ، وكان أحمد لا تذكر الدنيا فى مجلسه ولا تذكر عنده ، قال بعضهم : لا تنفع الموعظة إلا إذا خرجت من القلب ، فإنها تصل إلى القلب ، فأما إذا خرجت من اللسان فإنها تدخل من الأذن ثم تخرج

---

(١) الحديث اخرجه الامام مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الجمعة) باب خطبته ﷺ فى الجمعة حـ ٦ ص ١٥٣

من الآخرى . قال بعض السلف : إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا .

فى بعض الكتب السالفة (إذا أردت ان تعظ الناس فعظ نفسك ، فإن اتعظت وإلا فاستح منى) .

وغير تقى يأمر الناس بالتقى	طبيب يداوى الناس وهو سقيم
يـاأيهـا الـرجـل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى	بـالقول منـك وينفع التعليم
لاتنـه عن خلق وتـأتى مثله	عار عليك اذا فعلت عظيم

لما حاسب المتقون أنفسهم خافوا من عاقبة الوعظ والتذكير ، قال رجل لابن عباس : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر . فقال له ابن عباس : إن لم تخش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل ، وإلا فابدأ بنفسك ، ثم تلا : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾[1] وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[2] وقوله حكاية عن النبى شعيب ـ عليه السلام ـ : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾[3] قال النخعى : كانوا يكرهون القصص لهذه الآيات الثلاث ومع هذا كله فلابد للانسان من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والوعظ والتذكير ، ولو لم يعظ إلا بعصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد لأنه لا عصمة لأحد بعده .

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب	فمن يعظ العاصين بعد محمد

خطب عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يوما فقال فى موعظته : إنى لا أقول هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندى ، فأستغفر الله وأتوب إليه .

وقوله ﷺ : (لو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذنبوا فيغفر لهم) فالمراد بهذا أن لله ـ تعالى حكمة ـ فى إلقاء الغفلة على قلوب عباده أحيانا حتى تقع منهم بعض الذنوب ، فإنه لو استمرت لهم اليقظة التى يكونون عليها حال سماع الذكر لما وقع منهم ذنب ، وفى إيقاعهم فى الذنوب أحيانا فائدتان عظيمتان ، إحداهما : اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم فى حق مولاهم ، وتنكيس رءوس عجبهم ، وهذا أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات ، فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العجب ، قال بعضهم : ذنب أفتقر به إليه أحب إلى من طاعة أدل بها عليه .

وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين ؛ لأن زجل المسبحين ربما شابه الافتخار ، وأنين المذنبين يزينه الانكسار والافتقار . قال الحسن : إن العبد ليعمل بالذنب فلا ينساه ولا يزال متخوفا منه

---

(١) الآية : ٤٤ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة الصف
(٣) الآية : ٨٨ من سورة هود .

حتى يدخل الجنة .

والفائدة الثانية . حصول المغفرة والعفو من الله لعبده ؛ فإن الله يحب أن يعفو ويغفر ، ومن أسمائه « الغفار والعفو ، والتواب» فلو عصم الخلق فلمن كان العفو والمغفرة ؟

يارب أنت رجائي وفيك حسَّنت ظني
يارب فاغفر ذنوبي وعافني واعف عني
العفو منك إلهي والذنب قد جاء مني
والظن فيك جميل حقق بحقك ظني

وعقد الأستاذ عبد الله ناصح علوان فى كتابه (تربية الأولاد فى الإسلام) فصلا تحت عنوان « التربية بالموعظة) قال فيه : من أهم وسائل التربية المؤثرة فى تكوين الولد إيمانيا ، وإعداده خلقيا ونفسيا واجتماعيا . . تربيته بالموعظة ، وتذكيره بالنصيحة ، لما للموعظة والنصيحة من أثر كبير فى تبصير الولد حقائق الأشياء ، ودفعه إلى معالى الأمور ، وتحليه بمكارم الأخلاق ، وتوعيته بمبادىء الإسلام فلا عجب أن نجد القرآن الكريم قد انتهجها ، وخاطب النفوس بها ، وكررها فى كثير من آياته ، وفى مواطن عدة من توجيهاته وعظاته . . وإليكم بعض النماذج فى تكرار القرآن العظيم لكلمات الوعظ والنصيحة والانتفاع بالذكر :

قال الله - تعالى - فى سورة لقمان :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ، يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . .) ١٢ - ١٩

وقال تعالى فى سورة سبأ على لسان الرسول ﷺ ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد. قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد . قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ ٤٥ - ٤٩

وقال تعالى فى سورة هود على لسان نوح - عليه السلام - ﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ ٣٢ - ٣٤

وقال الله - تعالى - فى سورة الأعراف على لسان هود - عليه السلام -) ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . . . ﴾ ٦٥ - ٦٨

وأسلوب القرآن الكريم متنوع فى الدعوة إلى الله ، وفى التذكير بالله ، وفى إلقاء الموعظة ، والإرشاد بالنصيحة . . حيث جرى ذلك كله على ألسنة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وتردد على أفواه الدعاة من جماعتهم وأتباعهم .

ولا يختلف اثنان أن الموعظة المخلصة ، والنصيحة المؤثرة إذا وجدت لها نفسا صافية ، وقلبا متفتحا ، وعقلا حكيما متدبرا . . فإنها أسرع للاستجابة وأبلغ فى التأثير .

والقرآن الكريم قد أكد هذا المعنى فى كثير من آياته وكرر الانتفاع بالذكر ، والتأثير بالكلمة الهادية ، والنصيحة الراشدة . ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ (ق : ٣٧) .

﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ (الذاريات : ٥٥) .

﴿ **وما يدرك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى** ﴾ (عبس ٢ - ٣)

﴿ **تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ (ق : ٨)

ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ (هود : ١١٤)

﴿ **ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ (الطلاق : ٢)

والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تتخذ أسلوب الوعظ اساسا لمنهج الدعوة ، وطريقا إلى الوصول لإصلاح الأفراد ، وهداية الجماعات . . ومن استعرض صفحات القرآن الكريم يجد ظاهرة الأسلوب الوعظى حقيقة ملموسة فى كثير من آياته . . تارة بالتذكير بالتقوى ، وأخرى بالتنويه بالتذكرة ، وثالثة بالتعبير بالموعظة ، ورابعة بالحض على النصح ، وخامسة باتباع سبيل الرشاد ، وسادسة بالإغراء بالترغيب ، وسابعة باستعمال أسلوب التهديد ، وهكذا يجد القارىء ظاهرة الوعظ مناسبة فى ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه بقوالب متعددة ، وأساليب متنوعة . . مما يؤكد لكل ذى بصر وبصيرة أن للوعظ فى القرآن الكريم أهمية بالغة فى تربية النفوس على الخير ، وحملها على الحق ، واستجابتها للهدى . .

وسبق أن ذكرنا جملة من الاستشهادات القرآنية التى تفصح بشكل قاطع لا يقبل الشك أن النفوس الصافية ، والقلوب المتفتحة ، والعقول الواعية المتدبرة . . إذا تراءى لها الحق منسابا بالكلمة المؤثرة والموعظة البليغة ، والنصيحة الرشيدة ، والتذكرة المخلصة . . فإنها سرعان ما تستجيب فى غير تردد ، وتتأثر من غير توقف . . بل سرعان ما تخضع للحق ، وتتقبل هدى الله الذى أنزله .

هذا فى الكبير . . فكيف بالمولود الصغير الذى ولد على الفطرة وقلبه الطاهر البرىء لم يَتَلَوَّنْ بعد ؟ ونفسه البيضاء الصافية لم تتدنس بمفاسد الجاهلية ، ولم تتقلب فى مدارج الإثم والعدوان . . ؟ فلا شك أن تأثره بالموعظة أبلغ ، وقبوله للتذكرة أقوى ! . .

فما على المربين إلا أن يفهموا هذه الحقيقة ، وأن ينهجوا منهج القرآن الكريم فى مواعظه وإرشاداته فى إعداد أولادهم الصغار - قبل سن التمييز وبعده - إيمانيا وخلقيا ، وتكوينهم نفسيا واجتماعيا . . إذا أرادوا لأولادهم الخير والكمال . والنضج الخلقى والعقلى والاتزان .

ولابد فى هذا المضمار أن نلمح طريقة القرآن الكريم فى الموعظة والنصح عسى أن ينتهجها من كان له فى عنقه حق التربية ، ليصلوا بأولادهم أو تلامذتهم إلى الغاية المثلى فى الإعداد والتكوين ، والتهذيب والتعليم .

وفى تقديرى أن طريقة القرآن فى الموعظة تتميز بالأساليب التالية :

● **النداء الإقناعى** : مصحوبا بالاستعطاف أو الاستنكار . وهذا الأسلوب له إيحاءاته المؤثرة على المشاعر . وتأثيره البالغ فى القلوب . . وهذا الأسلوب من الإقناع الاستنكارى أو الاستعطافى ظاهر واضح فى مخاطبة القرآن لقلوب الناس وعقولهم ، على اختلاف أشكالهم وأجناسهم وطبقاتهم ، على ألسنة الأنبياء والدعاة .

وإليكم نماذج من هذه النداءات بأساليبها المتنوعة :

● **نداؤه للأبناء** : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله . . ﴾

وعلى لسان نوح ـ عليه السلام ـ : (يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ (هود : ٤٢)

وعلى سان يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿ يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ (يوسف : ٥)

وعلى لسان إبراهيم ويعقوب ـ عليهما السلام ـ ﴿ يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣٢)

نداؤه للنساء : على لسان الملائكة لمريم ـ عليها السلام ـ ﴿ يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ (آل عمران ٤٢ ـ ٤٣)

﴿ يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ﴾ (الأحزاب : ٣٢)

● **نداؤه للأقوام** : على لسان موسى ـ عليه السلام : ـ ﴿ ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ (البقرة : ٥٤) .

وعلى لسان الداعية الذى آمن من قوم موسى : ﴿ ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . . ﴾ وقوله : ﴿ وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . .) (غافر ٣٨ : ٤١)

وعلى لسان الجن الدعاة :

﴿ ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ (الاحقاف ٣٠ ـ ٣١)

نداؤه للمؤمنين :

﴿ يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ (البقرة ١٥٣)

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (آل عمران : ١٠٢)
يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . . ﴾ (الأنفال : ٢٤)

نداؤه لأهل الكتاب :

﴿ يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (آل عمران : ٦٤)

﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (المائدة : ٦٨) .

● نداؤه للناس أجمعين :

﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (البقرة ٢٠ - ٢٢)

﴿ يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا ﴾ (النساء ١٧٤)

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (الحج ١ - ٢) .

وهذا النداء كثير فى القرآن الكريم .

٢ - الاسلوب القصصى مصحوبا بالعبرة والموعظة :

وهذا الأسلوب له تأثيراته النفسية ، وانطباعاته الذهنية ، وحججه المنطقية والعقلية . . وقد استعمله القرآن الكريم فى كثير من المواطن ، ولا سيما فى أخبار الرسل مع أقوامهم ، وقد من الله على رسوله - عليه الصلاة والسلام - بأن قص عليه أحسن القصص ، ونزل عليه أحسن الحديث . . ليكون للناس آية وعبرة وللرسول - عليه الصلاة والسلام - عزما وتثبيتا .

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) (يوسف ٣)

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ (الاعراف ١٠١)

﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ (هود ١٢٠)

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ (الأعراف ١٧٦)

﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ (النازعات : ١٥)

- ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ (الذاريات ٤)

- ﴿ هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ﴾ (البروج ١٧ - ١٨)

والقرآن الكريم ملىء بقصص الأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم ، وأحيانا تكون القصة مكررة فى سور عدة من القرآن ، لإظهار القصة فى كل مرة بأسلوب جديد يختلف عن أسلوبها فى

المرات السابقة ، لتذوق الإعجاز القرآنى فى أسلوبه الرائع ، وبيانه الفريد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لإظهار عبرة أخرى تكمن وراء الآيات ، وتتراءى خلال الألفاظ والمعانى التى لا يدركها إلا الراسخون فى العلم ، والمتذوقون لبلاغة القرآن الكريم !

ولنضرب على ذلك مثلا .

قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون مذكورة مرات ومرات فى القرآن ، فلنختر قصتين من هذه القصص ، ثم نقارن بينهما ليعلم القارىء سر هذا التكرار :

القصة الأولى فى سورة الأعراف (١٠٤ - ١٣٩)

﴿ وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين ، حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ﴾ .

القصة الثانية من سورة النازعات (١٥ - ٢٦) :

﴿ هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، إذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ .

من المقارنة بين القصتين يتبين الأمور التالية :

١ - الأولى مفصلة وطويلة ، والثانية مختصرة وقصيرة .

٢ - فرق كبير بين الأسلوبين ، سواء ما يتعلق بالآيات وفواصلها فى طولها وقصرها ، أو معانيها وتراكيبها ، أو صيغ الأمر والنهى فيها . .

٣ - التركيز على العبرة فى سورة الأعراف يتناول :

أ - إقامة الحجة على فرعون .

ب - إظهار المعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام -

ج - الحوار الذى دار بين موسى والسحرة

د - إيمان السحرة بعد قيام الحجة .

هـ - تهديد فرعون ووعيده .

و - عدم اكتراث السحرة بالتهديد بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلوبهم .

ز - أخذ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات .

ح - انتقام الله منهم بالغرق .

أما التركيز فى سورة النازعات فيتناول :

أ - إهلاك الله لفرعون لادعائه الألوهية .

ب - أخذ العبرة لمن يريد أن يتذكر أو يخشى

بعد هذا البيان تبين لك الفرق الكبير ما بين القصتين ، سواء ما يتعلق بالتذوق البلاغى ، أو

بأخذ العبرة والعظة ، إذن فلا يجوز أن نرى فى القصص المعادة مجرد تكرار ، لأن القصص التى كررها القرآن الكريم ليست كذلك ، كما رأيت من الفارق الكبير من عرض القصتين .

٣ ـ التوجيه القرآنى مصحوبا بالوصايا والمواعظ

القرآن الكريم ملىء بالآيات المصحوبة بالوصايا وبالنصوص المقرونة بالمواعظ لتوجيه القارىء إلى ما ينفعه فى دينه ودنياه وآخرته ، وتكوينه فى روحه وعقله وجسمه ، وإعداده ليكون رجل دعوة وبطل جهاد .

وللقرآن الكريم تأثيره البالغ على الأرواح والقلوب ، فحينما يسمع المسلم آيات الله تتلى ، يتخشع لها قلبه ، وتتوق إليها نفسه ، وتتحرك لجرسها روحه ، فيعاهد الله ـ سبحانه ـ على أن يعمل بمواعظها ، ويستجيب لوصاياها ، ويمتثل أوامرها ، ويتجنب نواهيها ، لأنها تنزيل من حكيم حميد ، فيها البلسم الشافى لأسقامه . والعلاج الواقى لأمراض الجسم ، وآفات القلوب .

وإليكم بعض هذه النماذج التوجيهية من القرآن الكريم :

(أ) من سورة لقمان : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه .. ﴾

(ب) ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما . والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ (الفرقان ٦٣ ـ ٧٧)

(ج) ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ (النساء ٣٦ ـ ٣٨)

(د) ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (البقرة ١٧٧)

(هـ) ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا. ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ الاسراء : ٢٣ - ٣٨

إلى غير ذلك من هذه الوصايا ، والمواعظ والتوجيهات ، والأوامر والنواهى التى تفيض فيها آيات الله ، ويدعو إليها قرآنه المجيد ! !

ويتفرع من هذا :

(أ) التوجيه القرآنى المصحوب بأدوات التوكيد : كقوله ـ تعالى ـ :

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] وقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[2] وقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾[3] وقوله : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[4]

(ب) التوجيه القرآنى المصحوب بأدوات الاستفهام الإنكارى : كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾[5] .

﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾[6]

﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[7]

﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ﴾[8]

---

(١) من الآية : ١٢ من سورة النحل ، ومن الآية : ٤ من سورة الرعد ، ومن الآية : ٢٤ من سورة الروم .
(٢) من الآية : ٢١ من سورة الروم .
(٣) من الآية : ٢٣ من سورة الروم .
(٤) من الآية : ٣٧ من سورة ق .
(٥) الآيتان : ٣١ ، ٣٢ من سورة الطور .
(٦) الآية : ٣٢ من سورة الطور .
(٧) الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ من سورة الطور .
(٨) الآية : ٣٥ من سورة الطور .

﴿ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ؟ ﴾[١]
﴿ أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ؟ ﴾[٢]
﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ؟ ﴾[٣]
﴿ أم له البنات ولكم البنون ؟ ﴾[٤]
﴿ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ ﴾[٥]
﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ﴾[٦]
﴿ أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ﴾[٧]
﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ؟ ﴾[٨] (الطور : ٣٠ - ٤٣)

(هـ) التوجيه القرآنى المصحوب بالأدلة العقلية : كقوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (البقرة : ١٦٤)
﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (الأنبياء : ٢٢)
﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ ﴾ (الطور : ٣٦)
﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (الذاريات : ٢٠ ،٢١) .

(د) التوجيه القرآنى المصحوب بشمولية الإسلام : كقوله - تعالى - : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وإقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (البقرة : ١٧٧)

- وفى سورة النحل : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (النحل : ٨٩)

- وفى سورة الأنعام : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ (الأنعام : ٣٨)

---

(١) الآية : ٣٦ من سورة الطور .
(٢) الآية : ٣٧ من سورة الطور .
(٣) الآية : ٣٨ من سورة الطور .
(٤) الآية : ٣٩ من سورة الطور .
(٥) الآية : ٤٠ من سورة الطور .
(٦) الآية : ٤١ من سورة الطور .
(٧) الآية : ٤٢ من سورة الطور .
(٨) الآية : ٤٣ من سورة الطور .

(هـ) التوجيه القرآنى المصحوب بقواعد التشريع : كقوله - تعالى - :

- فى قاعدة العدل القضائية : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ (النساء : ٥٨)

- وكقوله فى قاعدة الشورى الدستورية : ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (الشورى : ٣٨)

وكقوله فى قاعدة المساواة الإنسانية : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات : ١٣)

تلكم أهم الأساليب التى سلكها القرآن الكريم فى نصائحه ومواعظه . . وهى أساليب متنوعة لها إيحاءاتها المؤثرة ، وحساسياتها البالغة ، واهتزازاتها الضاربة على أوتار القلوب ! . .

ومن بديهيات القول أن المربين جميعا لو سلكوا هذه الأساليب التى انتهجها القرآن الكريم فى تأديب أولادهم ، وتهذيب أفلاذ أكبادهم . . لنشأ الأولاد - ولا شك - على خير ما ينشأون من التربية الفاضلة ، والأخلاق الحميدة ، والسلوك الإنسانى القويم ، والوعى الاسلامى الشامل . .

والرسول - صلوات الله وسلامه عليه - قد اهتم للنصيحة ، ووجه المربين والدعاة . . إلى إلقاء الموعظة ، وأهاب بكل مسلم فى الحياة أن يكون الداعية إلى الله فى كل مكان يحل فيه ، وفى كل بيئة يوجد فيها . . عسى أن يتأثر بمواعظه وإرشاداته من كل له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعسى أن يقوم بمهمة الإنقاذ - عن طريق الدعوة والموعظة - لرجال توحلوا فى مستنقع الجاهلية ، وتعثروا فى دروب الانحلال ، وضاعوا فى متاهات الزيغ والضلال . .

وإليكم أهم توجيهاته - عليه الصلاة والسلام - فى بث النصيحة ، وإلقاء الموعظة والدعوة إلى الله :

- روى مسلم عن تميم بن أوس الدارى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : (الدين النصيحة ؛ قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ﴾[١] .

- وروى الشيخان عن جرير بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم)[٢] .

- وروى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)[٣] .

- وروى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا)[٤] .

---

(١) الحديث اخرجه الامام مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الايمان) باب : الدين النصيحة ج ٢ ص ٣٧ .
(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الايمان) باب بيان ان الدين النصيحة ج ١ ص ١٢ رقم ٣٥
(٣) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى فى (كتاب الامارة) باب فضل الصدقة فى سبيل الله تعالى ج ١٣ ص ٣٨ ، ٣٩
(٤) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ٢٢٧ فى (كتاب العلم) باب من سن سنة حسنة أو سيئة .

ـ وروى الشيخان من حديث سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ قال لعلى ـ كرم الله وجهه ـ لما وجهه إلى فتح خيبر : (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم)[1] .

ـ معنى (حمر النعم) النعم : الإبل ، والحمر منها انفسها .

والأحاديث فى هذا الشأن كثيرة ومستفيضة ، فعلى المربين أن يأخذوا بتوجيهاتها ، وأن يكونوا محققين لما جاء فيها .. ولا سيما الأمور التى تخص أولادهم وتلامذتهم ومريديهم .

ومعلمنا الأول ـ عليه الصلاة والسلام ـ له منهجه الأفضل ، وطريقته المثلى فى إلقاء الموعظة ، وتجدد أسلوبها ، وتنوع عرضها ..

وإليكم أهم ما فى هذا المنهج وهذه الطريقة :

(أ) انتهاج أسلوب القصة : ولنذكر بعض الامثلة :

١ ـ قصة الأبرص والأقرع والأعمى :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع النبى ﷺ يقول : (إن ثلاثة من بنى إسرائيل ، أبرص ، وأقرع ، وأعمى) أراد الله أن يبتليهم (يختبرهم) فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص :

الملك : أى شىء أحب اليك ؟

الأبرص : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطى لونا حسنا .

الملك : فأى المال أحب إليك ؟

الأبرص : الإبل ، فأعطى ناقة عشراء (حاملا) .

الملك : بارك الله لك فيها .

فأتى الأقرع :

الملك : أى شىء أحب إليك ؟

الأقرع : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس . فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا ..

الملك : فأى المال أحب اليك ؟

الأقرع : البقرة فأعطى بقرة حاملا .

الملك : بارك الله لك فيها ..

فأتى الأعمى :

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الفضائل) باب : من فضائل على بن أبى طالب رضى الله عنه ص ٦٤٠ رقم ١٥٥٧ .

الملك : أى شىء أحب إليك ؟
الأعمى : أن يرد الله بصرى ، فأبصر الناس ، فرد إليه بصره
الملك : فأى المال أحب إليك ؟
الأعمى : الغنم ، فأعطى شاة والدة (حاملا) .
فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الابل ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .
- ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته :
الملك : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم (أى : معونة من المال) إلا بالله ثم بكى ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن . والجلد الحسن والمال ، بعيرا أتبلغ به فى سفرى .
الأبرص : الحقوق كثيرة !!
الملك : فإنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ؟ فقيرا فأعطاك الله ؟
الأبرص : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر (أبا عن جدا) !!
الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

الملك : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ بى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك الشعر الحسن ، والمنظر الحسن ، والمال ، بقرة أتبلغ بها فى سفرى .
الأقرع : الحقوق كثيرة !!

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته :

الملك : كأنى أعرفك ، ألم تكن أقرع يقذرك الناس ؟ فقيرا فأعطاك الله ؟ .
الأقرع : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر !!

الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت .
وأتى الأعمى فى صورته وهيئته :

الملك : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك ، شاة أتبلغ بها فى سفرى .

الأعمى : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى، فخذ ماشئت ، ودع ماشئت ، فوالله لاأجهدك (لاأعارضك) بشىء أخذته لله عز وجل .

الملك : أمسك مالك فإنما ابتليتم (اختبرتم) . فقد رضى الله عنك ، وسخط على صاحبيك[١] .

٢ ـ قصة الخشبة العجيبة .

روى البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ :

« أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه (يقرضه) ألف دينار

المقرض : ائتنى بالشهداء أشهدهم .

المقترض : كفى بالله شهيدا !

المقرض : فائتنى بالكفيل .

المقترض : كفى بالله كفيلا !

المقرض : صدقت !! فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر ، فقضى حاجته ، ثم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجله ، فلم يجد مركبا ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار . وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها (أى : سده) ثم أتى بها البحر .

المقترض : « اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلانا (اقترضت منه) ألف دينار ، فسألنى كفيلا ، فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك ، وسألنى شهيدا ، فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بك ، وإنى جهدت (بذلت جهدى) أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له ، فلم أقدر ، وإنى أستودعكها (أى : أجعلها فى أمانتك) ، فرمى بها فى البحر !! حتى ولجت فيه ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه (أقرضه) ينظر : لعل مركبا قد جاء بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال !!! فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه ، فأتى بألف دينار .

المقترض : والله مازلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركبا قبل الذى اتيت فيه .

المقرض : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ .

المقترض : أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه .

المقرض : فإن الله أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بألف الدينار راشدا » .[٢]

قصة هاجر وإسماعيل

روى البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : جاء ابراهيم ـ عليه السلام ـ بأم اسماعيل (هاجر) ، وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة (شجرة) فوق زمزم من أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعها هناك ، ووضع عندهما جرابا (كيسا) فيه تمر ، وسقاء فيه ماء .

ثم قفى (رجع) إبراهيم ـ عليه السلام ـ منطلقا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : ياإبراهيم أين

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (كتاب الزهد والرقائق) ص ٨٢٦ ، ٨٢٧ رقم ١٨٦٨ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الزكاة) باب : مايستخرج من البحر ج ٢ ص ١٥٩

تذهب ؟ وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء !!

قالت له ذلك مرارا ، وهو لايلتفت إليها !!

هاجر : آلله أمرك بهذا ؟ .

إبراهيم : نعم .

هاجر : إذن لا يضيعنا !!

ثم رجعت فانطلق إبراهيم - عليه السلام - ثم إذا كان عند الثنية (مكان بمكة) حتى لايرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، فرفع يديه فقال : **﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾**[1] .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد مافى السقاء عطشت وعطش ولدها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت (الصفا) أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها (ثوبها) ثم سعت سعى الإنسان المجهود (المتعب) حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : إن رسول الله - ﷺ - قال :

« فلذلك سعى الناس بينهما »

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه !! تريد نفسها -

ثم تسمعت فسمعت أيضا - فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث (إغاثة) فأغث .

فإذا هى بملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال - بجناحه ، حتى فجر الماء ، فجعلت تحوضه (تجعله حوضا) ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف بسقائها وهو يفور بعدما تغرف ، فشربت وأرضعت ولدها .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال النبى - ﷺ - :

« رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عينا معينا »

فقال لها الملك : « لاتخافوا ضيعة (هلاكا) ، فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لايضيع أهله » .

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله .

فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم (اسم قبيلة) مقبلين من طريق كداء (اسم موضع) فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا (حائما) فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء !!

---

(١) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .

لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء !! فأرسلوا جريا (رائدا) فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء .

جرهم : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

هاجر : نعم ، ولكن لاحق لكم بالماء .

جرهم : نعم .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال رسول الله - ﷺ -

« فألفى ذلك (وجد الحى) أم إسماعيل وهى تحب الأنس »

فنزلوا فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم وأنفسهم (أى : سبقهم) وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم - عليه السلام - بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته (يتفقد أسرته) فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه .

الكنة : خرج يصيد لنا ، ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم .

الكنة : نحن بشر !! نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه !!

إبراهيم : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له يغير عتبة بابه (كناية عن الطلاق) .

إسماعيل : هل جاءكم من أحد ؟

زوجته : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا (وصفته له) فسألنا عنك ، فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة .

إسماعيل : فهل أوصاك بشىء ؟

زوجته : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : « غير عتبة بابك »

إسماعيل : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، الحقى بأهلك ، فطلقها .

وتزوج إسماعيل منهم مرة أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم - عليه السلام - ماشاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسأل عنه :

إبراهيم : أين إسماعيل ؟ وكيف أنتم ؟

الكنة : ذهب يصيد لنا ، ونحن بخير وسعة ، ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟

إبراهيم : وما طعامكم وشرابكم ؟ .

الكنة : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء .

إبراهيم : اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم .

فقال أبو القاسم - ﷺ -

« بركة دعوة ابراهيم » .

إبراهيم : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومريه « يثبت عتبة بابه » .

جاء إسماعيل وهو يقول : هل أتاكم من أحد ؟

الزوجة : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، (وأثنت عليه) ، فسألنى عنك فأخبرته أنا بخير .

إسماعيل : فأوصاك بشيء ؟

الزوجة : نعم : يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك .

إسماعيل : ذاك أبي وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ماشاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له (قوسا) تحت دوحة (شجرة) قريبة من زمزم . فلما رآه قام إليه ، وصنع كما يصنع الوالد بالولد (أى : تعانقا)

إبراهيم : ياإسماعيل إن الله أمرنى بأمر .

إسماعيل فاصنع ماأمرك ربك .

إبراهيم : وتعيننى ؟

إسماعيل : أعينك .

ابراهيم : فان الله أمرنى أن أبنى بيتا ههنا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها .

فعند ذلك رفع القواعد من البيت .

فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر (المقام) فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان :

(ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)(١)

إلى غير ذلك من هذه القصص الواردة .

فالواعظ البارع ، والمربى الحكيم ، والداعية الموفق . يستطيعون أن يكيفوا عرض القصة بالأسلوب الملائم الذى يتناسب مع عقلية المخاطبين ، كما أنهم يستطيعون أن يستخرجوا من القصة أهم مواطن العبرة والعظة . . ليكون التأثير أبلغ ، والإستجابة أقوى .

إذن فما على المربى إلا أن يستغل انفعال العاطفة ، ومثار الانتباه فى عرض القصة لدى السامع حتى إذا تفاعل روحيا ، وتفتح ذهنيا . . صب فى مشاعره وأحاسيسه وأعماق قلبه من معين العبرة ، وسلسبيل العظة . .

وإذا هو مذعن ملتزم خاشع مخبت لله رب العالمين . وعندئذ يأخذ المربى عليه العهد ليلتزم الإسلام منهاجا وتشريعا . ويتخلق بمبادىء هذا الدين سلوكا ومعاملة .

وهكذا يستطيع المربى الواعظ أن يضفى ـ بأسلوبه الشائق واستجلائه مواطن العبرة ـ على القصة جلالها ، وأن يترك فى النفوس أثرها ، وأن ينقل المستمع إلى أجواء الطهر والروحانية والخشوع .

(ب) انتهاج أسلوب الحوار والاستجواب :

وذلك بطرح الأسئلة على أصحابه ، ليثير انتباههم ، ويحرك ذكاءهم ، ويقدح فطنتهم ، ويسقيهم المواعظ المؤثرة فى قالب الإقناع والمحاجة .

ولنضرب على ذلك أمثلة :

١ ـ روى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال :

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه بشرح الشيخ زروق ، فى (كتاب أحاديث الأنبياء) ج ٦ ص ٣٦٠ ـ ٣٦٨ رقم ٤٤

سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « أتدرون من المسلم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

قال : أتدرون من المؤمن ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : المؤمن من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم .

ثم ذكر المهاجر فقال : والمهاجر من هجر السوء فاجتنبه »[1] .

٢ - وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ »

قالوا : لايبقى من درنه شىء .

قال : ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا »[2] .

٣ - وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - : « أتدرون من المفلس ؟

قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع .

قال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار »[3] .

(ج) بدء الموعظة بالقسم بالله - تعالى : -

وذلك لتنبيه السامع على أهمية المقسم عليه لفعله أو اجتنابه :

- روى مسلم فى صحيحه عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : « والذى نفسى بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا . . أو لا ادلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .[4]

- وروى البخارى من حديث أبى شريح - رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذى لايأمن جاره بوائقه »[5] أى شروره ، وهذا كثير فى توجيهاته - عليه الصلاة والسلام - . .

---

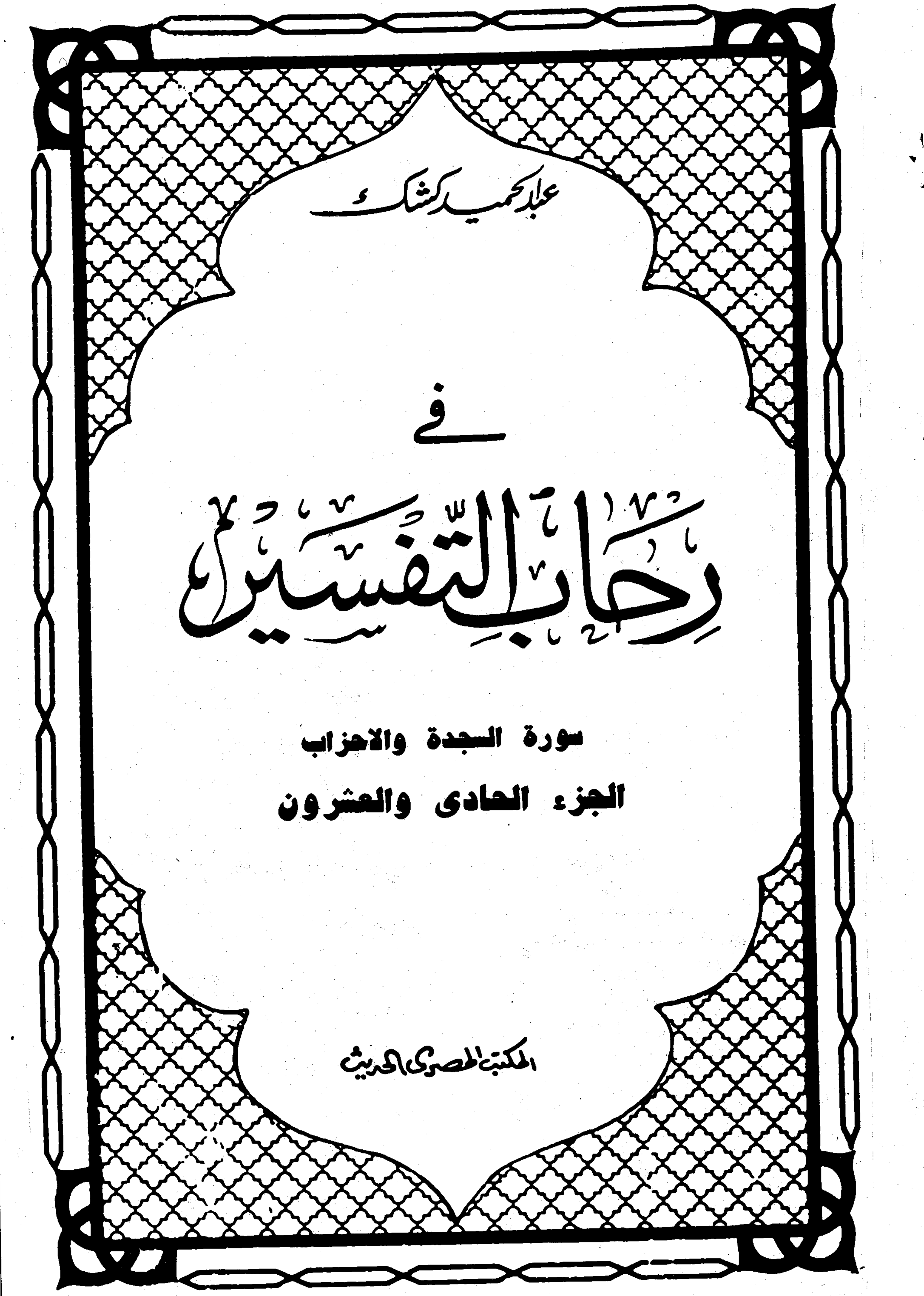
(١) انظر مسند الإمام أحمد (مسند عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما) - ج ٢ ص ٢٠٦

(٢) الحديث رواه البخارى ومسلم . انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب المساجد) باب المشى إلى الصلاة . . الخ ص ١٣٢ رقم ٣٨٩

(٣) هذا الحديث رواه الإمام مسلم فقط .
أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم الظلم ج ١٦ ص ١٣٥ ، ١٣٦

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإيمان) باب لايدخل الجنة إلا المؤمنون ج ٢ ص ٣٥
وانظر جامع الترمذى (كتاب الاستئذان) باب ماجاء فى إفشاء السلام ج ٥ ص ٥٢ رقم ٢٦٨٨

(٥) انظر صحيح البخارى (كتاب الأدب) ج ٧ ص ٧٤



عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

سورة السجدة والاحزاب

الجزء الحادى والعشرون

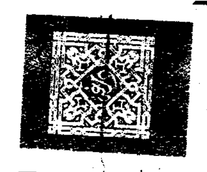
المكتب المصرى الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهـــر
مجمع البحـوث الاســلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتـأليف والترجمـة



السيد / الأستاذ مدير المكتب المصري الحديث (أحمد يحيى)

السلام عليكم ورحمة اللـه وبركاته — وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : في رحاب التفسير
الجزء الحادي والعشرون تأليف : الشيخ / عبد الحميد كشك

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مـانع من طبعـه على نفقتكم الخاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبـوية الشريفـة .

واللـه المـوفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة اللـه وبركاته ،،،

ممدوح ماهر

مدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمة

تحريرا فى ٢٢ / ١ / ١٤١٢ هـ
الموافق ٢ / ٨ / ١٩٩١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فى رحاب التفسير

المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
القاهرة ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت ٣٩٢٤١٢٧
الاسكندرية ٧ شارع نوبار المنشية ت ٤٨٢٦٦٠٢
فاكسيملى القاهرة ٣٤٧٥٤٢٧ (٠٠٢٠٢)

(د) دمج الموعظة بالمداعبة

وذلك لتحريك الذهن ، وإذهاب الملل ، وتشويق النفس . . من هذا :

ماروواه أبو داود والترمذى عن أنس - رضى الله عنه - قال : إن رجلا جاء إلى رسول الله - ﷺ - يستحمله بعيرا من الصدقة ليحمل عليه متاع بيته ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إنى حاملك على ولد الناقة ، فقال الرجل : يارسول الله ماأصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله - ﷺ - :

وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ »(١)

فأفهمه - ﷺ - عن طريق هذه المداعبة أن الجمل ولو كان كبيرا يحمل الأثقال مايزال ولد الناقة .

وهذا كثير فى مداعباته - عليه الصلاة والسلام - .

(هـ) الاقتصاد بالموعظة مخافة السآمة :

- روى مسلم عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال : « كنت أصلى مع النبى ﷺ فكانت صلاته قصدا » أى : وسطا (٢)

- وروى أبو داود عن جابر بن سمرة : « كان رسول الله - ﷺ - لايطيل الموعظة يوم الجمعة - إنما هى كلمات يسيرات » .(٣) .

- ومما يروى عنه - عليه الصلاة والسلام - : « أنه إذا خطب لايخل ولا يُملّ »

وأيضا : « كان رسول الله - ﷺ - يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة »(٤) .

(و) الهيمنة بالتأثير الوعظى على الحاضرين :

روى الترمذى عن العرباض بن سارية أنه قال : « وعظنا رسول الله - ﷺ - موعظة مضت - احترقت - منها الجلود - وذرفت منها العيون . ووجلت منها القلوب ، فقلنا : كأن هذه موعظة مودع يارسول الله ؟ فماذا تعهد إلينا ؟

فقال : « أن اتقوا الله ، وأن تتبعوا سنتى ، وسنة الخلفاء الهادية المهدية من بعدى ، وعضوا عليها بالنواجذ ، فإن كل بدعة ضلالة »(٥)

---

(١) انظر سنن أبى داود بتحقيق أ محمد محيى الدين عبد الحميد (كتاب الأدب) باب ماجاء فى المزاح ج ٤ ص ٣٠٠ رقم ٤٩٩٨ وانظره فى سنن الترمذى (فى كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى المزاح ج ٤ ص ٣٥٧ رقم ١٩٩١ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . .

(٢) رواه مسلم بمعناه فى (كتاب الصلاة) باب القراءة فى الصبح ج ١ ص ٣٣٧ رقم ١٦٩/ ٤٥٨ - وانظر نصه فى مسلم فى (كتاب الجمعة) باب تخفيف الصلاة والخطبة ج ٢ ص ٥٩١ رقم ٤١/ ٨٦٦

(٣) انظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) تفريع أبواب الجمعة : باب إقصار الخطب ج ١ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ رقم ١١٠٧

(٤) انظر صحيح البخارى (كتاب كيف كان بدء الوحى) باب ماكان النبى - ﷺ - يتخولهم بالموعظة والعلم . . الخ ج ١ ص ٢٧ من رواية ابن مسعود - رضى الله عنه .

وانظر صحيح مسلم (كتاب صفة المنافقين وأحكامهم) باب الاقتصاد فى الموعظة ج ٤ ص ٢١٧٢ ، ٢١٧٣ رقمى ٨٢ ، ٨٣ والترمذى رقم ٢٨٥٥ .

(٥) انظر الجامع الصحيح للترمذى (كتاب العلم) باب ماجاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ج ٥ ص ٤٤ رقم ٢٦٧٦ ولفظه « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن عبد حبشى ؛ فإنه من يعش منكم ير اختلافا كثيرا ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإنها ضلالة ، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

جاء فى المسند ومسلم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : إن رسول الله - ﷺ - قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ورسول الله - ﷺ - يقول هكذا بيده : يحركها ، يقبل بها ويدبر : يمجد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله - ﷺ - المنبر ، حتى قلنا :

ليخرن به ، أساقط هو برسول الله - ﷺ ؟[1] .

ولايتصف الواعظ الداعية بهذه الهيمنة والتأثير إلا أن يكون مخلص النية ، رقيق القلب ، خاشع النفس ، طاهر السريرة ، مشرق الروح ، وإلا فالمسئولية كبيرة عند رب العالمين .

روى ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلا بإرسال جيد عن مالك بن دينار عن الحسن - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مامن عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ماأراد بها ؟ »[2]

فكان مالك إذا حدث بهذا الحديث بكى ، ثم يقول : تحسبون أن عينى تقر بكلامى عليكم ؟ وأنا أعلم أن الله - عز وجل - سائلى عنه يوم القيامة : ماأردت به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبى ، لو لم أعلم أنه أحب إليك ، لم أقرأ به على اثنين أبدا .

وفرق كبير بين داعية يتكلم بلسانه وهو متصنع بالكلام ليسبى به قلوب الرجال ، وبين داعية مؤمن مخلص مكلوم القلب على الإسلام ، يتكلم بنبضات قلبه ، ولو اعج حزنه وأساه ، لما آل إليه حال المسلمين !! فلا شك أن تأثير الثانى أبلغ ، والاستجابة إليه أقوى ، والاتعاظ بكلامه أعظم .

قال عمر بن ذر لأبيه : ياأبت : مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ فقال : يابنى ، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة .

روى أبو داود عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« من تعلم صرف الكلام ليسبى به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا »[3] .

- معنى (الصرف) : التوبة ، والعدل : الفدية .

(ز) الموعظة بضرب المثل .

كان - عليه الصلاة والسلام - يستعين على توضيح مواعظه بضرب المثل مما يشهده الناس بأم

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب صفة القيامة والجنة والنار) ج ١٧ ص ١٣٢ ولفظه :
قال : « يأخذ الله - عز وجل - سمواته وأراضيه بيديه فيقول : أنا الله - ويقبض أصابعه ويبسطها - أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شىء منه ، حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله - ﷺ - ؟ !
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب : ذكر البعث فقد أورده مع اختلاف فى بعض الألفاظ وقال فى الزوائد : إسناده صحيح .

(٢) انظر الترغيب والترهيب (باب : من لم ينفعه علمه ضره جهله) ج ١ ص ١٢٦ وقال المنذرى : رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلا بإرسال جيد .

(٣) انظر سنن أبى داود بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (كتاب الأدب) باب ماجاء فى المتشدق فى الكلام ج ٤ ص ٣٠٢ رقم ٥٠٠٦

أعينهم ، ويقع تحت حواسهم ، وفى متناول أيديهم ؛ ليكون وقع الموعظة فى النفس أشد ، وفى الذهن أرسخ .

ـ روى النسائى فى سننه عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة (فاكهة تشبه البرتقال) ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لايقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لايقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها ، ومثل جليس السوء كصاحب الكير (كمثل الحداد النافخ فى النار) إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه »[1]

وفى هذه التشبيهات النبوية أبلغ ترغيب فى الخير ، وأزجر تحذير عن الشر ، بأوضح أسلوب يدركه المخاطبون .

(ح) الموعظة بالتمثيل باليد :

وكان ـ ﷺ ـ إذا أراد أن يؤكد أمرا هاما يمثل بكلتى يديه إشارة منه إلى الأمر الهام الذى يجب أن يهتموا به ويمتثلوه .

ـ روى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ـ وشبك رسول الله بين أصابعه ـ »[2] .

روى البخارى عن سهل بن سعد الساعدى ـ رضى الله عنهم ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .[3] .

ـ وروى الترمذى فى سننه عن سفيان بن عبد الله البجلى ـ رضى الله عنه ـ قال :

قلت : يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ، قال : « قل ربى الله ثم استقم »

قلت : يارسول الله ماأخوف ماتخاف على ؟ فأخذ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلسان نفسه ثم قال : (هذا)[4] .

---

(١) انظر سنن النسائى (كتاب الإيمان وشرائعه) باب : مثل الذى يقرأ القرآن من مؤمن ومنافق ج ٨ ص ١٢٤ ، ١٢٥ من رواية أنس عن أبى موسى الأشعرى .
وليس فى الحديث : « ومثل جليس السوء ... الخ »
وأما نص الحديث الذى معنا ففى سنن أبى داود ، فى (كتاب الأدب) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٢٩ .

(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم .. الخ ص ٧٠٣ رقم ١٦٧٠ بلفظ : « إن المؤمن .. الحديث »

(٣) انظر صحيح البخارى (كتاب الطلاق) ج ٦ ص ١٧٠ ، و (كتاب الأدب) ج ٧ ص ٧٢ وفى سنن أبى داود فى (كتاب الأدب) باب فيمن ضم اليتيم ج ٤ ص ٣٣٨ رقم ٥١٥٠

(٤) روى الترمذى هذا الحديث فى (كتاب الزهد) باب : ماجاء فى حفظ اللسان ج ٤ ص ٦٠٧ رقم ٢٤١٠ عن سفيان بن عبد الله الثقفى .
وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

(ط) الموعظة بالفعل التطبيقى :

وكان - ﷺ - يعطى لأصحابه النموذج الحى فى أسلوب التعليم والتربية والتكوين . وإليكم بعض الأمثلة :

- روى أبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا أتى النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله كيف الطهور ؟ (أى : الوضوء) فدعا رسول الله - ﷺ - بماء فى إناء ، فغسل كفيه ثلاثا حتى استوفى ، ثم قال : « فمن زاد عن هذا أو نقص فقد تعدى وظلم » .(٤)

- وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله - ﷺ - توضأ أمام جمع من الناس ، ثم قال : « من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين ، لايحدث فيهما نفسه بشىء من الدنيا غفر له ماتقدم من ذنبه » .(٢)

- وروى البخارى حديثا ذكر فيه أنه - ﷺ - صلى مرة بالناس إماما وهو على المنبر ليروا صلاته كلهم ، وليتعلموها من أفعاله ومشاهداته فلما فرغ أقبل على الناس فقال : « يأأيها الناس : إنما صنعت هذا لتأتموا بى ، ولتعلموا صلاتى » .(٣)

(ك) الموعظة بإنتهاز المناسبة :

وكان - ﷺ - كثيرا ما ينتهز المناسبة لمن يريد وعظهم وإرشادهم ؛ لتكون أبلغ فى التأثير ، وأفضل للفهم والمعرفة ، ومن ذلك :

- روى مسلم عن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - مر بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كنفتيه (أى : عن جانبيه) فمر بجدى أسك (أى : صغير الأذنين) ميت ، فتناوله بأذنه ثم قال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ » قالوا : مانحب أنه بشىء ، أو مانصنع به ؟

قال : « أتحبون أنه لكم ؟ » قالوا : والله لو كان حيا كان هذا السك عيبا ، فكيف وهو ميت ؟

فقال : « فو الله ، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » .(٤)

- وروى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قدم على رسول الله سبى فإذا امرأة من السبى (الأسرى) قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا فى السبى ، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله - ﷺ - : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ - وهى تقدر على ألا تطرحه - ؟ .

---

(١) سنن أبى داود (كتاب الطهارة) باب : الوضوء ثلاثا ج ١ ص ٣٣ رقم ١٣٥ .
ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الطهارة) باب الاعتداء فى الوضوء ج ١ ص ٨٨
وأنظر سنن ابن ماجه (كتاب الطهارة) باب : ماجاء فى القصد فى الوضوء وكراهية التعدى فيه ج ١ ص ١٤٦ رقم ٤٢٢

(٢) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الطهارة) باب الوضوء ثلاثا ثلاثا ج ١ ص ٣٣١ رقم ٢١ من رواية عثمان بن عفان ، وفى ص ٣٣٥ رقم ٢٦
وانظره فى (كتاب الصوم) من نفس المصدر ، باب : سواك الرطب واليابس للصائم ج ٤ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ رقم ٤١ .

(٣) البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الجمعة) باب : الخطبة على المنبر ج ٣ ص ٣٧ ، ٣٨ رقم ٣٩ من رواية سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه -

(٤) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى (فى كتاب الزهد) ج ١٨ ص ٩٣ .

قلنا : لا والله ، قال : « فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » .[1]

(ى) الموعظة بالالتفات إلى الأهم :

وكان ـ ﷺ ـ يلفت السؤال عن سؤال إلى شىء أهم ، من ذلك :

ماروى البخارى ومسلم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن أعرابيا سأل رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : متى الساعة يارسول الله ؟ فقال له الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « ماذا أعددت لها ؟ » قال : حب الله ورسوله .

فقال : « أنت مع من أحببت » .[2]

فلفته ـ ﷺ ـ عن سؤاله عن قيام الساعة ـ التى اختص الله بعلمها ـ إلى شىء آخر هو أحوج مايكون إليه ، وهو اعداد العمل الصالح لهذا اليوم الذى يقوم فيه الناس لله رب العالمين .

(ل) الموعظة بإظهار المحرم الذى ينهى عنه :

وكان ـ ﷺ ـ يحمل بيده الشىء المحرم الذى ينهى عنه ، ويرفعه أمام المخاطبين ، ليقرر لهم الشىء المنهى عنه بالقول والمشاهدة ، ليكون ذلك أزجر للنفوس ، وأقطع فى الدلالة على التحريم ، من ذلك :

ماروى أبو داود والنسائى وابن ماجه فى سننهم عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ حريرا بشماله ، وذهبا بيمينه ، ثم رفع بهما يديه ، فقال : « إن هذين حرام على ذكور أمتى ، حل لإناثهم » .[3]

تلكم أهم الأساليب التى كان يتبعها المعلم الأول ـ ﷺ ـ فى توجيه الكبار ، وتعليم الصغار ، وإرشاد الخاصة ، وهداية العامة ، وتثبيت الفضائل ، وتقويم الاعوجاج .. وهى .. كما رأيتم ـ أيها المربون ـ طرائق متنوعة ، ووسائل مختلفة .. بل كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لايختص بأسلوب واحد فى إرشاد الناس وهدايتهم ، وإصلاحهم وتوجيههم ، وإنما كان ينتقل بهم من القصة إلى الحوار والاستجواب ، ومن التأثير الخاشع إلى المداعبة اللطيفة ، ومن ضرب الأمثال إلى التوضيح بالرسم أو التمثيل باليد .. ، ومن الموعظة بالكلمة إلى الاقتداء بالفعل ، ومن التذكير بالقرآن الكريم إلى استجلاء العبرة بانتهاز المناسبة .. ، ومن السؤال المهم إلى السؤال الأهم ، ومن النهى بالقول إلى النهى بالمشاهدة ..

ولايخفى مافى هذا التنوع من الأساليب من أثر كبير فى ترسيخ المعلومات ، وإثارة الفهم ، وتحريك الذكاء ، وقبول الموعظة ، وقدح الفطنة والانتباه لدى المخاطب والولد ..

فالمربى حين يحسن عرض هذه الأساليب فى إلقاء مواعظه وإرشاداته على من يقوم بإعدادهم وتربيتهم من أهل وولد وتلاميذ .. فإنهم ـ لاشك ـ يتعلمون ويطبقون ويتأثرون .. ويكونون دعاة خير

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب التوبة) باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ص ٧٤٨ رقم ١٧٥١

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب البر والصلة والآداب) باب المرء مع من أحب ص ٧١٤ رقم ١٦٩٣

(٣) أبو داود (كتاب اللباس) باب : فى الحرير للنساء ج ٤ ص ٥٠ رقم ٤٠٥٧ والنسائى (كتاب الزينة) باب : تحريم الذهب على الرجال ج ٨ ص ١٦٠ وابن ماجه (كتاب اللباس) باب لبس الحرير والذهب للنساء ج ٢ ص ١١٨٩ رقم ٣٥٩٥ .

وأئمة هدى ، وجنود رسالة ، وأبطال جهاد . . بل يكونون القاعدة الصلبة فى بناء المجتمع الفاضل ، وإقامة دولة الإسلام .

فما على المربين إلا أن يأخذوا بطرق الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى التوجيه وأساليبه فى الموعظة لكونها أحسن الطرق وأفضل الأساليب ؛ لأن الرسول ـ ﷺ ـ لاينطق عن الهوى ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وهو مصنوع على عين الله ، ومشمول دائما برعايته وعنايته .

وإذا كان الأمر كذلك فكل مايصدر عنه من أقوال وأفعال وتقريرات فهى تشريع للإنسانية وهداية لها على مدى الزمان والأيام .

ويكفيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فخرا وشرفا وخلودا أن يقول الله ـ سبحانه ـ فيه : **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾** الأحزاب : ٢١

وأن يقول أيضا : **﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾** (النساء : ٨٠)

وعلينا أن نعلم أن المربى إن لم يتحل بما يقول ، وإن لم يطبق ما يعظ الناس به ، فلا أحد يقبل كلامه ، ولا إنسان يتأثر بموعظته ، ولا مخاطب يستجيب لندائه ، بل يكون محل نقد العامة ، واستهزاء الخاصة ، واستهجان الناس أجمعين لأن الكلمة التى لاتنبعث من القلب ، لاتنفذ إلى القلب . .

والموعظة التى لاتمتزج بالروح لاتؤثر فى النفس ، ولقد سمعتم قبل قليل ماأجاب الأب ولده حين سأله : مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ أجاب :

(يابنى ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة)

ويقصد ليس الداعية المكلوم على الإسلام ، والمتحلى بالإيمان ، مثل الواعظ المنافق المهرج .

أسأل الله ـ تعالى ـ أن ينفعنا بما سمعنا ، وأن يعلمنا ماينفعنا ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وقد عقد الإمام أبو الفرج بن الجوزى ـ رحمه الله تعالى ـ بابا فى الوصايا والمواعظ والزواجر ، قال فيه بسنده عن يحيى بن كثير قال : إن أبا بكر الصديق كان يقول فى خطبته : أين الوضاء الحسنة وجوههم ؟ أين المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، فأصبحوا فى ظلمات القبور ، الوحا الوحا ، النجا النجا .

وقال أحمد بسنده : عن ابن مسعود ، أنه كان يقول : إنكم فى ممر الليل والنهار ، فى آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتى بغتة ، فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ، ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة ، ولكل زارع مازرع .

وقال إسماعيل بن أحمد بسنده عن أبى زكريا التيمى : قال : بينا سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه ، فقرأه ، فإذا فيه : ابن آدم : إنك لو رأيت قرب مابقى من أجلك لزهدت فى طويل أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك ورحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك

وحشمك ، فبان منك الوالد والقريب ، ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا فى حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة ، قبل الحسرة والندامة .

وقال محمد بن أبى منصور بسنده عن يحيى بن عبد الملك قال : كتب الأوزاعى إلى أخ له : أما بعد : فإنه قد أحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يسار بك فى كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وأن يكون آخر عهدك به . والسلام .

وقال المحمدان بن عبد الملك بسنده عن الفضيل بن عياض قال : بلغنى أن رجلا كتب إلى داود الطائى : أن عظنى بموعظة .

قال : فكتب إليه :

أما بعد : فاجعل الدنيا كيوم صمته عن شهوتك ، واجعل فطرك الموت ، فكأن قد . والسلام .

قال : فكتب إليه : زدنى . فكتب إليه :

أما بعد : فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك ، كما رضى أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم . والسلام .

وقال محمد بن ناصر بسنده عن سفيان ، قال : أوحى الله - تعالى - إلى موسى بن عمران : أنُه ليست عقوبتى لمن عرفنى واجترأ على كمن لم يعرفنى .

وقال ابن ناصر بسنده عن ابن حاتم الترمذى قال : رأس مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بارتكاب مالا يعينك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله ؟ !

وقال محمد بن أبى منصور بسنده عن إبراهيم بن بشار قال : مررت أنا وأبو يوسف الفسولى فى طريق الشام ، فوثب إليه رجل فسلم عليه ، ثم قال : ياأبا يوسف عظنى بموعظة أحفظها عنك .

قال : فبكى ، ثم قال :

إعلم ياأخى أن اختلاف الليل والنهار ومرهما يسرعان فى هدم بدنك ، وفناء عمرك ، وانقضاء أجلك .

فينبغي لك ياأخى الا تطمئن حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك ، وساخط ربك عليك بمعصيتك وغفلتك ، أوراض عنك بفضله ورحمته ؟

ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس وجيفة غدا ، فإن كنت لاترضى بهذا فسترد وتعلم وتندم فى وقت لاينفعك الندم .

قال : وبكى أبو يوسف : وبكى الرجل وبكيت لبكائهما ، ووقعا مغشيا عليهما !!

ووعظ أعرابى ولده فقال : لا الدهر يعظك ولا الأيام تنذرك ، والساعات تعد عليك ، والأنفاس تعد منك ، وأحب أمريك إليك أعودهما بالضر عليك .

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له : أما بعد : فإن الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن فى أضغاث أحلام . والسلام

* الإحسان إلى الوالدين *

قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

التفسير :

قال مجاهد : مشقة : وهن الولد

وقال قتادة : جهدا على جهد

وقال عطاء الخراسانى : ضعفا على ضعف

وقوله ﴿ وفصاله فى عامين ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال - تعالى - ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾[1] الآية

ومن هنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال فى الآية الأخرى :

﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾[2] وإنما يذكر - تعالى - تربية الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلا ونهارا ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه كما قال - تعالى - : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾[3] .

ولهذا قال : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ أى : فإنى سأجزيك على ذلك أوفر جزاء .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبى شيبة ومحمود بن غيلان ، قالا : حدثنا عبيد الله ، أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحق ، عن سيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبى - ﷺ - فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنى رسول رسول الله - ﷺ - إليكم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا وأن تطيعونى لا آلوكـم خيرا ؛ وإن المصير إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار ، إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت .

وقوله : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلاتطعهما ﴾ أى : إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفا ، أى : محسنا إليهما ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ﴾ يعنى المؤمنين ﴿ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

قال الطبرانى فى كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد ابن أيوب بن راشد ، حدثنا مسلمة بن علقمة ، عن داود بن أبى هند أن سعد بن مالك قال : أنزلت فى هذه الآية .

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما . . ﴾ الآية . قال : كنت رجلا برا

---

(١) الآية : ٢٣٣ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ١٥ من سورة الأحقاف .

(٣) من الآية : ٢٤ من سورة الإسراء .

بأمي فلما أسلمت قالت : ياسعد : ماهذا الذى أراك قد أحدثت ؟ ! لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى ، فيقال : ياقاتل أمه .

فقلت : لاتفعلى ياأمه فإنى لاأدع دينى هذا لشىء .

فمكثت يوما وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوما آخر وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوما وليلة أخرى لاتأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : ياأمه تعلمين - والله - لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ماتركت دينى هذا لشىء ، فإن شئت فكلى وإن شئت لاتأكلى . فأكلت .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -

« خرج ثلاثة فيمن كان قبلكم يرتادون لأهلهم فأصابتهم السماء فلجأوا إلى جبل ، فوقعت عليهم صخرة ، فقال بعضهم لبعض : عفا الأثر ، ووقع الحجر ، ولايعلم بمكانكم إلا الله ، فادعوا الله بأوثق أعمالكم ، فقال أحدهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لى امرأة تعجبنى فطلبتها فأبت على فجعلت لها جعلا فلما قربت نفسها تركتها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فافرج عنا ، فزال ثلث الحجر . وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى والدان ، وكنت أحلب لهما فى إنائهما ، فإذا أتيتهما وهما نائمان قمت حتى يستيقظا فإذا استيقظا شربا ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فافرج عنا .

فزال ثلث الحجر . وقال الثالث : اللهم إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيرا يوما فعمل لى نصف النهار فأعطيته أجرا فسخطه ولم يأخذه فوفرتها عليه حتى صار من كل المال ، ثم جاء يطلب أجره ، فقلت : خذ هذا كله ، ولو شئت لم أعطه إلا أجره الأول ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فافرج عنا . فزال الحجر وخرجوا يتماشون . رواه ابن حبان فى صحيحه [1]

وعن أبى هريرة أيضا - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك ، قال :

ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك . رواه البخارى ومسلم[2]

وعن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت : قدمت علىَّ أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله - ﷺ - فاستفتيت رسول الله - ﷺ - قلت : قدمت على أمى وهى راغبة أفأصل أمى ؟ قال : « نعم صلى أمك » . رواه البخارى ومسلم[3] وأبو داود ، ولفظه :

قالت : قدمت على أمى راغبة فى عهد قريب وهى راغمة مشركة ، فقلت : يارسول الله ؛ إن أمى قدمت على وهى راغمة مشركة ،

---

(١) الحديث فى الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان فى (كتاب الرقائق) باب ذكر الخصال التى يرتجى للمرء باستعمالها زوال الكرب فى الدنيا عنه . ج ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٩ رقم ٩٦٧

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب البر والصلة والآداب) باب : بر الوالدين .. الخ ص ٦٩٣ رقم ١٦٥٢

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب : فضل النفقة والصدقة على الأقربين .. الخ ص ٢٠٦ رقم ٥٨٧ .

أفأصلها ؟ قال : « نعم صلى أمك . »[١] ومعنى (راغبة) أى : طامعة فيها عندى تسألنى الإحسان إليها ، ومعنى (راغمة) أى : كارهة للإسلام .

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« رضا الله فى رضا الوالد ، وسخط الله فى سخط الوالد » . رواه الترمذى ، ورواه الطبرانى[٢] من حديث أبى هريرة إلا أنه قال : « طاعة الله طاعة الوالد ومعصية الله معصية الوالد » .

وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى - رضى الله عنه - قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله - ﷺ - إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال : يارسول الله هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟

قال : « نعم ؛ الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » . رواه أبو داود وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، وزاد فى آخره : قال الرجل : ماأكثر هذا يارسول الله وأطيبه ؟ ! قال : « ماعمل به »[٣]

وعن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله بن عمر ، وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كانت فى رأسه . قال ابن دينار : فقلنا له : أصلحك الله ، إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير . فقال عبد الله بن عمر : إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب ، وإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » رواه مسلم[٤]

وعن أبى بردة قال : قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال : أتدرى لم أتيتك ؟ قال : قلت : لا . قال : سمعت رسول - ﷺ - يقول : « من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده » وإنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك.رواه ابن حبان فى صحيحه .[٥]

احذر عقوق الوالدين :

وكما أوصى الإسلام ببر الوالدين وحث عليه حذر فى نفس الوقت من عقوقهما ، ورهب منه :

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب الزكاة) باب : الصدقة على أهل الذمة ج ٢ ص ١٢٧ رقم ١٦٦٨

(٢) انظر الترمذى (أبواب البر والصلة) باب الفضل فى رضا الوالدين ج ٣ ص ٢٠٧ رقم ١٩٦٢ وانظر مجمع الزوائد للهيثمى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٦
وأنظر المستدرك للحاكم (كتاب البر والصلة) باب : رضا الرب فى رضا الوالد ج ٤ ص ١٥٢

(٣) سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب : فى بر الوالدين ج ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٤٢ وابن ماجه (كتاب الأدب) باب : صل من كان أبوك يصل ج ٢ ص ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ رقم ٣٦٦٤ .

(٤) انظر فى صحيح مسلم فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما ج ٤ ص ١٩٧٩ رقم ١١ / ٢٥٥٢

(٥) انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (كتاب البر والإحسان) باب ذكر البيان بأن بر المرء بإخوان أبيه وصلته إياهم بعد موته من وصله رحمه فى قبره ج ١ ص ٣٢٩ رقم ٤٣٣ .

عن المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال :
« إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . رواه البخارى وغيره .[١]

وعن أبى بكرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ـ ثلاثا قلنا : بلى يارسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » .

رواه البخارى ومسلم والترمذى[٢]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » رواه البخارى[٣] .

وفى كتاب النبى ـ ﷺ ـ الذى كتبه إلى أهل اليمن ، وبعث به مع عمرو حزم : « وإن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراك بالله ، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق ، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف ، وعقوق الوالدين ، ورمى المحصنة وتعلم السحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم .. الحديث » رواه ابن حبان فى صحيحه[٤] .

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « ثلاثة لاينظر الله إليهم يوم القيامة :

العاق لوالديه ، ومدمن الخمر ، والمنان عطاءه . وثلاثة لايدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والديوث ، والرجلة »

رواه النسائى والبزار[٥]

وعن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« ثلاثة لايقبل الله ـ عز وجل ـ منهم صرفا ولا عدلا :

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الأقضية) باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهى عن منع وهات .. الخ ص ٤٣٠ رقم ١١١٧

(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الإيمان) باب بيان الكبائر وأكبرها ص ١٦ رقم ٥٤ وانظر سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى عقوق الوالدين ج ٤ ص ٣١٢ رقم ١٩٠١ .

(٣) صحيح البخارى (كتاب الإيمان والنذور) ج ٧ ص ٢١٢ و (كتاب الديات) ج ٨ ص ٣٤

(٤) انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان فى (باب كتب النبى ﷺ) وذكر كتبه المصطفى ـ ﷺ ـ كتابه إلى أهل اليمن ج ٨ ص ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ رقم ٦٥٢٥

(٥) رواه النسائى فى سننه فى (كتاب الزكاة) باب : المنان بما أعطى ج ٥ ص ٨٠ ، ٨١ مع تقديم وتأخير فى الألفاظ . وانظر مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ وقال : رواه البزار بإسنادين رجالهما ثقات .
والحديث فى كشف الأستار عن زوائد البزار فى (كتاب البر والصلة) باب العقوق ج ٢ ص ٣٧٢ رقم ١٨٧٥

عاق ، ولا منان ، ومكذب بقدر » رواه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة بإسناد حسن [١]

وروى عن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال :

« ثلاثة لاينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » رواه الطبرانى فى الكبير [٢]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا :

يارسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ؛ يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى . [٣]

وعن عمرو بن مرة الجهنى ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله ؛ شهدت أن لاإله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت رمضان . فقال النبى ـ ﷺ ـ : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ـ ونصب أصبعيه ـ مالم يعق والديه » رواه أحمد والطبرانى [٤]

وعن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ قال : أوصانى رسول الله ـ ﷺ ـ بعشر كلمات ، قال : « لاتشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت ، ولاتعتمن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك » [٥]

وروى عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : خرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ ونحن مجتمعون ، فقال : « يامعشر المسلمين : اتقوا الله ، وصلوا أرحامكم ؛ فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغى ؛ فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغى ، وإياكم وعقوق الوالدين ، فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام ، والله لايجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جار إزاره خيلاء ، إنما الكبرياء لله رب العالمين ، والكذب كله إثم إلا مانفعت به مؤمنا ،

---

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد من طريق آخر فى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى العقوق ج ٨ ص ١٤٧ والحديث من طريق أبى أمامة أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ج ٨ ص ١٤٠ رقم ٧٥٤٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٦٩ تفسير سورة الأنفال .
وقال : هذا أيضا حديث غريب جدا .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب : بيان الكبائر وأكبرها ص ١٧ رقم ٥٧ ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى عقوق الوالدين رقم ١٩٠٢ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
وأورده أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : فى بر الوالدين ج ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٤١ والترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب : ماجاء فى عقوق الوالدين ج ٣ ص ٢٠٨ رقم ١٩٦٥ وقال : هذا حديث صحيح .

(٤) انظر الدر المنثور للسيوطى فى تفسير سورة النساء (تفسير قوله تعالى : ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم .. الآية ج ٢ ص ٥٩٠ من رواية أحمد عن عمرو بن مرة الجهنى ورواه فى الترغيب والترهيب للمنذرى فى (كتاب البر والصلة) باب الترهيب من عقوق الوالدين ج ٣ ص ٥٤٣ رقم ١٢ وقال الترمذى : رواه أحمد والطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح . ورواه ابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهما باختصار .

(٥) انظر الترغيب والترهيب (كتاب البر والصلة) باب الترهيب من عقوق الوالدين ج ٣ ص ٥٤٣ رقم ١٣ وقال المنذرى : رواه أحمد وغيره .

ودفعت به عن دين ، وإن فى الجنة لسوقا مايباع فيها ولا يشترى ، ليس فيها إلا الصور فمن أحب صورة من رجل أو امرأة دخل فيها » . رواه الطبرانى فى الأوسط .[١]

وعن أبى بكرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « كل الذنوب يؤخر الله منها ماشاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين ، فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات »[٢] رواه الحاكم والأصبهانى كلاهما من طريق بكار بن عبد العزيز ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد

وروى عن عبد الله بن أبى أوفى ـ رضى الله عنه قال :

كنا عند النبى ـ ﷺ ـ فأتاه آت ، فقال : شاب يجود بنفسه ، فقيل له : قل : لاإله إلا الله ، فلم يستطع .

فقال : « كان يصلى ؟ » فقال : نعم ، فنهض رسول الله ـ ﷺ ـ ونهضنا معه ، فدخل على الشاب فقال له :

« قل : لاإله إلا الله » فقال : لاأستطيع . قال :

« لم ؟ » قال : كان يعق والدته . فقال النبى ـ ﷺ ـ :

« أحية والدته ؟ » قالوا : نعم . قال : « ادعوها »

فدعوها فجاءت ، فقال : « هذا ابنك ؟ » فقالت :

نعم . فقال لها : « أرأيت لو أججت نار ضخمة فقيل لك : إن شفعت له خلينا عنه ، وإلا حرقناه بهذه النار ، أكنت تشفعين له ؟ » قالت :

يارسول الله إذن أشفع له . قال : « فأشهدى الله وأشهدينى قد رضيت عنه » قالت : اللهم إنى أشهدك وأشهد رسولك أنى قد رضيت عن ابنى فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : « ياغلام قل : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » فقالها . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « الحمد لله الذى أنقذه بى من النار »

رواه الطبرانى ، وأحمد مختصرا[٣]

وعن العوام بن حوشب ـ رضى الله عنه ـ قال : نزلت مرة حيا ، وإلى جانب ذلك الحى مقبرة ، فلما كان بعد العصر انشق منها قبر فخرج رجل رأسه رأس الحمار وجسده جسد إنسان ، فنهق ثلاث نهقات .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب (كتاب البر والصلة) باب : ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ج ٣ ص ٥٤٤ رقم ١٤ ورواه الهيثمى فى مجمع الزوائد فى (كتاب البر والصلة) باب : ماجاء فى العقوق ج ٨ ص ١٤٩ وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط من طريق محمد بن كثير عن جابر الجعفى وكلاهما ضعيف جدا .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم فى (كتاب البر والصلة) ج ٤ ص ١٥٦ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبى فقال : قلت : بكار ضعيف .

(٣) انظر مجمع الزوائد للهيثمى كتاب البر والصلة باب ماجاء فى العقوق ج ٨ ص ١٤٧ بنفس لفظه وقال الهيثمى : رواه الطبرانى وأحمد باختصار كثير وفيه فائد ابو الورقاء وهو متروك .

ثم انطبق عليه القبر ، فإذا عجوز تغزل شعرا أو صوفا ، فقالت امرأة : ترى تلك العجوز ؟ قلت : مالها ؟ قالت : تلك أم هذا ، قلت :

وماكان قصته ؟ قالت : كان يشرب الخمر فإذا راح تقول له أمه : يابنى اتق الله ، إلى متى تشرب هذه الخمر ؟ فيقول لها : إنما أنت تنهقين كما ينهق الحمار ، قالت : فمات بعد العصر ، قالت : فهو ينشق عنه القبر بعد العصر كل يوم فينهق ثلاث نهقات ثم ينطبق عليه القبر . رواه الأصبهانى وغيره .

قوله ـ تعالى :

﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولاتمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾[1] .

وأخذ لقمان الحكيم يربى ملكة الرقابة الإلهية فى نفس ابنه ، وفى نفس كل عاقل رشيد ، فقال له : يابنى : إنها إن تك مثقال حبة من خردل أى : المظلمة أو الخطيئة التى يفعلها العبد لو كان حجمها كأصغر الأشياء ، واحتجبت حجابا منيعا فى صخرة ، أو كانت فى عالم السموات العلا أو فى أرجاء الأرض فإن الله يأتى بها يوم القيامة ، ويسأل : العبد عنها .

فيأيها العاقل : اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

الله يدرى كل ماتضمر ... يعلم ماتخفى وما تظهر

وإن خدعت للناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشر

ويأتى ختام الآية مناسبا لصدرها **﴿ إن الله لطيف خبير ﴾** أى : عليم بدقائق الأشياء **﴿ عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾**[2]

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[3] .

فسبحان من يسمع دبيب أرجل النملة السمراء فوق الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء .

يامن يرى من البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل

(١) من الآية : ١٦ ـ ١٩ من سورة لقمان .
(٢) من الآية : ٣ من سورة سبأ .
(٣) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .

ويرى ويسمع مايرى مادونها   فى قاع بحر زاخر متجندل

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾(١)

ويقول : ﴿ ألم تر أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ماكانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إلا الله بكل شىء عليم ﴾ (٢)

ويقول : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(٣)

ويقول : ﴿ يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ﴾(٤)

ويقول : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان مالها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾(٥) .

ثم يجمع له الخير كله فيقول له :

(يابنى أقم الصلاة) وإقامتها : الإتيان بها كاملة تامة الأركان والشروط والسنن ، مستقيمة الأداء ، إذ أول مايحاسب عنه العبد يوم القيامة الصلاة ، وهى مفتاح الجنة ، إن حسنت حسن سائر أعمال العبد .

كان رسول الله - ﷺ - يحدثنا ونحدثه ، ويكلمنا ونكلمه ، فإذا حضرت الصلاة كأنه لايعرفنا ولا نعرفه .

هكذا قالت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها -

فالصلاة عماد الدين ، وهى الصلة بين العبد وربه ، ثم بعد ذلك يأتى بصمام أمن المجتمع فيأمره بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو ركن من أركان الدين ، ويوم يختل ذلك الركن سيصير

---

(١) الآتيان : ٥٩ ، ٦٠ من سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٧ من سورة المجادلة .

(٣) الآتيان : ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

(٤) الآية : ١٩ من سورة غافر .

سورة الزلزلة .

المنكر معروفا والمعروف منكرا ، والذئب راعيا والخصم العنيد قاضيا .

ولما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الحصون المنيعة ، والأسوار العالية التى ضربت حول الأمة لتقيها شر الذئاب الضارية ، والكلاب العادية ، والجرائم الشنيعة ، والإثم والبغى والعدوان والفواحش ـ لما كان ذلك كذلك ـ شدد رسول الله ـ ﷺ ـ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أحاديث تنخلع لها القلوب وتنفطر من هولها الأفئدة .

عن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يافلان ! مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟

فيقول : بلى !! كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » رواه البخارى ومسلم .[1]

وفى رواية لمسلم قال : قيل لأسامة بن زيد : لو أتيت عثمان فكلمته ؟ فقال : إنكم لترون أنى لاأكلمه إلا أسمعكم ، وإنى أكلمه فى السر دون أن أفتح بابا لاأكون أول من فتحه ، ولا أقول لرجل أن كان على أميرا : إنه خير الناس بعد شيء سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ قال : وماهو ؟ قال : سمعته يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه ويقولون : يافلان ماشأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول :

كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن الشر وآتيه » .[2]

(الأقتاب) : الأمعاء ، واحدها : قتب

(تندلق) أى : تخرج

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ ! » رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت ، وابن حبان فى صحيحه ، واللفظ له ، والبيهقى .[3]

وفى رواية لابن أبى الدنيا : « مررت ليلة أسرى بى على قوم يقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت عادت ، فقلت :

ياجبريل : من هؤلاء ؟ قال : خطباء من أمتك يقولون مالا يفعلون ؟

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الزهد والرقائق) باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله ص ٨٣٣ ، ٨٣٤ رقم ١٨٨٢ .
أنظر البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب بدء الخلق) باب صفة النار وأنها مخلوقة ج ٦ ص ٣٠١ رقم ٧٧

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الزهد) باب : عقوبة من يأمر بالمعروف ولايفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله ج ١٨ ص ١١٧ ، ١١٨ ورواية مسلم هذه هى التى وردت بلفظ :
« يؤتى .. الحديث » وليست كما ذكرها المؤلف ، فهناك اختلاف فى كثير من الألفاظ .
وهذه الرواية تتفق كثيرا مع لفظ حديث البخارى .

(٣) انظر صحيح ابن حبان (كتاب الإسراء) باب ذكر وصف الخطباء الذين يتكلون على القول دون العمل حيث رآهم ـ ﷺ ـ ... الخ ج ١ ص ١٣٥ رقم ٥٣

وفى رواية للبيهقى قال : « أتيت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار . فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون مالايفعلون ، ويقرأون كتاب الله ولا يعملون به » .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - قال :

« مامن عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة : ماأردت بها ؟ قال : فكان مالك - يعنى ابن دينار - إذا حدث بهذا بكى ، ثم يقول : أتحسبون أن عينى تقر بكلامى عليكم ، وأنا أعلم أن الله سائلى عنه يوم القيامة ؟ قال : ماأردت به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبى ، لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبدا . رواه أبى الدنيا ، والبيهقى مرسلا بإسناد جيد[1] .

وروى عن الوليد بن عقبة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن ناسا من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله مادخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل » . رواه الطبرانى فى الكبير[2] .

وعن أبى تميمة عن جندب بن عبد الله الأزدى صاحب رسول الله - ﷺ ، رضى الله عنه عن رسول الله - ﷺ - قال : « مثل الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضىء للناس ، ويحرق نفسه » .[3] رواه الطبرانى وإسناده حسن ، ورواه البزار من حديث أبى برزة إلا أنه قال : مثل الفتيلة .

وعن عمران بن حصين - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« إنى أخوف ماأخاف عليكم بعدى كل منافق عليم باللسان » . رواه الطبرانى فى الكبير والبزار .[4]

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - ، عن رسول الله - ﷺ - قال :

« إن الرجل لايكون مؤمنا حتى يكون قلبه مع لسانه سواء ، ويكون لسانه مع قلبه سواء ، ولا يخالف قوله عمله . ويأمن جاره بوائقه » رواه الأصبهانى .[5]

وعن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إنى لاأتخوف على أمتى مؤمنا ولا مشركا ، أما المؤمن فيحجزه إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن أتخوف عليكم منافقا

---

(١) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٥ - ١٢٦ رقم ٨ وقال : - رواه ابن أبى الدنيا - والبيهقى مسندا بإسناد جيد .

(٢) انظر الترهيب والترغيب ج ١ ص ١٢٥ رقم ٧ وقال : - رواه الطبرانى فى الكبير .

(٣) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٦ رقم ١١ وقال : - رواه البزار عن أبى برزة . وانظر رقم ١٣ من نفس المرجع . وقال

(٤) المنذرى رواه الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن .

(٥) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٧ رقم ١٨ وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والبزار ورواته محتج بهم فى الصحيح ، ورواه احمد من حديث عمر بن الخطاب .

انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٨ رقم ١٩ وقال : رواه الاصبهانى بإسناد فيه نظر .

عالم اللسان يقول ماتعرفون ، ويفعل ماتنكرون » . رواه الطبرانى فى الصغير ، والأوسط من رواية الحارث .[(١)]

- معنى (فيحجزه) : يمنعه . ومعنى (يقمعه) : يضربه بالقمعة كالمجن .

وعن الأغر بن مالك قال : لما أراد أبو بكر أن يستخلف عمر بعث إليه فدعاه فأتاه ، فقال : إنى أدعوك لأمر متعب لمن وليه ، فاتق الله ياعمر بطاعته ، وأطعه بتقواه ، فإن التقى آمن محفوظ ، ثم إن الأمر معروض لايستوجبه إلا من عمل به ، فمن أمر بالحق ، وعمل بالباطل ، وأمر بالمعروف ، وعمل بالمنكر ، يوشك أن تنقطع أمنيته ، وأن يحبط عمله ، فإن أنت وليت عليهم أمرهم ، فإن استطعت أن تجف يدك من دمائهم ، وأن تضمر بطنك من أموالهم وأن تجف لسانك عن أعراضهم فافعل ، ولا قوة إلا بالله» رواه الطبرانى

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه وينسى الجذع فى عينه »

رواه ابن حبان فى صحيحه[(٢)]

- معنى (الجذع) : جذع النخلة .

قوله - تعالى - : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ أى : من الأمور المعزوم عليها ، المرغوب فيها ، المحببة إلى قلوب المؤمنين .

قوله - تعالى - : ﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾

أى : امش مقتصدا ، مشيا ليس بالبطىء المتثبط ولا بالسريع المفرط ، بل عدلا وسطا بين بين .

قال - تعالى - : ﴿ ولاتمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾[(٣)] .

وقال - جل شأنه - :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾[(٤)]

وقال فى حق النساء : ﴿ ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن ﴾[(٥)] .

وقال : ﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ﴾[(٦)] .

أى : لاتبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لافائدة فيه .

﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ قال مجاهد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية من

---

(١) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٧ رقم ١٧ وقال : رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط من رواية الحارث - وهو الأعود - وقد وثقه ابن حبان وغيره .

(٢) انظر ابن حبان الحظر والإباحة باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من تفقد عيوب نفسه . . الخ ج ٧ ص ٥٠٦ رقم ٥٧٣١

(٣) الآية : ٣٧ من سورة الإسراء

(٤) الآية : ٦٣ من سورة الفرقان .

(٥) من الآية : ٣١ من سورة النور . .

(٦) من الآية: ٢٥ من سورة القصص .

رفع صوته أنه يشبه بالحمير فى علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله - تعالى - وتشبيه الصوت هنا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه ، وذلك كتشبيه العائد فى هبته كالكلب الذى يعود فى قيئه . قال - ﷺ - : « ليس منا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه »[١] .

روى النسائى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال :

« إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ؛ فإنها رأت شيطانا » .[٢] .

تعقيب طيب :

عقب الإمام الحافظ ابن كثير على تلك الوصايا اللقمانية تعقيبا مفيدا ، أسأل الله أن ينفع به .

قال - رحمه الله تعالى - :

هذه وصايا نافعة جدا ، وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم ، وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أنموذجا ودستورا إلى ذلك ، قال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله - ﷺ - قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئا حفظه » .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يابنى إياكِ والتقنع فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار »

وقال لابنه : إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وقال أيضا لابنه : يابنى إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام ، يعنى السلام ، ثم اجلس فى ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم نطقوا ، فإن أفاضوا فى ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

فى فضيلة الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان - عليه السلام - لابنه ، وقد جمع فى ذلك الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتابا مفردا ، ونحن نذكر منه مقاصده ، قال :

حدثنا إبراهيم بن المنذر بسنده عن أنس بن مالك : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « رب أشعث ذى طمرين يصفح عن أبواب الناس إذا أقسم على الله لأبره »[٣] وروى أيضا عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا

---

(١) انظر صحيح البخارى (كتاب الهبة) ج ٣ ص ١٣١

(١) انظر عمل اليوم والليلة لابن السنى (باب مايقول إذا سمع الديكة) ص ٩٧ رقم ٣١٢
وانظر سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب : ماجاء فى الديك والبهائم ج ٤ ص ٣٢٧ رقم ٥١٠٢

(٣) أخرجه الإمام أحمد بنحوه ج ٣ ص ١٤٥ وانظر إتحاف السادة المتقين (باب فضيلة الخمول) ج ٩ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥

غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشتتة »(١)
وفى رواية أخرى « قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة »
وقال أيضا : حدثنا اسحاق بن إبراهيم بسنده عن سالم بن أبى الجعد قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن من أمتى من لو أتى باب أحدكم يسأله دينارا أو درهما أو فلسا لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره » قال ابن كثير : حديث مرسل من هذا الوجه(٢)
وعن عبد الله بن عمرو قال : « أحب عباد الله إلى الله الغرباء : قيل ومن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم »(٣) وقال الفضيل بن عياض بلغنى : أن الله ـ تعالى ـ يقول للعبد يوم القيامة : « ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترك ؟ ألم . . ألم . . ألم أجمل ذكرك ؟ » ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تعرف فافعل ، وماعليك الا يثنى عليك ، وماعليك أن تكون مذموما عند الناس محبوبا عند الله ؟ ! . وكان ابن محيرز يقول : اللهم إنى أسألك ذكرا خاملا . وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك واجعلنى فى نفسى من أوضع خلقك . وعند الناس من أوسط خلقك .

باب ماجاء فى الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصرى بالسند عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حسب امرىء من الشر ـ إلا من عصم الله ـ أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم »(٤) . قيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟
فقال : إنما المراد : من يشار إليه فى دينه بالبدعة ، وفى دنياه بالفسق .
وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال : لاتبدأ لأن تشتهر ، ولاترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار .
وقال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب : ماصدق الله عبد إلا سره ألا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس . وكان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . ورأى طلحة قوما يمشون معه فقال : ذباب طمع ، وفراش النار . وقال ابن عون : عن

(١) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (باب فضيلة الخمول) ج ٨ ص ٢٣٦
(٢) انظر إتحاف السادة المتقين (باب فضيلة الخمول) ج ٨ ص ٢٣٦
(٣) انظر تفسير بن كثير ج ٦ فى تفسير سورة لقمان ص ٣٤٥ فصل فى الخمول والتواضع .
(٤) انظر إتحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٢٣٢ باب بيان ذم الشهرة وإنتشار الصيت وقال العراقى هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبى هريرة ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرا على الزيادة التى فى آخره ، وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ كفى بالمرء إثما .

الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ماأغلق عليه بابى ماتبعنى منكم رجلان . وقال عبد الرازق معمر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كان فى طول القميص ، واليوم فى تشميره .

وقال إبراهيم النخعى : لاتلبس من الثياب مايشهر فى الفقهاء ولا مايزدريك السفهاء . وقال الثورى : كانوا يكرهون من الثياب الجياد التى يشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التى يحتقر فيها ويستذل دينه .

وقال الحسن - رحمه الله - : إن قوما جعلوا الكبر فى قلوبهم والتواضع فى ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه مالهم تفاقدوا ؟ ! . وفى بعض الأخبار أن موسى - عليه السلام - قال لبنى إسرائيل : مالكم تأتونى عليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب ؟ ! البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بالخشية .

فصل فى حسن الخلق

قال أبو النياح عن أنس - رضى الله عنه - : « كان رسول الله - ﷺ - من احسن الناس خلقا »[١] وعن عطاء عن ابن عمر : قيل : يارسول الله أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقا »[٢]

وعن أنس مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد »[٣] وعنه أيضا مرفوعا : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »[٤] وعن عائشة مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار »[٥] وقال ابن أبى الدنيا بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - سئل رسول الله - ﷺ - : عن أكثر مايدخل الناس الجنة ؟ فقال : « تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكثر مايدخل الناس النار ؟ فقال : « الأجوفان : الفم والفرج »[٦] وقال أسامة ابن شريك : كنت عند رسول الله - ﷺ - فجاءته

(١) انظر مسند الإمام أحمد ٢٧٠١٣ (مسند أنس رضى الله عنه -) ومسلم فى كتاب الفضائل باب : كان رسول الله - ﷺ - أحسن الناس خلقا ج ٤ ص ١٨٠٥ رقم ٥٥/ ٢٣١٠

(٢) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب : ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٥٩ من رواية عطاء عن ابن عمر ، ونصه : عن ابن عمر أنه قال : كنت مع رسول الله - ﷺ - فجاءه رجل من الأنصار فسلم على النبى - ﷺ - ثم قال : يارسول الله ؛ أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقا » قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم للموت ذكرا ، وأحسنهم لما بعده استعدادا ، أولئك الأكياس » .

(٣) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان ج ٦ ص ٣٤٦)

(٤) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان ج ٦ ص ٣٤٧) وانظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢٤ - ٢٥ باب ماجاء فى حسن الخلق وقال الهيثمى رواه الطبرانى عن شيخه المقدام بين داود وهو ضعيف .
وقال بن دقيق العيد فى الإمام : - أنه وثق . وبقية رجاله ثقات .

(٥) انظر مسند أحمد ٦/ ٦٤ ورواه أبو داود فى (كتاب الأدب) باب فى حسن الخلق ٥ ص ١٤٩ رقم ٤٧٩٨

(٦) انظر مسند أحمد (مسند أبى هريرة) ٢/ ٢٩١ وابن ماجه فى (كتاب الزهد) باب : ذكر الذنوب ج ٢ رقم ١٤١٨ والترمذى (أبواب البر والصلة) باب : ماجاء فى حسن الخلق ج ٣ ص ٢٤٥ رقم ٢٠٧٢ وابن ماجه (الزهد) باب : ذكر الذنوب ج ٢ ص ١٤١٨ رقم ٤٢٤٦

الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يارسول الله : ماخير ماأعطى الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق »[(١)]

وعن مكحول عن أبى ثعلبة مرفوعا : « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى منزلا فى الجنة مساويكم أخلاقا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون »[(٢)] وعن أبى إويس عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعا : « ألا أخبركم بأكملكم إيمانا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يؤلفون ويألفون »[(٣)] .

وقال عبد الله بن إدريس عن أبيه عن جده عن أبى هريرة مرفوعا : « إنكم لاتسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق »[(٤)]

وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل فى ذم الكبر

قال علقمة عن ابن مسعود رفعه إلى النبى - ﷺ - : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولايدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان »[(٥)] . وقال إبراهيم بن أبى عيلة عن أبى سلمة عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على وجهه فى النار »[(٦)]

وقال الحسن : عجبا لابن آدم يغسل الخرء بيده فى اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات والأرض .

وقال الحسن عن يحيى عن أُبَىّ قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثلا للدنيا وأن قزحه وملحه .[(٧)]

وقال محمد بن الحسين بن على - من ولد على رضى الله عنه - : مادخل قلب رجل من شىء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك .[(٨)]

ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال فى مشيته - وذلك قبل الخلافة - فطعن طاوس فى جنبه بأصبعه وقال : ليس هذا شأن من فى بطنه خرء ؛ فقال له كالمعتذر إليه : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها . قال أبو بكر بن أبى الدنيا كان بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية .

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٧٨

(٢) مسند أحمد (حديث أبى ثعلبة الخشنى) ج ٤ ص ١٩٣
وانظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢١ باب ماجاء فى حسن الخلق وقال : - رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال صحيح .

(٣) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٧ .

(٤) انظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢٢ باب ماجاء فى حسن الخلق . وقال : - رواه أبى يعلى والبزار ، وزاد : - (وحسن الخلق) وفيه عبد الله بن سعيد المقبورى وهو ضعيف .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ١/ ٤١٢ ، ٤٥١ .

(٦) انظر تفير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٨ .

(٧) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ (ص ٣٤٨)

(٨) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان ج ٦ (ص ٣٤٩)

فصل فى الاختيال

عن ابن أبى ليلى عن ابن بريدة ، عن أبيه مرفوعا إلى النبى - ﷺ - : « من جرثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه »[1] .

وعن أبى هريرة مرفوعا : « لاينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره ، وبينما رجل يتبختر فى برديه أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » .[2]

وبعد :

فهذه نصائح لقمانية تفيض حكمة وتشع ضياء ، فما أجدر كل والد أن ينصح بها ولده ، لقد وجه لقمان ابنه إلى رقابة الله عليه عندما قال له :

(يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) كما أمره بأداء الصلاة أداء مستقيما ، وأمره بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم أردف ذلك بالصبر على المصيبة : (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك) وإنما جاء الأمر بالصبر على المصيبة بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن الآمر والناهى قد يتعرض لشدائد ، وقد يعتريه الألم من معاملة الناس له ، فلابد أن يصبر ، وأن يوطن نفسه على ذلك ، كان عمر - رضى الله عنه - يقول : « ياحق لم تبق لى صاحبا »

وكان على يقول : « صدق المقال لم يبق لى صديقا »

قال - تعالى - : ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[3]

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ماتأكله

وقال آخر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ماكان يعرف طيب عرف العود

وقال غيره :

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... وآبى أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة فأزيد حلما ... كعود زاده الإحراق طيبا

---

(١) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٩ وأخرجه الامام أحمد عن طريق سفيان ج ٥/ص ٩ : ١٠ وانظر صحيح البخارى كتاب اللباس باب قول الله تعالى : - قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ج ٧ ص ١٨٢

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) الآية : ١٨٦ من سورة آل عمران .

وقال غيره :

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم ... غيرى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لى ولهم مابى ومابهم ... ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وقال غيره :

عداى لهم فضل على ومنة ... فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا

هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها ... وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على المصيبة ، كل ذلك من عزم الأمور ، ومن أطيب الأخلاق ، ومن أحب الشمائل وأكرم السجايا .

وبعد هذا ينهى لقمان ابنه عن الكبر فى صورتين : عندما يلقى الناس لايصعر خده ، ولايميل بوجهه عنهم كبرا ، وعندما يمشى لايمشى الخيلاء : ﴿ **إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾[1]

« فتبسمك فى وجه أخيك صدقة » ﴿ **ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختال فخور** ﴾ أى : متكبر يترفع على الناس ويلوى وجهه عنهم ، فخور بما أوتى من مال وجاه .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع

ثم يوجهه إلى المشى المحبوب لدى الله ، والصوت المرغوب فيه فيقول :

﴿ **واقصد فى مشيك واغضض من صوتك** ﴾ وينفره من الصوت العالى فى غير ماحاجة إلى ذلك فيقول : ﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ فاللهم علمنا ماينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وهب لنا علما ينفعنا ، وعملا يرفعنا .

نعم الله وآياته

قوله ـ تعالى ـ :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً

(١) من الآية : ٣٧ من سورة الإسراء .

وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ *وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

معانى المفردات

(سخر) : ذلل ، (أسبغ) : أكمل وأتم ، يجادل : يخاصم . (بغير علم) : بغير حجة .

وهذا رجوع إلى مامضى قبل قصة لقمان من خطاب المشركين ، وتوبيخ لهم على إصرارهم على

ماهم عليه على مشاهدتهم لدلائل التوحيد .

(ومن يسلم وجهه إلى الله) : يخلص عبادته إليه ، (محسن) الإحسان : الإتقان ، (نضطرهم) : نلجئهم ونسوقهم . (يولج) : يدخل الليل فى النهار . (أجل مسمى) : أى : معلوم مقدر ، (الفلك) : السفن . (صبار) : كثير الصبر . (كالظلل) : جمع ظلة : وهى الجبال التى تظل من تحتها . (مقتصد) متوسط ، (ختار) : الختر : أسوأ الغدر ، (كفور) : جاحد لنعم الله كافر به .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أقام الأدلة ـ سبحانه ـ على التوحيد ، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة ، عاد إلى خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ماهم عليه من الشرك مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحة للعيان ، يشاهدونها فى كل آن ، فى السموات والأرض ، وتسخيرها لما فيه مصالحهم فى المعاش والمعاد ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة ، المعروفة وغير المعروفة ؛ ثم أبان أن كثيرا من الناس يجادلون فى توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلى على مايدعون ، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه يناضلون ، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد مايعتقدون ، وإذا هم أفحموا بالحجة والسلطان المبين ، لم يجدوا جوابا إلا تقليد الآباء والأجداد بنحو قولهم : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[١] وماذاك إلا نزغات الشيطان ، والشيطان لايدعو إلا إلى الضلال الموصل إلى النار ، وبئس القرار .

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ حال المشرك المجادل أردف ذلك ذكر حال المستسلم المفوض أموره إلى الله ، وبيان عاقبته وماله ، ثم سلى رسوله على مايلقاه من المشركين من العناد والكفران ، وبين له أنه قد بلغ رسالات ربه وتلك وظيفة الرسل ، وعلى الله الحساب والجزاء . وبين ـ سبحانه ـ أن المشركين معترفون بأنه هو الخالق لهذه السموات ، وهذا يستدعى أن يكون الحمد كله له وحده ، ومن يستحق الحمد هو الذى يستحق العبادة ، فأمرهم عجب !! يعلمون المقدمات ثم ينكرون النتيجة التى تستتبعها ، فيعبدون من لايستحق عبادة ، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا : من الأصنام والأوثان .

ثم أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات لاحصر لها ، ولا يعلمها إلا خالقها ، ولما كانت تلك النعم لانهاية لها ، وربما ظن أنها مبعثرة لاقانون لها ، أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها وتصريف شئونها كما يريد ـ دفع هذا بقوله : ﴿ **ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾

روى أنه لما نزل بمكة قوله ـ تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح . .** ﴾ الآية وهاجر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا : بلغنا أنك تقول : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[٢] أتعنينا أم تعنى قومك ؟

---

(١) من الآية : ٢٣ من سورة الزخرف .

(٢) من الآية : ٨٥ من سورة الإسراء .

قال : كُلاًّ عنيت . قالوا : « ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء ؟ فقال ـ ﷺ ـ : هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ماإن عملتم به انتفعتم . قالوا : كيف تزعم هذا وأنت تقول :

﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾(١) فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير ؟ فنزلت الآية :

﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾

التفسير

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ﴾

وهذا امتنان من الله ـ تعالى ـ على عباده ، وهو صاحب الفضل والمنة ، وهو مولى النعم ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾(٢) ألم تروا ـ أيها المخاطبون ـ رؤية بصرية وعلمية أن الله ـ تعالى ـ سخر لكم مافى السموات من نجوم وشمس وقمر وسحاب إلى غير ذلك ؟ كما سخر لكم مافى الأرض من بحار وأنهار ونبات إلى غير ذلك ؟ ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾(٣) ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾(٣)

واقرأ قوله ـ جل شأنه ـ فى سورة النحل أو سورة النعم :

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالاتعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾(٥)

---

(١) من الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ١٥ من سورة الملك .
(٣) الآية : ١٨ من سورة النحل .
(٤) الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ من سورة إبراهيم .
(٥) الآيات : ٥ ـ ١٨ من سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾

روى أن النبى ﷺ قال لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : « الظاهرة : الإسلام وماحسن من خلقك ، والباطنة : ماستر عليك من سيء عملك » وقيل : الظاهرة : الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل ، وقيل : الظاهرة : مايرى بالأبصار من المال والجاه والجمال ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة : مايجده المرء فى نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، ومايدفع عن العبد من الآفات .

ومع هذا التسخير وذلك الإسباغ فإن أكثر الناس لايؤمنون ولايشكرون ولايعقلون ، بل تراهم فى خوضهم يلعبون ، وفى طغيانهم يعمهون ، وفى ريبهم يترددون ، بل يجادلون فى الله بغير علم وعلى غير هدى ، وليس بين أيديهم كتاب منير يستندون إليه فى جدالهم ، قال تعالى : ﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾[1] وقال جل شأنه :

﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾[2]

وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[3] .

ومما يزيد الطين بلة أن هؤلاء المجادلين بالباطل إذا قيل لهم : تعالوا إلى ماأنزل الله ﴿ قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا ﴾[4] وفى آية أخرى : ﴿ بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ﴾[5] هذا هو التقليد الأعمى الذى لايثبت أمام الحق ، ولايصمد فى مجال النور والبرهان ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[6]

﴿ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[7]

وهنا يلقى الله عليهم باللائمة الشديدة فيقول فى موضع : ﴿ أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون ﴾ وفى موضع آخر : ﴿ أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون ﴾ وهنا فى سورة لقمان يقول : ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾

فأنت ترى فى تلك المواضع أنه لاعقل ولااهتداء ولاعلم ، وحيث كان ذلك كذلك فلم يبق إلا

(١) من الآية : ١٣ من سورة الرعد .
(٢) الآيتان : ٣ ، ٤ من سورة الحج .
(٣) الآيات : ٨ـ ١٠ من سورة الحج .
(٤) من الآية : ٢١ من سورة لقمان .
(٥) من الآية : ١٧٠ من سورة البقرة .
(٦) الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة الزخرف .
(٧) الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة الزخرف .

طريق الشيطان ﴿ يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾[١] ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾[٢] ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾[٣] ﴿ ياأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير . الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير . أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلاتذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾[٤]

قوله تعالى : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلايحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾

هذا إخبار منه - تعالى - عن الفريق الآخر ، وهو الذى لم يجادل فى الله ولم يتبع أسلوب تقليد الآباء والأجداد ، بل آمن بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا . ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾[٥] إنه فريق المخلصين الذين اعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل .

لقد استمسكوا بالعروة الوثقى ، والصلة القوية . ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[٦] إنه الفريق الناجى ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[٧] أما الذين جادلوا فى الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير وقلدوا الأجداد والآباء ﴿ أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٨]

إن العروة الوثقى هى الميثاق الأكيد والصلة القوية ، هى الإسلام ، هى التوحيد ، هى كلمة الله العليا ، وإلى الله عاقبة الأمور ، فهو الذى يعلمها ، وهى التى تؤول إليه وترجع لا إلى غيره قال تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾[٩] أم من كفر وأدبر وتولى وعمى عن الحق فلاتذهب نفسك على هؤلاء حسرات ولا يحزنك كفره . ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[١٠]

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[١١]

﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء

---

(١) الآية : ١٢٠ من سورة النساء .
(٢) من الآية : ١٩ من سورة المجادلة .
(٣) الآية : ٢٠ من سورة المجادلة .
(٤) الآيات ٥ - ٨ من سورة فاطر .
(٥) الآية : ١٣١ من سورة البقرة .
(٦) الآية : ٢٥٦ من سورة البقرة .
(٧) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٨) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٩) الآية : ١٢٣ من سورة هود .
(١٠) الآية : ٣٣ من سورة الأنعام .
(١١) الآية : ٣٤ من سورة الأنعام .

فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾[١]

قال تعالى : ﴿ واصبر وماصبرك إلا بالله ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٢]

لاتحزن على هؤلاء فإن إلينا مرجعهم ﴿ إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾[٣] ﴿ فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد ﴾[٤]

﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾[٥] ﴿ يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ﴾[٦] ﴿ إنهم كانوا لايرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[٧] ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾[٨]

هؤلاء الكافرون الذى غرتهم الدنيا وغرهم المال والأولاد ﴿ نمتعهم قليلا ﴾[٩] ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾[١٠] فالدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات .

﴿ لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾[١١] ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾[١٢].

﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾[١٣]

﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم ﴾ أى : نلجئهم (إلى عذاب غليظ) أى : فظيع وشنيع . ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾[١٤].

---

(١) الاية : ٣٥ وبعض الآية ٣٦ من سورة الأنعام .
(٢) الأيتان : ١٢٧ ، ١٢٨ من سورة النحل .
(٣) الأيتان : ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية .
(٤) ، من الآية : ٦ من سورة المجادلة .
(٥) من الآية : ١١٩ من سورة آل عمران . ومن الآية : ٧ من سورة المائدة . ومن الآية : ٢٣ من سورة لقمان .
(٦) الآية : ١٩ من سورة غافر .
(٧) ، الآيات : ٢٧ - ٣٠ من سورة النبأ .
(٨) الآية : ٣٠ من سورة آل عمران .
(٩) من الآية : ٢٤ من سورة لقمان .
(١٠) من الآية : ٧٧ من سورة النساء .
(١١) الأيتان : ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة آل عمران .
(١٢) الأيتان : ٦٩ ، ٧٠ من سورة يونس .
(١٣) الآية : ٣ من سورة الحجر .
(١٤) الآية : ٥٦ من سورة النساء .

قوله تعالى :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون . لله مافى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لاشريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله ﴾ أى : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بل أكثرهم لايعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لله مافى السموات والأرض ﴾ أى : هو خلقه وملكه ﴿ إن الله هو الغنى الحميد ﴾ أى : الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه ، الحميد فى جميع ماخلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ماخلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها .

قال تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾

قال أئمة التفسير فى هذه الآية الكريمة أقوالا جديرة بالاحترام والتوقير ، قال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما وجعل البحر مدادا ، وقال الله : من أمرى كذا ومن أمرى كذا لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام .

وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاما ومع البحر سبعة أبحر ماكان لتنفد عجائب ربى وحكمته وخلقه وعلمه . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ . . . الآية ، يقول : لو كان البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لايفنيها شىء ، لأن أحدا لايستطيع أن يقدر قدره ولايثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه ، إن ربنا كما يقول وفوق مانقول .

قال الإمام الحافظ بن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التى لايحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقال تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله ﴾ أى : لو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مدادا وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مددا ، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى :

﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾[١] فليس المراد (بمثله) آخر فقط ، بل بمثله ، ثم بمثله ، ثم بمثله ، ثم هلم جرا ، لأنه لاحصر لآيات الله وكلماته .

وسبب نزول هذه الآية ماروا‌ه ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يامحمد ، أرأيت قولك : ﴿ وماأوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كلاكما » قالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شىء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنها فى علم الله قليل ، وعندكم من ذلك مايكفيكم » وأنزل الله فيما سألوه عنه فى ذلك﴿ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أى : غالب قاهر ، لايغلبه أحد ولايقهره غيره ، حكيم متنزه عن العبث ، يضع الأمور فى نصابها ، ويسمى الأشياء بأسمائها .

قوله تعالى : ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾ ماخلقكم من العدم ولابعثكم بعد الفناء إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[٢] .

﴿ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾[٣]

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[٤]

﴿ ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير ﴾[٥]

﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[٦]

﴿ فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾[٧]

﴿ إن الله سميع بصير ﴾ إن الله سميع بأقوال العباد ، بصير بشئونهم أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا ، تبارك سمع الله إذ يقول ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ﴾[٨] وجل بصر الله إذ يقول : ﴿ إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٩]

---

(١) الآية : ١٠٩ من سورة الكهف .
(٢) الآية : ٤٠ من سورة النحل .
(٣) من الآية : ٤٧ من سورة آل عمران . ومن الآية : ٣٥ من سورة مريم .
(٤) الآية : ٨٢ من سورة يس .
(٥) الآية : ٧٧ من سورة النحل .
(٦) الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ من سورة القمر .
(٧) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة النازعات .
(٨) الآية : ١ من سورة المجادلة .
(٩) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة آل عمران .

وعظم علم الله إذ يقول : ﴿ يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ﴾[1]

قال الشيخ لتلمذه حيران :

إن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين : دعوة إلى الله وإرشاد إلى دلائل وجوده ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته ، وعنايته ، ورحمته ، وجميع صفات كماله ، ووعد ووعيد ، للترغيب فى طاعته والتحذير من معصيته - وتوكيد ليوم البعث وحض على مكارم الأخلاق - وقصص يمت بسبب الى هذه الأقسام الستة ولكن أهم هذه الأقسام ، وأعظمها عند الله ، هو القسم الأول ؟ لأن الإيمان بالله هو الأصل ، وهو الأساس لكل ماعداه ، ولذلك ترى - وأنت تتصفح القرآن - أن الآيات الدالة على الله ، لاتكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها أحيانا ، فى السورة الواحدة .

يقول حيران بن الأضعف : وهنا ناولنى الشيخ الدفتر الذى كان يكتب فيه الآيات وقال :

الشيخ : هذا هو الدفتر الذى جمعت لك به ، على ترتيب النزول أكثر آيات القرآن التى أراد بها الله تعالى إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، البارىء ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم ، وأكثر فيها - سبحانه - من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والإحكام والإتقان والتقدير والاتزان فى : خلق السموات والأرض ، والشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنجوم ، والليل والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والجبال ، والأنهار ، والبحار والنبات ، والحيوان ، والإنسان ، والأسماع ، والأبصار والأفئدة ، وماينطوى عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس . فتعال ياحيران نقرأ هذه الآيات ونستعرضها جملة واحدة ثم ندرسها على ضوء ماكشفه العلم من أسرار الوجود والخلق .

حيران : لماذا اختار مولاى إيراد الآيات على ترتيب النزول ، ولم يوردها على ترتيب السور ؟

الشيخ : لأنى أردت لك أن تتصور نفسك من أهل العصر الذى نزل به القرآن ، لترى كيف توالى الوحى ، وتتابع الهدى ، فى خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله ، فإن ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات أبلغ أثرا فى نفسك ، وأيسر فى تفهم أسلوب الهدى الكريم ، الذى اتبعه القرآن .

يقول حيران : ثم دفع إلى الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ وأسمعنى ، فقرأت الآيات الآتية :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم ﴾ سورة العلق الآيات : ١ - ٥

﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى ﴾ سورة الأعلى : الآيات ١ - ٥

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ سورة الإخلاص

﴿ قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره ﴾ سورة عبس - الآيات : ١٧ - ٢٠

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا

---

(١) الآية : ١٩ من سورة غافر .

وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا ﴾ سورة عبس ، الآيات : ٢٤ ـ ٣١
﴿ والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء ومابناها . والأرض وماطحاها . ونفس وماسواها ﴾ سورة الشمس ، الآيات : ١ ـ ٧

﴿ ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ سورة التين : الآية : ٤
﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ سورة القيامة .
﴿ والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا ﴾ سورة المرسلات : الآيات : ١ ـ ٦
﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين . ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ سورة المرسلات : الآيات : ٢١ ـ ٢٨
﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ سورة ق الآيات : ٦ ـ ١١
﴿ ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين ﴾ سورة البلد ، ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ سورة القمر الآية : ٤٩
﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ سورة الأعراف : الآية : ٥٤
﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ سورة الأعراف : الآية : ٥٧
﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء ﴾ سورة الأعراف ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ سورة الأعراف ، ﴿ أيشركون ما لايخلق شيئا وهم يخلقون ﴾ سورة الأعراف : من الآية : ١٩١ .
﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ سور يس ، الآيات : ٣٣ ـ ٤٠ .

﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ سورة يس ، الآيات : ٧١ ـ ٧٣

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ سورة يس ، الآيات : ٧٧ ـ ٨١

﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ سورة الفرقان ، من الآية : ٢

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا . ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ . سورة الفرقان ، الآيات : ٤٥ ـ ٥٠

﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ . سورة الفرقان ، الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .

﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ سورة الفرقان ، الآيتان : ٦١ ، ٦٢

﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ سورة فاطر ، الآية : ٣

﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ . سورة فاطر ، الآية : ٩

﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ﴾ . سورة فاطر ، الآيات : ١١ ـ ١٣

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ سورة فاطر ، الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾ سورة فاطر ، الآية : ٤١

﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ سورة مريم ، الاية : ٦٧
﴿ قال فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيهه سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ سورة طه ، الآيات : ٤٩ ـ ٥٤﴿نحن خلقناكم فلو لاتصدقون . أفرأيتم ماتمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ سورة الواقعة ، الآيات : ٥٧ ـ ٥٩ .

أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ . سورة الواقعة ، الآيات :٦٨ ـ ٧٤﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ . سورة الواقعة ، الآيتان : ٧٥ ـ ٧٦﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ . سورة الشعراء ، الآيتان : ٧ ـ ٨ .

﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون ﴾ سورة النمل ، الآيتان : ٦٠ ، ٦١

﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ سورة النمل ، الآية : ٨٦

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾ سورة النمل ، الآية : ٨٨

﴿ وربك يخلق مايشاء ويختار ﴾ سورة القصص ، من الآية : ٦٨

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ . سورة القصص ، الآيات : ٧١ ـ ٧٣

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ سورة الإسراء ، الآية : ١٢

﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما ﴾ سورة الإسراء : ٦٦

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ سورة الإسراء : ٧٠

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ سورة الاسراء الآية : ٨٥

﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ سورة يونس : ٥ ، ٦

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ . سورة يونس : ٣١ ، ٣٢

﴿ قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون . وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لايغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴾ سورة يونس ٣٤ - ٣٦

﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ سورة يونس : ٦٧

﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ﴾ سورة يونس : ١٠١

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴾ سورة هود : ٩

﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ سورة يوسف : ١٠٥

﴿ والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ومانتزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وماأنتم له بخازنين وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾ سورة الحجر : ١٩ - ٢٣

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ سورة الحجر : ٢٦

﴿ وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق ﴾ سورة الحجر : من الآية ٨٥

﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴾ سورة الأنعام : ١ - ٢

﴿ ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ سورة الأنعام : من الآية ٣٨

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم

يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ سورة الأنعام : ٧٥ ـ ٧٩

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ سورة الأنعام : ٩٥ ـ ٩٩

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ سورة الأنعام : ١٠٢ ـ ١٠٣ .

﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ سورة الأنعام : ١٤١ ـ ١٤٢

﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ سورة الصافات : ١١

﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ سورة لقمان : ١٠ ـ ١١

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ﴾ سورة لقمان : ٢٠

﴿ ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ سورة لقمان : ٢٧

﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير . ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ سورة لقمان : ٢٩ ـ ٣١

﴿ ويرى الذى أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾

﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ سورة الزمر : ٥ ـ ٦ .

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفر ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ سورة الزمر : ٢١

﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ سورة الزمر : الآيات : ٦٢ - ٦٤

﴿ هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ومايتذكر إلا من ينيب ﴾ سورة المؤمن أو غافر : ١٣

﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون . كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ سورة المؤمن : ٦١ - ٦٤

﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ سورة غافر : ٦٧ - ٦٨

﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ سورة غافر : ٧٩ - ٨١

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ سورة فصلت : الآية ٣٧

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ سورة فصلت : ٥٣

﴿ فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ سورة الشورى : ١١

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابة ﴾ سورة الشورى : من الآية : ٢٩

﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ سورة الشورى : الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون ﴾ سورة الزخرف : ٩ - ١٢

﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار ومأنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ سورة الجاثية : ٣ - ٦

﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فض له ولعلكم تشكرون . وسخر

لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . سورة الجاثية : ١٢ ـ ١٣

﴿ ماخلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون . قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ سورة الأحقاف : ٣ ـ ٤

﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ سورة الذاريات : الآيتان : ٢٠ ، ٢١

﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ سورة الذاريات : الآيات : ٤٧ ـ ٤٩

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكر إنما أنت مذكر ﴾ سورة الغاشية : الآيات ١٧ ـ ٢١

﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴾ سورة الكهف : ٣٧

﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾ سورة الكهف : ١٠٩

خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ﴾ سورة النحل : الآيات ٣ ـ ٨

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ماتسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾ سورة النحل : ١٠ ـ ٢٠ ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ سورة النحل : ٤٠

﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة . نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ سورة النحل : ٦٥ ـ ٦٩

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ سورة النحل الآيات : ٧٨ - ٨٢

﴿ وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ سورة نوح : ١٤ - ٢٠

﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ سورة إبراهيم ، من الآية : ١٠

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ﴾ سورة إبراهيم : ٢٤ - ٢٦

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ سورة ابراهيم : ٣٢ ، ٣٣

﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ سورة الأنبياء : ٣٠ - ٣٣

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وماكنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ سورة المؤمنون : ١٢ - ٢٢

﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون . وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون . وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ سورة المؤمنون : ٧٨ - ٨٠

﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون ﴾ سورة السجدة : الآيات ٧ - ٩

﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ سورة السجدة : ٢٧

﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون ﴾ سورة الطور : ٣٥ ـ ٣٦

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ سورة الملك : ١ ـ ٤

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ﴾ سورة الملك : من الآية ١٥

﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن ﴾ سورة الملك : من الآية ١٩

﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون ﴾ سورة الملك : ٢٣

﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بما معين ﴾ سورة الملك : ٣٠

﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لاتبصرون ﴾ سورة الحاقة : ٣٨ ـ ٣٩

﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ﴾ سورة المعارج : ٤٠

﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا ﴾ سورة النبأ : الآيات ٦ ـ ١٦

﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها ﴾ سورة النازعات : الآيات ٢٧ ـ ٣٢

﴿ ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ماشاء ركبك ﴾ سورة الانفطار : ٦ ـ ٨

﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى . . ﴾ سورة الروم : من الآية ٨

﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ سورة الروم : ١٧ ـ ٢٤

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ سورة الروم : ٤٦

﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾ سورة الروم : ٤٨ : ٥٠

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . . . ﴾ سورة العنكبوت : من الآية ١٠

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير ﴾[1] .

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[2] سورة العنكبوت .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾[3] . سورة العنكبوت

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾[4] سورة العنكبوت

﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾[5] سورة البقرة

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ﴾[6] سورة البقرة .

﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى امرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾[7] سورة البقرة

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[8] سورة البقرة .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[9] سورة البقرة

﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾[10] سورة البقرة .

(١) سورة العنكبوت الآية : ٢٠
(٢) سورة العنكبوت الآيات : ٤١ ـ ٤٣
(٣) سورة العنكبوت الآية : ٦١
(٤) سورة العنكبوت الآية : ٦٣
(٥) سورة البقرة الآيتان : ٢١ ، ٢٢
(٦) سورة البقرة الآيتان : ٢٨ ، ٢٩
(٧) سورة البقرة الآية : ١١٧
(٨) سورة البقرة الآية : ١٦٤
(٩) سورة البقرة الآية : ١٧١
(١٠) سورة البقرة من الآية : ١٨٩

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾(١) سورة آل عمران

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾(٢) سورة آل عمران .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾(٣) سورة آل عمران .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾(٤) . سورة آل عمران

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . . ﴾(٥) سورة النساء .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . . . ﴾(٦) سورة الحديد

﴿ إعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾(٧) سورة الحديد

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾(٨) سورة الرعد

﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ﴾ سورة الرعد .

﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾(٩) سورة الرعد .

﴿ الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان ﴾(١٠) سورة الرحمن .

---

(١) سورة آل عمران الأيتانب: ٦ ، ٧
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٨
(٣) سورة آل عمران الأيتان : ٢٦ ، ٢٧
(٤) سورة آل عمران الأيتان : ١٩٠ ، ١٩١
(٥) سورة النساء من الآية : ١
(٦) سورة الحديد من الآية : ٦
(٧) سورة الحديد من الآية : ١٧
(٨) سورة الرعد الآيات : ٢ ـ ٤
(٩) سورة الرعد الآية : ١٦
(١٠) سورة الرحمن الآيات : ١ ـ ٥

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾(١) ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ (٢) سورة الطلاق

﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾(٣) سورة النور .

﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم لنخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾(٤) سورة الحج .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾(٥) سورة الحج .

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾(٦) سورة الحج .

﴿ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وإن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة . إن الله لطيف خبير . له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم . وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾(٧) سورة الحج .

﴿ يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾(٨) . ﴿ خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾(٩) سورة التغابن .

---

(١) سورة الانسان الآيتان : ١ ، ٢
(٢) سورة الطلاق من الآية : ٣
(٣) سورة النور الآيات : ٤٣ ـ ٤٥
(٤) سورة الحج الآيتان : ٥ ، ٦
(٥) سورة الحج الآية : ١١
(٦) سورة الحج الآية : ٤٦
(٧) سورة الحج الآيات : ٦١ ـ ٦٦
(٨) سورة الحج الآيتان : ٧٣ ، ٧٤
(٩) سورة التغابن الآية : ٣

يقول جيران بن الأضعف ولما انتهيت من قراءة هذه الآيات قلت للشيخ الموزون : جزاك الله عنا خيرا يامولاى فقد والله ، قرأت الساعة آيات لا أتذكر أنها مرت على فى كل ما أتيح لى فى عمرى ، من التلاوات ، وما أظن ذلك إلا من ترك التأمل والتدبر ، فى التلاوة المعتادة للتبرك .

الشيخ : لا يكفى أن تقرأ هذه الآيات مرة أو مرتين ولكن يجب ان تصنفها أصنافا ليجتمع أمام عينيك ، فى كل شيء من خلق الله ، الآيات المشيرة إليه ، وقد يكون بعضها شاملا لعدة أشياء ، فلا بأس من تكرار ذكرها .

من آيات الله الكونية

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير** ﴾[1] .

وتلك آية أخرى من الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته ، فالليل والنهار آيتان من آيات الله .

قال تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا** ﴾[2] وقال عز من قائل ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾[3]

ومن آيات الله فى الليل والنهار انه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل . ألم تشاهد أيها الناظر ، بعينيك أن الله يزيد ما نقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، ويزيد ما نقص من ساعات النهار فى ساعات الليل .

والخلاصة : أنه يأخذ فى الليل من النهار ، فيقصر ذاك ويطول هذا ، وذاك فى مدة الصيف ، إذ يطول النهار إلى الغاية ، ثم يبتدىء النهار فى النقصان ، ويطول الليل إلى الغاية فى مدة الشتاء .

﴿ **وسخر الشمس والقمر** ﴾ لمصالح خلقه ومنافعهم .

﴿ **كل يجرى إلى أجل مسمى** ﴾ أى : كل منهما يجرى بأمره إلى وقت معلوم ، وأجل محدد ، إذا بلغه كورت الشمس والقمر .

﴿ **وأن الله بما تعملون خبير** ﴾ أى : وأن الله بأعمالكم من خير وشر خبير بها لا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو مجازيكم بها .

ثم بين الحكمة فى إظهار آياته للناس ، فقال : ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل** ﴾ أى : إنما يظهر آياته للناس ليستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة ، وأن كل ما سواه هو

---

(١) سورة لقمان الآيتان : ٢٩ ، ٣٠

(٢) سورة الاسراء الآية : ١٢

(٣) سورة القصص الآيات : ٧١ ـ ٧٣

الباطل الذى يضمحل ويفنى ، فهو الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه .

﴿ وأن الله هو العلى الكبير ﴾ أى : وأنه تعالى المرتفع على كل شىء والمتسلط على كل شىء ، فكل شىء خاضع له ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

قوله تعالى : **﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾**[1] .

وكما أن الليل والنهار آيتان من آيات الله يولج كلا منهما فى الآخر ، فكذلك تسخير الشمس والقمر من آيات الله ، والكل يجرى إلى أجل مسمى حدده الله تعالى . **﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق . . يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾** . كذلك جريان الفلك فى البحر بنعمة الله حسب قانون الأجسام الطافية وما ركزه الله تعالى فى هذا الكون من نواميس آية أخر . **﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح ﴾ ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾** .

هذا الكون من نواميس آية اخر **﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾** .

قال تعالى : **﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾** وقال جل جلاله : **﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾** ألم تشاهد أيها المخاطب السفن وهى تسير فى البحر حاملة للأقوات والمتاع ، ومن بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر هو فى حاجة إليها لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس فى أيديهم .

وفى هذا دليل على عجيب قدرته التى ترشدكم إلى أنه الحق الذى أوجد ما ترون من الأحمال الثقيلة على وجه الماء الذى ترسب فيه الابرة فما دونها .

ثم ذكر من يستفيد من النظر فى الآيات ، فقال : **﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾** أى إن فيها ذكر لدلائل واضحات لكل صبار فى الضراء ، شكور فى الرضاء ، قال الشعبى : الصبر نصف الايمان ، والشكر نصف الايمان ، واليقين الايمان كله ، ألم تر إلى قوله : **﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾** وقوله **﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾** وقال عليه الصلاة والسلام : « الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر » .

ثم بين أن المشركين ينسون الله فى السراء ويلجئون إليه حين الضراء فقال : **﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾** أى وإذا أحاطت بالمشركين الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان . الأمواج العالية كالجبال ، وأحدق بهم الخطر من كل جانب حين يركبون السفن ـ فزعوا

(١) سورة لقمان الآيتان : ٣١ ، ٣٢

بالدعاء إلى الله مخلصين له الطاعة لا يشركون به شيئا ولا يدعون معه أحدا سواه ، ولا يستغيثون بغيره .

﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحدون بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ أى فلما نجوا من الأهوال التى كانوا فيها ، وخلصوا إلى البر ، فمنهم متوسط فى أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء ، موف بما عاهد عليه الله فى البحر ، ومنه من غدر ونقض عهد الفطرة ، وكفر بأنعم الله عليه .

سبحانك ربى كل ما فى الكون من صنعتك ، فأنت الخالق المدبر الحكيم المريد القدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، سبحه الطير فى وكره ومجده الوحش فى قفره ، ومن آياته ان تقوم السماء والأرض بأمره ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير . يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾[1] .

ختام السورة

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

معانى المفردات

اتقوا ربكم : أى خافوا عقابه ، لا يجزى : أى لا يغنى ، والغرور ، ما غر الانسان من مال وجاه . وشهوة وشيطان ، والساعة : يوم القيامة . ما فى الأرحام : أى ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله كالذكورة والأنوثة والحياة والموت ، وغيرها من الأعراض .

بعد أن ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة ، وأشكال منوعة ـ أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم ، يوم يحكم الله بين عباده ، يوم لا تنفع فيه قرابة ، ولا تجدى فيه صلة رحم ، فلو أراد والد أن يفدى ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك ، وهكذا الابن مع أبيه ، فلا تلهينكم الدنيا

---

(١) سورة فاطر من الآية : ١٣ إلى الآيات ١٧

عن الدار الآخرة ، ولا يغرنكم الشيطان فيزينن لكم بوساوسه المعاصى والآثام . ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه ، مما فى الكائنات ، وهى الخمس التى اشتملت عليها الآية الكريمة ، مما لم يؤت علمها ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ هذا خطاب للبشرية جمعاء فيه أمر بالتقوى ، والتقوى هى : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . ﴿ واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ﴾ أى : احذروا هذا اليوم الذى يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، فالوالد لا يملك أن يفدى ولده ، وكذلك المولود لا يستطيع أن يفدى والده ، بل إن الولد يلقى أباه فيقول له : ياأبت لقد كنت بك برا وإليك محسنا وعليك مشفقا فهل أجد لديك من حسنة يعود على خيرها اليوم ، فيقول له أبوه : يابنى ليتنى استطيع ذلك انى اشكو مما منه تشكو . وتلقى الأم ولدها فتقول له يابنى : لقد كان بطنى لك وعاء وكان ثديى لك سقاء ، وكان حجرى لك وطاء . فهل أجد عندك من حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول لها : ليتنى استطيع ذلك إننى أشكو مما منه تشكين . . اقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾ . وكما أمر الله تعالى : عباده بالتقوى والخشية من يوم يجعل الولدان شيبا أخبرهم بأن وعده حق ، فهو الحق وقوله الحق ولقاؤه حق ووعده حق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا بزخارفها الخادعة ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا . ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ أى : الشيطان الذى قال الله فيه : ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) . وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ فما طريق النجاة ؟ ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير ﴾ .

هذه خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله : إن الله عنده علم الساعة فلا يعلمها أحد سواه ، لا ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، كما قال : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ .

(٢) ﴿ وينزل الغيث ﴾ فى وقته المقدر له ، ومكانه المعين فى علمه تعالى .

(٣) ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ أذكر هو أم أنثى ، أتام الخلق أما ناقصه ، أو نحو ذلك من الأحوال العارضة له .

(٤) ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ﴾ من خير أو شر .

(٥) ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ أى : لا يدرى أحد أين مضجعه من الأرض ؟ أفى بحر أم فى بر ، أم فى سهل أم فى جبل .

﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أى : إن الله عليم بجميع الأشياء ، خبير ببواطنها كما هو خبير بظواهرها .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة (أن رجلا يقال له : الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبى ﷺ فقال : يامحمد متى قيام الساعة ، وقد أجدبت بلادنا ، فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت ، فبأى أرض أموت ، فنزلت الآية : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾[١] الخ .

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : (مفاتيح الغيب خمس : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾[٢] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال الحافظ بن كثير رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآية :

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ، ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها واخراها . ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان . . لا علم لأحد بذلك ، وهذا شبيهه بقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى بريدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (خمس لا يعلمهن إلا الله ـ عز وجل ـ : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير)[٣] .

وروى الإمام احمد بسنده عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : (أوتيت مفاتيح كل شىء إلا الخمس : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب

---

(١) انظر الدر المنثور فى تفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ح ٦ ص ٥٣٠ ، ٥٣١ فى تفسير قوله تعالى : إن الله عنده علم الساعة الآية .

(٢) فى الدر المنثور فى تفسير المأثور فى تفسير سورة لقمان آية « إن الله عنده علم الساعة » الآية ح ٦ ص ٥٦١ وقال اخرج الفريابى والبخارى ومسلم وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر وذكر الحديث . . »

(٣) رواه الامام احمد فى مسنده (من حديث بريدة) ح ٥ ص ٣٥٥

غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير)[١] .

وقال البخارى : بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يتمشى ، فقال : يارسول الله ما الايمان ؟ قال ؟ « الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » قال : يارسول الله ما الاسلام ؟ قال : « الإسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان) قال : يارسول الله ما الاحسان ؟ قال : (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) قال : يارسول الله متى الساعة ؟ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس ، فذاك من أشراطها فخمس لا يعلمهن إلا الله ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام** ﴾ . الآية : ثم انصرف الرجل فقال : ردوه على فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا قال : (هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم)[٢]

روى الأمام أحمد بسنده عن حراش عن رجل من بنى عامر أنه إستأذن على النبى ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه : « إخرجى إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : السلام عليكم أأدخل » قال : فسمعته يقول ذلك ، فقلت السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن لى ، فدخلت فقلت : بم أتيتنا ؟ قال (لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدعوا اللات والعزى ، وان تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ، وأن تصوموا من السنة شهرا وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم) . قال : فقال فهل بقى من العلم شىء لا تعلمه ؟ قال : (قد علمنى الله ـ عز وجل ـ خيرا وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله ـ عز وجل ـ : الخمس (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام)[٣] الآية .

وقد جاء فى الحديث : (إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له فيها حاجة)[٤] .

جنس الجنين

ولد أو بنت

يقول الدكتور محمد على البار فى كتابه : خلق الانسان بين الطب والقرآن قضية تشغل بال الآباء والأمهات كثيرا . . ترى ماذا يكون الحمل ؟ ولد أو بنت . . ذلك سر مغلق بالنسبة للآباء والأمهات

(١) رواه الامام احمد فى مسنده (مسند عبد الله بن عمر) ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) انظر صحيح البخارى (كتاب الايمان) باب : سؤال جبريل النبى ﷺ عن الايمان والاسلام ، والاحسان وعلم الساعة . . الخ ج ١ ص ١٩ ، ٢٠

(٣) مسند الامام أحمد (من أحاديث رجال من أصحاب النبى ﷺ (ج ٥ ص ٣٦٩

(٤) الحديث فى فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٦٧ رقم ٤٠٤ وقال المناوى : اخرجه احمد والطبرانى فى الكبير وابو نعيم فى الحلية عن أبى عزة ، يسار بن عبدالله او ابن عبد او ابن عمر الهزلى له صحبة سكن البصرة ، وقيل : هو مطر بن عكامس لان حديثهما واحد ، وهو هذا ، وقيل : غيره ، ورواه عنه الترمذى فى العلل ثم ذكر انه سأل عنه البخارى فقال : لا أعرف لأبى عزة إلا هذا انتهى قال الهيثمى : يعد عزوه لأحد والطبرانى . فيه محمد بن موسى الخرشى ، وفيه خلف انتهى . ورواه عنه ايضا البخارى فى الأدب والحاكم وبالجملة : فهو حسن .

حتى يحين موعد الولادة . ولكن العلم الحديث توصل إلى معرفة ذلك السر ، إنه سر لا يباح كثيرا ، فليس من اليسير عمل الفحوصات الخاصة بمعرفة الجنين ، إذ أن ذلك يتطلب سحب كمية من السائل الامينوسى (الرهل) المحيط بالجنين والمتناثرة فيه بعض خلاياه وبفحص هذه الخلايا ، وبالذات فحص أجسامها الملونة (الكروموسومات) يمكن تحديد نوع الجنين ذكر أو أنثى ، ولكن الأطباء لا يجرون مثل هذه الفحوص إلا إذا كانوا مشتبهين بوجود تشويهات خلقية ، وفى أثناء ذلك يتعرفون على جنس الجنين ومن الناحية الطبية ليست هناك أى أهمية لمعرفة نوع الجنين المهم أن يكون سليما من التشويهات تام الخلقة . مكتمل الاعضاء . . ومن المقرر علميا أن جنس المولود يتحدد فى اللحظة الأولى التى يلتقى فيها الحيوان المنوى بالبويضة فيلقحها ، فإذا ما التقى حيوان منوى يحمل شارة الذكورة (Y) بالبويضة ، فإن الجنين سيكون ذكرا بإذن الله . أما إذا كان الحيوان المنوى الذى سيلقح البويضة . يحمل شارة الأنوثة فإن الجنين سيكون أنثى بإذن الله . إذن فالحيوان المنوى أو نطفة الرجل هى التى تحدد نوعية الجنين : ذكر أم أنثى . ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذ تمنى ﴾[1] والنطفة التى تمنى : هى نطفة الرجل بلا ريب . ويقول تعالى أيضا : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه (أى المنى) الزوجين الذكر والأنثى . . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾[2] .

وبالنسبة للأطباء فإنه لا يمكن معرفة الجنين إلا بعد مضى أربعة أشهر على الأقل عندما يمكن أن تغرز إبرة لسحب نقطة من السائل الأمينوسى لفحص خلايا الجنين . . هل تحمل شارة الذكور ؟ (Y) أو تحمل شارة الأنوثة (X) أما فى الجنين ذاته فإنه لا يمكن تمييزه ولو نزل سقطا ، ويشرح تشريحا كاملا حتى نهاية الاسبوع السادس الرحمى ، فغدد التناسل : الخصية (فى الذكر) والمبيض (فى الأنثى) تتشابهان تماما فى هذه المرحلة المبكرة من النمو . . ولا يمكن التمييز بينهما . . وفى نهاية الاسبوع السابع تبدأ الخصية بالنمو قبل المبيض ويظهر فيها نسيج خاص ، كما أنها تلف بغلالة بيضاء تدعى اللفافة البيضاء ويقول المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب ذكر أو أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء) وفى تلك اللحظة يعلم الملك نوع الجنين ذكر أو أنثى أما فى علم الله فهو معروف منذ الأزل . . وعلى مستوى الصيفات (الكروموسومات) يتحدد نوع الجنين منذ لحظة التلقيح . . والتقاء الحيوان المنوى (ماء الرجل) ببويضة المرأة (ماء المرأة) وتنمو الخصية أو المبيض من الحدبة التناسلية فى منطقة بين الصلب (العمود الفقرى) والترائب (الأضلاع) ، ثم تنزل تدريجا إلى الحوض إبتداء من الاسبوع العاشر للحمل حتى تصل إلى الحوض فى الشهر السابع ، ثم تواصل الخصية نزولها فى الشهر التاسع إلى كيس الصفن خارج الجسم ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾[3]

---

(١) سورة النجم الايتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة القيامة الآيات : ٣٦ ـ ٤٠ .

(٣) سورة الطارق الآيات : ٥ ـ ٧

* **الأعضاء التناسلية الظاهرة :**

يصعب التفريق بين الذكر والأنثى من حيث الأعضاء التناسلية الظاهرة إلى بداية الشهر الرابع من الحمل . . ومن ثم يكون التميز بينهما . . أما بداية تكون هذه الأعضاء فتبدأ فى الأسبوع الرحمى السادس (٤٢ يوما) وتستمر فى النمو . ولكن التمييز لا يظهر إلا فى بداية الشهر الرابع وتبدأ الأعضاء الظاهرة برعما صغيرا فوق شق . . أما البرعم فيتحول إلى قضيب أو بظر (حسب نوع الجنين) وأما الشق فإما أن يبقى فيكون على جانبه الشفران كما هو فى البنت أو يلتصق ويكون كيس الصفن كما هو فى الولد ، ثم تنزل الخصية من كل جانب إلى كيس الصفن فى الشهر التاسع .

ويبدأ التكوين الجنسى (فى الأسبوع السادس) (٤٢ يوما) إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء) ويبدأ الملك عمله منذ تلك اللحظة فى توجيه الأنسجة والخلايا الصماء إلى وظائفها وأماكنها المحدودة فى وقتها المعلوم ، وعندما تكتمل مراحل النطفة والعلقة والمضغة يؤمر الملك بالدخول مرة أخرى ليحدد الأعضاء الظاهرة هذا ذكر وهذه انثى . هذا تقدير بعد تقدير وتصوير بعد تصوير . . فقد قدر الله ـ سبحانه ـ أمر المخلوقات قبل خلقها فى اللوح المحفوظ ، ثم قدرها وهى فى عالم الذر حين قبض قبضة من اليمين فقال : هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . وقبض الأخرى وقال : هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون . ثم قدر سبحانه ـ وتعالى ـ حيوانا منويا بعينه من بين بلايين الحيوانات المنوية التى يقذفها الرجل ليلقح بويضة واحدة ثم نموها من بين ملايين البويضات الموجودة فى مبيض جنين الأنثى . . ثم اختارها من بين مئات البويضات التى تنمو كل شهر تحت تأثير هورمون الغدة النخامية وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿ **الذى أحسن كل شىء خلقه . وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون** ﴾[١] والسلالة : هى الخلاصة . . ونسل الانسان من خلاصة الخلاصة . من الماء المهين (المنى) . . الذى يختار الله منه حيوانا منويا واحدا فقط ليلقح البويضة المختارة من بين آلاف البويضات الموجودة فى مبيض المرأة ، ويتحدد جنس الجنين على مستوى الصيفات (الكروموسومات) فى لحظة التلقيح فإذا ما لقح البويضة حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة كان الجنين انثى بإذن الله .

أما على مستوى الأنسجة فلا يتحدد جنس الجنين إلا فى الاسبوع السابع بعد دخول الملك حينما تعلم الغدة التناسلية هل هى مبيض او خصية . . ثم تحدد بعد ذلك الأعضاء التناسلية الخارجية فى الاسبوع الثانى عشر . . وقد لا يتطابق التكوين الجنسى الظاهرى للاعضاء التناسلية مع التكوين الجنسى للغدة التناسلية فقد يكون جنس المولود ذكرا فى الحقيقة بينما اعضاؤه التناسلية توحى بأنه أنثى وقد يكون العكس . . وهذا ما تكتبه الصحف والمجلات من أن سعيدة قد أجريت لها عملية وتحولت إلى سعيد والواقع أن الجراح لم يغير جنس الجنين بل أعاده إلى وضعه الطبيعى ، وهناك حالات اكثر تعقيدا نتركها

(١) سورة السجدة الآيات : ٧ ـ ٩

للاطباء . . ومن المعلوم أن الأعضاء التناسلية الخارجية إنما تنشأ من نتوءات بالجلد ولا يتم تكوين الجلد الا فيما بين الاسبوع العاشر والثانى عشر . . وحديث رسول الله ﷺ الذى اخرجه مسلم ، يقول : (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها . . ثم قال : رب اذكر أم أنثى ؟)[١] .

ومعنى ذلك أن الأعضاء التناسلية الخارجية لاتظهر إلا بعد ظهور السمع والبصر والعظام واللحم والجلد . . . ومن الإعجاز ههنا أن يُذكر تكون الجلد قبل ظهور أعضاء التناسل الخارجية ، لأن الجلد يسبق ظهورها . . بل ومنه تتكون الأعضاء التناسلية الخارجية . (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة فى ذلك مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله أشقى أم سعيد)[٢] .

قد يسأل سائل فيقول : أليس فى هذا معرفة للغيب . . والله قد استأثر بعلم الغيب عنده . . وذكر ان مفاتح الغيب خمسة من المذكور فى الآية ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير** ﴾ .

وجاء فى تفسير ابن كثير عن هذه الآية ما يلى :

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله ـ تعالى ـ بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى . فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ﴿ **لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد ان يخلقه الله تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، شقيا أو سعيدا . علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها أو أخراها ، ﴿ **وما تدرى نفس بأى أرض تموت** ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان . . لا علم لأحد بذلك .

وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب . قال ابن حجر : (وأما ما ثبت بنص القرآن ان عيسى ـ عليه السلام ـ قال إنه يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون ، وأن يوسف قال : إنه ينبئهم بالطعام قبل أن يأتى إلى غير ذلك مما ظهر من المعجزات والكرامات فكل ذلك يمكن أن يستفاد من الاستثناء إلا من ارتضى من رسول) فإنه يقتضى إطلاع الرسول على بعض الغيب . والولى التابع للرسول عن الرسول ليأخذ به يكرم ، والفرق بينهما أن الرسول يطلع على ذلك بأنواع الوحى كلها . والولى لا يطلع على ذلك إلا بمنام أو إلهام . والله أعلم . ونقول : إن الآية الكريمة جعلت التعبير مختلفا من جملة إلى أخرى . . ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ فهو المختص وحده بعلمها ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من**

---

(١) جزء من حديث اخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب القدر) باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه . . الخ ج٤ ص ٢٠٣٧ رقم ٢٦٤٥ .

ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾ ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها . قل إنما علمها عند ربى ﴾ ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴾ .

وعندما سئل عنها رسول الله ﷺ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) . فقد أخبر ﷺ عن أشراطها وعلاماتها وذكر كثيرا من هذه العلامات الصغرى والكبرى .

﴿ وينزل الغيث ﴾ فهو وحده الذى ينزل الغيث : ولكن الله تعالى لم ينف عن البشر أن يعرفوا مواقيت نزول الغيث بأمارات وإشارات .. تختلف قوة إدراكها من شخص لآخر ، ومن زمان لزمان .. حسب الخبرة وتجمع المعلومات ، ومع هذا فرغم الدقة العلمية ، التى بلغها الانسان فى هذا الزمان ، فإن التنبؤات الجوية كثيرا ما تخيب وتفشل .. وعلم نزول الغيث ظنى بالنسبة للانسان لا يقنى ، ولا شك أن هناك فرقا هائلا وبونا شاسعا بين علم الله .. سبحانه وتعالى : غير المحدود واللانهائى .. والذى لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه ، والذى لا يمكن قط أن يخطىء .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وبين علم البشر المحدود القابل للخطأ وللنسيان وللتبديل والتحريف ، ومعرفة نزول الغيث معرفة إشاراته وعلاماته . مثل أن ترى السحاب الكثيف من بعد مع خبرة بأنواع السحاب تصدق فى كثير من الأحيان ، وتخيب وتفشل فى معرفة بعضها استنادا إلى عوامل متعددة تدخل فيها خبرة الشخص ووسائله المتاحة له ، ومع وجود عوامل اخرى ، قد تأتى وتعارضها فجأة ، وكذلك علم ما فى الأرحام ، فالله وحده هو الذى يعلم علما محيطا شاملا بما فى الأرحام . ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام .. وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾[1] ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ فعلمه سبحانه شامل كامل محيط يعرف كل صغيرة وكبيرة فى الرحم وغيره . ﴿ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير ﴾[2] ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . ويعلم ما فى البر والبحر .. وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[3] فعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ شامل لما فى الرحم من ذكورة وأنوثة ، ومن طول وقصر ، ومن صفات وملامح وشيات ، ومن طبائع موروثة ، وأخرى ستكتسب فيما يقبل من الأيام ، بل إن الملك الموكل بالرحم يعلم ذلك ويكتبه كما مر معنا فى الأحاديث النبوية الشريفة ويعلم ذلك مجملا فى نهاية الأربعين الأولى من عمر النطفة ، ثم يعلمها مفصلة فى نهاية مرحلة المضغة .. ويكتب ذلك بين عينيه حتى النكبة ينكبها ويكتب أربع كلمات : (رزقه ـ وأجله ـ وعمله ـ وشقى أم سعيد) .

تلك التفاصيل الهائلة سقط ام تمام مشوهة الخلق ، أم سليمها ناقص الأطراف مبتورها ، أم كاملها .. بعين واحدة ام بعينين ، بشفة مبتورة شرماء أم كاملة ، سقف حنكه تام أم ناقص . قلبه سليم التكوين أم ا به عيوب خلقيه ، وما أكثرها . جهازه العصبى .. دماغه وأعصابه مساراتها المختلفة .. عضلاته .. واسرارها .. جلده وما يحمله .. شراينه وأوردته ومجاريها .. غدده

(١) سورة الرعد الآية : ٨

(٢) سورة لقمان الآية : ١٦

(٣) سورة الأنعام الآية : ٥٩

المختلفة .. إلى آخره .. حتى الجسيمات الملونة (الكروموسومات) وأسرار البروتينات وأسرار الأنوية ، وأسرار التكوين ، ثم بعد ذلك اسرار الروح .

وأسرار النفخة الكريمة التى اختص بها الانسان ، ترى من يعلم كل ذلك .. من غير الله ... ؟ فإذا عرفنا نوعية الجنين ذكر أم أنثى فتلك معرفة ناقصة مبتورة ، ومع هذا يمكن أن تخطىء يمكن أن يكون الأعضاء الظاهرة لأنثى ، وتكون الغدد التناسلية للذكر ، ويحتاج الطفل بعد ولادته لعملية لارجاعه إلى جنسه الحقيقى ، وقد يكون العكس ظاهره ولد وحقيقته أنثى ولا يعلم ذلك إلا بعد الولادة ، وبعد فحوص طويلة ، وقد يكون الأمر أعقد وأغرب .. وهو خنثى حقيقية تحمل صفات الذكورة وصفات الأنوثة .. تحمل الخصية والمبيض معا فمتى يدرك الانسان ذلك ، وهى لا تعرف إلا بعد إجراء فحوص وعمليات بعد الولادة لفترة من الزمان إذن : فعلم الانسان بما فى الأرحام ظنى لا يقينى ، وعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ شامل كامل محيط لا يتسرب إليه الشك ولا الخطأ .. علم الانسان على النقيض من ذلك كله .. علم ما فى الأرحام يشبه علم التنبؤات الجوية .. تصدق حينا وتخطىء أخرى ، وقد يغلب الصواب فيها بناء على الخبرة والمعرفة والعلوم الحديثة ، واستخدام الوسائل التقنية البارعة ، ولكن ذلك كله لا يخرجها إلى علم اليقين المطلق .. تظل كما هى فى حدود البشرية قابلة للخطأ .. قابلة للنقد .. قابلة للتحريف .. وكذلك علم ما فى الأرحام .

سورة السجدة

مقدمة : قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، سوى ثلاث آيات ، فإنها مدينة ﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا** ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث : عدد آياتها تسع وعشرون عند البصريين وكلماتها : ثلاثمائة وثلاثون ، وحروفها ألف وخمسمائة وتسع وتسعون . ولها ثلاثة أسماء (سورة السجدة) لاشتمالها على سجدة التلاوة ، الثانى سجدة لقمان ، للتمييز عن (حم السجدة) ، الثالث المضاجع : لقوله ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ .

مقصود السورة :

تنزيل القرآن ، وإنذار سيد الرسل ، وتخليق السماء والأرض وخلق الخلائق ، وتخصيص الانسان من بينهم ، وتسليط ملك الموت على قبض الأرواح ، وتشوير العاصين فى القيامة ، وملء جهنم من أهل الانكار ، والضلالة ، وإسقاط خواص العباد فى أجواف الليالى للعبادة ، وإخبارهم بما ادخر لهم فى العقبى : من أنواع الكرامة والتفريق بين الفاسقين ، والصادقين فى الجزاء ، والثواب فى يوم المآب ، وتسلية النبى ﷺ بتقرير أحوال الأنبياء الماضين ، وتقرير حجة المنكرين للوحدانية ، وامر الرسول ﷺ بالاعراض عن مكافأة أهل الكفر ، وامره بانتظار النصر ، بقوله : ﴿ **فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون** ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ وفى سأل سائل (خمسين ألف سنة) موضع بيانه التفسير . . والغريب فيه ما روى عن عكرمة فى جماعة : أن اليوم فى المعارج عبارة عن أول أيام الدنيا إلى انقضائها ، وأنها خمسون سنة ، لايدرى أحدكم كم مضى وكم بقى إلا الله ـ عز وجل ـ .

ومن الغريب أن هذه عبارة عن الشدة ، واستطالة أهلها إياها ، كالعادة فى استطالة أيام الشدة والحزن ، واستقصار أيام الراحة والسرور ، حتى قال القائل : سنة الوصل سِنة ، وسِنة الهجر سنة . وخصت هذه السورة بقوله : ألف سنة ، لما قبله ، وهو قوله : ﴿ فى ستة أيام ﴾ وتلك الأيام من جنس ذلك اليوم ، وخصت : سورة المعارج بقوله : ﴿ خمسين ألف سنة ﴾ لأن فيها ذكر القيامة وأهوالها ، فكان هو اللائق بها .

قوله : ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ (ثم) ههنا يدل على أنه ذكر مرات ثم تأخر واعرض عنها . والفاء يدل على الاعراض عقيب التذكير قوله : ﴿ عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ ، وفى سبأ ﴿ التى كنتم بها ﴾ لأن النار وقعت فى هذه السورة موقع الكناية ، لتقدم ذكرها ، والكنايات لا توصف ، فوصف العذاب ، وفى سبأ لم يتقدم ذكر النار ، فحسن وصف النار . قوله : ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون ﴾ بزيادة (من) سبق فى سورة طه .

قوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ ليس غيره ، لأنه لما ذكر القرون والمساكن بالجمع حسن جمع الآيات ، ولما تقدم ذكر الكتاب ـ وهو مسموع ـ حسن لفظ السماع مختم الآية به .

مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

(١) اشتمال كل منهما على دلائل الألوهية .

(٢) إنه ذكر فى السورة السالفة دلائل التوحيد ، وهو الأصل الأول ، ثم ذكر المعاد ، وهو الأصل الثانى ، وهنا ذكر الأصل الثالث ، وهو النبوة .

(٣) إن هذه السورة شرحت مفاتح الغيب التى ذكرت فى خاتمة ما قبلها ، فقوله : ﴿ ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ شرح لقوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ وقوله : ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ شرح لقوله : ﴿ وينزل الغيث ﴾ وقوله : ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه ﴾ تفصيل لقوله : ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ وقوله : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾ إيضاح لقوله : ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ﴾ وقوله : ﴿ أئذا ضللنا فى الأرض . . . الخ ﴾ شرح لقوله : ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ .

وقد عقد الامام ابن القيم فصلا عن خصائص يوم الجمعة ذكر فيه : وكان من هديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره .

وكان ﷺ يقرأ فى فجره بسورتى ﴿ الم تنزيل ﴾ و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ويظن كثير ممن لا

علم عنده : أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة . ويسمونها سجدة الجمعة ، وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة ، استحب قراءة سورة اخرى فيها سجدة ، ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة فى فجر الجمعة ، دفعا : لتوهم الجاهلين ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيميه يقول : إنما كان النبى ﷺ يقرأ هاتين السورتين فى فجر الجمعة لأنهما تضمنتا ما كان ويكون فى يومها ، فإنهما اشتملتا على خلق آدم ، وعلى ذكر المعاد ، وحشر العباد ، وذلك يكون يوم الجمعة ، وكان فى قراءتهما فى هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون ، والسجدة جاءت تبعا ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها ، حيث اتفقت . فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

معانى المفردات

لا ريب : لا شك ، افتراه : اختلقه ، أيام : جمع يوم والعرب تطلقه على جزء من اليوم . وقال النحاس اليوم فى اللغة بمعنى الوقت ، العرش : الملك ، يدبر الأمر : أى أمر الدنيا ثم يعرج إليه : يرجع ويصعد ، نسله : ذريته وسميت الذرية نسلا: لأنها تنسل منه أى : تنفصل، مهين : أى ضعيف هو النطفة ، ثم سواه : أى سوى خلقه وأتمه .

روى البخارى فى كتاب الجمعة : بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كان النبى ﷺ

يقرأ فى الفجر يوم الجمعة ﴿ الم تنزيل ﴾ السجدة و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾[١] .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الم ﴾ هذه بعض حروف الهجاء وفيها إشارة وتنبه إلى إعجاز هذا الكتاب العربى المبين ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ .

﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ أى : أن هذا الكتاب الكريم منزل من لدن حكيم عليم على وجه اليقين والقطع :

﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾[٢] .

﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[٣] .

﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٤] .

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾[٦] .

أم هنا : بمعنى (بل) (والهمزه) أى : بل أيقولون افتراه ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليهم قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾[٧] وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾[٨] وقال جل شأنه : ﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق ﴾[٩] .

وقد رد الله تعالى على فريتهم فقال : ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ فالله هو الحق وكتابه حق ، ولقاؤه حق ، ووعده الحق ، والساعة حق والجنة ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق

---

(١) سورة السجدة الآيات : ١ ـ ٩

فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى فى (كتاب الجمعة) باب : ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة ج٢ ص ٣٧٧ رقم ٨٩١

(٢) سورة الفرقان الآية : ٦

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٥١

(٤) سورة الفرقان الآية : ١

(٥) سورة الاسراء الآية : ١٠٥

(٦) سورة السجدة الآية : ٣

(٧) سورة الفرقان الآيات : ٤ ـ ٦

(٨) سورة هود الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٩) سورة الرعد الآية : ٣٧

﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[١]

﴿ لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك ﴾[٢] وتلك رسالة الأنبياء إنذار وخوف ورجاء ، ودعوة إلى الهداية لعلهم يهتدون ، فالقرآن هو الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يبدد الله به غياهب الظلمات ، ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب والإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٣].

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾[٤].

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون : يدير الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنه مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾[٥].

ومن آيات قدرته أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام : فقد خلق السموات فى يومين ، والأرض فى يومين ، وما بينهما فى يومين ، ولو شاء لخلق الجميع فى أقل من طرفة عين فأمره بالكاف والنون . ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[٦] سبحانه مالك الملك وملك الملوك . ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق بذاته فالاستواء معلوم والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى : كان ولا مكان وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿ ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ﴾ أى : ما لكم غير الله من ولى ، يلى أموركم ولا شفيع يشفع لكم ، فكل ما سوى الله باطل ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾[٧] ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾[٨] ﴿ ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾[٩] أنسيتم فلا تتذكرون ، أغفلتم فلا تعلمون ، ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه ﴾ أى يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾ وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا مسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائه سنة قال مجاهد وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة

---

(١) سورة النور الآية : ٢٥
(٢) سورة السجدة من الآية : ٣
(٣) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣
(٤) سورة الاسراء الآيتان : ٩ ، ١٠
(٥) سورة السجدة الآيات : ٤ - ٦
(٦) سورة (ق) الآية : ٣٨
(٧) سورة النور من الآية : ٤٠
(٨) سورة الحج من الآية : ١٨
(٩) سورة الكهف من الآية : ١٧

عين ولهذا قال تعالى : ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾[1] أى : المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها ، وصغيرها ، وكبيرها ، هو العزيز الذى قد عز كل شيء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فهو عزيز فى رحمته رحيم فى عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

قوله تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[2] أى :وهو الذى أحسن كل شيء خلقه فالكل من خلق الله ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ والكل قد أحسن الله خلقه . ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾[3] .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، و نزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾[4] فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والشمس وشعاعها ، والجبال ورسوخها ، والبحار ومعينها ، والأرض واتساعها ، والأفلاك ومدارها ، وإلى كل متحرك وساكن ، وظاهر وكامن ، الكل يشهد بجلال الله ، ويقر بكماله ، ويعلن بذكره ، ولا يغفل عن شكره ، وبعد أن حدثنا سبحانه وتعالى : عن إحسان كل شيء خلقه حدثنا عن خلق الانسان فقال سبحانه ﴿ وبدأ خلق الانسان من طين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ﴾[5]ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[6] .

وكما قال تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ﴾[7] .

---

(١) سورة السجدة من الآية : ٥ ، ٦
(٢) سورة السجدة الآيات : ٧ ـ ٩
(٣) سورة الملك الآيات : ١ ـ ٥
(٤) سورة (ق) من الآية : ١ ـ ١١
(٥) سورة ص الآية : ٧١
(٦) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ ـ ١٤
(٧) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ ـ ٢٣

قوله تعالى : ﴿ ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

حركات إرادية فى الجنين

نفخ الروح

قال تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه . . وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار الأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[١]

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾[٢] ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[٣]

وقال ـ ﷺ ـ فى الحديث الذى أخرجه الشيخان : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة فى ذلك مثل ذلك ، ثم يكون مضغة فى ذلك مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح الحديث)[٤] .

فإن قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة وإحساس أم لا ؟ قيل : كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات . ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالارادة ، فلما نفخت انضمت حركة حسيته وارادته إلى حركة نموه واغتذائه .

الروح أمر مجهول لا نقول فيه إلا أنه من أمر ربى ، وما أوتى البشر من العلم إلا قليلا ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أخبرنا أنه كرم آدم بنفخ الروح فيه .

وكذلك كرم نبيه آدم حيث جعل نسله « من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه . . »

والرسول الكريم ﷺ يوضح لنا متى ينفخ الروح فى الجنين فيقول : إن ذلك إنما يكون بعد مروره فى مراحل واطوار مختلفة .. النطفة أولا . . وقد شرحناها فيما سبق ، وقلنا ان المبيض إنما يفرز بويضة واحدة فى الشهر . . تمكث بعد ذلك يوما أو يومين على الأكثر ليتم تلقيحها بإذن الله بالحيوان المنوى (نطفة الرجل) ، وتتحد النطفتان لتكونا معا النطفة الأمشاج المختلطة من ماء الرجل (الحيوان المنوى) ، وماء المرأة (البويضة) ، وتنمو النطفة الأمشاج لتصبح مثل الكرة ، أو التوتة ، ثم تعلق فى الرحم بعد أسبوع من تكونها (أى النطفة الامشاج) ، وتكون علقة بجدار الرحم ، ثم تكون مضغة

---

(١) سورة السجدة الآيات : ٧ ـ ٩

(٢) سورة الحجر الآية : ٢٩

(٣) سورة الاسراء الآية : ٨٥

(٤) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب القدر) باب : كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه مع اختلاف فى بعض ألفاظه رقم ١٦٩٥ ص ٧١٥ .

يتخلق فيها الجنين ، وتتكون أعضاؤه وفى هذه الأثناء تتكون العظام ، ثم يكسوها اللحم (العضلات) وتتكون وتتكامل الأجهزة : القلب ـ الكبد ـ الاطراف ـ السمع ـ البصر ـ الدماغ ـ وتبدأ فى الجنين حركات ارادية فى نهاية الشهر الثالث ، يمص أصابعه ـ يمسك بالحبل السرى ويصبح كثير الحركة . . يتقلب فى الرحم . . ينام ويصحو . . يسمع الأصوات . . تكتب على جبينه وترسم كتابة لا نظير لها مطلقا . . تتضح معالم شخصيته المتفردة عن جميع البشر الذين سبقوه أو عاصروه او سيلحقونه ، بصمات أصابعه المتفردة تظهر فى نهاية الشهر الثالث ـ الكتابة والرسم العجيب على جبينه يظهر فى نهاية الشهر الثالث ـ المشيمة تستقل بوظيفتها فى الشهر الثالث ـ الكبد والقلب والدماغ والاطراف والسمع والبصر يكتمل بناؤها الأساسى فى الشهر الثالث .

وفى نهاية هذا الشهر أيضا ، تتميز الأعضاء التناسلية الباطنة والظاهرة ، ويمكن التفريق بين الذكر والأنثى ، كما ان فحص عينة من السائل الأمينوس (الرهل) تصبح ممكنة بعد الشهر الثالث ، وبفحص خلايا الجنين التى تسقط فى السائل يمكن معرفة بعض الأمراض الوراثية ، كما يمكن معرفة نوعية الجنين ذكرا أم أنثى .

وفى هذه الفترة ايضا يتخذ وجهه الشكل الانسانى المميز . . أما قبل ذلك فشكله يشبه جنين السمك أو الطائر او الأرنب . . لا فرق واضحا يمكن الاعتماد عليه لنقول هذا جنين دجاجة أو سمكة او جنين إنسان عدا ان مراحل النمو تختلف من نوع إلى آخر ، ومن فصيلة إلى أخرى .

وفى هذا الشهر تظهر السمات الانسانية ، ويكتمل نمو الوجه تقريبا ، وتكسى العظام بالعضلات ، وتكتمل تغذية العضلات وتبدأ العضلات الارادية بالتحرك ، بل إن عضلات الوجه تعبر عن حالة الجنين وما يعانيه .

فى نهاية هذا الشهر الجنين يسمع . . الجنين يتحرك إراديا . . الجنين ترتسم على وجهه علامات الرضا أو الضيق . . فى نهاية هذا الشهر يعرف جنس الجنين . . وتظهر ملامح شخصيته المتفردة المتميزة عن بقية البشر .

أليست هذه كلها دلائل على نفخ الروح ؟ بلى ، ويؤكد الحديث الشريف (أن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما . . ثم يكون علقة فى ذلك مثل ذلك . . ثم يكون مضغة فى ذلك مثل ذلك . . ثم ينفخ فيه الروح) .

وتدل عليه الآية الكريمة : **﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾** (من كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن د . محمد على البار)

قوله تعالى : **﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾** .

ونحو ذلك قوله تعالى : **﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم**

السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[١] أعلمت مقدار هذه النعم ؛ نعمة السمع ونعمة البصر ونعمة الأفئدة .

تعالى معى لنستمع معا إلى صوت الحقائق العلمية تحدثنا عن بديع صنع الله الذى أتقن كل شيء ، وكيف تكونت هذه الحواس .

تكوين السمع

قال تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾[٢]

﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة . . قليلا ما تشكرون ﴾ .

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[٣]

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[٤] .

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[٥] .

جهاز السمع

فى كل الآيات القرآنية الكريمة يقدم الله ـ سبحانه وتعالى ـ السمع على البصر ، ولا تكاد تجد آيه قدم فيها البصر على السمع . . ذلك لأن السمع أعظم وأهم من البصر ذاته على عظيم أهمية نعمة البصر . .

ويتعلم المولود بواسطة السمع بأضعاف أضعاف ما يتعلمه بواسطة البصر ، والأصم منذ الولادة لا يستطيع أن يتعلم اللغة ابدا ، فهو أبكم ايضا ؛ بينما المولود بدون نعمة البصر يستطيع أن يتعلم اللغة ، بل اللغات بكل يسر ، وتستطيع ان تعد مئات بل آلاف العباقرة من فاقدى نعمة البصر ، ولكنه من العسير ان تعد الأحاد من العباقرة الذين فقدوا نعمة السمع ، وخاصة اذا كان فقد السمع منذ الولادة او فى الطفولة الباكرة ؛ ولهذا جاء فى الآية الكريمة : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

فقدم سبحانه ذكر السمع على البصر فى معرض سياق الطرق الاساسية التى بها يكتسب الانسان المعرفة .

ويتكون جهاز السمع العجيب الذى منحنا الله ـ تبارك وتعالى ـ إياه دون ان نقدره حق قدره ، ولا نشكره حق شكره ، يتكون هذا الجهاز من الأذنين ولكل أذن ثلاثة أجزاء .

---

(١) سورة النحل الآية : ٧٨

(٢) سورة الانسان الآية : ٢

(٣) سورة السجدة من الآية : ٩

(٤) سورة النحل الآية : ٧٨

(٥) سورة الاسراء الآية : ٣٦

١) الأذن الخارجية : وتشكل صوان الأذن والقناة السمعية الخارجية ، وتنتهى عند طبلة الأذن ، ووظيفتها جمع الأصوات .

٢) الأذن الوسطى : وهى قناة عظمية غضروفية بها غشاء الطبلة وعظام الأذن الثلاث : المطرقة ـ الركاب ـ السندان ووظيفتها نقل الاصوات إلى الأذن الداخلية .

الأذن الداخلية : وهى مكونة من جهازين مختلفين تمام الاختلاف : أولهما : جهاز السمع المستقبل للاصوات والذى ينقلها بواسطة العصب السمعى إلى المخ (الدماغ) .

والثانى : جهاز للتوازن ، وهو جهاز معقد أيضا ، وبواسطة قنوات هلالية متصلة ببعضها وبداخلها شعيرات تستطيع ان تميز أى حركة أو اهتزاز او تغيير فى وضع الجسم ، فترسل بذلك اشارات إلى الدماغ ، حيث يستقبل هذه المعلومات ويسجلها ويستفيد منها ثم يرسل أوامره إلى الجسم والعضلات لتوائم هذا التغيير ، ولعل القارىء الكريم قد لاحظ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحد لفظ السمع بينما جمع لفظ الأبصار ، وذلك لأن هناك مركزين للابصار فى مؤخرة الدماغ ، بينما نجد ان مركزى السمع فى الدماغ (فى العضدين الصدغيين) مرتبطان ارتباطا وثيقا بحيث يمكن اعتبارهما مركزا واحدا .

تكوين الأذن الداخلية

تتكون الأذن الداخلية من الطبقة الجرثومية (جرثومة الشيء : أصله ومنبعه) الخارجية (الكتودرم) ويبدأ تكوينها مبكرا جدا إذ تبدأ فى اليوم الثانى والعشرين (أى : بداية مرحلة المضغة) كثخانة من سطح الطبقة الخارجية (الاكتودرم) على جانبى موقع المخ المؤخرى ، وتتحول هذه الثخانة فى الأسبوع الرابع إلى حفرة ، ثم إلى حويصلة ، وتعرف عندئذ بحويصلة السمع .

وفى الأسبوع الخامس تنقسم هذه الحويصلة السمعية إلى قسمين :ـ

١) قسم أمامى : ويتحول إلى كيس صغير وقناة القوقعة .

٢) قسم خلفى : سرعان ما يصبح ـ العييبة (وهى تصغير عيبة أى : قرية) والقنوات نصف الدائرية (الهلالية) .

وتعرف هاتان المجموعتان المذكورتان آنفا بالنيه الغشائى ، ثم يحاط هذه التيه الغشائى بالعظام ، ويعرف عندئذ بالتيه العظمى ، ويفصل بين التيه العظمى والغشائى باحتان ضيقتان بهما سائل لمغاوى .

وفى أثناء تكوين الحويصلة السمعية تنفصل منها (أى : من الحويصلة السمعية) مجموعة من الخلايا مكونة عقدة السمع ، وعقدة التوازن ، وتغذى عقدة السمع جهاز كورتى للسمع الذى يتكون من القوقعة . كما تغذى عقدة التوازن جهاز التوازن الموجود فى القنوات نصف الدائرية ، والكييس والعييبة وفى الاسبوع السادس تستطيل قناة القوقعة ، ثم تنطوى على محورها إلى أن تكمل دورتين ونصف فى الأسبوع الثامن ، ويتكون شريط داخل قناة القوقعة يفصلها إلى جزءين :

الجزء الدهليزى ، والجزء السمعى ، وذلك فى الأسبوع العاشر .

وعلى هذا الشريط والذى يدعى الغشاء القاعدى تتكون الشعيرات السمعية المتصلة بعقدة السمع .

وهذه الشعيرات السمعية وما يتصل بها من عصب ليست إلا امتدادا من الدماغ (المخ) المؤخرى تماما ، كما سنرى ان حويصلة الأبصار ليست إلا امتدادا من المخ المقدمى .

ويعرف جهاز السمع الداخلى هذا والمكون من الشعيرات السمعية وما يحيط بها من أغشية يعرف باسم عضو كورتى على اسم مكتشفها .

ويتكون جهاز التوازن من القنوات الهلالية (نصف دائرية) والكييس (تصغير كيس) والعييبة أو الشكوه وتظهر القنوات الهلالية فى الاسبوع السادس ويظهر فيها جهاز التوازن فى الاسبوع السابع ، كما تظهر العييبة ، او الشكوه والكييس بوضوح فى الأسبوع السادس ويظهر فيهما جهاز التوازن فى الأسبوع السابع ، ويتصل كل من جهاز السمع وجهاز التوازن بالعصب السمعى الدهليزى ، وهو العصب الرأسى الثامن ، والذى يصب فى المخ المؤخرى .

الأذن الوسطى : تتكون الأذن الوسطى من غشاء الطبلة وعظام الأذن الثلاث : المطرقة والركاب والسندان ، ووظيفتها نقل الأصوات إلى الأذن الداخلية ، ويتكون غشاء الطبلة الداخلية (الأنتودرم) كامتداد لجيب القوس البلعومى الأول . . الذى يظهر فى الأسبوع الرابع ، ويلى هذا الغشاء طبقة رفيعة آتية من الميزودرم (الطبقة المتوسطة) المحيطة بالأقواس البلعومية ، ثم يليه غشاء مكون من امتداد الجلد أى من الطبقة الجرثومية الخارجية (الاكتودرم) وتتكون عظام الاذن الوسطى كما يلى :

١) **المطرقة والسندان** : ـ وتتكونان من امتداد غضروف القوس البلعومى الأول اى قوس الفك السفلى .

٢) **الركاب** : ـ ويتكون من غضروف القوس البلعومى الثانى أى القوس اللامى ، ويحيط بهذه العظام خلايا من الطبقة الداخلية (الأنتودرم) التى تبطن الجيب البلعومى الأول وقرب نهاية الحمل فى الشهور بعد الولادة يتسع التجويف الطبلى نتيجة امتصاص النسيج الضام المحيط بالعظام فتصبح العظام حينئذ قادرة على الحركة لدى أى اهتزاز .

ومع هذا فمن الثابت الآن أن الجنين يستطيع السمع فى الشهر الرابع .

الأذن الخارجية : تتكون الأذن الخارجية من صوان الأذن والقناة السمعية الخارجية ، ووظيفته تجميع الأصوات التى تنتقل عبر القناة السمعية الخارجية إلى طبلة الأذن ، فإذا ما اهتزت طبلة الأذن نتيجة الموجات الصوتية ، انتقلت هذه الذبذبات عبر عظمات الأذن التى تنقلها إلى الغرفة السمعية فى الأذن الداخلية (فى قوقعة الأذان) ، حيث تؤثر على الشعيرات السمعية ، فتنقلها عبر عصب السمع إلى الدماغ الذى وهبه الله القدرة على تمييز هذه الأصوات ، ومعرفة مصدرها وصاحبها ، كما وهبه الله القدرة على فهمها ، واستيعابها وتسجيلها ورصدها ، فسبحان من خلق وقدر .

صوان الأذان : ـ يتكون صوان الأذان من جملة نتوءات من الجيب البلعومى الأول والثانى ، وتبدأ هذه النتوءات بجانب فتحة الأذن الخارجية (الصماغ) فى الأسبوع السادس ، وتتحد هذه النتوءات وتستدير لتكون شكل صوان الأذن ، أو ما يعرف لدى العامة بالأذن .

وجميع هذه النتوءات مصدرها الطبقة الجرثومية المتوسطة (الميزدوم) الموجودة فى القوسين البلعومين الأول والثانى وتغطى بعد ذلك بالجلد وهو من الطبقة الجرثومية الخارجية الاكتودرم .

قناة السمع الخارجية : تصل قناة السع الخارجية ما بين صوان الأذن وطبلة الأذن ، وتتكون من بطانة الشق البلعومى الأول الذى يمتد على هيئة قمع حتى يصل إلى غشاء الطبلة .

وفى البداية تكون هذه القناة مقفلة ومصمتة نتيجة امتلائها بخلايا مكونة ما يعرف باسم سدادة الصماخ ، ثم تمتص هذه السداده وتزاح فى الشهر السابع .

﴿ سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره ﴾[1] .

وسيأتى عندما نتحدث عن العين كيف تقفل الجفون ويلتصق الجفنان ، ثم فى الشهر السابع تشق وتفتح ، وكل ذلك يؤكد معنى شق سمعه وبصره .. الذى وضعه حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وهو يناجى ربه فى سجوده .. كما قد مر معنا كيف يصور الوجه فى الصور المتلاحقة العجيبة حتى يخلقه الله فى أحسن صورة . ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم** ﴾ ﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾[2] .

أفلا يكون بعد هذا كله حرى بنا أن نسجد ونطيل السجود ، ونسبح فنطيل التسبيح ، ونشكر فنزيد فى الشكر للذى خلق وصور وشق السمع والبصر ، إن ذلك هو أقل ما توجبه علينا هذه النعم المتتالية للخالق البارى المصور تباركت أسماؤه وعزت صفاته .

تكوين البصر

﴿ **قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون** ﴾[3] تبارك .

﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون** ﴾[4] السجدة .

﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾[5] لا شك ان حاسة البصر من النعم التى لا تقدر بثمن .. بل لو وزنت أعمال العبد الصالح جميعا لما كانت كفاء لنعمة البصر التى أنعم الله بها على الانسان ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نعمة البصر مقترنة بنعمة السمع والفؤاد ، والسمع والبصر هما أهم الوسائل التى بها يتعرف الانسان على ما حوله وتشترك بعد ذلك بقية الحواس الخمس من اللمس والذوق والشم فى إمدادنا بالمعلومات عن البيئة التى حولنا ، ولكنها جميعا لا ترقى إلى ما تدرك بواسطة السمع والبصر ، ولذا جاء

---

(١) فى دعاء للدكتور محمد السيد طنطاوى من أدعية السجود (جزء من حديث رواه مسلم واصحاب السنن (ج١ ص ١٤٤ رقم ١
(٢) سورة آل عمران من الآية : ٦
(٣) سورة الملك الآية : ٢٣
(٤) سورة السجدة من الآية : ٩
(٥) سورة النحل الآية : ٧٨

قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[1] .

يخرج الطفل إلى الدنيا وليس لديه من المعرفة شىء ، ولكنه يكتسب هذه المعرفة بالحواس الخمس وأهمها : السمع والبصر . . فالمولود يسمع أى ضجة وينزعج لها ، ويستطيع أن يميز بسرعة صوت أمه ، بل إن الجنين فى بطن أمه يستطيع سماع الأصوات ، وذلك منذ الشهر الرابع بينما هو فى ظلام تام فى رحم الأم ، ولا يستطيع بأى حال أن يرى شيئا .

أما نعمة الفؤاد وما يعبر عنه بالقلب فهى : أتم النعم وأكملها إذ ليس المقصود بالفؤاد تلك العضلة الصنوبرية الشكل والمودعة فى الجانب الأيسر من الصدر ، فهو كما يقول الامام الغزالى فى الاحياء : موجود للبهائم فهو (قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر ، فضلا عن الآدميين ، ولكن المقصود بالفؤاد هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان ، وهو المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب . (أحياء علوم الدين كتاب عجائب القلب) ونعمة البصر : مرتبطة بالعين ، والعين تشبه الكاميرا حيث أنها تلتقط الصور التى تنعكس على العدسة فى الشبكية التى تشبه الفيلم ، ثم تنتقل عبر ملايين الأعصاب المتجمعة فى العصب البصرى الى مؤخرة المخ ، حيث يقوم المخ بتحميض الصور وطبعها ، والتعرف عليها ، وكل ذلك يتم فى جزء بسيط من الثانية ، إذ أن سرعة الارسال تبلغ ألف متر فى الثانية ، وكذلك تتم عمليات الطبع والتحميض ، والادراك بمثل هذه السرعة الرهيبة .

مما تقدم ترى : أن الجزء المبصر من العين هو فى الواقع امتداد للمخ ، وكذلك تنمو حويصلة الأبصار كامتداد من المخ المقدمى ، ويبدأ أول ظهورها فى الأسبوع الثالث بعد التلقيح ، وفى الاسبوع الرابع تبدأ خلايا حويصلة الابصار تنفصل من المخ المقدمى . وفى الاسبوع الخامس تتخذ شكل كوب مكون من طبقتين . والطبقة الخارجية تنشأ بها حبيبات ملونة تغطى شبكية العين فيما بعد : أما الطبقة الداخلية . فتكون الجزء الحساس المبصر والمتصل بعصب العين .

وتتباين الطبقة الداخلية إلى جزءين :

١) جزء خلفى : ويمثل أربعة أخماس الكوب ، وقوامه نسيج عصبى وهو الذى يكون شبكية العين بطبقاتها المختلفة ، وهو الجزء الحساس للضوء ويشبه فى ذلك الفيلم فى الكاميرا ، حيث تسجل عليه الصور وترسل عندئذ عبر العصب البصرى إلى المخ لتحميضها ، وإدراك ابعادها ومراميها .

٢) جزء آمامى : ـ ويمثل الخمس الأمامى من كوب الأبصار ، ويساهم فى تكوين القزحية والجسم الهدبى . والقزحية هى التى تعطى العين لونها الأسود أو العسلى أو الأزرق حسب ما فيها من صبغة ، كما أنها التى تتحكم فى لؤلؤ (فتحة) العين ، ويتحكم الجسم الهدبى بواسطة عضلاته فى تحدب

---

(١) سورة النحل الآية : ٧٨

عدسة العين ، بحيث تتمكن العدسة من زيادة تحدبها أو انقاصه لنرى الأشياء القريبة (زيادة التحدب) أو البعيدة (اقلال التحدب) .

وعضلة الجسم الهدبى : هى العضلة الوحيدة فى الجسم التى تتكون من الطبقة الجرثومية الخارجية (الاكتودرم) ، أما بقية عضلات الجسم الارادية ، وغير الارادية ، فتتكون جميعها من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) .

وفى الشهر الثالث : تنمو شبكية العين إلى أربع طبقات ، وفى تمام الشهر السابع يكتمل نمو الشبكية إلى طبقاتها التسع المعروفة فى المولود ، كما يتكون الصلب البصرى ويتصالب فى مساره المعروف بالتصالب البصرى ، حتى يصل إلى المخ المؤخرى .

العدسة البصرية :

يبدأ ظهور العدسة كثخانة فى الطبقة الخارجية (الاكتودرم) والتى يتكون منها الجلد ايضا فى المنطقة التى يظهر فيها الكوب البصرى ، وذلك فى أواخر الاسبوع الرابع وأوائل الخامس ، وتنزح نواة العدسة من الطبقة الخارجية والتى تكون الجلد أيضا إلى داخل الكوب البصرى ، ثم تنفصل تماما عن الطبقة الخارجية (الاكتودرم) .

وتفقد خلايا العدسة أنويتها حتى تصبح شفافة مثل البلور وتدعى عندئذ العدسة البلورية البصرية تصور أن العدسة الشفافة ليست إلا نوعا من الجلد شاءت يد القدر المبدعة ان يكون مبصرا .

ويغطى العدسة محفظة من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) وتسمى عندئذ المحفظة العدسية الدعائية ؛ لأنها تتخللها الأوعية الدموية التى تضمر فى الشهر السابع ، وتنشق هذه المحفظة فى وسطها مكونة فتحة وفرجة تعرف باسم حدقة العين أو « الثؤثؤ » وقد مر معنا فى فصل السمع كيف ينشق السمع عندما تزاح سدادة الصماخ ، وتنشق قناة السمع الخارجية فى الشهر السابع ، وكذلك تنشق محفظة العدسة لتكون الثؤثؤ أو حدقة العين ، ثم تنشق الجفون وتفتح فى الشهر السابع .

الصلبة والقرنية والغشاء المشيمى

إن العين كالكرة ولكنها مكونة من ثلاث طبقات : الداخلية : وهى كوب الابصار الذى وصفناه ، وقلنا : إنه امتداد للمخ ، ويكون أساسا للشبكية بطبقاتها المختلفة كما يساهم الجزء الأمامى فى هذا الكوب فى تكوين القزحية والجسم الهدبى وتحيط بهذه الكرة أو كوب الابصار كرة ثانية تسمى بالغشاء المشيمى للعين وهى كرة تكثر فيها الأوعية الدموية ، وتساهم مع الجزء الامامى من كوب الابصار فى تكوين الجسم الهدبى والقزحية ، ومصدر خلايا هذه الكرة هى الطبقة المتوسطة (الميزودرم) وتلى هذه الكرة كرة اخرى من الخارج ، وهى ايضا من الطبقة المتوسطة ، وتحيط بالغشاء المشيمى مكونة من جزأين :

١) الجزء الخلفى ويشكل ٥/٦ من الكرة وهو من نسيج ليفى ثخين وقوى ابيض اللون ويسمى لذلك الصلبة ويمنع دخول الضوء .

٢) الجزء الامامى ويشكل ١/٦ من الكرة وهو رقيق وشفاف ويسمح للضوء بالدخول ويسمى القرنية .

وتظهر الصلبة والقرنية فى الاسبوع السابع ، وكذلك تظهر مشيمة العين فى هذه الفترة وتتكون الرطوبة الزجاجية خلف العدسة ، وأمام الشبكية وذلك فى الشهر الثالث نتيجة امتصاص خلايا المزودرم .

الجفون :

يبدأ تكون الجفنين العلوى والسفلى فى الاسبوع السابع من الطبقة الخارجية (الاكتوردم) الموجودة فى منطقة الجبهة ، ويتكون ردب ذو طبقتين يتوسطهما نسيج من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) .

وتكون الطبقة الخارجية (الاكتودرم) (١) جلد الجفن (٢) رموش العين (٣) الملتحمة ويكتمل نمو الجفون فى الشهر الثالث ، ويلتصق الجفنان منذ ذلك الوقت إذ لا حاجة للجنين بالرؤية فى ذلك الظلام الدامس ، ولحماية العين مما يحيط بها من السائل الامنوسى (الرهل) ، وفى الشهر السابع تنفتق الجفون مرة اخرى استعدادا لخروج الجنين إلى الدنيا ومرة اخرى نقول : مع المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه فى سجوده (سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره)[1] .

الغدد الدمعية

تتكون الغدة الدمعية من الجزء الوحشى من الحفرة الحجابية ، ويبدأ ظهورها مبكرا جدا فى الأسبوع التاسع كامتداد من الملتحمة وتكون على هيئة ستة اعواد مليئة ، ولكنها سرعان ما تشق لتكون قنوات تفتح على الملتحمة ، وللدموع وظائف غير البكاء ، وتبريد لوعة الحزن ، وأهمها ترطيب العين وتعقيمها وتنظيفها مما يعلق بها من أتربة وغبار وميكروبات ، ففى هذه الدموع مواد مطهرة تقتل الميكروبات ، ومواد منظفة تزيل الأتربة .

وافراز الدموع مستمر لكننا لا نراه ، لأنه يندفع بيسر فى الملتحمة ليصب فى القناة الدمعية فى الأنف ، فيتبخر منها . . إلا إذا زاد الافراز ، فعندئذ تمتلأ المآقى بالدموع وتنسكب من العيون وتسيل من الأنف .

وكما أن للدموع وظيفة غسل العين وتنظيفها وتطهيرها ؛ فإن لها كذلك وظيفة غسل الأدران من القلب اذا كانت العين تبكى من خشية .

(لا تمس النار عينا بكت من خشية الله ولا عينا باتت تحرس فى سبيل الله) ولنترك إذن من حين لآخر لمآقينا أن تمتلىء بالدموع ولتسكب العبرات تتبعها الزفرات ، فإن فى ذلك تطهيرا للقلوب من أدرانها ، وللنفوس من كثافتها وطغيانها ، وليس هناك ما يجلى الصدأ عن القلب مثلما تجلوه عين بكت من خشية الله .

من الذى خلق هذا ؟ ومن الذى قدر فهدى ؟ ومن الذى اتقن كل شىء ؟ الطبيعة الصماء أم الصدفة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

---

(١) انظر الدعاء للدكتور محمد سيد طنطاوى باب من ادعية السجود ج ١ وقال ص رقم ١ رواه مسلم وأصحاب السنن .

إنظر إلى المرء وقل من شق فيه بصره
من ذا الذى جهره بقدرة مفتكرة
ذاك هو الذى انعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

إنكارهم للبعث

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

المفردات :

ضللنا : العرب تقول ضل الماء فى اللبن إذا ذهب ، وتقول للشىء غلب عليه غيره حتى خفى فيه أثره ضل وتقول : لما غاب فى الأرض ضل : والمراد هلكنا وصرنا ترابا . « يتوفاكم » : توفى العدد والشىء إذا استوفاه وقبضه جميعا وقالوا : توفاه الله أى قبض روحه ، والتوفى والاستيفاء بمعنى واحد والمراد : يقبض ارواحهم حتى لا يبقى احد منهم .

(ناكسوا رءوسهم) : مطأطئوها وخافضوها

(الجنة) الجن

التفسير

يقول تعالى : مخبرا عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ أئذا ضللنا فى الأرض ﴾ أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض ، وذهبت ﴿ أئنا لفى خلق جديد ﴾ أى : أننا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذى

بدأهم وخلقهم من العدم الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، ولهذا قال لنا : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره فى سورة ابراهيم وقد سمى فى بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد : وله أعوان وهكذا ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت[1] قال مجاهد : (طويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء)[2] ورواه ابن محمد عن النبى - ﷺ - مرسلا . وقاله ابنه - رضى الله عنهما - وروى ابن أبى حاتم بسنده عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبى يقول : نظر رسول الله - ﷺ - إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبى - ﷺ - (ياملك الموت أرفق بصاحبى ، فإنه مؤمن) فقال ملك الموت : يامحمد طب نفسا وقر عينا ، فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم ان ما فى الأرض بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر إلا وأنا اتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى إنى أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم[3] والله يامحمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ماقدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها . قال جعفر : بلغنى أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك : لا إله إلا الله محمد رسول الله فى تلك الحال العظيمة عن ابراهيم بن ميسرة قال : سمعت مجاهد يقول ، ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر الا وملك الموت يطوف به كل يوم مرتين . . وقال كعب الاحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ينظر هل فيه احد امر ان يتوفاه)[4] رواه ابى حاتم .

قوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

قوله تعالى : **﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون . ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين . فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾**[5] .

يخبر تعالى : عن حال المشركين يوم القيامة ، وحالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدى الله - عز وجل - حقيرين ذليلين ناكسى رؤوسهم أى : من الحياء والخجل يقولون : ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾

---

(١) انظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٢
(٢) انظر تفسير ابن كثير فى نفس المصدر والصفحة ص ٣٦٣
(٣) انظر تفسير ابن كثير نفس السورة السابقة ج ٦ ص ٣٦٣ وقال المحقق اخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن أبى حاتم وأبى الشيخ : ١٧٤/٥
ولكننا وجدناه فى الدر المنثور للسيوطى عن أبى حاتم وابى الشيخ عن ابى جعفر محمد بن على فى تفسير سورة السجدة الجزء الحادى والعشرين ج ٦ ص ٥٦٣ مع اختلاف فى بعض الفاظه وزيادة ونقص .
(٤) انظر تفسير ابن كثير سورة السجدة من الآية : ٧ - ١١ وقال : اخرجه ابن ابى حاتم .
(٥) سورة السجدة الآيات : ١٢ - ١٤ .

أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ وهكذا : هؤلاء يقولون . ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا ﴾ أى : إلى دار الدنيا ﴿ نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ أى : قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى : منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارا ، ويكذبون بآيات الله ، ويخالفون رسله كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ الآية .

وقال ههنا ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ﴾ ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ أى : من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ، ولا محيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك . ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أى : يقال : لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أى : سنعاملكم معاملة الناس لأنه تعالى : لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة كما قال تعالى : ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ وقال تعالى ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم كما قال تعالى : فى الآية الأخرى ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . الا حميا وغساقا إلى قوله ... فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[١] .

المؤمنون وجزاؤهم

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

---

(١) سورة النبأ الآيات : ٢٤ - ٣٠

(٢) الآيات من ١٥ - ٢٢ من سورة السجدة .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

المفردات (تتجافى) : التجافى : الابتعاد والارتفاع - « المضاجع » جمع مضجع وهو الموضوع الذى يضجع فيه بفرش للنوم .

« قرة أعين » : القرة اسم لما يحصل به القرير أى : الفرح والسرور .

« فاسقا » : أى كافرا .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ أى إنما يصدق بها ﴿ الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا ﴾ أى : استمعوا لها وأطاعوا قولا وفعلا ، (وسبحوا بحمده ربهم وهم لا يَتَكَبَّرُونَ) عن إتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهله من الكفرة الفجرة ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعنى : بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة . قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعنى : بذلك قيام الليل . وعن أنس وعكرمة ومحمد بن المنكدر وأبى حازم وقتادة هو الصلاة بين العشاءين وعن أنس ايضا : هو انتظار العتمة[1] ,

رواه ابن جرير بإسناد جيد . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة وصلاة الغداة فى جماعة ﴿ يدعون ربهم خوفا وطمعا ﴾ أى : خوفا من وبال عقابه ، وطمعا فى جزيل ثوابه ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله - ﷺ - كما قال عبدالله ابن رواحه - رضى الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا أنشق معروف من الصبح ساطع
ارانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيب يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال الأمام أحمد بسنده عن الهمدانى عن ابن مسعود مسعود عن النبى - ﷺ - قال (عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ، ورجل غزا فى سبيل الله تعالى : فانهزموا ، فعلم ماعليه من الفرار وما له فى الرجوع . فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى فيقول : الله - عز وجل - للملائكة انظروا إلى عبدى رجع دمه رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهريق دمه)[2] وهكذا رواه أبو داود فى الجهاد عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به بنحوه[3] .

وقال الأمام أحمد حدثنا عبد الرازاق ، أخبرنا معمر ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن أبى وائل

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٦٤

(٢) أخرجه الأمام أحمد فى مسنده - مسند عبد الله بن مسعود ج ١ ص ٤١٦

(٣) واخرجه ابو داود فى سننه (فى كتاب الجهاد) باب : فى الرجل الذى يشرى نفسه حديث رقم ٥٢٣٦ ، ج ٣ ص ٩ - ٢٠

عن معاذ بن جبل ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير فقلت : يانبى الله ! أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، ويباعدنى من النار : (لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ـ ثم قرأ ـ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ، ثم قال : ألأخبرك برأس الأمر وعموده ، وذروة سنامه ؟ ـ فقلت : بلى يارسول الله : فقال : (رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله ، ثم قال : (ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟) فقلت : بلى يانبى الله : فأخذ بلسانه ثم قال : كف عليك هذا) فقلت : يارسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، فقال : ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ـ أو قال على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم)[١] , رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ,

قال : سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال له : (ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام العبد فى جوف الليل » وتلا هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [٢] رواه أيضا من حديث الثورى .

وعن معاذ أيضا عن النبى ـ ﷺ ـ فى قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : (قيام العبد من الليل) وروى ابن أبى حاتم بسنده عن معاذ بن جبل قال كنت مع النبى ـ ﷺ ـ فى غزوة تبوك فقال : (إن شئت نبأتك بأبواب الخير ، الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وقيام الرجل فى جوف الليل) ثم تلا رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ [٣] الآية ، ثم قال : حدثنا أبى حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا على بن مسهر ، عن عبدالرحمن بن اسحق ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد ، قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق ، سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ الآية ، فيقومون وهم قليل)[٤] ,

وقال لبزار بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال بلال : لما نزلت هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ كنا نجلس وناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ ثم قال : لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه وليس له طريق عن بلال غير هذا الطريق[٥]

---

(١) أخرجه الامام احمد فى مسنده مسند معاذ بن جبل ج ٥ ص ٢٣١

(٢) انظر ايضا فى تحفه الاحوذى ابواب الايمان ، باب : ما جاء فى حرمة الصلاة ، الحديث ٢٧٤٩ : ٧/٣٦٢ ـ ٣٦٥ وسنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب : كف اللسان فى الفتنة الحديث ٣٩٧٣ ج ٢/ ١٣١٤ ـ ١٣١٥ .

(٣) وانظره فى تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٦

(٤) نظر تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٦

(٥) الحديث فى مجمع الزوائد فى كتاب التفسير ـ سورة السجدة ج ٧ ص ٩٠ وقال الهيثمى : رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف .

وقال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لما أخفوا أعمالهم ، كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ، فان الجزاء من جنس العمل ، قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم يخطر على قلب بشر . رواه ابن ابى حاتم . قال البخارى : قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ حدثنا على بن عبدالله بسنده ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال : (قال الله تعالى : ﴿ أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴾ [١] ,

قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ قال : وحدثنا عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، قال : قال الله مثله . قيل لسفيان رواية قال : فأى شيء ؟ ورواه مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عينيه به . قال الترمذى حسن صحيح[٢] ثم قال البخارى : بسنده عن أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - يقول الله تعالى : ﴿ أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذخرامن بله ما أطلعتم عليه ﴾ [٣] ثم قرأ : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ قال أبو معاوية : عن الأعمش ، عن أبى صالح قرأ ابو هريرة (قرات أعين) انفرد به البخارى من هذا الوجه[٤] وقال الإمام أحمد : بسنده عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن الرسول -ﷺ- ، (إن الله تعالى قال أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴾ [٥] ,

وقال حماد بن سلمة : بسنده عن حماد أحسبه عن النبى - ﷺ - قال : (من يدخل الجنة ينعم لا ييأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، فى الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴾ [٦] رواه مسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه - يقول : شهدت من رسول الله - ﷺ - مجلسا ، وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : فى آخر حديثه (فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) ثم قرأ هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع إلى قوله يعملون ﴾ [٧] أخرجه مسلم .

وقال ابن جرير : حدثنى العباسى بسنده عن عقبة بن عبدالغافر عن أبى سعيد الخدرى . عن رسول الله ﷺ - يروى عن ربه - عز وجل - قال : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ١٤٥

(٢) اخرجه مسلم ، فى كتاب الجنة : ٨/ ١٤٣ وتحفة الأحوذى تفسير سورة السجدة الحديث ٣٢٤٩ : ٩/ ٥٦

(٣) فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٦٥ قال الخطابى كأنه يقول : دع ما استطعتم عليه فإنه سهل فى جلب ما ادخر لهم ويعقب ابن حجر بقوله : « وهذا لائق بشرح (بله) بغير تقدم (من) عليها ، وأما إذا تقدمت (من) عليها ، فقد قيل : هى بمعنى « كيف » .. الخ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة السجدة : ٦ - ١٤٥

(٥) اخرجه الأمام أحمد فى مسنده - مسند أبى هريرة - ج ٢ ص ٣١٣ من حديث طويل .

(٦) أخرجه مسلم فى (كتاب الجنة) باب : فى دوام نعيم أهل الجنة ج ٨/ ١٤٨

(٧) اخرجه الأمام أحمد فى مسنده - من حديث أبى مالك سهل بن سعد الساعدى ج ٥ ص٣٣٤واخرجه مسلم فى صحيحة فى

ولا خطر على قلب بشر ﴾ (١)

وقال مسلم أيضا : فى صحيحه بسنده عن المغيرة بن شعبة ، قال : سمعته على المنبر يرفعه إلى النبى - ﷺ قال : (سأل موسى عليه السلام ربه - عز وجل - ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجىء بعدم أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة : فيقول أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت ربى ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله معه ، ولك ما أشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب قال : رب فأعلاها منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ، قال : ومصداقه من كتاب الله - عز وجل - ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ (٢) ,

ورواه الترمذى عن ابن عمر وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبى ، عن المغيرة ، ولم يرفعه والمرفوع أصح قال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر بن المدائنى ، حدثنا ابو بدر بن شجاع بن الوليد ، حدثنا زيادة بن خثيمة ، عن محمد بن حجازة ، عن عامر بن عبدالواحد ، قال : بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت ، فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد آن لك ان يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : قد آن لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا التى قال الله ﴿ فلا تعلم نفسى ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وقال ابن لهيعة : بسنده عن سعيد بن جبير قال : تدخل عليهم الملائكة فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس فى جناتهم ، وذلك قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ ويخبرون أن الله عنهم راض ، وروى ابن جرير بسنده عن أبى اليمان الهوزنى أو غيره قال : الجنة مائة درجة ، أولها : درجة فضة ، وأرضها فضة ، ومساكنها فضة , وآنيتها فضة ، وترابها المسك ، والثانية : ذهب ، وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ، وآنيتها ذهب ، وترابها المسك ، والثالثة : لؤلؤ ، وأرضها لؤلؤ ، ومساكنها اللؤلؤ ، وآنيتها اللؤلؤ ، وترابها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم ﴾ (٢) الاية وقال ابن جرير : بسنده عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس عن النبى - ﷺ - عن الروح الأمين ، قال : (يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ، ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة [واحدة] وسع الله له فى الجنة ، قال : فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهبت الحسنة ؟ قال : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ الآية قلت : قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من

(كتاب الجنة) ٨٩/ ١٤٣ .

(١) انظر تفسير الطبرى : ج ٢١ ص ٦٧

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الايمان باب . أدنى أهل الجنة منزلة ج ١ ص ١٢٠ ، ١٢١ .
انظر تفسير بن كثير ج ٦ ص ٣٦٩ تفسير سورة السجدة

(٣) انظر تفسير الطبرى : ٢١/ ٦٦

قرة أعين ﴾ قال : العبد يعمل سرا أسره إلى الله لم يعلم به الناس ، فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين [١] ,

وفى قيام الليل وفضلة : يحدثنا الرسول ـ ﷺ ـ فيقول : فى فضل قراءة القرآن فى قيام الليل : ـ (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القائمين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين [٢] , رواه ابو داود وابن خزيمة فى صحيحه .

ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : القنطار اثنا عشر ألف أو قية ، الأوقية ، خير مما بين السماء والأرض) رواه ابن حبان وروى عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ ـ : (من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائة آية كتب له قنوت ليل ، ومن قرأ مائتى آية كتب من القانتين ، ومن قرأ اربعماية آية كتب من العابدين ، ومن قرأ خمسمائة آية كتب من الحافظين ، ومن قرأ ستمائة آية كتب من الخاشعين ، ومن قرأ ثمانمائة آية كتب من المخبتين ، ومن قرأ ألف آية أصبح له قنطار . والقنطار ألف ومائتا أوقية ، الأوقية خير مما بين السماء والأرض ـ أو قال) خير مما طلعت عليه الشمس ومن قرأ الفى آية كان من الموجبين ﴾ [٣] رواه الطبرانى

المعنى : الاخبات : زيادة التواضع والذلة لله . يقال : أخبت لله تعالى : اى زاد تواضعا . أربع خصال حازها المخبتون .

أولا : خوف الله . ثانيا : الصبر عند المصائب . ثالثا إقامة الصلاة . رابعا : الانفاق فى الخيرات ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ .

الموجب هنا : الذى أتى بفعل يوجب له الجنة .

قوله تعالى ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون . أما الذين آمنو وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون . ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون . ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ [٤]

التفسير

يخبر تعالى : عند عدله وكرمه ، أنه لايساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمنا بآياته متبعا لرسله ، بمن كان فاسقا . أى : خارجا عن طاعة ربه مكذبا رسل الله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ أم

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢١ / ٦٧

(٢) اخرجه ابو داود فى (كتاب الصلاة) باب : تحزيب القرآن ج ٢ ص ١١٨ وأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه فى (ابواب التطوع بالليل) باب فضل قراءة ألف آية فى ليلة .... الخ

(٣) الحديث فى مجمع الطبرانى من حديث القاسم بن عبدالرحمن بن يزيد الشامى مولى معاوية عن أبى أمامه , الخ ج ٨ ص ٢١٢ رقم ٧٧٤٨ وقال المحقق : قال فى المجمع : ٢ / ٢٦٨ .

(٤) سورة السجدة الآيات : ١٨ ـ ٢٢

حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ .

وقال تعالى ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[(١)] .

وقال تعالى ﴿ لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾[(٢)] ولهذا قال تعالى : هنا ، ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون ﴾[(٣)] أى عند الله يوم القيامة ، وقد ذكر عطاء بن يسار والسدى وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب وعقبة بن أبى معيط ، ولهذا فصل حكمهم فقال ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله ، وعملوا بمقتضاها وهى الصالحات ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نزلا ﴾ أى ضيافة وكرامة ، ﴿ بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا ﴾ أى خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها كقوله . ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ قال الفضيل بن العياض : والله إن الايدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم ، ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ .

أى : يقال لهم ذلك تقريعا توبيخا ، وقوله تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ .

قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، ومايحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه ، وروى مثله عن أبى بن كعب وأبى العالية .

وقال بن عباس فى رواية عنه : يعنى به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر ، وقال النسائى أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن اسرائيل عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص وأبى عبيدة ، عن عبد الله ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ .

قال : سنون أصابتهم ، وقال عبد الله بن الامام بسنده عن أبى بن كعب فى هذه الآية ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ قال : القمر والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام وقال عبد الله بن مسعود ايضا فى رواية عنه العذاب الأدنى ماصابهم من القتل والسبى يوم بدر ، وكذا قال : مالك عن زيد بن أسلم[(٤)] قال السدى وغيره : لم يبق بيت بمكة الا دخله الحزن على قتيل لهم أو اسير فأصيبوا أو غرموا ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أى : لاأظلم ممن ذكره

---

(١) سورة ص الآية : ١٨

(٢) سورة الحشر الآية : ٢٠

(٣) سورة السجدة الآية : ١٨

(٤) انظر تفسير ابن كثير ، سورة السجدة آية رقم ٢١

الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها واعرض عنها ، وتناساها كأنه لايعرفها .

قال قتادة: إياكم والاعراض عن ذكر الله ، فان من اعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة وأعوز أشد العوز ، وعظم من اعظم الذنوب ولهذا قال تعالى : متهددا لمن فعل ذلك ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ سأنتقم ممن فعل اشد الانتقام .

وروى ابن جرير ، حدثنى عمران بن بكار بسنده : عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (ثلاث من فعلهن فقد اجرم ، من عقد لواء فى غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ (١) .

مواعظ وعبر

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

المفردات

مرية : شك

أئمة : جمع إمام أى: زعماء وقادة فى الدين

أو لم يهد لهم : أو لم يتبين لهم .

القرون : الأمم السابقة

---

(١) أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير عن معاذ بن جبل وأخرجه ابن منيع..أيضا انظره

(٢) سورة السجدة من الآية : ٢٣ ـ ٣٠ آخرالسورة .

الجرز : هى الارض اليابسة التى جرز نباتها أى : قطع لرعى أو لعدم الماء فيها مع صلاحيتها للانبات وقيل : رجل جروز إذا كان لايبقى شيئا ، ألا أكله . وناق جروز : أى : تأكل كل شيء تجده ، وسيف جراز : أى ، قاطع ماض (متى هذا الفتح ؟) متى هذا الحكم ؟ إذ الفتح القضاء . وقيل : للحاكم فاتح وفتاح ، لأن الأشياء تنفتح على يديه ، وتنفصل ، وعليه قوله تعالى : ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق** ﴾ .

وهذا رجوع إلى أحد الأصول الثلاثة ، وهى الرسالة والتوحيد وإثبات البعث التى تعنى بها السور المكية ، وإنما اختار موسى لكثرة الشبه بينه وبين النبى محمد ﷺ ولكثرة أتباعه وقوة تأثيرهم فى المجتمع العربى ، وكل من المسحيين واليهود يؤمنون به ، ومع هذا كثير من المواعظ والعبر .

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه فى أول السورة : الرسالة والتوحيد والبعث ـ عاد فى آخرها إلى ذكرها مرة أخرى ، وبعد أن أعاد ذكر الرسالة فى قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أعاد هنا ذكر التوحيد مع ذكر البرهان عليه بما يرونه من المشاهدات التى يبصرونها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ولقد اتينا موسى الكتاب** ﴾ أى : ولقد آتينا موسى أخاك الكتاب فأوذى وكذب ، وناله مانا له من ألوان العذاب والسخرية ، فلا تكن فى شك من أنه سيلقاك مالقيه من التكذيب والأذى ، إذ تلك سنة الكون ونظام الناس ، لابد من اصطراع أهل الحق مع أهل الباطل ، وجعلنا الكتاب الذى أنزل على موسى هدى ونورا لبنى اسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة وقادة ، وهم أنبياء بنى اسرائيل يهدون الناس بأمرنا ، ويدعونهم ويعظونهم ، وكانوا بآياتنا يوقنون ، كل ذلك لما صبروا على أحكام الدين وتكاليفه ، وصبروا على البلاء وعلى متاع الدنيا الزائل .

إن ربك هو يفصل بين المؤمنين والكافرين المنكرين للرسالة ، ويقضى بحكمه العدل فيجازى كلا على عمله ، ويعطيه مايستحق من ثواب أو عقاب .

وقيل المعنى : إن ربك يقضى بين الأنبياء وأممهم بالحق .

أغفلوا ولم يتبين لكفار مكة إهلاكنا كثيرا من الامم السابقة ؟ حالة كونهم يمشون للتجارة فى مساكنهم فيعتبروا ويتعظوا بما حل بغيرهم ، إن فى ذلك لآيات دالات على قدرة الله وحكمة العدل بين الكفار والمؤمنين افلا يسمعون سماع قبول وتدبر بقلوبهم ؟

أعموا أنا يروا إن نسوق الماء الى الأرض الجرز التى لا نبات فيها بواسطة المطر أو الانهار والسيول ، فنخرج بالماء زروعا وثمارا تأكل منه انعامهم وانفسهم أفلا يبصرون !

ألم يروا إلى مثل مصر فإنها هبة النيل ، ولولا أن الله ساقه إليها لبقيت مصر قطعة من الصحراء لاخير فيها ولاحياة ، وأن ربك على كل شىء قدير أفلا يبصرون ذلك فيعتبرون ويتعظون .

وكان المسلمون يقولون : غدا سيفتح الله علينا ويحكم بيننا بالحق وهو خير الفاصلين ، فكان المشركون يقولون : متى هذا الفتح ؟ استبعادا وانكارا واستهزاء بالنبى وصحبه ! قل لهم : يوم الفتح والقضاء الفصل هو يوم القيامة ، يومئذ لاينفع الذين كفروا إيمانهم بأنهم على باطل وأنهم تركوا الصراط المستقيم ، واتبعوا سبل الشيطان فضلوا عن سواء السبيل ، ولاينفعهم إيمانهم بأن النبى والقرآن حق ، ولا هم ينظرون ، بل سيأخذون جزاءهم فورا .

فأعرض عنهم وانتظر مايحل بهم من العذاب فى الدنيا والآخرة وانهم منتظرون بك حادث موت أو قتل فيستريحون منك ، وما علموا أن الله عاصمك من الناس ومؤيدك ، حتى تؤدى رسالتك كاملة غير منقوصة .

سورة الأحزاب

قال صاحب البصائر :-

السورة مدنية بالاتفاق . آياتها ثلاث وسبعون . كلماتها ألف ومائتان وثمانون . حروفها خمسة آلاف وسبعمائة وستة وتسعون .

سميت سورة الاحزاب : لاشتمالها على قصة حرب الأحزاب فى قول : ﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا** ﴾ .

معظم مقصود السورة : التى اشتملت عليه : الأمر بالتقوى ، وأنه ليس فى صدر واحد قلبان ، وأن المتبنى ليس بمنزله الابن ، وأن النبى ﷺ للمؤمنين بمكان الوالد ، وأزواجه الطاهرات بمكان الأمهات ، وأخذ الميثاق على الانبياء ، والسؤال عن صدق الصادقين ، وذكر حرب الأحزاب ، والشكاية من المنافقين ، وذم المعرضين ، ووفاء الرجال بالعهد ، ورد الكفار بغيظهم ، وتخيير أمهات المؤمنين ووعظهن ونصحهن ، وبيان شرف أهل البيت الطاهرين ، ووعد المسلمين والمسلمات بالأجور الوافرات ، وحديث تزويج زيد وزينب ورفع الحرج عن النبى ﷺ وختم الانبياء به - عليه السلام - والأمر بالذكر الكثير ، والصلوات والتسليمات على المؤمنين ، والمخاطبات الشريفة لسيدنا المصطفى - ﷺ - وبينان النكاح والطلاق والعدة ، وخصائص النبى ﷺ فى باب : النكاح وتخييره فى القسم بين الأزواج ، والحجر عليه فى تبديلهن ، ونهى الصحابة عن دخول حجرة النبى - ﷺ - بغير إذن منه ، وضرب الحجاب ، ونهى المؤمنين عن تزويج أزواجه بعده والموافقة مع الملائكة فى الصلاة على النبى - ﷺ - وتهديد المؤذين للنبى وللمؤمنين ، وتعليم آداب النساء فى خروجهن من البيوت ، وتهديد المنافقين فى إيقاع الأراجيف ، وذل الكفار فى النار ، والنهى عن أيذاء الرسول - ﷺ - والأمر بالقول السديد ، وبيان عرض الأمانة (على السموات والأرض) وعذاب المنافقين وتوبة المؤمنين فى قوله : ﴿ **أنا عرضنا الأمانة** ﴾[1] . إلى آخر السورة .

المتشابهات : ذهب بعض القراء الى أنه ليس فى هذه السورة متشابه . وأورد بعضهم فيها كلمات

---

(١) سورة الأحزاب من الآية : ٧٢

وليس فيه كثير تشابه بل قد تلتبس على الحافظ القليل البضاعة .

فأوردناها ، أذا لم يخل من فائدة وذكرنا مع بعضها علامة يستعين بها المبتدىء فى تلاوته .

منها قوله : ﴿ **ليسئل الصادقين عن صدقهم** ﴾[1] . وبعده ﴿ **ليجزى الله الصادقين بصدقهم** ﴾ ليس فيها تشابه ، لأن الأول : من لفظ السؤال وصلته (عن صدقهم) وبعده ﴿ **وأعد للكافرين** ﴾ والثانى : من لفظ الجزاء وفاعله الله ، وصلته ﴿ **بصدقهم** ﴾ بالياء وبعده ﴿ **ويعذب المنافقين** ﴾ ومنها قوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم** ﴾[2] .

وبعده ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا** ﴾[3] . فيقال للمبتدىء : إن الذى يأتى بعد العذاب الأليم نعمة من الله على المؤمنين .

وما يأتى قبل قوله ﴿ **هو الذى يصلى عليكم** ﴾ .

اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ شكرا على أن انزلكم منزلة نبيه فى صلاته وصلاة ملائكته عليه حيث يقول ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى**) ومنها قوله : **ياأيها النبى قل لازواجك وبناتك** ﴾ ليس من المتشابه ، لأن الأول : فى التخير والثانى : فى الحجاب .

ومنها قوله : ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل** ﴾ [فى موضعين] .

وفى الفتح ﴿ **سنة الله التى قد خلت** ﴾[4] التقدير فى الآيات : سنة الله التى قد خلت فى الذين خلوا ،فذكر فى كل سورة الطرف الذى هو أعم ، واكتفى به عن الطرف الآخر ، والمراد بما فى أول هذه السورة النكاح نزلت حين عيروا رسول الله بنكاح زينب ، فأنزل الله : ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل** ﴾[5] أى : النكاح سنة فى النبيين على العموم . وكانت لداود تسع وتسعون ، فضم إليها التى خطبها أوريا ، وولدت سليمان . والمراد بما ففى آخر هذه السورة القتل ، نزلت فى المنافقين والشاكين الذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفين فى المدينة ، على العموم وما فى سورة الفتح يريد به نصرة الله لأنبيائه . والعموم فى النصرة أبلغ منه فى النكاح والقتل ، ومثله فى حم ﴿ **سنت الله التى قد خلت فى عباده** ﴾ فإن المراد بها عدم الانتفاع بالايمان عند البأس فلهذا قال : ﴿ **قد خلت** ﴾ .

ومنها قوله : **إن الله كان لطيفا خبيرا** ﴾ ﴿ **وكان الله على كل شىء رقيبا** ﴾ ﴿ **وكان الله قويا عزيزا** ﴾ ﴿ **وكان الله عليما حكيما** ﴾ وهذا من باب الاعراب ؛ وإنما نصب لدخول كان على الجملة فتفردت السورة ، وحسن دخول (كان) عليها ، مراعاة لفواصل الآى .

مناسبتها لما قبلها

ووجه اتصالها بما قبلها : تشابه مطلع هذه وخاتمة السالفة ، فإن تلك ختمت بأمر النبى ـ ﷺ ـ بالاعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت بأمره عليه ـ الصلاة والسلام ـ بالتقوى ، وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع ما أوحى اليه من ربه مع التوكل عليه .

---

(١) سورة الأحزاب من الآية : ٨
(٢) سورة الأحزاب من الآية : ٩
(٣) سورة الأحزاب من الآية : ٤١
(٤) سورة الفتح من الآية : ٣٣
(٥) سورة الاحزاب الآية :٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

معانى المفردات

تظاهرون ﴾ أن يقول الرجل لامرأته أنت على كظهر أمى قصدا إلى تحريمها **أدعياءكم** ﴾ أجمع دعى وهو من يدعى لغير أبيه على أنه إبنه وفى الواقع هو إبن غيره . ﴿ **أقسط** ﴾ : أعدل وأقوم ﴿ **ومواليكم** ﴾ : المراد هم بنو عمومتكم . ﴿ **وجناح** ﴾ : ذنب ﴿ **مسطورا** ﴾ : مكتوبا . ﴿ **ميثاقهم** ﴾ : الميثاق هو العهد المؤكد . ﴿ **ميثاقا غليظا** ﴾ : ميثاقا شديدا .

المناسبة وإجمال المعنى

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنهما. قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعوا النبى - ﷺ - أن يرجع عن قوله : على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات (١) .

وبعد أن أمر سبحانه نبيه بتقواه ، والخوف منه ، وحذره من طاعة الكفار والمنافقين ، والخوف منهم - ضرب لنا الأمثال ليبين أنه لايجتمع خوف من الله وخوف من سواه ، فذكر أنه ليس للانسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر ، وإذا لم يكـن للمرء إلا قلب واحد ، فمتى اتجه لأحد الشيئين صد عن الآخر ، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه ، وأنه لا تجتمع الزوجية والأمومة فى امرأة ، والبنوة الحقيقية والتبنى فى انسان.

روى الشيخان والترمذى والنسائى فى جماعة آخرين عن ابن عمر - رضى الله عنهما (أن يـزيد بن حـارثة مـولى رسـول الله - ﷺ - ماكنـا ندعـوه الا زيـد بن حـارثه مولى رسـول الله - ﷺ - ماكنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ **أدعوهم لآبائهم** ﴾ الآية : فقال رسول الله - ﷺ - : أنت زيد بن حارثة بن شراحبيل) (٢) .

وكان من خبره أن سبى من قبيلته كلب وهو صغير ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، فلما تزوجها رسول الله - ﷺ - وهبته له ، ثم طلبه أبوه وعمه ، فخير بين أن يبقى مع رسول الله ، وأن يذهب مع أبيه ، فاختار البقاء مع رسول الله - ﷺ - فأعتقه وتبناه .

وكانوا يقولون : زيد بن محمد ، فلما تزوج رسول الله - ﷺ - زينب ، وكانت زوجا لزيد وطلقها ، قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ، وهو ينهى عن ذلك ، فنزلت الآية لنفى أن يكون للمتبنى حكم الابن حقيقة فى جميع الاحكام التى تعطى للابن .

وبعد أن ابان سبحانه : أن الدعى ليس ابنا لمن تبناه ، فمحمد - ﷺ - ليس أبا لزيد بن حارثه ، ثم أعقب ذلك بالارشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن فى الدين ، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر : أنت اخى فى الدين - أردف ذلك بيان أن محمدا - ﷺ - ليس أبا لواحد من أمته ، بل أبوته عامة ، وأزواجه أمهاتهم وأبوته أشرف من أبوة النسب ، لان بها الحياة الحقيقية ، وهذه بها الحياة الفانية ، بل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه ، فذلك لارتقائهم الروحى ، فإذا كيف يستأذن الناس آبائهم وأمهاتهم حين أمرهم - ﷺ - بغزوة تبوك ، وهو أشفق عليهم من الآباء ، بل من أنفسهم .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : إن رسول الله - ﷺ - قال : (مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس

---

(١) انظر الدر المنثور فى تفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ج ٦ ص ٥٦٠ تفسير سورة الأحزاب .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير الاحزاب : ج ٦ ص ١٤٥ ، ١٤٦ وأخرجه مسلم فى (كتاب الفضائل) باب : فضائل زيد بن حارثة ج ٨ / ١٣٠ ، ١٣١ وفى تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى (تفسير سورة الأحزاب) ج ٩ ص ٧٢ رقم ٣٢٦٢ .

به فى الدنيا والآخرة ، إقرأوا إن شئتم ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا ، فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك دينا أو ضياعا (عيالا) فليأتنى ، فأنا مولاه » [١] .

وفى الصحيح : أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : (يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى ، فقال ـ ﷺ ـ : لاياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شىء ، حتى من نفسى ، فقال ـ ﷺ ـ : الآن ياعمر » [٢] وبعد أن أبان سبحانه أحكاما شرعها لعباده ، وكان فيها أشياء مما كان فى الجاهلية ، وأشياء مما كان فى الاسلام ، ثم أبطلت ونسخت اتبع ذلك بذكر مافيه حث على التبليغ ، فذكر أخذ العهد على النبيين أن يبلغوا رسالات ربهم ، ولاسيما أولو العزم منهم ، وهم الخمسة المذكورون فى الآية ، كما ذكر فى آية اخرى سؤال الله أنبياءه عن تصديق أقوامهم له ، ليكون فى ذلك تبكيت للمكذبين من الكفار فقال : ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ [٣] .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **يأيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ .

قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله ، وقال على ـ رضى الله عنه ـ التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

تزود من التقوى فإنك راحل   وسارع الى الخيرات فيمن يسارع
فما المال والأهلون الا ودائع   ولابد يوما أن ترد الودائع

وقوله تعالى : ﴿ **يأيها النبى اتق الله** ﴾ أى : اثبت ودوام على تقوى الله ، وقد جاء مثل ذلك فى قوله تعالى﴿ **يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله** ﴾ [٤] أى اثبتوا وداوموا على ذلك . وفى قوله تعالى : ﴿ **يأيها النبى** ﴾ ونداؤه بعنوان النبوة تكريم له ـ ﷺ ـ وماناداه ربه إلا بعنوان النبوة ، أو الرسالة . والله تعالى عندما يخاطب أنبياءه فى القرآن الكريم يخاطبهم بأسمائهم . **ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ [٥] ﴿ **يانوح اهبط بسلام منا** ﴾ [٦] ﴿ **يابراهيم . قد صدقت الرؤيا** ﴾ [٧] ﴿ **ياموسى إنى أنا**

---

(١) اخرجه البخارى : فى تفسير سورة الاحزاب : ج ٦ ص ١٤٥

(٢) الحديث فى مسند الامام احمد من رواية زهرة بن معبد ج ٤ ص ٣٣٦ وفى صحيح البخارى ـ كتاب الايمان والنذور ـ باب : كيف كان يمين النبى ـ ﷺ ـ ج ٨ / ١٦١

(٣) سورة المائدة من الآية : ١٠٩

(٤) سورة النساء الآية : ١٣٦

(٥) سورة البقرة من الآية : ٣٥

(٦) سورة هود من الآية : ٤٨

(٧) سورة الصافات الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥

ربك ﴾ [١] ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ [٢] ﴿ يازكريا إنا نبشرك بغلام ﴾ [٣] ﴿ يايحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ [٤] ﴿ ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ﴾ [٥] فإذا أراد أن يخاطب نبيه ومصطفاه قال : ﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ﴾ [٦] ﴿ ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك ﴾ [٧]

ياسيد العقلاء ياخير الورى   يامن أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا   وطلعت فى الأكوان بدرا نيرا
والله ماخلق الاله ولا برى   بشرا يرى كمحمد بين الورى

قوله تعالى : ﴿ ولاتطع الكافرين والمنافقين ﴾ أى لاتسمع منهم ولا تستشرهم . ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم فى أقواله وأفعاله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ واتبع مايوحى اليك من ربك ﴾ أى : من قرآن وسنة ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية ، ﴿ وتوكل على الله ﴾ أى : فى جميع أمورك وأحوالك . ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ أى : وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه .

قوله تعالى : ﴿ ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

يقول تعالى : موطئا قبل المقصود المعنوى أمرا معروفا حسيا ، وهو أنه كما لايكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ، ولاتصير زوجته ـ التى يظاهر منها بقوله : أنت على كظهر أمى ـ أماله ، كذلك لايصير الدعى ولدا للرجل إذا تبناه ، فدعاه ابنا له فقال : ﴿ ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ كقوله : عز وجل ﴿ ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ﴾ [٨] وقوله تعالى : ﴿ وما جعل ادعياءكم أبناءكم ﴾ هذا هو المقصود بالنفى ، فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثه ـ رضى الله عنه ـ مولى النبى ـ ﷺ ـ وكان النبى ـ ﷺ ـ قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى : أن يقطع هذا الالحاق ، وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وماجعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ كمال قال تعالى : فى أثناء السورة ﴿ ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين . وكان الله بكل شىء عليما ﴾ وقال ههنا : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يعنى : تبنيكم لهم قول لايقتضى أن يكون ابنا

---

(١) سورة طه من الآيتان : ١١ ، ١٢
(٢) سورة ص الآية : ٢٦
(٣) سورة مريم الآية : ٧
(٤) سورة مريم الآية : ١٢
(٥) سورة آل عمران الآية : ٥٥
(٦) سورة الاحزاب الآية : ٤٥
(٧) سورة المائدة الآية : ٦٧
(٨) سورة المجادلة الآية ٢

حقيقيا ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لايمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

قوله تعالى : ﴿ **والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** ﴾ للعلماء فى تفسير الحق أقوال : قال سعيد ابن جبير ﴿ **يقول الحق** ﴾ أى : العدل . وقال بعضهم : الحق : ضد الباطل وقال البعض : الحق هو طريق التوحيد وقالوا ؛ الحق هو دعوة الله الخالصة ، له دعوة الحق . ﴿ **وهو يهدى السبيل** ﴾ قال قتادة : أى الصراط المستقيم . قال بعض المفسرين . وذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش كان يقال له ذو القلبين وأنه كان يزعم ان له قلبين كل منهما بعقل وافر فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليه .

وروى الإمام احمد بسنده عن ابن أبى ظبيان قال : ان أباه حدثه قال : قلت : لابن عباس أرأيت قول الله تعالى : ﴿ **وماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾ ماعنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله - ﷺ - يوما يصلى فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم ، فأنزل الله تعالى ﴿ **ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾ [١] قوله تعالى : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ هذا ناسخ لما كان فى ابتداء الاسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر تبارك وتعالى : برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر .

وروى البخارى بسنده : عن عبد الله بن عمر قال : ان زيد بن حارثه - رضى الله عنه - مولى رسول الله - ﷺ - ماكنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ [١] قوله تعالى : ﴿ **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم** ﴾ أمر تعالى : برد انساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم فى الدين ، ومواليهم أى : عوضا عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله - ﷺ - يوم خرج من مكة عام عمرة ، وتبعتهم ابنه حمزة - رضى الله عنه - تنادى ياعم ياعم ، فأخذها - على رضى الله عنه - وقال لفاطمة - رضى الله عنها - : دونك ابنة عمك ، فاحتملها فاختصم فيها على وزيد وجعفر - رضى الله عنهم - فى أيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة . فقال على - رضى الله عنه - أنا أحق بها وهى ابنة عمى ، وقال زيد : ابنة اخى وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى وخالتها تحتى يعنى : أسماء بنت عميس ، فقضى بها النبى - ﷺ - لخالتها ،

وقال : (الخالة بمنزلة الأم) وقال : لعلى - رضى الله عنه - : (أنت منى وأنا منك) وقال لجعفر - رضى الله عنه - (اشبهت خلقى وخلقى) وقال لزيد : - رضى الله عنه - : (أنت أخونا ومولانا) ففى هذا الحديث احكام كثيرة من أحسنها انه - ﷺ - حكم بالحق وأرضى كلا من المتنازعين وقال لزيد : - رضى الله عنه - ﴿ **أنت أخونا ومولانا** ﴾ [٣] كما قال تعالى : ﴿ **فإخوانكم فى الدين ومواليكم** ﴾ .

---

(١) مسند الامام احمد ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨

(١) البخارى : تفسير سورة الاحزاب : ج ٦ ص ١٤٥ - ١٤٦

(٣) البخارى : (كتاب الصلح) باب : كيف يكتب : هذا ما صالح فلان ابن فلان . ج ٣/ ٢٤١ ، ٢٤٢

كلمة عن زيد بن حارثة

حب رسول الله - ﷺ - الذى قال فى شأنه : (أنت مولاى ومنى وأحب القوم إلى) نشأته وشأنه ، ومكانته فى الإسلام :

خرجت أمه (سعدى بنت ثعلبة) معه تزور قومها (بنى معن) فأغارت خيل لبنى القين بن جسر ، فمروا على أبيات (بنى معن) فاحتملوا زيدا - وقد كان يومئذ غلاما يافعا - ولم يعرف بعد شيئا عنه .

وكان موسم الحج قد اقبل « فحج قوم من « كلب » وأمام أعينهم دائما صورة هذا الرجل الباكى « حارثة بن شرحبيل » ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا « زيدا » فعرفهم ، وعرفوه وأقبل عليهم ، وعلموا منه ان خاطفيه وافوا به « سوق عكاظ » فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش محمد بن عبد الله - ﷺ - وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه ، فخرج حارثة وأخوه كعب لفدائه ، وقدما مكة ، فسألا عن النبى - ﷺ - فدخلا عليه وقالا : ياابن عبدالله ! ياابن عبدالمطلب ! ياابن هاشم ! ياابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى وتطعمون الأسير جئنا فى ابننا ، فامتن علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنا سندفع لك الفداء ، فقال لهم الرسول - ﷺ - : (ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى اختار على من اختارنى) .

فدعاه النبى - ﷺ - وقال له : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هما ؟ قال زيد : هذا أبى وهذا عمى . فقال رسول الله - ﷺ - (فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك ، فأختارنى أوفاخترهما) فقال زيد : ما أنا بالذى اختار عليك احدا ، أنت منى بمكانة الأب والأم .

فقالا:ويحك يازيد! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك قال زيد : نعم إنى قد رأيت من الرجل شيئا ، ما أنا بالذى اختار عليه احدا ابدا فلما رأى رسول الله - ﷺ - ذلك أخرجه إلى الحجر ، وقال : (يامن حضر ، اشهدوا أن زيدا ابنى : أرثه ويرثنى) .

فلما رأى ابوه وعمه ذلك : طابت نفساهما وانصرفا ، ونزلت الرسالة على محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء . ولم يفارق النبى - ﷺ - لحظة فأحبه النبى حبا شديدا . وأذن النبى - ﷺ - فى الهجرة لأصحابه ، وهاجر زيد ، ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة . ولما هاجر الرسول الأعظم الى « يثرب » وآخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد : أخوين فى الله ، ثم آخى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير[1] .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدرا وأُحدا ، واستخلفه رسول الله - ﷺ - على المدينة ، حين خرج إلى « المريسيع » « وشهد الخندق » و « الحديبية » و « وحنينا » وخرج زيد اميرا فى سبع سرايا : أولها « القردة » واعترض لعير قريش

---

(١) انظره فى أُسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨٣ رقم ١٨٢٩ فى ترجمة زيد بن حارثة

فأصابها ، وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر « زيد » فرات بن حيان العجلى »
وقدم بالبعير على النبى ـ ﷺ ـ وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .
قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « مابعث رسول الله ـ زيد بن حارثة فى جيش قط ، إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعده : لاستخلفه » (١) .

وأراد رسول الله ـ ﷺ ـ ان يغزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلا : (عليكم زيد بن حارثه فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر : فعبد الله ابن رواجه » (٢) .

وتحرك الجيش الاسلامى بقيادة لواء الاسلام « زيد بن حارثة » أليس فى هذا المعنى مايعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ؟

هذا « زيد » يقود جيشا فيه جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ، الشريف الكريم ، وفيه خالد بن الوليد ، وخالد هو سيف الله المسلول ، ومن بعد زيد : قاد ابنه « اسامه) الحملة بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه ابو بكر الصديق وعمر الخليفة فاروق هذه الأمة .

(أى : دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى : ! معنى أوضح من هذا المعنى ؟) .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الاسلام الذى كرم البشرية ، وزكى النفوس وطهر القلوب !
سيدى أبا القاسم يارسول الله :

الدين والدنيا لنا جمعتهما ... لك شرعة قدسية غراء
والمسلمون جميعهم جسد إذا ... عضو شكا ، سهرت له الأعضاء

سار المسلمون ، وعلى رأسهم زيد ، حتى وصلوا إلى « مؤنة » وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلا .
ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها ؟ !
وتناولته السيوف بالطعن ، وهو يقاتل دون راية رسول الله ـ ﷺ ـ وأخيرا : استشهد الأمير .
أيتها النفس الكبيرة !

---

(١) الحديث اورده ابن كثير فى تفسير سورة الأحزاب : الآية ٣٧ وقال : اخرجه الامام احمد فى مسنده ـ مسند عائشة ـ رضى الله عنها .
(٢) انظره فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الاثير ج ٢ ص ٢٨٣

لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة البنوة ، حيث قال : (زيد ابنى)[١] ، ثم أمرَّك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .

وفى المدينة وقف النبى - ﷺ - يقول : (استغفروا لزيد : لقد دخل الجنة وهو يسعى) ثم أتى اهله ، فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبى - ﷺ - حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يارسول الله : ما هذا ؟ فقال له الرسول - ﷺ - : (ياسعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب) .

يرحمك الله يازيد بن حارثة يا من أثنى عليك رسول الله خيرا ، ويامن أنعم الله عليك بالاسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق . . يامن ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة ، فلقيته شهيدا ، وعشت فى دار الكرامة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر **﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**[٢] لقد حرم الاسلام التبنى ووضع الأمور فى نصابها وسمى الأشياء بأسمائها ووضع النقاط على حروفها . جاء فى الحديث الشريف : (ليس من رجل ادعى الى غير أبيه وهو يعلمه الا كفر)[٣] وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد فى التبرى من النسب المعلوم ولهذا قال تعالى : **﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾** ثم قال تعالى : **﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾** أى إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع فإن الله تعالى قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه كما أرشد اليه فى قوله تبارك وتعالى آمرا عباده ان يقولوا : (**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**)[٤] وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - : قال : (قال الله - عز وجل - قد فعلت)[٥] وفى صحيح البخارى عن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ؛ (اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر)[٦]

وفى الحديث الآخر (إن الله تعالى رفع عن أمتى الخطأ والنسيان والأمر الذى يكرهون عليه)[٧] وقال تبارك وتعالى هنا : **﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾** أى : وإنما الاثم على من تعمد الباطل كما قال عز وجل : **﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم ﴾**[٨]

وروى الامام أحمد بسنده عن عمر - رضى الله عنه - قال : إن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده ، ثم قال : قد كنا نقرأ : **﴿ ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم ﴾** وأن رسول الله - ﷺ -

(١) مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب فضل زيد بن حارثة ٤/ ١٨٨٤ رقم ٢٤٢٥ وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٢٨٢/٢
(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١٦٩ ، ١٧٠
(٣) البخارى - كتاب المناقب ٢١٩/٤
(٤) سورة البقرة الآية : ٢٨٦
(٥) مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف الا ما يطاق آ ١١٦ رقم ٢٠٠
(٦) البخارى - كتاب الاعتصام - باب أجر الحاكم اذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ١٣٢/٩ .
(٧) سنن ابن ماجه - كتاب الطلاق - باب طلاق المكره والناسى ج ١ ص ٦٥٩ رقم ٢٠٤٥
(٨) سورة البقرة الآية : ٢٢٥

قال : (لا تطرونى كما أطرى عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام - فإنما أنا عبد الله فقولوا عبده ورسوله ، وربما قال عمر (كما أطرت النصارى ابن مريم)[١] ورواه فى الحديث الآخر (ثلاث فى الناس كفر ، الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم)[٢].

قوله تعالى : **﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب مسطورا﴾** .

جاء فى الصحيح : (والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين)[٣] وفى الصحيح أيضا ان عمر رضى الله عنه قال : يارسول الله والله لأنت أحب الى من كل شىء إلا من نفسى ، فقال - ﷺ - : لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى ، فقال -ﷺ- : « الآن ياعمر »[٤].

قال ابن مسعود : اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاختاره لرسالته ثم اطلع على القلوب بعده فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن .

لقد شرح الله صدره ورفع ذكره وعلم أنه أرحم الناس بالناس فأمر بطاعته والرضا بحكمه . قال تعالى : **﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾**[٥] وقرن الله طاعته بطاعته فقال : **﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾**[٦] وجعل اتباعه شرطا فى محبة الله فقال : **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾**[٧].

قال البخارى عند قوله تعالى : **﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾** حدثنا ابراهيم بن المنذر بسنده عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (ما من مؤمن الا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة : إقرأوا إن شئتم : **﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا وان ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه)**[٨]

---

(١) مسند الامام احمد - مسند عمر بن الخطاب ٤٧/١

(٢) رواه مسلم والامام أحمد عن ابى مالك الاشعرى انظر مسلم - كتاب الجنائز - باب التشديد فى النياحة ٦٦٤/١ رقم ٢٩ ومسند أحمد ٣٤٢/٥

(٣) البخارى - كتاب الايمان - باب حب الرسول ﷺ ١٢/١

(٤) البخارى - كتاب الايمان والنذور - باب كيف كان يحين النبى ﷺ ١٦١/٨

(٥) سورة النساء الآية : ٦٥

(٦) سورة النساء الآية : ٨٠

(٧) سورة آل عمران الآية : ٣١

(٨) البخارى تفسير سورة الاحزاب ١٤٥/٦ وفى كتاب الاستقراض باب الصلاة على من ترك دينا ١٥٥/٣

سيدى أبا القاسم يارسول الله

لو شرق القوم الكبار وغربوا فإليك حتما منتهى الخطوات
ضلت علومهم برغم نبوغهم وتعرضوا لمهالك خطرات
وتنكبوا سبل السلام وأقبلوا يتشدقون بأتفه الكلمات
لو ادركوا معنى السلام لأسلموا ما غير دينك سلّم لنجاة
القول فيك معطر الكلمات ياصاحب الآيات والسورات
أيام مولدك الكريم مضيئة فى كل ماض فى الزمان وآت
يوم أتى بك للوجود فإنه تاج الزمان وغرة السنوات
تتعاقب الايام فى دوراتها وترد كل جديدة لموات
وضياك يسطع كل يوم نوره ويزيد فى الاشراق والنفحات
فالحق انت وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات
علمتنا سر الحياة وقدتنا للخير والتوفيق والبركات
جنبتنا الزلل الكبير وصنتنا من شهوة تطغى ومن نزوات
من يقصد الدنيا بدونك يلقها تيها من الأهوال والظلمات
لما أراد الله جل جلاله ان ينقذ الدنيا من العثرات
أهداك ربك للورى ياسيدى فيضا من الأنوار والرحمات
ياصاحب الحق الكبير عرفته وبسطته فى حكمة وأناة
وطلعت فى الليل البهيم مؤذنا بالحق والأنوار والصلوات
دعوت للخيرات قوما ضللوا ما كان ابعدهم من الخيرات
ودعوت حتى كنت اصبر من دعا وأقمت بين إساءة وإذاة
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت فى أعناقهم فى عزة وثبات
فحظيت بالنصر المبين مؤزرا وأقمت دينك خافق الرايات
وضربته مثلا لكل مكابر لا يستوى حق بغير حماة
ياسيدى لما ذكرتك أشرقت نفسى وهامت بالسعادة ذاتى
القاك فى الحق المجلجل فى دمى فى زحمة الدنيا وفى خلواتى
ألقاك فى الليل البهيم وفى الضحا ألقاك فى صحوى وفى غفواتى
ألقاك من حولى وبين جوانحى فى بسمتى تأتى وفى عبراتى
فلأنت فى خيرى تزيد دعاته ولأنت فى شرى؟ تذود دعائى
ولأنت فى قلبى وملء نواظرى وخواطرى ومشاعرى وحياتى

قوله تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أى فى الحرمة والاحترام ، والتوقير والاكرام والاعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن واخواتهن بالاجماع ، وان سمى بعض العلماء

بناتهن اخوات المؤمنين كما هو منصوص الشافعى - رضى الله عنه - فى المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم .

قوله تعالى : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ أى فى حكم الله ﴿ **من المؤمنين والمهاجرين** ﴾ قال ابن عباس وغيره : كان المهاجرى يرث الانصارى دون قراباته وذوى رحمه للأخوة التى أخى بينهما رسول الله - ﷺ - وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف .

روى ابن أبى حاتم بسنده عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : أنزل الله - عز وجل - فينا خاصة معشر قريش والانصار ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ وذلك انا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا فوجدنا الأنصار نعم الاخوان فواخيناهم وورائناهم فآخى ابو بكر - رضى الله عنه - خارجة بن زيد ، وآخى عمر - رضى الله عنه - فلانا ، وآخى عثمان - رضى الله عنه - رجلا من بنى زريق ابن سعد الزرقى ويقول بعض الناس غيره . قال الزبير - رضى الله عنه - وواخيت انا كعب ابن مالك فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى فوالله يابنى لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيرى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والانصار خاصة فرجعنا إلى موارثينا .

قوله تعالى : ﴿ **إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا** ﴾ أى ذهب الميراث وبقى النصر والبر والصلة والاحسان والوصية ،

وقوله تعالى : ﴿ **كان ذلك فى الكتاب مسطورا** ﴾ أى هذا الحكم وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول الذى لا يبدل ولا يغير . قال مجاهد وغير واحد وان كان تعالى قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم انه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى وقضائه القدرى الشرعى والله اعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما** ﴾ ونحو ذلك قولع تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾[1] وقد أخذ الله تعالى الميثاق على الأنبياء ونص على خمسة منهم وهم أولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم أجمعين - وعطف هؤلاء الخمسة على النبيين من باب عطف الخاص على العام وقد صرح بهم سبحانه وتعالى فى آية اخرى قال تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** ﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٨١.
(٢) سورة الشورى الآية : ١٣

قوله تعالى : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ بسؤالهم عما فعلوا حين الارسال كما قال : ﴿ ولنسألن المرسلين ﴾[١] .

وقد جرت العادة ان الملك اذا ارسل رسولا ، وأمره بشيء وقبله كان ذلك ميثاقا عليه ، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عما يقول ويفعل كان ذلك تغليظا للميثاق ، وحتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة ثم بين علة اخذ الميثاق على النبيين فقال :

﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ أى وأخذنا من هؤلاء الانبياء كيما أسأل المرسلين عما اجابتهم به اممهم ، وما فعل أقوامهم فيما ابلغوهم عن ربهم من الرسالة .

﴿ وأعد للكافرين عذابا أليما ﴾ أى ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد لهم ثوابا عظيما ، ويسأل الكاذبين عن كذبهم ، وأعد لهم عذابا اليما .

غزوة الاحزاب وبنى قريظة

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا

(١) سورة الأعراف الآية : ٦

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾

معانى المفردات

المراد بالجنود هنا . الأحزاب ، وهم قريش يقودهم ابو سفيان ، وبنو أسد يقودهم طليحة ، وغطفان يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل ، وبنو سليم يقودهم ابو الأعور السلمى ، وبنو النضير من اليهود ، ورؤساؤهم حيى بن أخطب ، وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة من اليهود أيضا سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم وبين رسول الله - ﷺ - عهد فنبذه كعب بسعى حيى وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف أو نحو ذلك ، « والجنود التى » لم تروها : هى الملائكة ، ﴿ من فوقكم ﴾ أى : من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا بنى غطفان ، ﴿ ومن أسفل منكم ﴾

أي : من أسفل الوادى من قبل المغرب ، وكانوا قريشا ومن شايعهم ، وبنى كنانة وأهل تهامة ، ﴿ **زاغت الأبصار** ﴾ أي : انحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، ﴿ **وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ يراد به فزعت فزعا شديدا ﴿ **ابتلى المؤمنون** ﴾ أي اختبروا وامتحنوا ، ﴿ **وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾أي اضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وكثرة العدو ، ﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم لقرب عهدهم بالاسلام ، ﴿ **الا غرورا** ﴾ أى وعد غرور لا حقيقة له ؛ ﴿ **يثرب** ﴾ من أسماء المدينة ، ﴿ **لا مقام لكم** ﴾ أى لا ينبغى لكم الاقامة ها هنا . ﴿ **عورة** ﴾ أى ذات عورة لأنها خالية من الرجال فيخاف عليها سرق السراق ﴿ **والأقطار** ﴾ واحدها قطر وهو الناحية والجانب ، ﴿ **والفتنة** ﴾ الردة ومقاتلة المؤمنين ﴿ **آتوها** ﴾ أى عطوها ، ﴿ **وما تلبثوا بها** ﴾ أى : وما أقاموا بالمدينة ، ﴿ **يعصمكم** ﴾ أى : يمنعكم ، (﴿**المعوقين** ﴾ أى : المثبطين عن القتال مع رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ **هلم إلينا** ﴾ أى : أقبلوا إلينا ، ﴿ **والبأس** ﴾ الشدة ، والمراد به هنا الحرب والقتال ، ﴿ **أشحة** ﴾ واحدهم شحيح أى بخيل بالنصرة والمنفعة ، ﴿ **تدور أعينهم** ﴾ أى : تدير أعينهم احداقهم من شدة الخوف ، ﴿ **سلقوكم** ﴾ أى : آذوكم بالكلام ، ﴿ **بألسنة حداد** ﴾ أى : ألسنة دربة سلطة تفعل فعل الحديد ، ﴿ **أشحة على الخير** ﴾ أى : بخلاء حريصين على مال الغنائم ، ﴿ **أحبط الله أعمالهم** ﴾ أى : أبطلها لإضمارهم الكفر ، ﴿ **لو أنهم بادون فى الأعراب** ﴾ أى : خارجون إلى العدو مقيمون بين أهله ، ﴿ **أسوة** ﴾ أى : قدوة والمراد به المقتدى به ، ﴿ **قضى نحبة** ﴾ أى : فرغ من نذره ووفى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استشهد كحمزة ، ومصعب بن عمير ، ﴿ **والغيظ** ﴾ أشد الغضب ، ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ أى : وقاهم شره ﴿ **عزيزا** ﴾ أى : غالبا مستوليا على كل شيء ، ﴿ **ظاهروهم** ﴾ أى : عاونوهم ﴿ **من أهل الكتاب** ﴾ أى : من بنى قريظة ، ﴿ **من صياصيهم** ﴾ أى : من حصونهم واحدها صيصية وهى كل ما يمتنع به ، قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت نساء تميم يبتدرن الصياصيا

﴿ **وقذف** ﴾ أى : ألقى ، ﴿ **والرعب** ﴾ الخوف الشديد .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد ان امر سبحانه عباده بتقواه ، وعدم الخوف من سواه ـ ذكر هنا تحقيق ما سلف فأبان انه أنعم على عباده المؤمنين ، إذ صرف عنهم اعداءهم وهزمهم حين تألبوا عليهم عام الخندق .

وتفسير هذا على ما قاله أرباب السير : أن نفرا من اليهود قدموا على قريش فى شوال سنة خمس من الهجرة بمكة ، فدعوهم الى حرب رسول الله ـ ﷺ ـ وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ، ثم جاءوا غطفان وقيسا وعيلان ، وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه ، فخرجت هذه القبائل ومعها قادتها وزعماؤها .

ولما سمع رسول الله - ﷺ - بمسيرهم أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة بإشارة سليمان الفارسي ، وعمل فيه رسول الله - ﷺ - والمسلمون وأحكموه ؛ وكان رسول الله يرتجز بكلمات ابن رواحه ، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا [١]

وفى أثناء[٢] العمل برزت لهم صخرة بيضاء فى بطن الخندق فكسرت حديدهم وشقت عليهم ؛ فلما علم بها رسول الله - ﷺ - أخذ المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابيتها (جانبى المدينة) حتى كأنه مصباح فى جوف بيت مظلم ؛ فكبر رسول الله - ﷺ - تكبير فتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضىء وكان التكبير ؛ ثم قال رسول الله - ﷺ - : ضربت ضربتى الأولى فبرق البرق الذى رأيتم فأضاء لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها انياب الكلاب ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت ضربتى الثانية ، فبرق البرق الذى رأيتم اضاء لى منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب . فأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا ؛ فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ؛ فقال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يمنيكم ويعدكم بالباطل ، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، أنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون ان تبرزوا ، فنزل : ﴿ **وإذ يقول المنافقون** ﴾ الخ . ونزل : ﴿ **قل اللهم مالك الملك** ﴾[٣] الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الاحزاب الذين حزبهم اليهود ، وأتوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلا بينهم وبينها ، فقالوا : والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ووقعت مصادمات بين القوم كرا وفرا ، فمن المشركين من كان يقتحم الخندق فيرمى بالحجارة ، ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيهلك .

ثم[٤] إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله - ﷺ - فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك ، فقال - ﷺ - : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة ، فأتى قريظة وقال لهم : لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا اخذتم منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم تقية لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا ، لأنهم رجعوا وسئموا حربه ، وإنكم وحدكم لا تقدرون عليه ، وذهب إلى قريش وإلى غطفان ، فقال لهم : إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونها لمحمد ، فيضرب أعناقهم ، ويتحدون معه على قتالكم ، لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد وتابوا ، وهذا هو المخرج الذى اتفقوا عليه .

وحينئذ تخاذل اليهود والعرب ، ودب بينهم دبيب الفشل . ومما زاد فى فشلهم ان بعث الله عليهم ريحا فى ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفىء قدورهم ، وتطرح آنيتهم .

---

(١) البخارى - كتاب الجهاد - باب الرجز فى الحرب ٧٨/٤ وكتاب المنافق - باب غزوة الخندق ١٤٠/٥
(٢) تفسير الطبرانى ١٣٤/٢١
(٣) سورة آل عمران الآية : ٢٦
(٤) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٣٤٨/٥

وقد قام رسول الله - ﷺ - ليلة يصلى على التل الذى عليه مسجد الفتح ثم يلتفت ويقول : هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ فعل ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم رجل واحد ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فدعا حذيفة بن اليمان وقال : ألم تسمع كلامى منذ الليلة ؟ قال حذيفة : فقلت يارسول الله منعنى أن أجيبك الضر والقرّ ، قال : انطلق حتى تدخل فى القوم ، فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، حتى ترده إلى ، انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتينى ، فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله - ﷺ - يده يقول : ياصريخ المكروبين ، ويامجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال اصحابى فنزل جبريل وقال : ان الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله - ﷺ - على ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتنى ورحمت اصحابى ، وذهب حذيفة إلى القوم ، فسمع ابا سفيان يقول : يامعشر قريش ، انكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، واخلفتنا بنوقريظة ، وبلغناهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فلما رجع أخبر رسول الله - ﷺ - فضحك حتى بدت انيابه فى سواد الليل .

بلغة العسكريين

ولنستمع الآن الى وصف دقيق لوقائع غزوة الخندق وبنى قريظة بلغة العسكريين كما يرويها لنا اللواء (محمود شيت خطاب) فى كتابه (الرسول القائد) كتب تحت عنوان (الخندق) فقال :

الموقف العام

١ - المسلمون : نجح المسلمون فى إعادة النظام إلى صفوفهم بعد « أحد » وتخلصوا من يهود بنى النضير ، وبذلك قوى مركزهم فى المدينة قاعدتهم الأمينة ، كما اثروا على معنويات قريش وكافة القبائل التى طمعت فى مهاجمة المدينة لقد استعادوا فى هذه الفترة سمعتهم ، وأصبح سلطانهم مهيبا فى المدينة وخارجها على حد السواء .

٢ - المشركون واليهود : -

لم تستطع قريش لقاء المسلمين فى (بدر) الصغرى ، لأنها قدرت أن قوة المسلمين اكبر من ان تستطيع القضاء عليها وحدها .

كما لم تستطع القبائل ان تهاجم المدينة كما ارادت ، اذ هاجمها المسلمون على انفراد فى عقر دارها وتغلبوا عليها بالتعاقب .

وكان اليهود اضعف من ان يفكروا فى التعرض وحدهم للمسلمين ، ولكنهم كانوا يترقبون الفرص .

وكان لابد من تجمع قوى قريش والقبائل الاخرى واليهود فى صعيد واحد للقضاء على المسلمين ، إذ اصبح المسلمون بدرجة من القوة يصعب معها القضاء عليهم اذ لم تحتشد كافة قوى اعدائهم ؛ وفعلا قام الموتورون من يهود بنى النضير بمهمة تجميع قوات المشركين واليهود حول المدينة ، ونجحوا فى حشد اكبر قوة متفوقة للقضاء على الدين الجديد .

قوات الطرفين

١ ـ **المسلمون** : ثلاثة آلاف رجل بقيادة الرسول ـ ﷺ ـ

٢ ـ **المشركون** : عشرة آلاف عدا اليهود من بنى قريظة ، منهم أربعة آلاف من قريش وستة آلاف من بنى سليم وأسد وفزارة واشجع وغطفان . كانت قريش بقيادة ابى سفيان بن حرب بن أمية .

وكانت غطفان بقيادة عيينة بن حصن والحارث بن عوف .

وكانت أشجع بقيادة مسعود بن رخيلة وهم أربعمائة .

وكانت سليم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية وكانت بنو أسد بقيادة طلحة بن خويلد الأسدى .

أهداف الطرفين

١ ـ **المسلمون** : الدفاع عن الاسلام .

٢ ـ **المشركون واليهود** : القضاء على المسلمين وانتهاب أموالهم وذراريهم .

التوقيت

كانت غزوة الخندق فى شوال من السنة الخامسة للهجرة واستمر الحصار حوالى شهر واحد .

قبل المعركة

١ ـ **المسلمون** :

أ ـ قرر المسلمون البقاء فى المدينة وحفروا خندقا عميقا يحيط بشمال المدينة ويقع بين حرة المدينة وجبل « سلع » لان هذه المنطقة هى المنطقة الوحيدة المكشوفة ؛ إذ أن جهات المدينة الأخرى محاطة بالبساتين الكثيفة والعوارض الطبيعية الأخرى ، وذلك يحول دون إمكان إجراء القتال بقوات كبيرة فى أطراف المدينة عدا الشمالية منها ، حيث إنها مكشوفة كما أسلفنا ، لذلك أشار سلمان الفارسى بحفر الخندق فى هذه المنطقة ، ولم يكن حفر الخنادق للأغراض الدفاعية معروفا عند العرب من قبل .

قسم الرسول منطقة الحفر على أصحابه : لكل عشرة منهم أربعون ذراعا ، واشتغل هو بالحفر ايضا ، كأى فرد منهم ، بل كان المسلمون يستعينون به عندما تصادفهم بعض العقبات أثناء الحفر كظهور الصخور فيحضر بنفسه لتفتيتها .

وكان العمل يستمر طيلة النهار ، ثم يأوى المسلمون ليلا الى دورهم ليأخذوا قسطا من الراحة ، وقد سيطر الرسول بنفسه على العمل . فلا يذهب احد لعمله الخاص إلا بموافقته .

ب ـ عسكر المسلمون الى سفح « سلع » وجعلوا « سلعا » خلف ظهورهم .

ج ـ جمع الرسول النساء والأطفال فى بيوت قوية البنيان فى منطقة أمينة داخل المدينة للإفادة من مناعتها لحمايتهم ، وهجروا البيوت الواهنة .

د ـ بعد انجاز حفر الخندق ، احتل المسلمون مواضعهم خلف الخندق واستفادوا من مناعة جبل « سلع » لحماية ظهورهم وجناحهم الأيسر من التفاف الأحزاب لقطع خط رجعتهم الى المدية المنورة وضربهم من الخلف وتطويقهم .

٢ ـ المشركون واليهود :

أ ـ قصد نفر من اليهود قريشا فى مكة منهم سلام بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب ، فدعوهم إلى حرب الرسول ، ووعدوهم أنهم سيكونون معهم فى القتال .

فلما وافقت قريش على قتال المسلمين ، قصد اليهود غطفان وغيرها من القبائل ، ودعوهم إلى حرب الرسول أيضا ، وأخبروهم ان قريشا معهم على ذلك ، فوافقت غطفان والقبائل الأخرى .

ب ـ لما وصلت قريش وغطفان والقبائل الاخرى الى ضواحى المدينة استطاع حيى بن أخطب التأثير على اليهود من بنى قريظة ، فنكثوا عهدهم مع المسلمين وانضموا مع الأحزاب .

ج ـ كانت مواضع قتال الأحزاب فى ضواحى المدينة كما يلى :

أولا : قريش فى موضع مجتمع الأسيال من دومة بين الجرف وزغابة

ثانيا : غطفان وقبائل نجد فى موضع ذنب نقمى الى جانب « أحد »

ثالثا : بنو قريظة فى حصونهم فى ضواحى المدينة .

سير القتال

١ ـ تحرج موقف المسلمين كثيرا ، خاصة بعد انضمام بنى قريظة للأحزاب ، فقد كان بإمكان هؤلاء اليهود التسلل إلى داخل المدينة والتعريض بالنساء والأطفال خاصة أنهم يعرفون تفاصيل مسالكها لأنهم من أهلها ، مما يؤثر على معنويات المسلمين الذين يقاتلون فى ساحة المعركة لأنهم اصبحوا غير مطمئنين على مصير عوائلهم وذراريهم وأموالهم .

كما كان بإمكان اليهود القيام بحركة جريئة لقطع خط رجعة المسلمين إلى داخل المدينة ، وبذلك يفسحون المجال للأحزاب لاقتحام الخندق دون مقاومة تذكر .

لذلك كان وقع نكث بنى قريظة لعهدهم شديدا على نفوس المسلمين ، وقد ارسل اليهود رجلا منهم الى داخل المدينة ، فاستطاع التسلل إلى الدور التى تجمع بها النساء والأطفال ، ولكن هذا اليهودى لم يعد الى قومه ليخبرهم عن مواضع النساء والاطفال ، وعن درجة مناعتها وحمايتها ، لأن امرأة مسلمة رأته يستطلع المواضع ، فاستطاعت قتله مستفيدة من عمود خشبى .

إن هذا اليهودى كان دورية استطلاع للحصول على المعلومات عن مواضع النساء والأطفال ، حتى يمهد بما يحصل عليه من معلومات لقيام اليهود بهجوم مباغت عليهم بعد التأكد من عدم تيسر الحماية لهم ، ليضطروا المسلمين إلى الانسحاب من مواضعهم الاصلية لنجدة أهليهم وإنقاذ أموالهم .

إن قتل هذا اليهودى خلص المسلمين من خطر داهم ، إذ جعل اليهود يفكرون أن داخل المدينة حراسا أشداء من المسلمين ، وليس من السهل التغلب على هذه الحراسة الشديدة ، لذلك قبع اليهود فى حصونهم لا يفكرون فى الخروج .

٢ ـ تحركت مفرزة من فرسان قريش فيهم عمرو بن عبد ود ، وعكرمة بن أبى جهل ، ومروا ببنى كنانة واستثاروا حميتهم للقتال ، فلما وصلت هذه المفرزة إلى الخندق استطلعوا منطقة ضيقة فيه ، فعبروها بخيولهم ، فخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين للقائهم ، واتجهوا فورا إلى الثغرة التى عبر المشركون منها لقطع خط رجعة المشركين أولا ولمنع الامدادات من الاحزاب اليهم ثانيا ثم نازل على بن أبى طالب عمرو بن عبد ود فقتله ، كما قتل المسلمون رجلين من المشركين ، وعادت بقية فرسان قريش هاربة إلى قواعدها .

٣ ـ قامت مفرزة من المشركين بالهجوم على المسلمين باتجاه دار الرسول ـ ﷺ ـ فقاتلهم المسلمون النهار كله حتى الليل ، فلما حانت صلاة العصر تحرج موقف المسلمين لاقتراب المشركين من منزل الرسول ، حتى لم يستطع المسلمون ان يصلوا ، ولكنهم استطاعوا مع الليل صد مفرزة المشركين خائبة على أعقابها .

٤ ـ حاول الرسول ـ ﷺ ـ ان يرد بعض الأحزاب عن المدينة لقاء ثلث الثمار ، وكاد أن يصل فى مفاوضاته مع قادة غطفان إلى هذا الاتفاق ، ولكن سادات الأوس والخزرج اقترحوا الا يعطوا المشركين شيئا من ثمارهم ، فوافق الرسول ـ ﷺ ـ على اقتراحهم هذا .

٥ ـ اثرّ بقاء الاعراب مدة طويلة حول المدينة على معنوياتهم خاصة وان الموسم شتاء ، وان الاعراب لا يطيقون الصبر طويلا على الحصار ولا على قتال مديد بصورة عامة ، لذلك اخذوا يبدون تذمرهم من بقائهم مدة طويلة دون جدوى .

٦ ـ جاء نعيم بن مسعود الغطفانى الى الرسول وأخبره انه أسلم ولا يعلم قومه بإسلامه ، فقال له الرسول : (إنما أنت رجلٍ واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة)[1] .

خرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان نديما لهم فى الجاهلية ، فقال لهم : (عرفتم ودى إياكم ، وقد ظاهرتم قريشا وغطفان على حرب محمد وليسوا كأنتم . البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون ان تتحولوا منه ، وإن قريشا وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٥ ص ٣٤٨

لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم حتى تناجزوا محمدا .

قالت بنو قريظة : « أشرت بالنصح ولست عندنا بمتّهم » ثم خرج نعيم إلى قريش ، فقال لهم : « بلغنى ان قريظة ندموا ، وقد ارسلوا إلى محمد : هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب اعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم ؟ فأجابهم ان نعم فإن طلبت قريظة منكم رهنا من رجالكم ، فلا تدفعوا لهم رجلا واحدا» .

وجاء نعيم غطفان فقال لهم : « أنتم أهلى وعشيرتى » . وقال لهم مثل ما قال لقريش . . وحذرهم ! !

أرسل ابو سفيان وسادة غطفان إلى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فى ليلة سبت ، وطلبوا منهم الاستعداد للهجوم نهار السبت ، ولكن قريظة اعتذروا بأنهم لا يقاتلون يوم السبت ، ثم طلبت قريظة رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأى هجوم !

قالت قريش وغطفان : لقد صدق نعيم .

ولما رفض طلب قريظة بإعطائها رهائن من قريش وغطفان قالت :

لقد صدق نعيم ! وتفرقت قلوب الأحزاب وزالت الثقة بينهم .

٧ ـ أرسل الرسول ـ ﷺ ـ حذيفة بن اليمان ليلا ليستطلع اخبار الأحزاب ، فرأى قريشا تشد رحالها متجهة إلى مكة ، فلما علمت غطفان بارتحال قريش دون علمها ، عادت ادراجها مع القبائل الاخرى الى مواطنها .

وحينذاك علم الرسول ـ ﷺ ـ ببصيرته النافذة ان المشركين فقدوا فرصتهم الثمينة ، وأن مثل هذه الفرصة لن تعود اليهم مرة اخرى ، وإذا لم يستطع المشركون بعد تجمعهم الضخم هذا ان يقضوا على المسلمين فكيف يستطيعون القضاء عليهم بعد تفرقهم ؟

خسائر الطرفين

١ ـ المسلمون :

ستة شهداء

٢ ـ المشركون :

ثلاثة قتلى .

أسباب فشل الأحزاب

١ ـ قيادة غير موحدة : ـ

لم تكن للأحزاب قيادة موحدة تستطيع السيطرة على جميع القوات المتجمعة وتوجيهها للعمل

الحاسم فى الوقت الحاسم .

كان لكل قبيلة قائد بل عدة قواد ، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم على المسلمين ؛ وقد كان من المستحيل اتفاقهم على قائد منهم ليسيطر على الجميع لأن هذا القائد سينال شرفا عظيما يمتاز به على الآخرين ، ولا يمكن للآخرين ان يرضوا بهذا الامتياز .

لقد كانت النعرة الجاهلية لا الهدف المشترك هى التى تسيطر على القيادة ، ولا يمكن ان تنجح مثل هذه القيادة فى أى موقف بأى معركة حتى ولو كانت لها كل الظروف المؤاتية كما فى غزوة الخندق بالنسبة للاحزاب واليهود .

٢ ـ المباغتة بالخندق : ـ

لقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب ، فلم تكن العرب تعرف هذا الاسلوب ، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب للتغلب على مثل هذا الموقف .

لذلك بقى القتال مستكنا طول مدة الحصار ، عدا محاولات قليلة قام بها المشركون لمحاولة اجتياز الخندق باءت كلها بالفشل . .

٣ ـ الطقس . .

كان موسم القتال شتاء ، وكان الاعراب فى العراء يعيشون فى غير مواطنهم التى يستفيدون فيها من موادهم المتيسرة للتدفئة وللاعاشة وللسكنى .

لذلك لم يستطيعوا البقاء لحصار المدينة مدة طويلة .

٤ ـ انعدام الثقة : ـ

كانت الثقة بين الاحزاب انفسهم من جهة وبينهم وبين اليهود من جهة اخرى واهنة جدا ، بل لم تكن هناك ثقة بينهم على الاطلاق .

قريش تريد القضاء على المسلمين بالافادة من جهود القبائل الأخرى ، واليهود والقبائل الأخرى تريد الأسلاب بالدرجة الأولى من اى مصدر كان ، ولو وقعت اموال احلافهم بنى قريظة بيدهم لأخذوها أيضا .

واليهود لا يثقون فى الجميع ويريدون القضاء على المسلمين بدماء قريش والقبائل الاخرى ، وهكذا انعدمت الثقة بينهم لتفرق الأهداف والمقاصد .

٥ ـ الصبر على الحصار :

يحتاج الصبر على الحصار الى قوات مدربة لها اهداف معلومة وقيادة مسيطرة ، أما القبائل فلا صبر لها على الحصار ، لانها اعتادت على التنقل بين فترة واخرى ، كما انها لا تطيق صبرا على فراق وطنها وأهلها مدة طويلة .

لذلك تذمر الأعراب من طول مدة الحصار ـ على قصرها ـ وآثروا الارتحال على الصبر .

دروس من غزوة الخندق

١ ـ القيادة : عالجنا أسلوب القيادة المرتبك عند الأحزاب واليهود ، مما كان له أسوأ الأثر على نتيجة

معركتهم .

وبقدر ما كانت قيادة الأحزاب واهنة ، كانت قيادة المسلمين قوية حازمة رشيدة قرر الرسول - ﷺ - البقاء فى المدينة ، وأمر بحفر الخندق ، وانتخب منطقة الحفر فى السهول الكائنة شمال المدينة ، ووزع اعمال الحفر بالتساوى بين أصحابه ، وسيطر على العمل ، فلا يستطيع احد ترك واجبه إلا بأمر منه ، حتى أنجز أعمال حفر الخندق قبل وصول المشركين .

واشتغل هو بنفسه بالحفر كبقية أصحابه تماما ، بل استأثر دونهم بالمحلات الصلبة التى لم يستطع اصحابه التغلب عليها - كفلق الصخور القاسية ! !

ثم قسم واجبات احتلال الموضع بين اصحابه ، بحيث لا يغفل احد عن شبر من الخندق ليلا ونهارا ، على الرغم من برودة الطقس ، وقد كان هو بنفسه لا يترك مقره الا ليقوم بتفتيش الحراس والمواضع الدفاعية وليشجعهم ويرفع من معنوياتهم ، وأهم من ذلك كله سيطرته على أصحابه عندما تأزم الموقف حين وصلت الأحزاب الى ضواحى المدينة بقوات متفوقة على المسلمين ، وحين نكثت قريظة عهدها ، فأصبح الخطر يهدد المسلمين من الداخل والخارج .

٢ - تعبئة جديدة : -

استفاد المسلمون من حفر الخندق للدفاع عن المدينة ، وهذا الأسلوب الجديد من أساليب القتال يدخل فى أساليب العرب الحربية لأول مرة فى التاريخ .

إن القائد العبقرى هو الذى يستخدم اسلوبا جديدا او سلاحا جديدا فى القتال ، والخندق هو الأسلوب الجديد الثانى الذى استخدمه الرسول - ﷺ - فى القتال ، بعد أن استخدم اسلوب الصفوف فى معركة بدر .

لقد أخذ الرسول - ﷺ - بفكرة حفر الخندق من سلمان الفارسى ، لذلك قال فيه كلمته الخالدة : (سلمان منا اهل البيت)[1] ، ليشجع على التفكير المفيد ويشيد بالعاملين للمصلحة العامة ويقطع دابر العصبيات .

٣ - الحرب خدعة : -

رأينا أثر الاشاعات التى بثها نعيم بن مسعود فى تفريق كلمة الأحزاب ؛ ولا يمكن نجاح الاحزاب او غيرهم الا بجمع الكلمة ، فلما تفرقت كلمتهم ، فشلوا ، إن الحرب الحديثة تعتمد على بث الاشاعات المثيرة لتصديع الصفوف وبلبلة الافكار ، وقسم بث الاشاعات من أهم أقسام شعب الاستخبارات فى تشكيلات الجيوش .

وبقدر ما كانت الاشاعة تعمل عملها فى صفوف الاحزاب ، فإن الاشاعة لم يكن لها أى أثر فى صفوف المسلمين .

حاول المنافقون ان يبثوا سموم اشاعتهم لتحطيم معنويات المسلمين ، ولكن محاولتهم فشلت .

وعندما ارسل الرسول - ﷺ - اصحابه لمعرفة موقف بنى قريظة ، وعاد هؤلاء اليه بعد ان تأكدوا

---

(١) مجمع الزوائد - كتاب المغازى والسير - باب غزوة الخندق ٦/١٣٠

من صحة إشاعة نكث بنى قريظة بعهدوها ، حرصوا على ان يخبروا الرسول - ﷺ - بهذا الخبر بأسلوب من الكلام لا يفهمه غير الرسول - ﷺ - نفسه « بالرموز » حتى لا يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين .

لقد عرف المسلمون اثر الاشاعة على المعنويات قبل اربعة عشر قرنا .

٤ - المبادأة : -

غزوة الخندق هى المعركة الحاسمة الثانية بعد معركة بدر الكبرى ، فلو نجح المشركون واليهود فى هذه المعركة لتغيرت وجهة التاريخ الاسلامى .

لقد استطاع اليهود ان يجمعوا الأحزاب حول المدينة ، وعاونهم اليهود من بنى قريظة ، للقضاء على المسلمين ، وهذا التجمع فرصة لا تعود ابدا ، خاصة اذا فشلت الاحزاب .

إن معنى فشل الاحزاب بعد هذا التجمع الهائل ، انهم لن يجتمعوا مرة اخرى وانهم لا يستطيعون القضاء على المسلمين بعد ذلك منفردين بعد ان عجزوا عن القضاء عليهم مجتمعين ، ولهذه النتيجة اثر حاسم على انتشار الاسلام فيما بعد .

لقد انتقل المسلمون من دور الدفاع الى دور الهجوم فى اليوم الذى انتهت به غزوة الخندق ، لذلك قال الرسول - ﷺ - لأصحابه بعد انسحاب الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا »[1] .

وانتقلت المبادأة الى يد المسلمين بعد هذه الغزوة ، ولم يتركوها حتى شمل الاسلام شبه الجزيرة العربية كلها ، وارتفعت راية الاسلام شرقا وغربا فوق كل راية ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا** ﴾ .

محاسبة الغادرين

الموقف العام

١ - **المسلمون** : استطاع المسلمون الثبات امام الأحزاب واليهود فى ظروف قاسية جدا ضد قوات العدو المتفوقة عليهم تفوقا ساحقا ، فثبتوا تجاه الخطر الداهم الذى يهددهم من خارج المدينة ومن داخلها .

وهذا النجاح وهذا الثبات جعل معنويات المسلمين فى وضع ممتاز لم يسبق له مثيل من قبل .

لقد تخلصوا من الاحزاب ، وبقى أمامهم بنوقريظة جيرانهم فى المدينة الذين لم يرعوا للجار حقا ولم يحافظوا على العهد ، وخانوا المسلمين فى أشد أوقات محنتهم ، فلابد من تصفية الحساب معهم .

٢ - **المشركون** : انسحب الاحزاب وقريش إلى ديارهم يحملون معهم كل معانى الفشل ، فلم تستطع قريش القضاء على المسلمين ، ولم تستطع القبائل الاخرى نهب اموال المسلمين ، ولم يعودوا بأية فائدة يمكن ان تخفف عنهم ما بذلوه من جهد فى السفر والحصار ايام الشتاء ، ومن مال صرفوه لامداد قواتهم

---

(١) البخارى باب غزوة الخندق ٥/١٤٧

بالمواد . والأرزاق قبل المعركة واثناءها وبعدها .

لقد اثر ذلك على معنويات المشركين ، وجعلهم يخافون المسلمين كل الخوف .

٣ ـ اليهود : بقى اليهود من بنى قريظة وحدهم بعد انسحاب الاحزاب ، وبقيت معهم غدرتهم الشنيعة التى فضحت طواياهم ، فأصبحوا كالمجرم الذى ثبتت ادانته فهو يرقب القصاص العادل . لقد كانت معنوياتهم منحطة للغاية ، إذ كانوا يتوقعون هجوم المسلمين عليهم ويعرفون نتيجة هذا الهجوم .

الهدف الحيوى

محاسبة الغادرين من اليهود على غدرهم بالمسلمين فى أشد اوقاتهم حرجا ، ومحاسبة القبائل التى غدرت بدعاة المسلمين .

غزوة بنى قريظة

١ ـ أسباب الغزوة : نكث بنى قريظة لعهدهم مع المسلمين عند تجمع الاحزاب حول المدينة .

قوات الطرفين :

أ ـ المسلمون : ثلاثة آلاف بقيادة الرسول ـ ﷺ ـ معهم ستة وثلاثون فارسا فقط .

ب ـ بنو قريظة : من ٦٠٠ ـ ٧٠٠ مقاتل بقيادة كعب بن اسد يعاونه حيى بن أخطب رأس اليهود الذين حشدوا الأحزاب وجمعوها حول المدينة .

٣ ـ الهدف : القضاء على بنى قريظة لنكثها بعهودها ، مما جعل المسلمين مهددين بالابادة .

٤ ـ الحوادث : عاد الرسول ـ ﷺ ـ إلى المدينة صباح الليلة التى انسحب الأحزاب فيها الى ديارهم وأمر أصحابه ظهر ذلك اليوم بالحركة إلى بنى قريظة والاسراع بالاطباق على حصونهم بحيث لا يصلون العصر إلا هناك ، وعلى الرغم من تعب المسلمين الشديد لبقائهم مدة طويلة محاصرين ، وعلى الرغم من برودة الطقس ، فقد أسرع المسلمون لتنفيذ امر الرسول ـ ﷺ ـ وانجزوا تجمعهم حول حصون بنى قريظة قبل ان يحل الظلام من ذلك اليوم ! واستمر الحصار خمسا وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا بعض المناوشات الطفيفة بالنبل والحجارة ، كان من اثرها استشهاد احد المسلمين مصابا برحى رمته بها امرأة يهودية من فوق سطح منزلها .

لم يجرؤ بنو قريظة على الخروج من حصونهم طيلة مدة الحصار ، وكانوا مترددين لا يستقر رأيهم على شيء من شدة الخوف . طلب منهم قائدهم ان يعتنقوا الاسلام ، فرفضوا ؛ فطلب منهم الخروج للقتال ، فرفضوا ايضا ، وبقوا فى حصونهم لا يفعلون شيئا .

واخيرا أرسل اليهود يعرضون الخروج إلى « أذرعات » تاركين وراءهم ما يملكونه ؛ فأبى الرسول الا أن يسلموا بدون قيد أو شرط .

وعاد اليهود يطلبون التسليم على أن يحكم سعد بن معاذ فى مصيرهم ، وقد اختاروه لأنه سيد الأوس حلفائهم فى الجاهلية ، لعل الرسول - ﷺ - يقبل من حلفاء الأوس ما قبل من يهود بنى قينقاع حلفاء الخزرج .

ورضى الرسول - ﷺ - بنزولهم على حكم سعد ؛ وقبل سعد ان يقوم بالتحكيم بين المسلمين من جهة واليهود من جهة اخرى بعد ان اخذ المواثيق على الطرفين ان يرضى كلاهما بقضائه ، فلما أعطوه المواثيق ، أمر بنى قريظة أن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح ، ففعلوا . .

وكان حكم سعد فيهم : « ان يقتل المقاتلون ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ، لأن سعدا ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بنى قريظة لكان مصير المسلمين الابادة من الوجود ، فجزاهم سعد بمثل ما عرضوا المسلمين له .

لم تكن حرب بنى قريظة حرب ميدان انما كانت حرب أعصاب ، فلم يستطع اليهود ان يتحملوا الحصار على الرغم من توافر المواد الغذائية لديهم وتوافر المياه والآبار ومناعة حصونهم وصعوبة اقتحامها ، فآثروا التسليم على مكابدة الحصار .

والحق ان الموقف العسكرى كان إلى جانبهم لتلك الأسباب كلها ولشدة تعب المسلمين ولبرودة الطقس ، ولكن معنوياتهم المنحطة انهارت ، فلم يقاوموا طويلا كما كان المؤمل وقتل مقاتلو بنى قريظة جميعا ومعهم حيى بن أخطب الذى تزعم حركة تجميع الأحزاب ضد المسلمين ، إلا ثلاثة رجال من اليهود اسلموا ، ولم يقتل من الأطفال والنساء أحد عدا المرأة التى قتل الشهيد المسلم برحاها ، فقتلت بجرمها هذا .

سرية عبد الله بن عتيك

١ - الهدف : قتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق اليهودى الذى حرض الاحزاب مع حيى بن أخطب ، ثم فر إلى يهود « خيبر » ليتخلص من العقاب .

الحوادث : بعد القضاء على بنى قريظة ، خرج من المدينة خمسة من الخزرج إلى خيبر ، للقضاء على أبى رافع بن أبى الحقيق وإلقاء الرعب فى قلوب يهود خيبر ، حتى لا يعيدوا الدور الذى قام به اليهود الآخرون ، وقد كانت هذه المفرزة بقيادة عبد الله بن عتيك .

وصل المسلمون « خيبر » ليلا ، فأمر عبد الله بن عتيك أصحابه بالبقاء قريبا من الحصن حتى يستطلع لهم موضع ابن ابى الحقيق ، فلما وصل حصنه استطاع دخوله وكمن فى اسطبل الحيوانات .

وعندما آوى ابن أبى الحقيق إلى فراشه وهدأت الأصوات والحركة ، خرج عبد الله فأخذ مفاتيح الحصن من موضعها الذى كانت فيه ، ثم ذهب الى غرفة ابن أبى الحقيق فناداه ليعرف مكانه من صوته ، لان الظلام كان يغمر الغرفة التى كان بها ابن ابى الحقيق ، ثم هجم بالسيف عليه حتى قضى عليه ، وانسحب الى اصحابه بعد ان سقط من الدرج وانكسرت رجله .

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد أزالوا من طريق الدعوة عدوا لدودا ، وتسامع الناس بعاقبة من يؤلب الناس ضد المسلمين ، مما زاد هيبة المسلمين فى النفوس وجعلهم يسيطرون سيطرة تامة على المدينة من كافة الوجوه ، فلم يبق اى صوت لليهود أو المنافقين .

غزوة بنى لحيان

١ ـ الهدف :

أ ـ عقاب بنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء الرجيع قبل عامين خلوا وهم ستة من الصحابة : اغتالت أربعة منهم وباعت الاثنين الباقيين لقريش ، فضربت قريش عنق احدهما وصلبت الثانى .

ب ـ التأثير على معنويات قريش والقبائل الأخرى .

٢ ـ الحوادث :

علم الرسول ـ ﷺ ـ بمحاولة قريش التجمع مع حلفائها لغزو المسلمين ، ففكر فى الحركة اليهم للتأثير على معنويات قريش والقبائل الأخرى والتعرض لبنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين . .

أظهر الرسول ـ ﷺ ـ أنه يريد الشام حتى يستطيع مباغتة بنى لحيان دون ان يعرفوا بحركته اليهم ، فتحرك بقواته شمالا ، فلما أطمأن إلى انتشار أخبار حركته إلى الشمال باتجاه الشام ، عاد راجعا باتجاه مكة مسرعا فى حركته حتى بلغ منازل بنى لحيان « بغران » ، ولكن بنى لحيان فروا إلى رءوس الجبال ، واستطاعوا النجاة بأرواحهم وأموالهم . عند ذاك ترك الرسول ـ ﷺ ـ القسم الأكبر من قواته فى « غران » وسار على رأس مائتى راكب باتجاه مكة حتى وصل « عسفان » شمال مكة للتأثير على معنويات قريش ، فلم تخرج قريش للقائه ، ثم عاد المسلمون إلى المدينة متحملين شدة الحر ، بعد ان أثروا على معنويات القبائل وجعلوهم يخافون المسلمين اشد الخوف .

غزوة ذى قرد

١ ـ الهدف : مطاردة عيينة بن حصن مع جماعة من غطفان لإعادة ابل المسلمين التى انتهبها المشركون .

الحوادث :

أغار عيينة بن حصن الفزارى على أطراف المدينة ، فوجد هناك بعض اللقاح ترعى بحراسة مسلم وامرأته ، فقتل عيينة وأصحابه الرجل وهو ابن ابى ذر الغفارى ، وساقوا الابل واحتملوا المرأة .

ولكن سلمة بن عمرو بن الأكوع الاسلمى بصر بالقوم وقد اقتادوا الابل فأنذر المسلمين فنادى : الفزع الفزع : فنودى : ياخيل الله اركبى ! وكان أول ما نودى بها ! وقام سلمة بمطاردة عيينة وأصحابه وحده ، حتى لحق به المسلمون الذين استطاعوا تخليص الابل والمرأة المسلمة بعد ان وصلوا بمطاردتهم ماء « بذى قرد » .

وجاء من يخبر المسلمين ان عيينة وأصحابه وصلوا موضعا بعيدا عن « ذى قرد » فنحروا لهم جزورا ، فلما كشطوا عنها جلدها رأوا غبارا ، فتركوا جزورهم فى محلها وهربوا بسرعة ، لانهم ظنوا أن المسلمين اقتربوا من مواضعهم ولم يكد هؤلاء الاعراب يصدقون انهم يستطيعون النجاة بأنفسهم ! ! !

سرايا توطيد الأمن وتشديد الحصار الاقتصادى

١ - **الهدف** : تأمين المدينة القاعدة الامينة للاسلام وفرض سيطرة المسلمين على القبائل التى حولها وتشديد وطأة الحصار الاقتصادى على قريش وحلفائها .

٢ - **الحوادث** : -

أ - سرية عكاشة بن محصن الاسدى الى الغمر :

وجه رسول الله - ﷺ - عكاشة بن محصن الاسدى فى شهر ربيع الأول سنة ست للهجرة الى « الغمر » فى أربعين رجلا ، فخرج سريعا يغذ السير ، ولكن الاعراب علموا بمسيره اليهم فهربوا وتركوا ديارهم خالية ، فاستاق المسلمون مائة بعير وعادوا الى المدينة دون ان يلقوا كيدا .

ب - سرية محمد بن مسلمة إلى « ذى القصة »

بعث رسول الله - ﷺ - محمد بن مسلمة فى ربيع الآخر سنة ست للهجرة الى بنى ثعلبة وبنى عوال من ثعلبة وهم (بذى القصة) فى عشرة نفر ، فوردوا عليهم ليلا ، ولكن الاعراب وهم مائة رجل استطاعوا قتل أصحاب محمد بن مسلمة وجرحه فبعث رسول الله - ﷺ - ابا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا إلى مصارع المسلمين فلم يجدوا احدا ووجدوا نَعَماً وشاء فساقه ابو عبيدة ورجع إلى المدينة .

ج - سرية ابى عبيدة بن الجراح الى ذى القصة : -

بعث رسول الله - ﷺ - ابا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا فى شهر ربيع الآخر إلى (ذى القصة) إلى بنى محارب وأغار الذين اجمعوا ان يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى « بهيفا » فمشوا اليهم بعد صلاة المغرب حتى وافوا (ذا القصة) فى عماية الصبح ، فأغاروا عليهم ، فهرب الاعراب ، واصاب ابو عبيدة رجلا واحدا فأسلم وتركه وأخذ نعما من نعمهم فاستاقه كما اخذ متاعهم وقدم بذلك إلى المدينة .

د - سرية زيد بن حارثة إلى سليم بالجموم : -

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة فى شهر ربيع الآخر سنة ست للهجرة إلى بنى سليم فسار حتى ورد (الجموم) فأصاب نعما وشاء وأسرى ، ثم عاد بأصحابه إلى المدينة .

هـ - سرية زيد بن حارثة إلى العيص : -

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة الكلبى فى جمادى الأولى سنة ست للهجرة يتعرض لعير قريش فى طريق عودتها من الشام الى مكة ، فأخذ المسلمون العير وما فيها وأسروا ناسا ممن كان فى العير وعادوا الى المدينة .

و- سرية زيد بن حارثة إلى الطرف :-

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة الكلبى فى جمادى الآخرة سنة ست للهجرة الى الطرف فخرج إلى بنى ثعلبة فى خمسة عشر رجلا فأصاب نعما وشاء ، وهربت الأعراب وصبح زيد بالنعم إلى المدينة بعد أن غاب أربع ليال دون أن يلقى كيدا .

ز - سرية زيد بن حارثه إلىٰ حسمى

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثه الكلبى فى جمادى الآخره سنة ست للهجرة إلى (حسمى) فى خمسمائة رجل ، فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل من بنى عذرة ، فلما وصل (حسمى) هجم على القوم مع الصبح فقتلوا فيهم فأوجعوا وأغاروا على ما شيتهم فأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاة خمسة آلاف شاة ومن السبى مائة من النساء والصبيان .

ولكن زيد بن رفاعة الجذامى رحل فى نفر من قومه إلى رسول الله - ﷺ - فدفع اليه كتابه الذى كان كتب له ولقومه ليالى قدم عليه فأسلم ، فعبث على بن أبى طالب إلى زيد بن حارثة يأمره ان يخلى بينهم وبين اموالهم وحرمهم .

وكان سبب هذه الغزوة أن دحيه بن خليفة الكلبى اقبل مرة عند قيصر فى طريق عودته الى المدينة ، فلقيه الهنيد بن عارض وابنه عارض ابن الهنيد فى ناس من جذام بحسمى ، فقطعوا عليه الطريق فلم يتركوا عليه إلا سمل ثوب ، فقدم دحية على النبى - ﷺ - فأخبره بذلك ، فبعث زيدا لاعطاء درس قاس لجذام حتى لا يعودوا لمثلها ابدا .

ح - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل :-

بعث رسول الله - ﷺ - عبد الرحمن بن عوف فى شعبان سنة ست للهجرة الى بنى كلب فى دومة الجندل ، وقبل أن يبعثه دعاه فأقعده بين يديه وعممه بيده وقال : (اغز باسم الله وفى سبيل الله فقاتل من كفر بالله ! لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدا !)[1] .

سار عبد الرحمن حتى قدم « دومة الجندل » فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الاسلام ، فأسلم الأصبع بن عمرو الكلبى وكان نصرانيا وكان رأسهم ، واسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقام من أقام على إعطاء الجزية .

ط - سرية على بن أبى طالب إلى بنى بكر بفدك

بلغ رسول الله - ﷺ - ان جمعا من بنى سعد بن بكر يريدون ان يمدوا يهود خيبر ، فبعث اليهم على بن أبى طالب فى مائة رجل ، فسار الليل وكمن النهار حتى انتهى إلى « الهجع » فوجدوا به رجلا فسألوه عن القوم فقال : أخبركم على أنكم تؤمنونى ، فأمنوه فدلهم ، فأغاروا عليهم ، فأخذوا خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد وقدم على المدينة ولم يلق كيدا .

ى - سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادى القرى :

خرج زيد بن حارثة فى تجارة الى الشام ومعه بضائع لاصحاب النبى - ﷺ - فلما كان دون (وادى القرى) لقيه ناس من بنى بدر فضربوه وضربوا اصحابه واخذوا ما كان معهم .

وعاد زيد الى المدينة فبعثه رسول الله - ﷺ - فى شهر رمضان سنة ست للهجرة اليهم ، فكمنوا النهار

(١) مسند احمد ٢٤٠/٤

وساروا الليل ، وعلم بنو بدر بحركة المسلمين اليهم ولكن زيدا وأصحابه صبحوهم واخذوا منهم اسرى وعاد زيد الى المدينة وبشر رسول الله - ﷺ - بنصر الله .

ك - سرية عبد الله بن رواحة الي اسير بن زارم : -

لما قتل ابو رافع سلام بن ابى الحقيق امرت اليهود عليهم أسير بن زارم . فسار فى غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب المسلمين .

وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فوجه عبد الله بن رواحة فى ثلاثة نفر فى شهر رمضان سنة ست للهجرة سرا فسأل عن خبر أسير فأخبر بذلك وقدم ابن رواحه على النبى - ﷺ - واخبره خبر أسير ، فندب الناس فانتدب له ثلاثون رجلا ، فبعث عليهم عبد الله بن رواحه ، فقدموا على أسير وقالوا : إن رسول الله - ﷺ - بعثنا اليك لتخرج اليه فيستعملك على خيبر ويحسن اليك ، فطمع فى ذلك ، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلا من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين حتى اذا كانوا « بقرقرة ربثار » ندم اسير واراد الغدر بالمسلمين ولكن المسلمين حملوا عليهم فقتلوا اصحابه جزاء غدرهم .

وعادوا الى المدينة فأخبروا رسول الله - ﷺ - بغدر اليهود ، فقال : (نجاكم الله من القوم الظالمين) .

ل - سرية كرز بن جابر الفهرى الى العرانيين : -

قدم نفر من « عرينة » ثمانية على رسول الله - ﷺ - فأسلموا ، فأمر بهم إلى لقاحه وكانت ترعى فى منطقة (قباء) على ستة أميال من المدينة ، فكانوا فيها حتى صحوا وسمنوا فغدوا على اللقاح فاستاقوها ، فأدركهم يسار مولى رسول الله - ﷺ - ومعه نفر فقاتلهم فقذعوا يده ورجله وغرزوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات .

وبلغ رسول الله - ﷺ - الخبر ، فبعث فى اثرهم عشرين فارسا واستعمل عليهم كرز بن جابر الفهري فأدركوهم واحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم ثم اردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة ، فقتلوا .

م - سرية عمرو بن أمية الضمرى : -

قال ابو سفيان لنفر من قريش « الا احد يغتال محمدا ، فإنه يمشى فى الاسواق ؟ » فأتاه رجل من الأعراب متطوعا لقتل النبى الكريم ، فأعطاه ابو سفيان بعيرا ونفقة وقال : « إطو أمرك » فخرج ليلا حتى قدم المدينة بعد خمسة أيام .

ولما رأى رسول الله - ﷺ - هذا الأعرابى رابه امره فقال : « إن هذا ليريد غدرا » .

وحاول الاعرابى اغتيال رسول الله - ﷺ - فجذبه أسيد بن الحضير فأسره من إزاره فوجد خنجرا لديه ، فقال له رسول الله - ﷺ - : - (أصدقنى ما أنت ؟) قال : وأنا آمن ؟ ، قال : « نعم » فأخبره بأمره وما جعل له ابو سفيان ، فخلى عنه .

وبعث رسول الله - ﷺ - عمرو بن أمية وسلمة بن أسلم إلى أبى سفيان بن حرب وقال : « إن اصبتما منه غرة فاقتلوه » ، فدخلا مكة ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلا فرآه معاوية بن أبى

سفيان فعرفه ، فأخبر قريشا بمكانه ، فخافوه وطلبوه .

وهرب عمرو وسلمة ، وقتل عمرو فى طريق عودته إلى المدينة رجلين مشركين .

دروس من غزوات محاسبة الغادرين

١ ـ الوقت : ـ

انسحبت الأحزاب عن المدينة ، وعاد المسلمون إلى ديارهم صباح ليلة الانسحاب ، واصدر الرسول ـ ﷺ ـ امره الانذارى للحركة إلى بنى قريظة ظهر ذلك اليوم نفسه ، على الا يصلى المسلحون العصر الا فى ديار بنى قريظة .

لقد ادرك الرسول ـ ﷺ ـ بثاقب فكرة أهمية الوقت فى الحصول على نتائج باهرة فى القتال ، فلو أن الرسول ـ ﷺ ـ أبطأ بحركته هذه ، لاستفاد اليهود من الوقت فى الاستعانة بحلفائها أو إقناع اليهود الأخرين بمعاونتهم ، أو التشبث بالحصول على قوات من القبائل لتساند قوتهم ، ولكان بإمكانهم إكمال قضاياهم الادارية التى يحتاجون اليها فى القتال ، حتى يستطيعوا الصمود فى حصارهم أطول مدة ممكنة .

ولكن إسراع الرسول ـ ﷺ ـ بحركة قواته لتطويقهم ، حالت بين اليهود وبين كل ذلك ، إذ لم يكن اليهود يعلمون بالموعد الأكيد لانسحاب الاحزاب ليسبقوا النظر فى إعداد كافة متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين .

بل إن حركة المسلمين السريعة لم تترك لهم الوقت الكافى لليهود لتنظيم أى خطة على الاطلاق ، فقد ظهر لنا من سير الحوادث فى غزوة بنى قريظة ان اليهود لم يفعلوا شيئا ، وكانوا مترددين فى كل شيء ، وأكثر من ذلك فإن حركة المسلمين المبكرة شلت معنويات اليهود وقضت على روح المقاومة فيهم ، فلم يستطيعوا أن يستفيدوا من المحسنات العسكرية التى كانت بجانبهم والتى كان بإمكانهم ـ لو أحسنوا التصرف ـ الاستفادة من هذه المحسنات لكى يقاوموا المسلمين وقتا غير قصير . حصونهم قوية ومنيعة وعددهم كبير ، وسلاحهم وفير ، والأرزاق والماء متيسران ، كل ذلك يساعدهم على الصمود ، ولكن هذ المحسنات العسكرية التى بجانب اليهود لا تفيد شيئا مادامت معنوياتهم منحطة تماما ، ولولا استفادة الرسول ـ ﷺ ـ من الوقت لتحسنت معنويات اليهود ولاستطاعوا ان يقوموا بدور أكثر حزما من الدور الذى قاموا به أثناء حصارهم .

ومما يزيد من قيمة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت ، ان ظروفهم لم تكن حسنة بعد انسحاب الأحزاب .

لقد كانوا منهوكى القوى لسهرهم على حراسة مواضعهم حوالى شهر فى موقف عصيب يحطم اعصاب أشجع الشجعان .

وكان الطقس باردا ، وقد تحملوا البرد فى العراء وقتا طويلا اثناء حصارهم ، فلما انسحبت

الاحزاب آن لهم ان ينالوا بعض الدفء فى بيوتهم القريبة . وكانت قضاياهم الادارية بشكل لا يحسدون عليه ، اذ ما هى إمكانات اعاشتهم مثلا وهى اهم ما يديم قوة المقاتلين ؟ خاصة ان الجندى يمشى على بطنه كما يقولون .

إن عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل بغرض الاسراع بتطويق حصون بنى قريظة يدعو إلى الاعجاب والتقدير .

٢ - المباغته . . . -

تكون المباغتة بالوقت والمكان والأسلوب .

المباغتة بالمكان ، أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو . والمباغتة بالزمان ان تقوم بحركة فى وقت لا يتوقعه العدو . والمباغتة بالاسلوب ان تقوم بالقتال بأسلوب جديد او بسلاح جديد .

والقائد العبقرى هو الذى يحاول ان يباغت خصمه حتى يقضى عليه ماديا ومعنويا ؛ لأن المباغتة ، الناجحة تشل حركة العدو وتقضى عليه كليا .

لقد طبق الرسول - ﷺ - أساليب المباغتة ، لقد رأينا كيف باغت الأحزاب بأسلوب جديد فى القتال هو حفر الخندق ، كما رأينا كيف أنه باغت قريشا بالقتال بأسلوب الصفوف .

وفى غزوة بنى قريظة باغت اليهود بالزمان فى حركته بسرعة ما كانوا ليتوقعوها ، فشل من معنوياتهم واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة .

وفى غزوة بنى لحيان تحرك شمالا باتجاه الشام حتى لا يعرف بنو لحيان وقريش اتجاه حركته الحقيقية ، وبذلك باغتهم بالمكان إن المباغتة أهم مبادىء الحرب قديما وحديثا ، وقد حرص المسلمون على تطبيق هذا المبدأ فى أكثر غزواتهم ، مما ساعدهم على النصر .

٣ - القصاص : -

القصاص العادل الذى أصاب بنى قريظة بعد تسليمهم ، يقره كل إنسان واقعى سليم التفكير والانصاف .

لقد طعن هؤلاء اليهود المسلمين فى احرج وقت من أوقات محنتهم ، ولو لم يكن هناك عهد بينهم وبين المسلمين لهان الخطب ولوجدنا بعض العذر لهم ، ولكن أى عذر لهم وقد خانوا العهد فى مثل تلك الظروف ، وأحب ان اتساءل : لو نجح الأحزاب فى غزوة الخندق ، فماذا كانوا يفعلون بالمسلمين ؟ ألم تكن عاقبة المسلمين الابادة والتمثيل ؟ فلماذا لا يبيدون الذين حاولوا معاونة اعدائهم على إبادتهم ؟ لقد أفسح المسلمون المجال أمام بنى قينقاع وبنى النضير من اليهود للجلاء الى خيبر أو إلى ضواحى الشام ، فماذا كانت النتيجة ؟ أثار هؤلاء اليهود الاحزاب وحشدوهم أمام خندق المدينة للقضاء على المسلمين . ومع ذلك فالموقف جد مختلف بين هؤلاء اليهود وبين يهود بنى قريظة . إذ أن خيانة هؤلاء ونكثهم عهودهم كان فى أحرج الأوقات وأشدهم خطورة على مستقبل الاسلام والمسلمين .

فهل يبقى المسلمون سلما على بنى قريظة ليقوموا بدور اسلافهم بنى قينقاع وبنى النضير ؟ . .

﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾[١] .

لقد كان بإمكان هؤلاء اليهود ان يتخلصوا من القتل لو أعلنوا إسلامهم كما فعل ثلاثة رجال منهم ، فنجوا بحياتهم وأموالهم .

ولم يقض المسلمون بالقتل إلا على الرجال الذين قاتلوهم فعلا بعد أن خانوا عهودهم وعرضوا المسلمين للابادة ، أما الأطفال والنساء فلم يصابوا بأذى ، كما أن الذين ثبتوا على عهودهم من اليهود لم يصابوا بسوء .

والمرأة الوحيدة التى قتلت من بنى قريظة هى التى قتلت مسلما بقذفه بالرحى من فوق سطحها ، وإنما كان قتلها على جريمتها هذه لا بسبب آخر . اما قتل أبى رافع بن أبى الحقيق ، فلأنه أحد رءوس اليهود الذين حرضوا الأحزاب ، وقتله عبرة لغيره من الذين يحاولون محاولته فى المستقبل وحتى قوانين الحرب الدولية الحديثة تجيز القتل فى مثل هذا الموقف ، فهذا اليهودى كان من بنى النضير الذين أرادوا اغتيال الرسول - ﷺ - فحاصرهم وتغلب عليهم واضطرهم الى الاستسلام ، ثم سمح لهم بالرحيل بعيدا عن المدينة على ألا يعودوا إلى قتاله أو التحريض عليه ، فإذا نكث هذا بالعهد وحرض الأحزاب على تطويق المدينة ، وحرض بنى قريظة على نكث عهدهم مع المسلمين ، إذا كانت هذه أعماله بعد ان أطلقه الرسول - ﷺ - مع قومه بعد استسلامهم ، فمن حق المسلمين ان يقتلوه كمجرم حرب لا كمحارب شريف .

وما يقال عند ذلك يقال عن سرايا القصاص التى بعثها الرسول - ﷺ - لمحاسبة الغادرين الآخرين .

لقد كان قصاص المسلمين من اليهود ومن غيرهم ضروريا وعادلا .

٤ - العقيدة : -

ظهر لنا فى هذه الفترة من كفاح الرسول - ﷺ -، أثر العقيدة فى توحيد الصفوف للعمل للمصلحة العامة وحدها ، وأثرها فى اندفاع المسلمين ، كل يسابق اخاه إلى الشهادة ، وأثرها فى جعل المسلم يحاسب نفسه على ما اقترفه من ذنب لا يعلم به احد غيره من الناس .

طلبت بنو قريظة من المسلمين حضور أبى لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه ، وقد كان ابو لبابة حليفا لهم فى الجاهلية وصديقا شريفا لا يشكون فى إخلاصه ، فأرسله الرسول - ﷺ - فاستقبله الرجال والنساء والأطفال بالبكاء والعويل ، فأثر ذلك على نفسيته كإنسان . واستشاره اليهود : اينزلون على حكم محمد؟ فقال لهم : « نعم » وأشار إلى حلقه كأنه ينبههم إلى أن مصيرهم الذبح .

ولكن ابا لبابة ادرك لفوره انه خان الرسول - ﷺ - « بإشارته » تلك وانه خضع لشعوره لا لعقيدته فيما وقع منه ، فمضى هائما على وجهه نادما حتى وصل مسجد المدينة ، فربط نفسه إل سارية فيه ، وحلف لا يفك نفسه حتى يتوب الله عليه .

وبقى على حاله هذا متشفعا بالرسول - ﷺ - حتى تاب الله عليه ، لم يعرف احد بإشارة ابى لبابة

---

(١) سورة التوبة الآية : ١٤

إلى حلقه حين استشاره اليهود فى التسليم ، ولم تكن اشارته هذه نتيجة تدبر وتفكير ، ومع ذلك لم يستر ابو لبابة فعلته هذه وأعلنها للناس جميعا وعاقب نفسه بنفسه عقابا صارما مما يدل على عقيدته الراسخة وايمانه العظيم .

وحكم سعد بن معاذ على بنى قريظة بأن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال يدل على عقيدته الراسخة ايضا .

لقد كان سعد سيد الأوس حلفاء بنى قريظة فى الجاهلية ، وقد توقع اليهود ان تنفعهم هذه الصلة القوية عند الحكم عليهم ، كما توقع الأوس ايضا ان يتساهل سعد مع اصدقائهم الاقدمين ، بل استقبله الأوس حين قدومه للحكم هاتفين : ياأبا عمرو! أحسن فى مواليك .

وقد أحسنت الخزرج قبل ذلك فى مواليها اليهود عندما استسلموا للمسلمين ، فلماذا لا يحسن الأوس فى مواليهم مثلما احسن الخزرج ؟ ولكن سعدا صاح بقومه وقد اكثروا عليه الرجاء : « قد آن لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم » .

وأصدر سعد حكمه العادل غير متأثر بالأهواء بل بعقيدته الراسخة فقط وايمانه العظيم : ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[1] .

وماذا يعنى دخول عبد الله بن عتيك وحده الحصن الذى يسكنه اليهودى ابو رافع بن ابى الحقيق فى وسط اهله وعشيرته ، وتعرض عبد الله نفسه للخطر الداهم بينما ترك اصحابه خارج الحصن فى أمان ؟ !

هل يعنى هذا العمل الا استئثار القائد لنفسه بالخطر دون اصحابه طمعا فى الشهادة ، فقد كان بإمكانه تكليف احد اصحابه بهذا الواجب ، ولكنه آثر ان يقوم بنفسه بهذا العمل كله ، فنجح فى القضاء على ابن ابى الحقيق ، والتحق بأصحابه ليلا بعد أن كسرت رجله أثناء نزوله من سطح الحصن . . هذه الأمثلة التى ظهرت لنا فى هذه الفترة من حياة المسلمين ومثلها كثير ، تدل بوضوح على رسوخ العقيدة فى نفوسهم ، مما جعلهم يستهينون بكل شىء فى سبيل عقيدتهم .

٥ ـ القضايا الادارية : ـ

ـ الغنائم : ـ

قسمت غنائم بنى قريظة على المسلمين : سهم للراجل وثلاثة اسهم للفارس منها سهمان للفرس ، وذلك تشجيعا للاكثار من الخيل لفائدتها الكبيرة فى القتال ، وبقى الخمس للرسول ـ ﷺ ـ لتوزيعه على المحتاجين ولتأمين اعاشة وركوب وسلاح المجاهدين الذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم فى الجهاد .

لقد تحسنت الحالة الاقتصادية للمسلمين بهذه الغنيمة ، فاستطاعوا الاستغناء عن بعضها لشراء الخيل والاسلحة من نجد ! استعدادا للحركات المقبلة .

ب ـ الماء : ـ

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٧٧

عندما وصل المسلمون إلى حصون بنى قريظة ، سيطروا على بئر تعود لبنى قريظة بسرعة خاطفة للاستفادة من مائها فى أيام الحصار .

ولولا سرعة المسلمين فى الاستيلاء على هذه البئر ، لكان من المؤكد ان تقوم قريظة بتدميرها حتى تحرم المسلمين من مياهها الضرورية لهم فى القتال .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** ﴾ .

رواية الامام ابن كثير : ـ

قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين فى صرفه اعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور ، وكان سبب قدوم الاحزاب ان نفرا من أشراف يهود بنى النضير الذين كانوا قد اجلاهم رسول الله ـ ﷺ ـ من المدينة إلى خيبر منهم سلام بن أبى الحقيق وسلام بن مسكم وكنانة ابن الربيع خرجوا الى مكة فاجتمعوا باشراف قريش وألبوهم على حرب النبي ـ ﷺ ـ ووعدوهم من أنفسهم النصر والاعانة فأجابوهم إلى ذلك ثم خرجوا الى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم ايضا ، وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها وقائدها ابو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن ابن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف فلما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ بمسيرهم امر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلى الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله ـ ﷺ ـ التراب وحفر ، وكان فى حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريبا من أحد ونزلت طائفة منهم فى أعالى ارض المدينة كما قال الله تعالى ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم** ﴾ وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف وقيل سبعمائة فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم الى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة ان تصل إليهم وجعل النساء والذرارى فى آطام المدينة ، وكانت بنوقريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقى فى المدينة ولهم عهد من النبى ـ ﷺ ـ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب اليهم حيى بن أخطب النضرى فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالأوا الأحزاب على رسول الله ـ ﷺ ـ فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ **هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ ومكثوا محاصرين للنبى ـ ﷺ ـ واصحابه قريبا من شهر الا أنهم لا يصلون اليهم ولم يقع بينهم قتال ، إلا ان عمرو بن ود العامرى وكان من الفرسان الشجعان المشهورين فى الجاهلية ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين فندب رسول الله ـ ﷺ ـ خيل المسلمين إليه فيقال انه لم يبرز اليه احد ،

فأمر عليا - رضى الله عنه - فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله على - رضى الله عنه - فكان علامة على النصر . ثم ارسل الله - عز وجل - إلى الاحزاب ريحا شديدة الهبوب قوية حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين كما قال الله - عز وجل - : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا** ﴾ قال مجاهد وهى الصبا ، ويؤيد الحديث الآخر : (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)[1] . وقال ابن جرير بسنده عن عكرمة قال : (قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقى ننصر رسول الله - ﷺ - فقالت الشمال : إن الحرة لا تسرى بالليل قال : فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا)[2] ورواه ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فذكره . وقال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما- قال أرسلنى خالى عثمان بن مظعون - رضى الله عنه - ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة فقال : (ائتنا بطعام ولحاف قال فاستأذنت رسول الله - ﷺ - فأذن لى وقال : (من اتيت من اصحابى فمرهم يرجعوا) قال : فذهبت والريح تسفى كل شيء فجعلت لا ألقى أحدا الا امرته بالرجوع إلى النبى - ﷺ - قال : فما يلوى احد منهم عنقه ، قال : وكان معى ترس لى فكانت الريح تضربه على وكان فيه حديد قال : فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى فأبعدها إلى الأرض[3]

وقوله ﴿ وجنودا لم تروها ﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف فكان رئيس كل قبيلة يقول : يابنى فلان إلى فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء ، لما ألقى الله - عز وجل - فى قلوبهم من الرعب ، .

وقال محمد بن إسحاق بسنده عن محمد بن كعب القرظى قال : (قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة ابن اليمان - رضى الله عنه - ياأبا عبد الله رأيتم رسول الله - ﷺ - وصحبتموه ؟ قال : نعم ياابن اخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال والله لقد كنا نجهد ، قل الفتى والله لو أدركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا قال : قال حذيفة - رضى الله عنه - ياابن اخى والله لو رأيتنا مع رسول الله - ﷺ - بالخندق وصلى رسول الله - ﷺ - هويا من الليل ثم التفت فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ - يشترط له النبى - ﷺ - ان يرجع - ادخله الله الجنة)[4] .

قال فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله - ﷺ - هويا من الليل ثم التفت الينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله - ﷺ - هويا من الليل ثم التفت الينا فقال : (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشترط له رسول الله - ﷺ - الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة) فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم احد دعانى رسول الله - ﷺ - فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال - ﷺ - (ياحذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ما

---

(١) البخارى - كتاب الاستسقاء - باب قول النبى - ﷺ - نصرت بالرعب ٤٠/٢
(٢) تفسير الطبرى ٨٠/٢١
(٣) تفسير الطبرى ٨٠/٢١
(٤) مسند الامام أحمد ٣٩٢/٥

يفعلون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا) قال فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله ـ عز وجل ـ تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قرارا ولا نارا ولا بناء فقام ابو سفيان فقال : يامعشر قريش لينظر كل امرىء من جليسه قال حذيفة ـ رضى الله عنه ـ فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى فقلت من أنت ، فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال ابو سفيان : يامعشر قريش انكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمك لنا بناء فارتحلوا فإن مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله ـ ﷺ ـ: ألا تحدث شيئا حتى تأتينى لو شئت لقتلته بهم ، قال حذيفة ـ رضى الله عنه ـ فرجعت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو قائم يصلى فى مرط لبعض نسائه مرحل فلما رآنى أدخلنى بين رجليه وطرح على طرف المرط ثم ركع وسجد وإنى لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين الى بلادهم . واخرج ابو داود فى سننه منه « كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا حزبه أمر صلى »[1] .

قوله تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾ أى : الأحزاب . ومن أسفل منكم والمقصود بهم بنوقريظة ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ أى : من شدة الخوف والفزع ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ وفيه أقوال : قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ـ ﷺ ـ أن الدائرة على المؤمنين وأن الله سيفعل ذلك ، وقال محمد بن اسحاق فى قوله تعالى : ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير اخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب الى الغائط ، وقال الحسن فى قوله ـ عز وجل ـ ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظنون مختلفة ظن المنافقون ان محمدا ـ ﷺ ـ وأصحابه يستأصلون . وأيقن المؤمنون ان ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقال ابن ابى حاتم بسنده عن ابى سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال : قلنا يوم الخندق يارسول الله هل من شىء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : ـ ﷺ ـ نعم ، قولوا ﴿ اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ﴾[2] قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح وكذا رواه الامام احمد بن حنبل عن أبى عامر العقدى .

قوله تعالى : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ .

وهذا بيان لحال المؤمنين عندما حوصرت مدينتهم وحوصروا من الأحزاب لقد نزل بهم بلاء عظيم حتى زلزلت النفوس من الخوف والفزع زلزالا شديدا ولا عجب فإن النفس البشرية قد يعتريها

---

(١) ابو داود فى سننه ـ كتاب الصلاة ـ باب وقت قيام النبى ـ ﷺ ـ من الليل ٧٨/٢ ـ ١٣١٩
(٢) مسند أحمد ٣/٣

الخوف والأمان والفزع والطمأنينة والرجاء والقلق وحينئذ نجم النفاق وتحركت آثاره فى قلوب المرضى حتى قال قائلهم : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ لا حقيقة لتلك الوعود وهكذا النفوس المريضة اذا تحركت فيها عقارب البغضاء وهاجت فى جحورها ثعابين الحقد فالمنافقون ومرضى القلوب فى كل زمان ومكان عالة على المجتمع فى السراء وسوس ينخر فى عظام الأمة فى البأساء والضراء وحين البأس قال تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ، وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزؤ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا للصلاة قاموا كسالا يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا . إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب ﴾ المقصود بيثرب المدينة كما جاء فى الصحيح : (رأيت فى المنام دار هجرتكم ارضا بين حرتين فذهب وهلى أنها هجر فإذا هى يثرب)[(٢)] وفى لفظ المدينة . ويقال إنما كان اصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق يقال له يثرب بن عبيد بن مهلاييل بن عوض بن عملاق بن لاوذبن إرم بن سام بن نوح . قاله الهيلى ، قال وروى عن بعضهم أنه قال ان لها فى التوراة أحد عشر اسما : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة .

وقوله : ﴿ لا مقام لكم ﴾ أى : لا إقامة لكم فى ميدان القتال مع رسول الله - ﷺ - فارجعوا إلى المدينة ثم بعد ذلك ابتدعوا من الأعذار ما يدل على سوء طويتهم وخبث نفوسهم وسواد قلوبهم . قالوا ﴿ ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنه - المراد بالطائفة بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق .

قال ابن اسحاق ان القائل لذلك هو اوس بن قيظى يعنى اعتذروا فى الرجوع الى منازلهم بأنها عورة اى ليس دونها ما يحجبها من العدو فهم يخشون عليها منهم قال الله تعالى : ﴿ وما هى بعورة ﴾ أى ليست كما يزعمون ﴿ إن يريدون الا فرارا ﴾ أى هربا من الزحف .

---

(١) سورة النساء الآيتان : ١٣٨ ، ١٣٩

(٢) البخارى - كتاب المناقب ٢٤٧/٤ وكتاب مناقب الأنصار - باب هجرة النبى - ﷺ - واصحابه الى المدينة ٧١/٥ وكتاب التعبير - باب اذا رأى بقرا تنحر ٥٢/٩ ومسلم - كتاب الرؤيا - باب رؤية النبى - ﷺ - ١٧٧٩/٤ رقم ٢٢٧٢

قوله تعالى : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سئلوا الفتنة وهى الدخول فى الكفر لكفروا سريعا وهم لا يحافظون على الايمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع ، هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير وهذا ذم لهم فى غاية الذم ، ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف : ألا يولوا الأدبار ولايفروا من الزحف ﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾ أي : وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لابد من ذلك ، ثم اخبرهم ان فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم بل ربما كان ذلك سببا فى تعجيل اخذهم غرة ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا لا تمتعون إلا قليلا ﴾ أى : بعد هربكم وفراركم ﴿ قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ﴾[1] ثم قال تعالى : ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله ﴾ أى يمنعكم ﴿ إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منك والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس الا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ .

هذا إخبار عن علم الله المحيط بكل شيء ومما علم الله تعالى علم بهؤلاء المعوقين المعرقلين الذين يمنعون غيرهم من الزحف المقدس جهادا فى سبيل الله ويقولون لاخوانهم وعشائرهم (هلم إلينا) وأقبلوا علينا لنعيش فى الظلال والثمار ﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ أى : أنهم عازفون عن الجهاد وحضور الغزو وشهود المعارك ، إن الله يعلم ما عليه هؤلاء ولن يقعد قوم عن الجهاد الا ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

قوله تعالى : ﴿ أشحة عليكم ﴾ أى : بالخير فهم بخلاء أنانيون ﴿ قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ . إنهم ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت

---

(١) سورة النساء الآية : ٧٧

إن كنتم صادقين ﴾[١] فرد عليهم المولى الكريم بقوله ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ـ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب اليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾[٢] .

ان هؤلاء المعوقين القائلين لاخوانهم : (هلم إلينا) المخلدين إلى الراحة والظلال والثمار قد اختلفت احوالهم سلما وحربا ، أمنا وخوفا إنهم اذا جاء الخوف واحيط بهم وسمعوا النفير يعلن الجهاد والرد على المعتدين رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى تنتابه غمرات الموت وسكراته إنهم جبناء رعاديد ، فإذا ما ذهب الخوف وجاء الأمن استأسد الحمل وتعملق القزم وسلقوكم بألسنة حداد فليس لهم سلاح إلا تلك الألسنة إذ قلوبهم واجفة خائفة إنهم لا يصمدون أمام الأحداث ولكنهم كما قال القائل :

أسد على وفى الحروب نعامة

إنهم (أشحة على الخير) لايعرفون من الاسلام الا اسمه ومن المصحف إلا رسمه همهم بطونهم وقبلتهم نسائهم إذا رأوك حسدوك واذا تواريت عنهم اغتابوك

السنة عندهم بدعة والبدعة عندهم سنة يلقاك احدهم بوجه أبى بكر وقلب أبى لهب تحسبه ملاكا فى مظهره ولكنه شيطان رجيم فى مخبره .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا ان الكذوب يشين حرا يصحب
يلقاك يقسم انه بك واثق واذا توارى عنك فهو العقرب

(١) سورة آل عمران الآية : ١٦٨
(٢) سورة آل عمران الآيات : ١٦٩ ـ ١٨٠

يسقيك من طرفُ اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

لقد حكم الله على هؤلاء بقوله : ﴿ أولئك لم يؤمنوا ﴾ (إذ الايمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل وإن قوما غرتهم الدنيا وألهتهم الأمانى ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسنِ الظن بالله وكذبوا لو احسنوا الظن لأحسنوا العمل)(١) ﴿ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾(٢) وإذا لم يؤمنوا فقد أُحبط الله اعمالهم وابطلها ﴿ كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾(٣) .

وليس إحباط أعمال هؤلاء بالأمر العسير بل كان ذلك على الله يسيرا وسهلا ميسورا .

قوله تعالى : ﴿ يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ .

وهذا ايضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخور والخوف ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ بل هم قريب منهم وان لهم عودة اليهم ، ﴿ وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾ أى ويودون اذا جاءت الأحزاب انهم لا يكونون حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية يسألون عن أخباركم وما كان من امركم مع عدوكم ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ أى : ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم الا قليلا لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله ـ سبحانه وتعالى ـ العالم بهم .

قوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيمانا وتسليما ﴾

هذا بيان منه تعالى فى أن الأسوة الحسنة تتمثل فى الفرد والجماعة ، اما الفرد فهو المثل الأعلى والانسان الكامل محمد ـ ﷺ ـ فهو الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، وأما الجماعة ففى محمد وصحبه قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ (٤)

لمثل هذا فليعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، لقد اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ـ ﷺ ـ خير قلوب العباد فاختاره لرسالته ، ثم اطلع على قلوب العباد بعده فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن .

---

(١) اخرجه البخارى فى التاريخ
(٢) سورة الجاثية الآيات : ٧ ـ ٩
(٣) سورة البقرة الآية : ٢٦٤
(٤) سورة الفتح الآية : ٢٩

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرجال فلاح

هذه الاسوة الحسنة إنما يقربها ويعترف من كان يرجو لقاء الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا فكل من كان يرجو لقاء ربه فإنه يعمل لهذا اللقاء والعمل إنما يتقبله الله بشرطين ان يكون صوابا وان يكون خالصا ولن يكون صوابا إلا إذا كان على هدى ـ رسول الله ـ ﷺ ـ ولن يكون خالصا إلا إذا ابتغى به وجه الله وقد اجتمع الشرطان فى قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾(١) .

وإنما جاءت آية الأسوة كاللؤلؤة بين آيات الغزوة لما كان عليه صلى الله عليه وسلم أثناء الغزوة من الثبات والقوة والصبر والحلم لقد كان يعلم اصحابه ان يقولوا : ﴿ اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا ﴾(٢) سيدى ابا القاسم يارسول الله :

أنت الذى قاد الجيوش محطما عهد الضلال وأدب السفهاء
وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فاتقوا سعداء

لقد كان حال المؤمنين وقت الشدة حال الواثق الثابت الموقن بوعد الله وصدقه : ﴿ ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴾ أى من الابتلاء والشدائد ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ الوعد ﴿ وما زادهم ﴾ هذا ﴿ إلا إيمانا وتسليما ﴾ الا إيمانا ويقينا وتسليما وتفويضا ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسل والذين امنوا معه متى نصر الله الا إن نصر الله قريب ﴾(٣) .

وقوله جل شأنه : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدو منكم ويعلم الصابرين ﴾(٤) وقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾(٥) .

الأسوة الحسنة

لقد زكى الله عقل نبينا فقال سبحانه : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾(٦) ، وزكى لسانه فقال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾(٧) وزكى شرعه فقال ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾(٨) وزكى معلمه فقال ﴿ علمه شديد القوى ﴾(٩) وزكى فؤاده فقال ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾(١٠) وزكى بصره فقال ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾(١١) وزكى امته فقال ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيدا ﴾(١٢) وزكاها مرة أخرى فقال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وزكى أهل بيته ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ .

(١) سورة الكهف الآية : ١١٠
(٢) مسند احمد : ٣/٣
(٣) سورة البقرة الآية : ٢١٤
(٤) سورة آل عمران الآية : ١٤٢
(٥) سورة التوبة الآية : ١٦
(٦) سورة النجم الآية : ٢
(٧) سورة النجم الآية : ٣
(٨) سورة النجم الآية : ٤
(٩) سورة النجم الآية : ٥
(١٠) سورة النجم الآية ١١
(١١) سورة النجم الآية : ١٧
(١٢) سورة البقرة الآية : ١٤٣

وزكى رسالته فقال ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[١] وزكاه كله فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[٢] .

أنت الذى من نورك البدر اكتسى والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفض دين الشرك ياعلم الهدى ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وما عسى أن تجمع الكتاب من معناك
صلى الله عليك ياعلم الهدى ما اشتاق مشتاق مثواك الى مسواك

إن أجل الغايات وأشرفها ، واكرم الأهداف وأسماها : أن تنعقد عزائمنا على اتباع رسول الله ، وان تتأكد روابط قلوبنا على محبته ، والعمل بسنته ، وأن نتنافس فى التأسى به ، واقتفاء آثاره النبوية الشريفة ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾[٣] .

والذى لا شك فيه ، أننا نحن الذين نستفيد من الاستظلال بلواء رسول الله - ﷺ - فقد غفر الله له ذنبه ، ورفع له ذكره ، وشرح له صدره ﴿ وأتاه سؤله ، وهداه بهدى الأنبياء جميعا ، وجعله اماما وشهيدا .

﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾[٤] فهو إذن صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود .

واذا كان الله عز وجل أكرم نبينا ومرشدنا بهذه المكارم كلها فنحن مع ذلك نسأل الله المزيد له فرفعة درجته رفعة لنا ، بل للبشرية جميعا ﴿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾[٥] .

وإذا كان من بلاغة القول ان يسلس البيان ، ويهذب الوجدان ويجعل العقول والأفئدة تتمايل تمايل الطروب النشوان .

فإن من البلاغة ايضا ان تنبهر فتعجز عن التعبير ، وأن تحاول الكلام فتعجز عن التصوير . ومقام البلاغة الثانى هو الذى يلازمنى هنا وفى كل زمان ومكان ، كلما أردت عن النبى - ﷺ - كلاما ، أو فى الرسول مديحا .

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت قدرا فيه واحتكم
فمبلغ العلم فيه انه بشر وانه خير خلق الله كلهم

لقد كانت عظمة الرسول - ﷺ - عظمة مستمدة من مكنون القدر ، وداخل النفس ، فهى عظمة غير مكتسبة بمال ، ولا جاه ، ولا سلطان ! ! وهى عظمة لا يزيدها الرخاء ولا تنقصها الشدة ، ولا

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٠٧
(٢) سورة القلم الآية : ٤
(٣) سورة المطففين الآية : ٢٦
(٤) سورة النساء الآية : ٤١
(٥) سورة الأنبياء الآية : ١٠٧

يظهرها الغنى ولا يخفيها الفقر ، ولا يكبرها سلطان ولا يصغرها زواله ، ولا يقويها نصر ولا تضعفها هزيمة .

إنما هى عظمة ثابتة ثبات الأزل ، لأنها من الأزل نفسه ، السارية فى الكون سريان القوانين الالهية ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ولو جمعت كل أوصافه ﷺ ونظمتها بعضها إلى بعض واعتبرتها بأسرارها العلمية ، لرأيت فيها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الانسان الأعظم ، كما يقوم الكون الكبير بسنن وأصول الحكمة فيه ، ولأيقنت ان هذا النبى الكريم ، إن هو الا معجم نفسى حى ألفته الحكمة الالهية بعلم من علمها ، وقوة من قوتها ، لتتخرج به الأمة التى تبدع العالم إبداعا جديدا ، وتنشئه النشأة المحفوظة له فى أطوار كماله . .

فهو إنسان غرس فى التاريخ غرسا ليكون حدا لزمن وأولا لزمن بعده ، وما كانت حياته تلك الا طريقة غرسه ، وهو ابدا قائم فى مكانه الاجتماعى ، إذ كان الزمن كلما تقدم زاد فى إثباته . . . فلن يتغير أو يمحى الا اذا تغير او محى المشرق والمغرب (وحى القلم لمصطفى صادق الرافعى : ج٢) .

ونحن لا نريد بحب رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك الحب البارد أو الفاتر الذي ينتهى بالصلوات والتسبيحات ، والهمهمات والتمتمات إن هذا الحب لا يبنى فردا ، ولا مجتمعا ، ولا يقيم صرحا ولا عمدا انما نريد الحب المشتعل ، والفؤاد المفعم الوثاب ، والعاطفة المشدودة الى مثلها العليا التى خطها لها النبى الأعظم ـ سيدنا محمد ﷺ ـ **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم ﴾**(١) ولذلك كان من صحة الايمان او كماله ، أن يكون هوى المؤمن تبعا لما جاء به نبيه وهاديه .

فيكيف نفسه بهداه ، ويربطها بسماه ، ويعبقها بشذاه ، ويسخط بسخطه ويرضى لرضاه .

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٢) .

فالتجرد لهذا الحب هو ما يطالب به الاسلام ، وهو « بطاقة » الجنة ، وهو الذى يرسخ قدمك على الأرض ، ويمد قامتك إلى عنان السماء !]!

* * *

هل النبى يستحق هذا الحب ؟

ونضيف إلى هذا السؤال سؤالا آخر : وهل حبنا لرسول الله ـ ﷺ ـ أمر تعبدى أو وجدانى ، أو تمليه الشخصية « اليتيمة » والافاضة الربانية غير المحدودة ؟

والجواب عندى أن حبنا مهما زاد ، وعملنا مهما اتصل ، فلن نقدر رسول الله قدره ، ولا ان نوفيه حقه ، ولا بعضا من هذا الحق الذى أصبح دينا مستكنا فى أعماق النفس البشرية لا يجحده إلا جهول

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٣١

(٢) سورة التوبة الآية : ٢٤

ولا ينكره إلا مأفون ! وهو حب مملى من الأقدار ؛ لأنه نبى اجتمعت فيه خصائص الأنبياء ، وحب يفيض به الوجدان لأنه يجد فيه الانسان المفرد فى مزاياه ، المنزه عن الشركة فى طبائعه وسجاياه فهو حب هابط على القلوب ونابع عنها ، يزرعه الاله ، ويرويه الانسان وينميه الدين ، فهو حب من غير اكراه ، حب يقذف فى اعماق النفس ، وهو حب يسمو به المحب ويعلوَ حتى يصل إلى درجات الصديقين ! !

والمسلمون اليوم ينقصهم الحب الذكى المتفاعل مع جوارح الانسان وعواطفه واذا كانت الامم تجتمع على زعمائها المخلصين لها ، فيتفانون فى إرضائهم ويتسابقون فى تقديرهم . .

أفلا نستمسك ـ نحن المسلمين ـ بعروة نبينا الوثقى ، ونتفانى فى إرضائه ، ونحرص على الحنيفية السمحة التى بعث بها ﷺ ان زعماء الدنيا تتوقف زعامتهم بأيام معدودة ، وتنتهى بانتهائهم .

أما رسولنا العظيم ، فقد قادنا أيام حياته إلى أقوم صراط ، وسيقودنا فى يوم الزحام ، إلى الحوض لنشرب ، وإلى الجنة لننعم إلى المجتمع الذى لاغل فى صدره ، ولا تفكك فى صفوفه :

﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾[1] .

ـ لقد عاش سلفنا الصالح فى نبيهم فسادوا وقادوا ، وفتحوا وعمروا فهل يعيش الخلف المعاصر عيشهم ليسودوا ويقودوا . ويفتحوا ويعمروا ؟

هذه هى الأمنية الوحيدة التى توقظ المسلمين من سباتهم العميق ، وتشعل عواطفهم التى ران عليها ما كسبوه من الآثام والسيئات ان هذا « التجمع » حول نبينا ـ ﷺ ـ هو وحده الذى يجعلنا نقاوم طغيان الطغاة ، وعبث العابثين .

ـ وإذا كانت الأمم تجعل مثلها الأعلى نابعا من بيئتها وتفكيرها ، فبعض الأمم ينبع مثلها الأعلى من غريزتها ، فيكون امرأة جميلة وقدا مستقيما ، والبعض ينبع مثله الأعلى من بطنه فيكون فى أكلة ـ طيبة . . وشربة حلوة وكفى .

والبعض ينبع مثله الأعلى من طبيعته المتجبرة ، فيكون سلطانا واستعبادا واذلالا وإقهارا .

ولكن الله ـ عز وجل ـ أراد من الأمة المسلمة ان تجعل مثلها الأعلى هو رسول الله ـ ﷺ ـ فى كل شىء ! ! فى علمه وعمله ، فى ضحكه وبكائه ، فى نومه ويقظته ، فى قعوده وسيره ، فى حربه وسلمه ، فى مأكله ومشربه ، فى حلمه وغضبه ، فى جميع أفعاله وتصرفاته ، لانه ﷺ ، هو أكمل النماذج البشرية جميعا وأعظم المستويات جميعا .

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ .

ـ والأمة حين تتوحد فى عاداتها على عادات هذ النبى ، وفى هديها على هديه ، وفى سلوكها على سلوكه ، تكون سيدة الأمم هديا ورقيا وحضارة وسلوكا .

والحمد لله الذى جعلنا من أمة هذا النبى الذى طلعت شمسه علينا فأطفأت كل قنديل ، وهى شمس تملأ الدنيا حرارة وقوة ، ونماء واريجا ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون

---

(١) سورة الحجر الآية : ٤٧

عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[1] .

قال مصطفى صادق الرافعى رحمه الله :

كما تطلع الشمس بأنوارها ، فتفجر ينبوع الضوء المسمى بالنهار ، يولد النبى فيوجد فى الانسانية ينبوع النور المسمى بالدين وليس النهار الا يقظة الحياة تحقق أعمالها ، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها .

والشمس خلقها الله حاملة طابعه الالهى فى عملها للمادة تحول به وتغير . والنبى يرسله الله حاملا مثل ذلك الطابع فى عملة للروح ترقى فيه وتسمو .

ورعشان الضوء من الشمس هى قصة الهداية للكون فى كلام من النور . وأشعة الوحى فى النبى هى قصة الهداية لانسان الكون فى نور من الكلام والعامل الالهى العظيم يعمل فى نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين،أجرام النور من الشموس والكواكب ، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء فليس النبى إنسانا من العظماء ، يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ومع المنطق الشك ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة . ولكنه إنسان نجمى يقرأ بمثل التلسكوب فى الدقة معه العلم ، ومع العلم الايمان ، ثم يدرس بكل ذلك على طبيعته النورانية وحدها . والحياة تنشىء علم التاريخ .

ولكن هذه الطريقة فى درس الانبياء ـ صلوات الله عليهم ـ تجعل التاريخ هو ينشىء علم الحياة .

فإنما النبى إشراق إلهى على الانسانية ، يقومها فى فلكها الاخلاقى ويجد بها إلى الكمال فى نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية فى الكواكب . أ هـ .

إننا نطالب الأمة الاسلامية ونهيب بها ان تجتمع حول هذا النبى العظيم ، لتتوحد تحت رايته ولنرتبط به ، ونربط قلوبنا عليه ! !

فالمسلمون اليوم تتوزعهم شعارات مختلفة ، وتفرقهم أهواء متبانية فلكل دولة شعار ، ولكل بلد تقاليد وعادات ، ولكل أمة سبيل ومنهاج فلماذا هذا الخلاف والصراط مستقيم ، والنبى واحد ، والقبلة واحدة ، والدين واحد .

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾[2] .

قال الاستاذ أحمد عبد الجواد الدومى (رحمه الله) .

وفى هذه الأيام تتعرض الأمة الاسلامية للطواحين الطاحنة ، والأفكار المسمومة ، والثقافات الدخيلة .

ومما يؤسف له أن عاداتنا العربية ذابت فى تقاليد الغرب ، وان فلسفتنا الشرقية انصهرت فى الفلسفة الغربية ، وان حضارتنا العريقة انطمست معالمها على مرأى منا ومسمع ، وحييت الحضارات الملوثة ، والرطانات المخبولة .

إنك تدخل بيوت كثير من عظمائنا العرب وعظمائنا المسلمين ، فلا تشم الا رائحة التقليد

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٠
(٢) سورة المؤمنون الآية : ٥٢

الغربى فى المأكل والمشرب ولا تنظر إلا الزرابى المبثوثة ، والنمارق المصفوفة ، ومع ذلك فلو سألت عن سجادة او حصير للصلاة لا تجد شيئا من ذلك فى هذه البيوت الفخمة لان الصلاة ليست فى الحسبان ، ومع هذا فنحن عرب ونحن مسلمون . وتجلس على الموائد الممدودة ، فلا تجد مظهرا من مظاهر الاسلام ولا أدبا من آدابه .

لقد اختفى مظهر البساطة ، ومظهر غسل اليد قبل الطعام ، ومظهر الأكل مما يليك ، مع مّضغ اللقمة ، كما اختفى مظهر الحديث الهادىء الوديع ، وحل محل ذلك كله الأيدى القاطعة بالمدى ، والأعين الزائغة الطائرة ، والنفوس الطامعة المسعورة ، والحديث عن آخر المودات والتقاليع . كأن ذلك هو كل ما ورثناه ومع هذا فنحن عرب ونحن مسلمون .

وأصبح المسلم ابن المسلم يستحى ان يخرج من المسجد ولا يستحى حين ٌيخرج من السينما ، ويمشى مع خليلته كما يمشى مع حليلته ، ومع ذلك كله فنحن نزعم اننا عرب وأننا مسلمون !

قوله تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما ﴾ .

قال البخارى رحمه الله تعالى بسنده عن خارجه بن زيد بن ثابت عن ابيه قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت اسمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقرؤها لم أجدها إلا مع خزيمة ابن ثابت الانصارى ـ رضى الله عنه ـ الذى جعل رسول الله ـ ﷺ ـ شهادته بشهادة رجلين ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾(١).

وقال الامام أحمد بسنده عن ثابت قال : قال أنس : عمى أنس بن النصر ـ رضى الله عنه ـ سميت به لم يشهد مع رسل الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله ـ ﷺ ـ غبت عنه لئن ارانى الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليرين الله ـ عز وجل ـ ما اصنع . قال فهاب أن يقول غيرها فشهد مع رسول الله ـ ﷺ ـ يوم احد فاستقبل سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ فقال له أنس ـ رضى الله عنه ـ يأبا عمرو أين ؟ واها لريح الجنة إنى اجده دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل ـ رضى الله عنه ـ قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية فقالت اخته عمتى الربيع ابنة النضر : فما عرفت أخى الا ببنانه قال فنزلت هذه الآية ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ قال فكانوا يرون انها نزلت فيه وفى أصحابه ـ رضى الله عنهم (٢)

وأخرج مسلم والترمذى من حديث سليمان بن المغيرة وقال ابن ابى حاتم بسنده عن أنس ـ رضى

---

(١) البخارى تفسير سورة الأحزاب ١٤٦/٦
(٢) مسند الامام احمد ١٩٣/٤

الله عنه ـ قال : ان عمه يعنى انس بن النضر ـ رضى الله عنه ـ غاب عن قتال بدر فقال : غبت عن أول قتال قاتله رسول الله ـ ﷺ ـ المشركين لئن اشهدنى الله ـ عز وجل ـ قتالاً للمشركين ليرين الله تعالى ما أصنع ، قال فلما كان يوم احد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى اعتذر إليك مما صنعه هؤلاء ـ يعنى أصحابه ـ وابرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد ـ يعنى ابن معاذ ـ ـ رضى الله عنه ـ دون أحد فقال : أنا معك قال سعد ـ رضى الله عنه ـ فلم استطع أن أصنع ماصنع فلما قتل قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم وكانوا يقولون فيه وفى اصحابه نزلت ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** ﴾(١)

وروى ابن جرير بسنده عن موسى بن طلحة عن ابن طلحة ـ رضى الله عنه ـ قال : لما أن رجع رسول الله ـ ﷺ ـ من أحد صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وعزى المسلمين بما أصابهم وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ثم قرأ هذه الآية ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾(٢)

قال مجاهد ﴿ **فمنهم من قضى نحبه** ﴾ يعنى عهده (ومنهم من ينتظر) قال : يوما فيه القتال فيصدق فى اللقاء . وقال الحسن (فمنهم من قضى نحبه) يعنى موته على الصدق والوفاء ، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ومنهم من لم يبدل تبديلا .

وقال بعضهم : ﴿ **نحبه** ﴾ ﴿ **نذره** ﴾ ﴿ **وما بدلوا تبديلا** ﴾ أى : وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ **إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا** ﴾ ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا** ﴾ .

إن هذه الآية الكريمة تعتبر برقية عزاء ربانية ظاهرة نزل بها أمين السماء وسفير الأنبياء وكبير امناء وحى صاحب العظمة والكبرياء ، نزل بها الروح الأمين على قلب أمين الأرض والسماء وقد شهد الله لهؤلاء الطاهرين الطيبين فى هذه الآية بثلاث خصال : شهد لهم بالايمان ، وهو العقيدة التى إذا تباشرت بشاشتها شغاف القلوب وتمكنت تكاد تجعل المستحيل ممكنا والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، كما شهد لهم بالرجولة ، والرجولة عملة نادرة وكلمة طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها إلى أعماق القلوب والاسلام صانع الرجال الذين جعلوا من البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان فى ارض الإسلام قال تعالى : ﴿ **من المؤمنين رجال** ﴾ وقال : ﴿ **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾(٣) وقال أصدق القائلين ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾(٤) وقال تعالى :

---

(١) مسلم ـ كتاب الامارة ـ باب ثبوت الجنة للشهيد ١٥١٢/٣ رقم ١٩٠٣ والترمذى ـ كتاب التفسير سورة الاحزاب ج ٢٨/٥ رقم ٣٢٥٣
(٢) تفسير الطبرى ٩٣/٢١
(٣) سورة التوبة الآية : ١٠٨
(٤) سورة النور الآيات : ٣٦ ـ ٣٨

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج انى لك لمن الناصحين ﴾[1]

﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسئلكم أجرا وهم مهتدون . وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إنى إذا لفى ضلال مبين إنى آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾[2]

وقال تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾[3] .

ان الاسلام يؤمن بالواحد ، إذ الكثرة قد تكون عبئا ثقيلا على كاهل الجماعة إذا كانت تلك الكثرة غثاء كغثاء السيل وكما شهد الله لهم بالايمان والرجولة شهد لهم بصدق العهد . فاعجب معى لقوم عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ثم نقضوا العهود ونكثوا العهود ، أما هؤلاء الأبطال الصناديد لقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وحسب الصدق شرفا أن يقول عنه رسول الله ـ ﷺ ـ كما جاء فى الصحيح « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وان البر يهدى إلى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فإن الكذب يهدى للفجور وان الفجور يهدى الى النار وان الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا »[4] فالمؤمن إذا قال صدق ، واذا وعد وفى ، واذا ائتمن أدى والمنافق إذا وعد أخلف واذا حدث كذب واذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر واذا خاصم فجر فشتان ثم شتان ما بين هؤلاء واولئك ، ان الفرق بين الفريقين كالفرق بين الأرض والسماء ، والثرى والثريا ومسابح الاسماك ومدارج الافلاك ، وعليين وسجين ان فريقا المؤمنين اظهر من السحابة فى سمائها وأنصع من ماء الغمام ، انهم النور الذى يهتدى بهم من ضل السبيل (انهم مصابيح الهدى تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء) .

وجل جلال الله إذ يقول فى هؤلاء : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين ابتعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾[5] .

قوله تعالى : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ﴾ .

---

(١) سورة القصص الآية : ٢٠
(٢) سورة يس الآية : ٢٠
(٣) سورة غافر الآية : ٣٨
(٤) البخارى ـ كتاب الأدب ـ باب قول الله تعالى : يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ٣٠/٨
(٥) سورة التوبة الآية : ١٠٠

هذا حكم الله تعالى فى الفريقين والله ـ سبحانه وتعالى ـ اذ حكم عدل واذا قال صدق وإذا اراد فلا راد لما اراد واذا قضى فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ﴾ أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب فيظهر امر هذا بالفعل وأمر هذا بالفعل مع انه تعالى يعلم الشىء قبل كونه ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعلموا بما يعلمه منهم حتى قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾[1] فهذا علم بالشىء بعد كونه وان كان العلم السابق حاصلا به قبل وجوده . وكذا قال الله تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾[2] ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ أى : يصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظتهم عليه ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لاوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ولكن هم تحت المشيئة فى الدنيا ان شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه وان شاء تاب عليهم بان ارشدهم الى النزوع عن النفاق الى الايمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿ إن الله كان غفورا رحيما ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ﴾

وهذا إخبار منه تعالى عما أنزله بالمشركين من الهوان والخزى العظيم فقد ردوا الى بلادهم خائبين خاسرين يجرون أذيال الندامة بغيظهم وحنقهم وحقدهم ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ وهذه نعمة من نعم الله على عباده ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[3] ﴿ وكان الله قويا ﴾ لا يضعف ﴿ عزيزا ﴾ لا يغلب ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ وقال تعالى : ﴿ ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾[5] وقال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[6]

وقال سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[7] فمن كان الله معه فمن عليه ! ومن وجد الله فماذا فقد ، كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف وغنى كل فقير ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم يسمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فاليه منقلبه .

---

(١) سور محمد الآية : ٣١
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٧٩
(٣) سورة المائدة الآية : ١١
(٤) سورة المجادلة الآية : ٢١
(٥) سورة الحج الآية : ٤٠
(٦) سورة الحديد الآية : ٢٥
(٧) الذاريات الآيات : ٥٦ ـ ٥٨

قوله تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ .

لما قدمت جنود الاحزاب ونزلوا على المدينة نقض بنو قريظة ما كان بينهم وبين رسول الله - ﷺ - من العهد وكان ذلك بسفارة حيى بن أخطب النضرى لعنه الله فقد دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وقال له فيما قال ويحك قد جئتك بعز الدهر اتيتك بقريش واحابيشها وغطفان واتباعها ، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فقال له كعب : بل والله اتيتنى بذل الدهر ويحك ياحيى انك مشئوم فدعنا منك ، فلم يزل يفتل فى الذروة والغارب حتى اجابه واشترط له حيى إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم فى الحصن فيكون له اسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جدا فلما ايده الله تعالى ونصره وكبت الاعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ورجع رسول الله - ﷺ - إلى المدينة مؤيدا منصورا ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله - ﷺ - يغتسل من وعثاء تلك المرابطة فى بيت أم سلمة - رضى الله عنها - اذ تبدى له جبريل - عليه السلام - معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يارسول الله ؟

قال - ﷺ - : (نعم .. قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعى من طلب القوم ، ثم قال : ان الله تبارك وتعالى يأمرك ان تنهض إلى بنى قريظة ، وفى رواية فقال له عذيرك من مقاتل اوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » قال لكنا لم نضع اسلحتنا بعد . انهض الى هؤلاء قال - ﷺ - : وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال - ﷺ - : لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة» فسار الناس فأدركتهم الصلاة فى الطريق فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا لم يرد منا رسول الله - ﷺ - الا تعجيل المسيرة ، وقال آخرون لا نصليها الا فى بنى قريظة فلم يعنف واحدا من الفريقين ، وتبعهم رسول الله ﷺ وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم - رضى الله عنه - وأعطى الراية لعلى بن ابى طالب - رضى الله عنه - ثم نازلهم رسول الله - ﷺ - وحاصرها خمسا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس - رضى الله عنه - لانهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية واعتقدوا انه يحسب اليهم فى ذلك كما فعل عبد الله ابن ابى بن سلول فى مواليه بنى قينقاع حين استطلقهم رسول الله - ﷺ - فظن هؤلاء ان سعدا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى اولئك ولم يعلموا ان سعدا - رضى الله عنه - كان قد اصابه سهم فى أكحله ايام الخندق فكواه رسول الله - ﷺ - فى أكحله وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب وقال سعد - رضى الله عنه - فيما دعا به: اللهم إن كنت ابقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها ، وإن كنت وضعت الحرب

بيننا وبينهم فافجرها ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم ان نزلوا على حكمه باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله - ﷺ - من المدينة ليحكم فيهم ، فلما اقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون ياسعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ويرفقونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال - رضى الله عنه - ، لقد آن لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا انه غير مستبقيهم فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله - ﷺ - قال رسول الله - ﷺ - : (قوموا الى سيدكم) فقام اليه المسلمون فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم فلما جلس قال له رسول الله - ﷺ - : إن هؤلاء - وأشار اليهم - قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت . . فقال - رضى الله عنه - وحكمى نافذ عليهم ، قال - ﷺ - « نعم » قال وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال « نعم » قال وعلى من ههنا وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله - ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله - ﷺ - اجلالا وإكراما وإعظاما ، فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » فقال - رضى الله عنه - انى احكم ان تقتل مقاتلهم وتسبى ذريتهم وأموالهم فقال له رسول الله - ﷺ - « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة ارقعة)[1] وفى رواية (لقد حكمت بحكم الملك) ثم امر رسول الله ﷺ بالاخاديد فخدت فى الأرض وجىء بهم مكتفين فضرب اعناقهم وكانوا ما بين السبعمائة الى الثمانمائة وسبى من لم ينبت منهم مع النساء ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ اى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ يعنى بنى قريظة من اليهود من بعض أسباط بنى اسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما طمعا فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل .

﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾[2] فعليهم لعنة الله ، وقوله تعالى : ﴿ من صياصيهم ﴾ يعنى حصونهم ﴿ وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ وهو الخوف لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبى - ﷺ - وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليخزوهم فى الدنيا فانعكس عليهم الحال ، وانقلب اليهم القال انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون . فكما راموا العز ذلوا ، وارادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، واضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة ان هذه هى الصفقة الخاسرة ولهذا قال تعالى : ﴿ فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة والأسراء هم الأصغر والنساء .

وقوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ أى : جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وأرضا لم تطئوها ﴾ قيل : خيبر وقيل : مكة وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون المراد الجميع ﴿ وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض فقد

---

(١) البخارى - كتاب المغازى - باب غزوة الخندق ٥ /١٤٣
ومسلم - كتاب الجهاد - باب جواز قتال من نقض العهد ١٣٨٩/٣ رقم ١٧٦٩ ومسند احمد ١٤٧/٦

(٢) سورة البقرة الآية : ٨٩

هزم الاحزاب وحده ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ﴾ هؤلاء المؤمنون الذين ورثوا تلك الأرض والديار والأموال كانوا جديرين بهذا النصر لقد وقفوا عند قوله تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[١] فقد اصطلحوا مع الله وكان تلك الآية معاهدة صلح استوفت كل الشروط ويوم نعود إلى الله ونعمل بما أمرنا به ونجتنب ما نهانا عنه يومها سنكون ممن قال الله فيهم : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾[٢] وممن قال فيهم ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾[٣] .

قصة التخيير

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

معانى المفردات

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها

فتعالين : أى : أقبلن باختياركن واخترن أحد الأمرين .

أمتعكن : أعطكن المتعة وهى قميص وغطاء للرأس وملحفة ـ ملاءة ـ بحسب السعة والاقتار .

وأسرحكن : أى : أطلقكن

سراحا جميلا : أى : طلاقا من غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة

بفاحشة : أى : فعله قبيحة كنشوز وسوء خلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على الله ورسوله .

مبينة : أى : ظاهرة القبح من قولهم : بين كذا بمعنى ظهر وتبين .

ضعفين : أى : ضعف عذاب غيرهن أى: مثليه .

يسيرا : أى : هينا لا يمنعه عنه كونهن نساء النبى بل هذا سبب له .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نصر الله تعالى نبيه ـ ﷺ ـ فرد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير ظن أزواجه

---

(١) سورة الحج الآية : ٤١

(٢) سورة الحج الآية : ٤٠

(٣) سورة الروم الآية : ٤٧

- رضى الله عنهن - أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن : يارسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل والاماء والخول - الخدم والحشم - ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق وآلمن قلبه الشريف بمطالبهن من توسعة الحال ومعاملتهن معاملة نساء الملوك وابناء الدنيا من التمتع بزخرفها من المأكل والمشرب ، ونحو ذلك فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل فى شأنهن .

- روى احمد عن جابر - رضى الله عنه - قال : (أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله - ﷺ - والناس ببابه جلوس والنبى - ﷺ - جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر - رضى الله عنه - فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فدخلا والنبى - ﷺ - جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر لأكلمن النبى - ﷺ - لعله يضحك ، قال : يارسول الله ! لو رأيت إبنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها . فضحك النبى - ﷺ - حتى بدت نواجذه وقال « هن حولى يسألننى النفقة » فقام ابو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول : تسألان النبى - ﷺ - ماليس عنده فنهاهما رسول الله فقلن : والله لا نسأل رسول الله - ﷺ - بعد هذا المجلس ما ليس عنده وأنزل الله - عز وجل - الخيار فبدأ بعائشة - رضى الله عنها - فقال لها إنى أذكر لك أمرا ما أحب ان تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك . قالت ما هو؟ فتلا عليها ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك ﴾ الآية : قالت عائشة - رضى الله عنها - : أفيك استأمر ابوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال - ﷺ - (إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعثنى معلما ميسرا ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا اخبرتها) رواه مسلم والنسائى.[1]

ثم وعظهن بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وخصهن بأحكام يجدر بمثلهن أن يستمسكن بها لما لهن من مركز ممتاز بين نساء المسلمين لأنهن أمهات المؤمنين ، وموضع التجلة والكرامة إلى أنهن فى بيت صاحب الدعوة الاسلامية وعنه انبعث نور الهدى والطهر والعفاف فأجدر بهن أن يكن المثل العليا فى ذلك ويكن قدوة يأتسى بهن نساء المؤمنين جميعا ويالها منقبة أوتيت لهن دون سعى ولا إيجاف منهن ، بل هى منحة أكرمهن الله بها ، فله الحمد فى الآخرة والأولى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ﴾ .

أى : ياأيها الرسول قل لأزواجك : اخترن لانفسكن إحدى خلتين : أولاهما ان تكن ممن يحببن لذات الدنيا ونعيمها والتمتع بزخرفها فليس لكن عندى مقام إذ ليس عندى شىء منها فأقبلن على أعطكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إيا هن بالطلاق ، تطييبا لخاطرهن

---

(١) مسند احمد ٣٢٨/٣
ومسلم - كتاب الطلاق - باب بيان ان تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية ١١٠٣/٣ رقم ١٤٧٥

وتعويضا لهن عما لحقهن من ضرر بالطلاق وهى كسوة تختلف بحسب الغنى والفقر واليسار والاقتار كما قال تعالى : ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ﴾[١] ثم أسرحكن وأطلقن على ما أذن الله به وأدب به عباده بقوله :

﴿ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾[٢] وكان عند رسول الله - ﷺ - يومئذ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة ، وحفصة . وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة - رضى الله عنهن - ، وأربع من غير القرشيات . زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وصفية بنت حيى بن اخطب النضيرية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية .

وحين نزلت هذه الآية عرض عليهم رسول الله - ﷺ - ذلك وبدأ بعائشة وكانت احب أهله إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ففرح رسول الله - ﷺ - ثم تابعها بقية نسائه .

ثم ذكر ثانية الخلتين فقال :

﴿ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾ أى وإن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله وثواب الدار الآخرة فأطعنه فإن الله أعد للمحسنات منكن فى أعمالهن القولية والفعلية ثوابا عظيما تستحقر الدنيا وزينتها دونه كفاء احسانهن . والخلاصة - انتن بين أحد أمرين : أن تقمن مع الرسول وترضين بما قسم لكن وتطعن الله وأن يمنعكن ويفارقكن إن لم ترضين بذلك .

وبعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله - أتبع ذلك بعظتهن وتهديدهن إذا هن فعلن ما يسوء النبى - ﷺ - وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال :

﴿ يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ أى : من يعص منكن الرسول - ﷺ - ويطلب ما يشق عليه ويضق به ذرعا ويغتم لأجله - يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين ، أى تعذب ضعف عذاب غيرها لأن قبح المعصية منهن أشد ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاصى أشهر منه للجاهل العاصى وكان ذلك سهلا يسيرا على الله الذى لا يحابى أحدا لأجل أحد إذ كونهن نساء رسوله ليس بمغن عنهن شيئا ، بل هو سبب لمضاعفة العذاب .

روى أن رجلا قال لزين العابدين - رضى الله عنه - إنكم أهل بيت مغفور لكم فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى - ﷺ - من أن نكون كما قلت إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ولمسيئنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتى بعدها .

كلمة عن رسول الله وأزواجه

من قواعد الايمان الأساسية ان تحب رسول الله - ﷺ - حبا بينه نبى الله فى قوله الكريم « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »[٣]

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٦
(٢) سورة الطلاق الآية : ١
(٣) مسلم - كتاب الايمان - باب وجوب محبة رسول الله ﷺ - أكثر من الأهل والولد جـ ١ ص ٦٧

ورسول الله - ﷺ - جدير بهذا الحب . أليس هو النبى الذى رفع الله ذكره وأعلى قدره وقرن اسمه باسمه إذ يقول ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾[١] .

أليس هو الذى حذر الله من مخالفة أمره إذ يقول : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم ﴾[٢] .

- أليس هو الذى قرن الله طاعته بطاعته فقال ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾[٣] .

أليس هو الذى سيندم العصاة على مخالفته ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ .

- أليس هو الذى قرن الله محبته باتباع هديه والسير وراءه فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[٤] .

أليس هو الذى أمر الله المؤمنين بالصلاة والسلام عليه وهو الذى يصلى عليه وملائكته ؟ ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

صلى عليك الله ياعلم الهدى ، ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم .

كل القلوب إلى الحبيب تميل ... ومعى بهذا شاهد ودليل
أما الدليل إذا ذكرت محمدا ... صارت دموع العارفين تسيل
هذا رسول الله هذا المصطفى ... هذا لرب العالمين رسول
ياسيد الكونين ياعلم الهدى ... هذا المتيم فى حماك نزيل

ماذا أقول عنك يارسول الله وقد أخذ الله من النبيين ميثاقهم فى مشهد ربانى رائع فقال : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما ءاتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم واخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾

هذا النبى الهاشمى محمد ... هذا لكل العالمين رسول
هذا الذى رد العيون بكفه ... لما بدت فوق الخدود تسيل
هذا الذى شرف الوجود بهديه ... منهاجه للسالكين سبيل
هذا الغمامة ظللته إذا مشى ... كانت تقيه اذا الحبيب يقيل
صلى عليك الله ياعلم الهدى ... مالاح برق فى السماء دليل

---

(١) سورة التوبة الآية : ٦٢
(٢) سورة النور الآية : ٦٣
(٣) سورة النساء الآية : ٨٠
(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٣١ ، ٣٢
(٥) سورة آل عمران الآية : ٨١

إن مثلى ومثلك يارسول الله كمثل أعرابى ضل الطريق فى الصحراء ولما طلع عليه القمر اهتدى بنوره ، فقال ماذا أقول لك أيها القمر ؟ أأقول رفعك الله ، لقد رفعك .. أأقول نورك الله ؟ لقد نورك ، أأقول جملك الله ، لقد جملك وأنا ماذا أقول لك يا سيدى يا رسول الله ؟

أأقول رفعك الله ؟ لقد رفعك ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .

أأقول نورك الله ؟ لقد نورك ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[1] .

أأقول جملك الله ؟ ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾[2] .

يا سيدى يا رسول الله معذرة ... إذا كبافيك تبيانى وتعبيرى
ماذا أوفيك من حق وتكرمة ... وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالفجر وضاح الأسارير ... تدعو إلى الله فى يسر وتبشير
على جبينك نور الحق منبلجا ... وفى يديك لواء العدل والنور

لقد أحبتك القلوب المؤمنة وعرفت لك قدرك وأجلت فيك إخلاصك وصفاءك ونقاء سريرتك .

وهل ننسى يوم نزلت السوق فسمعت عبدا ينادى وسيده يعرضه للبيع والعبد يقول : من أراد شرائى فلا يمنعنى من الصلاة وراء رسول الله ـ ﷺ ـ فاشتراه أحد الناس وظل العبد يواظب على الصلاة وراءك ولا تفوته تكبيرة الاحرام فى فريضة . ولما بلغك أنه مريض ذهبت بنفسك لتعوده . ولما توفى صليت عليه لتكون صلاتك شفاعة له فى الآخرة .

أنت الذى أقمت ميزان العدالة ورفعت لواء الحق عندما قرأت على الوجود قول الله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[3] .

نعم لا ننسى يوم دخلت على ثوبان ، ذلك الغلام المتواضع الفقير فرأيته يبكى فسألته ما يبيكك يا ثوبان ؟ قال : يا رسول الله إنك إذا غبت عنى اشتقت إليك فتبكى عيناى فإذا تذكرت الآخرة وأننى لن أكون معك فى الجنة حيث أنت فى أعلى درجاتها ازداد بكائى عندئذ هبط الأمين جبريل بقول الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[4] .

صلوا على من تدخلون بهديه ... دار السلام وتبلغون المطلبا

١ ـ الآية ١٥ من سورة المائدة

٢ ـ الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب

(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات

(٤) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة النساء

صلوا عليـه وسلموا وتـرحموا ... تردوا بها حوض الكرامة مشربا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما ... أوفاك دين المذنبين وأحسبا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما ... أحلاك ذكرا فى القلوب وأنسبا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما ... أزكاك فى الرسل الكرام وأطيبا .

وهذا مشهد تمتلىء له النفس روعة وجلالا لصدق الحب الذى امتلأت به قلوب أصحاب الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه .

روى الامام مسلم عن ربيعة بن مالك الأسلمى قال : قال لى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم (سل ، فقلت . أسألك مرافقتك فى الجنة . قال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فأعنى على نفسك بكثرة السجود)[1] .

أسأل الله أن يجعلنا يوم القيامة تحت لوائك ، وأن يسقينا من كفك الشريف شربة ماء لا نظمأ بعدها أبدا .

* المثل الأعلى فى الأنبياء *

جاء فى كتاب (المثل الأعلى فى الأنبياء) :

لما اصطفى الله رسوله محمدا للنبوة كان أول ما نزل عليه فى غار حراء قوله تعالى:﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[2] .

رسالة خلت من كل نزعة شخصية أو قبلية . ولكنها بلغت غاية العظمة والجلال ، لأنها دستور عام يهدف إلى النهوض بالانسانية . ثم يمضى المؤلف قائلا :

إن محمدا ـ ﷺ ـ جاء برسالة تختلف فى صبغتها عما تقدمها من كل الوجوه . وتسمو على كافة الأغراض الشخصية والجنسية وتعتبر الناس جميعا أمة واحدة . وتتحدث عن الهدف الأسمى الذى أعد الله الانسان له ، وعن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الغرض الأعظم وهى رسالة تتحدث كثيرا عن القراءة والكتابة كما يفهم عن قوله تعالى : ﴿ **الذى علم بالقلم** ﴾[3] كما تتحدث عن تعلم العلوم والتى كان الناس يجهلونها وقت البعثة النبوية كما تدل عليه الآية ﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾، وهى رسالة ذات صبغة عالمية تنتظم فى سلكها الجنس البشرى كله .

ومعلوم أن الانسان هو أكمل الكائنات نشأة إذ يبلغ النمو الجسمى غاية كماله فى هيكله الجسمانى ومع ذلك فقد نشأ كله من علقة ، كما تشير الآيات المذكورة واقتضت إرادة الخالق سبحانه ـ وهو الذى

---

١ ـ الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب فضل السجود والحث عليه ـ جـ (١) ص ٣٥٣ رقم ٢٢٦
٢ ـ الآيات ١ إلى ٥ من سورة العلق
٣ ـ الآية ٤ من سورة العلق

أنشأ ذلك المخلوق العجيب من علقة أن يبلغ به غاية الكمال العقلى والخلقى والروحى .

فبلغ الانسان ـ عن طريق رسوله ـ هذا الغرض الأسمى وأبان له فى أول وحى نزل عليه الوسائل الكفيلة ببلوغ هذه الغاية .

ثم يتحدث المؤلف تحت عنوان (المثل الأعلى فى الأخلاق) فيقول : « نزل جبريل الأمين بالوحى على النبى ـ ﷺ ـ فى غار حراء فأخذته رعدة شديدة فرجع إلى خديجة ترجف بوادره فقال (زملونى . . زملونى) فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : يا خديجة لقد خشيت على نفسى .

فقالت : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك تصدق الحديث ولا تجزى بالسيئة السيئة وتؤدى الأمانة وتصل الرحم وإن خلقك لكريم ولست بصخاب فى الأسواق) .

ثم يسوق المؤلف هذا المشهد فيقول :

ويروى أنه بينما كان رجالات قريش جلوسا يتحدثون عرضوا لذكر رسول الله ـ ﷺ ـ فأعترضهم النضر بن الحارث وكان أعلمهم بشئون الدنيا فقال مسفها لارائهم ، يا معشر قريش . انه قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب و جاءكم به قلتم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون لقد استمعت لما قاله محمد فلا والله ما هو بساحر ولا هو بكاهن ولا هو بشاعر ولا هو بمجنون ، يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكان أبو جهل عدو الرسول يقول : إنا لانكذبك ولكن نكذب ما جئت به) انتهى كلامه .

أجل يارسول الله . . أعد على سمع الناس هذه العبارة النبوية الشفافة الطاهرة (لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين)[1] .

والذى نفسى بيده يارسول الله إنك جدير بهذا الحب حقيق بهذا التقدير . أهل لهذه المحبة . لا يجحدك إلا كل ظلوم جهول ، ولا ينقص من قدرك إلا كل معتد أثيم .

وها نحن أولاء نذكر هذه الاشارات وتلك التنبيهات من حياتك الطاهرة بما تيسر من التقدير وتقدر من التيسير :ـ

لقد أصاب الشاعر إذ يقول :

لم يبق للبلغاء فضل بعد ما ... نطقت بك الآيات من رب السما
كلا ولو جعلوا القوافى أنجما ... أيروم مخلوق ثناءك بعد ما

أثنى على أخلاقك الخلاق

١ ـ الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب وجوب محبة رسول الله ـ ﷺ ـ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب وجوب محبة رسول الله ﷺ ـ أكثر من الأهل والولد ج ١ ص ٦٧ رقم ٦٩ .

* مكانة النبى ﷺ *

وها نحن أولاء نسوق هذه الآيات الكريمة بين يدى القارىء ليتبين مدى فضل رسول الله ومدى مكانته فى القرآن الكريم وكيف تربع على مناط الرفعة وسلك مدارج الفخار والعزة الاسلامية : يقول تبارك اسمه :

﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1] .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾[2]

﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[3] .

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴾[4] .

﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[5] .

﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[6] .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[7].

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[8].

وبالاشارة إلى الآيتين الأخيرتين قال رسول الله ﷺ :

(أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب من مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد

---

١ - الآيات ١ إلى ٤ من سورة القلم
٢ - الآيتان ١٢٨ ، ١٢٩ من سورة التوبة
٣ - الآيات ٤٥ إلى ٤٨ من سورة الأحزاب
٤ - الآية ٤٠ من سورة الأحزاب
٥ - الآية ١٥٨ من سورة الأعراف
٦ - الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة
٧ - الآية ٢٨ من سورة سبأ
٨ - الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[1] .
ويرحم الله الامام البوصيرى حيث يقول :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... ياسماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد ... حال سنا منك ونهم وسناء
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء فوقها علياء

نسبه صلى الله عليه وسلم

لقد اختار الله رسوله من أعظم القبائل شرفا ، وأعلاهم قدرا وحسبا ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضربن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الذى ينتهى نسبه إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام . إن الله تعالى اصطفى من ولد اسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفى محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بنى هاشم فهو خيار من خيار ، عترته خير عترة وسيرته خير سيرة وشجرته خير شجرة نبتت فى حرم وبسقت فى كرم .

وأمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم فهى تلتقى مع نسبه من أبيه فى جده حكيم وكل منهما ينتهى إلى إسماعيل بن إبراهيم وكأن الله ـ تعالى ـ قد أراد أن يلتقى كل منهما إلى أمر قد قدر .

فما أشرف نسبه وما أطهر مولده . ومازال ـ ﷺ ـ ينتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزاكية ، حتى استقر فى رحم آمنة .

أبان مولده عن طيب عنصره ... ياطيب مبتدأ منه ومختتم
كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم .

* مولده الشريف *

سلام عليك يا رسول الله . أنت دعوة أبيك إبراهيم ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم

(١) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ جـ ١ ص ٣٧٠ رقم ٣

آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1]
فكنت أنت هذه الدعوة ، وما أجملها وما أجلها !!
وأنت بشارة أخيك عيسى .
﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوارة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[2] .
يا رسول الله كنت أنت هذه البشارة .

البدر دونك فى حسن وفى شرف ... والبحر دونك فى خير وفى كرم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من العدم

أنت رؤيا أمك آمنة
لقد رأت حين ولدتك كأن نورا سطع منها أضاء لها قصور الشام . فكنت أنت ذلك النور يارسول الله

أنت مصباح كل فضل فما تصدر ... إلا عن ضوئك الأضواء
لم تزل فى ضمائر الكون تختار ... لك الأمهات والآباء

فى ليلة صفت سماؤها ، ورق ماؤها ، وطاب هواؤها ، وضعت آمنة بنت وهب خير خلق الله ، وصفوة رسله ، محمداً (ﷺ) وأذاعت على الكون هذا النبأ السعيد .

تجلى مولد الهادى وعمت ... بشائره البوادى والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب ... يدا بيضاء طوقت الرقابا
لقد ولدته وهاجا منيرا ... كما تلد السموات الشهابا
فقام على سماء البيت نورا ... يضىء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكا ... وفاح القاع أرجا وطابا

ولما بشر جده عبد المطلب بمولده سماه (محمدا) .

١ ـ الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ جـ١ ص ٣٧٠ رقم ٣
وفى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ـ ذكر الخصال التى فضل ـ ﷺ ـ بها على غيره ـ جـ ٨ ص ١٠٤ رقم ٦٣٦٤ .
١ ـ الآية ١٢٩ من سورة البقرة
٢ ـ الآية ٦ من سورة الصف

يقول كتاب السيرة :

لما جاء عبد المطلب ليراه قيل له : ما سميت ابنك ؟ فقال : (محمدا) فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟

فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

ولقد كان ذلك كذلك .

هذه ثويبة جارية عمه أبى لهب عبد العزى بن عبد المطلب تبشر سيدها بمولده . فيمتلىء فرحا وبهجة ، ويقول لها اذهبى فأنت حرة ، وتكون أول جرعة لبن تصل إلى جوفه الشريف بعد مولده من هذه الجارية ، فكان هذا تنبيها للعالم أجمع أن هذا المولود سيحرر العبيد ، ويجعل منهم سادة ، ومن المستضعفين قادة . والله تبارك وتعالى لن يضيع هذا العمل لأبى لهب . فإن العذاب يخفف عنه كل يوم اثنين إكراما لهذا . وقد نظم بعضهم هذا الموقف فى قوله :

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه ... وتبت يداه فى الجحيم مخلدا
الا أنه فى يوم الأثنين دائما ... يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذى كان عمره ... بأحمد مسرورا ومات موحدا

ولقد أخبر الرسول (ﷺ) عن نفسه فقال :

﴿ إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب الذى لا نبى بعدى ﴾[1] .

وفيما رواه الامام أحمد :

﴿ أنا محمد وأنا أحمد وأنا نبى الرحمة ، ونبى التوبة والحاشر والمقفى ، ونبى الملاحم ﴾[2]

لقد كان فى مولده عبرة لأولى الألباب .

هذا عبد المطلب يقدم لله نذرا إن رزقه الله بعشرة من الذكور أن يتقرب بذبح واحد منهم ، ويرزقه الله بهذا العدد ويأتى يوم الوفاء بالنذر ، ويجرى القرعة بين أولاده ، فتأتى القرعة على عبد الله ، ولكن عبد المطلب يجد فى داخل نفسه ما يمنعه من الاقدام على ذبحه ، فيعيد القداح مرة أخرى ، فتأتى على عبد الله ، ولكنه يجد نفس المانع ، وتعاد القداح فلم تجاوز عبد الله وهنا يشير القوم عليه ان يجرى القرعة بين عشرة من الابل وبين عبد الله ، فكلما جاءت على عبد الله ذبح العشرة ، وأخذ العدد يتزايد إلى أن بلغت الابل مائة ، وبعدها فارقت القرعة عبد الله وذبح المائة ليأكل منها الانسان والحيوان والطير ، فكان فى هذا عبرة لمن يعتبر . من الذى منع عبد المطلب أن يقدم على ذبح عبد الله ولماذا ؟ .

إن الذى منعه هو الله الذى منع السكين أن تذبح إسماعيل بن إبراهيم كان الخليل يريد أن

---

١ ـ الحديث رواه الامام احمد ـ حديث جبير بن مطعم ـ جـ ٤ ص ٨٠

٢ ـ الحديث رواه الامام احمد ـ حديث حذيفة ابن اليمان ـ جـ ٥ ص ٤٠٥

يذبح ، ولكن الجليل أراد الا يذبح ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلّه للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾[١] . كذلك حدث مع عبد الله بعد ما لزمته القداح ولما تفارقه ، ومن ثم يقول النبى (ﷺ) « أنا ابن الذبيحين »[٢] .

لماذا منع الله عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله ؟ ، لأن فى صلب عبد الله خير خلق الله (عبدى : أنت تريد وأنا أريد ، ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ولا يكون إلا ما أريد) .

* عبرة أخرى *

وتلك عبرة أخرى . بعد ما دخل عبد الله بآمنة قضى معها أياما قلائل ، ونادى المنادى للخروج إلى رحلة الشام صيفا ، فكان عبد الله من الذين خرجوا فى هذه القافلة وترك عروسه آمنة فى أيامها الأولى ، وتمر الأيام سراعا ، وتعود القافلة وشوق آمنة يزداد إلى عبد الله ، لتزف إليه البشرى بجنين يتحرك فى أحشائها ، ولكن أهل القافلة عادوا جميعا ما عدا واحدا هو الذى تأخر . لماذا ؟ من الذى حجزه ؟ لقد جاءه الموت فى يثرب فمات عند أخواله من بنى النجار ، ولقيت آمنة ما لقيت من عناء الفرقة وفداحة المصاب ، ولكن ماذا تفعل ؟ .

مشيناها خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت فى أرض سواها

وتمت مدة الحمل كما أراد الله .

﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾[٣] .

وجاء هذا النبى إلى الكون يتيما حتى لا يقول : أبى أبى ، وإنما يقول : ربى ربى . وهل وجود الأبوين أو فقد أحدهما يغير من مقادير الله شيئا ؟ كلا . . هذا يوسف بن يعقوب عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ، نشأ فى كنف أب أكن له الحبّ ، وأفعم قلبه بالعطف عليه ، ولكنه ذات يوم يتلفت الوالد حوله فلا يجد ابنه بين يديه ، وتقع الفرقة بينهما . فهل أغنت حياة يعقوب بالنسبة ليوسف شيئا ؟ .

---

١ ـ الآيات ١٠٢ إلى ١٠٧ من سورة الصافات
٢ ـ الحديث فى تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ـ ذكر ما كان من أمر إبراهيم عليه السلام بعد ذلك ـ ج٢ ص ١٥٠ ، وفى كشف الخفاء للعجلونى ج١ ص ٢٣٠ رقم ٦٠٦ .
(٣) سورة فاطر الآية : ١١

﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وأنا له لحافظون . قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾[1] .

فانظر وتأمل هذا المشهد . لقد ولد الرسول محمد ـ ﷺ ـ فلم يجد أبا على قيد الحياة . وسارت المقادير فى مجراها كما أراد الله . وولد يوسف بن يعقوب ووجد نفسه فى كنف أب يحبوه بالعناية ، ولكن وقعت العزلة بينهما وأيضا سارت المقادير فى مجراها كما أراد الله .

دع المقادير تجرى فى أعنتها	ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها	يغير الله من حال إلى حال

* كان مولده بشير نصر *

كما كان مولد النبى ـ ﷺ ـ بشيرا لتحرير العبيد ، وجعلهم سادة وأساتذة وقادة عندما ارتشف أول جرعة من ثدى جارية أبى لهب . كذلك كان مولده بشير نصر ، فقد ولد فى عام ٥٧١ ميلادية ، وهذا العام يعرف بعام الفيل ، وجدير بنا أن نركز على هذا المغزى ونؤكد هذا المعنى ، ماذا حدث هذا العام ،

قبل ميلاد الرسول ـ ﷺ ـ غزت الحبشة اليمن واستولت عليها ، وأصبح أبرهة الأشرم حاكما فيها ، له السلطة العليا ، والكلمة المسموعة ، والأمر المصحوب بالهيبة والقوة والنفاذ ، لكن أبرهة كان متعجرفا خسيسا ، فلم يرض لليمانيين أن ينقادوا إليه ، ويطيعوا أوامره ، ويتجنبوا نواهيه ، ولم يرض

لهم ان يفرض عليهم ضرائب باهظة ، وإتاوات فادحة ، مست الزرع والضرع ، وقضت على التجارة والصناعة وما يدخرون من أموال وأقوات ، ولم يرض لهم هذه السخرية الممضة المؤلمة ، التى كان ينوء بها أهل اليمن حينا بعد حين . لم يرض أبرهة بهذا كله ، ولم يقتنع به فراح يبغى أكثر ما يكون البغى ، ويفجر أشد ما يكون الفجور ، ويحاسب على الشبهة حسابا فادحا عسيرا ، ويعاقب بقسوة على الهنات وصغائر الأمور .

وفى يوم سأل أبرهة وألح فى السؤال ، سأل عما يشغل اليمانيين فى هذه الأيام شغلا دائبا مستمرا ، وسأل عن السر الكامن وراء هذه التجمعات والاستعدادات التى تفرض عليهم فرضا إلى جهة معينة ، ومكان قصى بعيد . وسأل عن نتيجة هذا السفر الذى جعل اليمانيين يقضون ليلهم ونهارهم فى تأهب واستعداد للرحيل .

وعلم أبرهة ـ ويا ويل ما علم ـ علم أن اليمانيين وغيرهم من سائر بلاد العرب يذهبون فى هذا الوقت بالذات إلى مكة لزيارة البيت العتيق ، والتمتع بالشعائر والمناسك التى ورثوها عن أبيهم إبراهيم وعلم أن العرب يهرعون إلى البيت من كل فج عميق ، وأنهم يأتونه مشاة وركبانا ، ويقتحمون المشقات والأهوال ، ويرونها هينة فى سبيل رؤية هذا الحرم الذى يقدسونه ويعظمونه ، لأنه يربطهم بعالم السماء . ويزيل عنهم مغبة الذنب وثقل الفحش ، وينقى قلوبهم من الدغل والمظالم والآثام .

وعلم أبرهة أن العرب فى هذه الأيام يكفون عن القتال ، ويضعون الأسلحة فى أغمادها ، فيلقى الخصم خصمه وذو الثأر قاتل أبيه أو أخيه فلا يشرع فى وجهه سيفا ، أو يصوب إليه نبلا ، لا لعجز أو خوف ، وإنما تعظيما لهذا البيت واحتراما لأوامر الله .

وعلم أبرهة أن العرب يمجدون مكة ولها عندهم شعارات خاصة ، وامتيازات لم يسمع بمثلها لأى بلد من البلدان .

سمع أبرهة هذا الحديث فتغيظ تغيظا أليما ، وكره أن يحظى هذا البيت بتلك المزايا ، وينال هذه المكانة القصوى ، ثم سأل بم بنى هذا الحرم ؟ فقيل له إنه بنى من الحجارة ، فأقسم بالمسيح ليبنين كنيسة أفخم منه منظرا ، وأعظم شأنا ، وأقسم ليجعلنها مثابة للعرب وأمنا ، وبذلك ينصرفون عن مكة وما ورثوه عن أبيهم إبراهيم .

وتذكر روايات التاريخ أن أبرهة بنى كنيسة من الرخام الملون ، ورصعها بالجواهر ، وجعل لها أبوابا صفائحها من الفضة ، ثم جعل عليها سدنة يطلقون فيها البخور الممزوج بالكافور ، ولكن الله خيب ظنه ، فلم يجد من العرب من يهجر البيت الحرام ويذهب إلى كنيسة أبرهة ، فازداد حنقا ، وأقسم ليهدمن الكعبة حجرا حجرا . ورفع أبرهة الأمر إلى قائده بالحبشة ، وطلب منه إمدادات حربية تعينه على غزو مكة ، فأرسل إليه أسلحة وجندا وبما شاء له أن يرسل من مؤن وعتاد وأفيال ، وخرجت قوات أبرهة تنهب الأرض نهبا ، فأوغلت فى الجبال والوهاد والقفار ، غير عابئة بما تتحمله من مكاره الطريق وضراوة الصحراء .

ومضى أبرهة بجيشه الجرار إلى أن وصل أرض تهامة اليمينة ، وعندما وجد جموعا غزيرة من

العرب اعترضوا طريقه واستعدوا لقتاله ، هاجمهم هجوما عنيفا ، وبدد شملهم وأسر قائدهم .

وتقدم جيش أبرهة ، فلما اقترب من مكة ! استراح فى الطائف ، فجاء عظماء العرب وساداتها وعرضوا عليه مالا كثيرا فى سبيل أن يترك بيتهم فأبى إباء تاما ، وأظهر العزم والحزم على هدم الكعبة ، فتركوه وشأنه دون أن يمسوه بسوء أو أن يفعلوا معه شيئا مذكورا .

وفى الصباح أمر ابرهة بالاغارة على مكة ونهب ما يمكن نهبه من متاع ، فأبدى جيشه كل المساوىء من قرصنة وسلب ونهب ، وأخذ ما شاء له أن يأخذ من إبل وغنم وأبقار ، ومن بينها مائتان من الابل لعبد المطلب سيد قريش وزعيمها المطاع .

لم يقف أبرهة عند هذا الحد ، بل أعطى أهل مكة إنذارا نهائيا قال فيه : إننى ما جئت غازيا لبلدكم . ولا ناهبا لأموالكم ، ولا مزمعا إذلالكم ، وإنما جئت لأهدم الكعبة حجرا حجرا ، فإن رضيتم فبها ونعمت ، وإن لم ترضوا أجبرتم على الرضا ، وسلطت عليكم جندى وحل عليكم غضبى ، وقهرتكم قهرا لا شفاعة فيه ولا تسويف .

عندئذ اضطربت مكة اضطرابا ، ولفها حزن عميق قاتم ، وبان على أهلها قلق وهم مريران ، ورأى عبد المطلب أن يذهب إلى هذا الطاغية عسى أن يرده بالحكمة ويمنعه باللين ، ويعطيه ما سلبه جيشه من أنعام .

ودخل عبد المطلب سرادق الملك ، وحين رآه أبرهة رأى شيخا مهيبا عظيما فيه نداوة باسقة وملامح جليلة ، ووقار لم يره على رجل من قبل ، فسأل عنه فقيل له هذا شيخ قريش عبد المطلب بن هاشم أعز العرب جاها ، وأكثرهم يدا ، وأعظمهم سخاء ، يحمل على الجياد ، ويعطى الأموال ، ويطعم ما هبت الريح . فوقف له أبرهة إجلالا وحاول أن يجلسه بجواره ، لكنه خشى أن تنكر عليه الحبشة ذلك فنزل من على سريره ، وجلسا معا على البساط ، ثم سأله عن حاجته ، فقال عبد المطلب : أن ترد علىّ إبلى التى أخذتها طلائعك . قال أبرهة ـ مستهزئا ساخرا ـ لقد أعظمتك حين رأيتك ، أما الآن فإنك أصغر شأنا وأقل خطرا ، كيف تحدثنى أن أرد إليك مائتين من الابل ، ولم تحدثنى فى أمر البيت الذى هو دينك ودين آبائك ؟ قال عبد المطلب : أما الابل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه .

فأمر أبرهة برد الابل ، فأخذها عبد المطلب وأرسلها هديا للبيت وقربى لله لكى يذود عنهم ويباعد بينهم وبين ما يخافون .

وأمر عبد المطلب المكيين أن يخرجوا من مكة ويتفرقوا فى الشعاب ، ويركبوا رءوس الجبال قبل أن يحيق بهم مكر الغزاة ، ويضربوهم من حيث لا يشعرون فأذعنت قريش للأمر ، وخرجت متحصنة بالمغارات والكهوف وما عسى أن يمنعها من هذا الأخطبوط اللعين . وقبل أن ينصرف عبد المطلب عن مكة ، ذهب إلى البيت وامسك بحلقة بابه ومعه عدد قليل من أبناء عمومته رافعى الأكف ، حاسرى الهامات ، داعين ربهم أن يحفظ أرض الحرم من الدمار ، ولا يعرض قبلتهم للهدم وسوء البلاء . ثم برز صوت عبد المطلب قائلا فى نشيد حزين مكروب :

لاهمّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

وزحف جيش العدو إلى البيت يريد هدمه حجرا حجرا كما أراد أبرهة ، وتقدم أمامه فيل لم يسمع بمثله قط ، ولم ير أضخم منه شكلا ولا أثقل وزنا ولا افظع منظرا ، بيد أن الفيل برك ولم يتقدم خطوة واحدة ، وكأنه أصيب بجاصب أثقله المشى والحركة والتوازن .

وكان أعجب من ذلك كله أن الفيل كان يمشى إلى أى جهة يريدها ساسته شرقا وغربا وجنوبا ماعدا جهة البيت فإنه يعجز تاما ، رغم الضرب الذى يضربونه له بالسياط ، ورغم الاستنهاض الذى يستنهضونه إياه بوسيلة أو أخرى .

وفجأة ومن غير مقدمات جد ما لم يكن فى الحسبان ، فأرعدت السماء ، واكفهر الجو ، وأظلمت الأرض ، وإذا بطير يحلق فوق جيش العدو وإذابه يسقط حجارة صغيرة ودقيقة ، لكنها لاذعة ومبيدة ، وما وقعت على رجل إلا طحنته طحنا ، وما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وما أصابت جسما إلا تركته حصيدا كأن لم يغن بالأمس .

فارتعب الجيش ، وأخذت أفراده يموج بعضها فى بعض ، والطير يلاحقها بالهجوم ، ويقذفها بالموت الزؤام ، حتى هلكت جميعا إلا من شاء الله .

أى قوة أصابت هذا الجيش المتمرد على الله وعلى بيته العتيق ، وعلى العرب ذوى الكرم والوفاء والسخاء ؟ .

وأى نجدة أطلت على العرب من عل فبدلت هزيمتهم نصرا ، وعسرهم يسرا وكربتهم فرجا ؟ .

إنها قوة الله ولاشيء غير الله تلك التى أطاحت بجيش العدو وجعلت أبرهة المتبجح المنفوخ يرجع القهقرى وفى رأسه داء يغلى ، وفى قلبه بركان أوشك على الانفجار .

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾[1] .

ودخل أبرهة صنعاء فى بقية صغيرة هزيلة لا حياة فيها ولا موت ، تئن من الهول ، وتتلوى من ثقل المرض ، وعلى الفور حمل أبرهة إلى داخل قصره وهو يصرخ صراخا ويهتز اهتزاز . وبعد لحظات انفجر قلبه، واندلقت أمعاؤه ، ولفظ أنفاسه الأخيرة ، فوورى إلى مثواه الأبدى مشيعا باللعنة والهزيمة والطرد من ملكوت الله ورحمته **﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾**[2] .

وهكذا ولد الرسول فى هذا العام ، فكان مولده إيذانا بنصر هذا الحرم وبخاصة من أيدى الأثمين .

---

١ ـ الآيات ١ إلى ٥ من سورة الفيل
٢ ـ الآية ١٦٧ من سورة البقرة

سعدت بمولد أحمد الأزمان وتعطرت بعبيره الأكوان
والشرك أنذر بالنهاية عندما ولد البشير وأشرق الايمان
ولدته آمنة النقية مشرقا باهى المحيا صاغه المنان
تتلألأ الأنوار فى قسماته وأتم حسن صفاته الرحمن
وبدت لمولده الكريم بشائر قدسية وتزلزل الإيوان

* كان مولده إنذارا للظالمين *

ظهرت لمولد المصطفى أمارت وارهاصات كانت بمثابة انذار شديد للطغاة الظالمين ، والجبابرة المستبدين . انشق إيوان سرى الذى ملأ الأرض جورا وظلما . كان هناك استعباد واستبداد وظلم وفساد وشرك وإلحاد ، وأخمدت نار فارس ، وكانت تعبد من دون الله ، فكان هذا إعلانا وتنبيها إلى أن الدنيا

قد تشرفت بمولد هذا الانسان الكامل والمثل الأعلى الذى سيغير مجرى التاريخ سيقود سفينة العالم الحائر إلى بر النجاة ، إلى طريق الله رب العالمين ، إنه سيد البشرية ، المبعوث رحمة للعالمين . سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ومحيا كالشمس منك مضيئا أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذى كان للدين سرور بيومه وازدهاء
وتوالت بشرى الهواتف أن قد ولد المصطفى وحق الهناء
وتداعى إيوان كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كان لنيرانهم بها إطفاء
مولد كان منه فى طالع الكفر وبال عليهم ووباء
فهنيئا به لآمنة الفضل الذى شرفت به حواء
من لحواء أنها حملت أحمد أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب من فخار ما لم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما حملت قبل مريم العذراء
شملته الأملاك إذ وضعته وشفتنا بقولها الشفاء
رافعا رأسه وفى ذلك الرفع إلى كل سؤود إيماء
رافعا طرفه السماء ومرمى عين من شأنه العلو العلاء

* كان مولده تكريما لليتامى *

هكذا قال رسول الله ﷺ : (خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم)[١] .

وهكذا قال رسول الله ﷺ : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة)[٢] .

لقد أكرم الله هذه البشرية بمولد هذا اليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين وقد امتن الله عليه فقال له : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾[٣] .

ووضع الاسلام السلوك السوى فى معاملة اليتامى فقال تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾[٤] .

وحذر من أكل أموالهم وتبديدها ، وعدم العناية بها ، بعد ما أمر بأن يؤتوا أموالهم كاملة ، فكان هذا أول أمر فى سورة النساء بعد الأمر بتقوى الله . قال عز من قائل : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا . وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ﴾[٥] .

وأمر تعالى باستثمار أموالهم فى طرق الحلال حتى لا ينفد رأس المال بالنفقة فقال عز من قائل : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ﴾[٦] وهذا هو سر التعبير بقوله تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ ولم يقل ﴿ وارزقوهم منها ﴾ حتى يكون الرزق من ربحها وثمرة العمل فيها ، فإذا ما بلغ اليتيم رشده فإن الله تعالى أمر بدفع ماله إليه كاملا غير منقوص قال عز من قائل ﴿ فإن آنَسْتُم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ﴾[٧] ووصى من يعمل فى مال اليتيم أن يستعفف عن أخذ الأجرة إن كان غنيا وأن يأكل بالمعروف إن كان فقيرا . قال سبحانه : ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾[٨] .

وبين أن الاحسان فى معاملة اليتيم كنز مدخر لذرية المحسن بعد موته قال عز من قائل : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴾[٩] .

وشدد الوعيد والانذار والتهديد لمن نزل فى جوفه مال اليتيم . قال تبارك اسمه : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾[١٠] .

---

١ ـ الحديث فى سنن ابن ماجه ـ كتاب الأدب ـ باب حق اليتيم ـ ج٢ ص ١٢١٣ رقم ٣٦٧٩ .
٢ ـ الحديث فى سنن أبى داود ـ كتاب الأدب ـ باب فى من ضم اليتيم ج٥ ص ٣٥٦ رقم ٥١٥٠
٣ ـ الآية ٦ من سورة الضحى
٤ ـ الآية ٢٢٠ من سورة البقرة
٥ ـ الآيتان ١ ، ٢ من سورة النساء
٦ ـ الآية ٥ من سورة النساء
٧ ـ الآية ٦ من سورة النساء
٨ ـ الآية ٦ من سورة النساء
٩ ـ الآية ٩ من سورة النساء
١٠ ـ الآية ١٠ من سورة النساء

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :ـ

ولد اليتيم لينقذ الأيتام من ... بؤس الحياة إذا رمى الحدثان
ولد الفقير لينقذ الفقراء من ... ظلم الغنى فيوأد الحرمان
ولد المنشأ نشأة أمية ... فسما بنور كتابه العرفان
وتعلم الحكماء من نفحاته ... شتى المعارف وارتوى الظمآن
ولد المؤسس للعباد حضارة ... سجدت لها ما أسس الرومان
وبنى على الأخلاق أعظم دولة ... قانونها وعمادها القرآن
فازدانت الدنيا بأبهى حلة ... من نسجها وخيوطها العمران
والكون أضحى مشرقا من بعد ما ... عبدت به الأحجار والنيران
ولد ابن عبد الله أعظم مصلح ... وأجل من دانت له التيجان
فهو الأساس لكل ملك خالد ... لم يستقم من غيره سلطان
ياخير من قصد الحجيج رحابه ... وسعت إلى أعتابه الركبان
كيف السبيل إلى مديحك بعدما ... أطرى كريم خلالك الفرقان
والله أعلى فى المآذن ذكرك ... مع ذكره مادامت الأزمان

* رضاعتـــه ﷺ *

جاءت المراضع إلى مكة تطلب المواليد ، لكن هذا اليتيم كان من حظه مرضعة تسمى حليمة السعدية . ولما أخبر عبد المطلب بذلك الشأن قال ستكون حلها وسعادة عليه . أخذته حليمة وذهبت به إلى ديار بنى سعد بن بكر .

ولقد سبقته العناية الالهية إلى ديار بنى سعد ، فكان هو بشير اليمن وحسن الطالع على أهلها ، فقد أجمع رواة السيرة أن بادية بنى سعد كانت تعانى إذ ذاك سنة مجدبة ، قد جف فيها الضرع ، ويبس الزرع ، فما هو إلا أن صار محمد بن عبد الله فى منزل حليمة ، واستكان إلى حجرها وثديها ، حتى عادت منازل حليمة من حول خبائها ممرعة خضراء ، فكانت أغنامها تروح منها عائدة إلى الدار شباعا ممتلئة الضرع .

وإذا سخر الاله إناسا ... لسعيد فإنهم سعداء

وهل هناك أسعد فى هذا الوجود من رسول الله ـ ﷺ ؟
لقد كان قدومه على بنى سعد خيرا وبركة حتى قال زوج حليمة لها . ما رأيت نسمة أعظم بركة

من هذا الغلام . وقد صدق فإن هذا المولود هو الذى سيربيه الله ليربى به العرب ، ويربى بالعرب العالم أجمع ، يدعوهم إلى رسالته ، ويبين لهم منهاجه وصراطه المستقيم .

لقد قضى رسول الله فى هذه الديار خمس سنوات ، يستظل بسمائها الصافية ، وأرضها الفسيحة ، وجبالها الشاهقة التى تربى فى النفس قوة وصلابة ، وهكذا كان العرب يذهبون بأولادهم إلى هذه العرصات الفساح ، يخرجون بهم من ضيق المساكن التى ينعكس أثرها على النفس .

وجاء الرسول بعد ذلك إلى أمه آمنة سالما عزيزا .

* حادث شق الصدر *

جاء فى كتاب تهذيب السيرة ص ٣٦ ، وسيرة ابن هاشم الجزء الأول ص ١٦٤ ، وفى صحيح مسلم الجزء الأول ص ١٠١ ، ١٠٢ ، أنه ﷺ أثناء وجوده فى ديار بنى سعد ، وقع حادث شق الصدر .

روى الامام مسلم :

(بينما هو يلعب مع الغلمان أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طسط من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه) .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى مرضعته - قائلين إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبا ، فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر .

فقد روى الامام أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن أبى بن كعب أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئا على أن يسأل رسول الله - ﷺ - عن أشياء لايسأل عنها غيره فقال : يارسول الله مأأول مارأيت فى أمر النبوة ؟ فاستوى رسول - ﷺ - جالسا وقال : (لقد سألت أبا هريرة) .

(إنى لفى صحراء ، ابن عشر سنين واشهر ، واذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : (أهو هو) ؟ قال : نعم .

(فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، فأقبلا إلىّ يمشيان حتى أخذ كل منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه فأضجعانى بلا قسر (اجبار) ولا هصر (ثنى العموم من رأسه ، والمعنى : لم يثنيا ظهرى ولم يكرهانى) .

وقال أحدهما لصاحبه :

أفلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدرى ، ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له : أخرج

الغل والحسد ، فأخرج شيئا كهيئة العلقة ، ثم نبذها فطرحها .
فقال له :
أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هزا ابهام رجلى اليمنى وقال : أغد واسلم .
فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير .
إن حادث شق الصدر قد ينظر إليه الماديون نظرة إن دلت على شيء فإنما تدل على أنهم يقيسون الأمور بمقياس غير قادر عن ادراك الحقيقة ، فيثيرون ، الجدل العقيم ، ويستعملون فى ذلك شتى ضروب المراء الممقوت .
والقضية فى حقيقتها دلالة صادقة على عناية الاله القادر بهذا الرسول الكريم فإن هذا القلب وهذا الصدر ليس شيئا عاديا . إنه جهاز إرسال سيذيع على العالم أجمع برامج السماء فى شتى نواحى الحياة ، فلابد أن يكون ذلك الجهاز من القوة والصفاء والحكمة والرأفة والمحبة ، بحيث يؤدى ما أمر الله ، ويبلغ رسالات الله ، ويخشى الله ولا يخش أحدا إلا الله .
﴿ قل إنما بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[1] .
فهو وإن كان بشرا إلا اننا يجب أن نراعى الحقيقة القائلة (يوحى الىَّ) وهى قضية الوحى .
فهو بشر يوحى إليه . وقضية الوحى تقتضى قوة فى القلب وحكمة وايمانا ورحمة .
وفى حادث شق الصدر ما يشير إلى ذلك ، وإذا فليس هناك مجال لعبث المادية فى هذه القضايا الالهية .

* وفــاة أمــه *

وهكذا تتحرك بنا الأحداث سراعا متوالية ، فإن الرسول ﷺ بعد ما عاد إلى أمه ، وقد بلغ من العمر ست سنوات ، رأت أمه من باب الوفاء أن تأخذه وتزور به قبر أبيه بيثرب ، إذ أنه قد دفن عند أخواله من بنى عدى بن النجار .
وجلس اليتيم امام قبر أبيه الذى لم يره .
وبينما هما فى طريق العودة ، وكان معهما جارية تسمى (بركة الحبشية) وكينتها (أم أيمن) وعند قرية تسمى (الأبواء) بين مكة والمدينة وهى إلى المدينة أقرب ، شكت آمنة وجعا ألم بها ، ونظرت إلى ابنها محمد الذى كان وقتئذ فى عمر الزهور ، فنظرت إليه نظرة الأم الراحلة ، وتلفت الرسول حواليه على امتداد الصحراء المترامية الأطراف . الليل موحش والجبال ممتدة الرؤوس والرمال كثيفة وليس معه

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف

إلا أمه وجاريته ، لكن هذا الألم الذى شكت منه آمنة كان إيذانا بغروب شمس العمر .
أخذت تجذب محمدا إليها . هى لا تريد فراقه . لكن الموت أخذ يجذبها إليه .
وقالت له : يا محمد كن رجلا .
ولقد كان محمد كذلك . بل كان سيد الرجال .
كان رجلا فى طفولته ، فقد تقلب على بساط اليتم ، كلما أوشك البساط أن ينطوى امتد من جديد .
وكان رجلا فى صباه .
وكان رجلا فى شبابه .
وكان رجلا فى رجولته .
وكان رجلا فى شيخوخته .
ولحق بالرفيق الأعلى وهو سيد الأولين والآخرين .

نعم :

مشيناها خطى كتبت علينا	ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض	فليس يموت فى أرض سواها .

هذه حكمة الله .
يرجع محمد إلى مكة ، وقد أهيل التراب على أمه ، وهى الأم التى أنجبت أعظم مخلوق . . عاد مع أم أيمن ، وقد قال لها : (أنت أمى بعد أمى) .

سيدى يارسول الله :

ولدت بمولدك المكارم والندى	والحلم عند الغيظ والاحسان
والرفق والصفح الجميل عن الأذى	والعزة الشماء والغفران
فأقمت للخلق الكريم منارة	وسما بعذب حديثك التبيان
فصل الخطاب لقد ملكت زمامه	ونشرت مالم يستطعه لسان
وأتيت بالتوحيد صرفا خالصا	لله لم يشرك به إنسان

* كفالة جده عبد المطلب]*

بعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب ، وإمتلأ قلبه لليتيم رقة ورحمة ، لم تسبق له فى ولده ، لقد

كان يرى فيه عوضا عن عبد الله ، ولو اطلع عبد المطلب على صفحة الغيب لعلم أن هذا اليتيم سيكون له شأن عظيم يملأ به الأرض نورا وبركة ، ويخاطبه هذا الخطاب الالهى العظيم ﴿ **يا أيها النبىُ إن أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا** ﴾[١] .

* وفاة عبد المطلب *

لما بلغ رسول الله ثمانى سنوات توفى جده عبد المطلب ، وهكذا امتد بساط اليتم من جديد ، إن الموت فلسفة حارت فيها عقول المفكرين ، ووقفت واجمة حيالها عبقريات البارعين .

الموت لغز لا يحل وطلسم لا يفك ، لأنه متعلق بالروح ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[٢] .

وقد أخفى الله صفحة الأجل عن خلقه ، واستأثر بعلمه .

ذكروا أن الامام مالك بن أنس - رضى الله عنه - إمام دار الهجرة ، رأى فى المنام ملك الموت فسأله : يا ملك الموت كم بقى من عمرى ؟ فأشار له الملك بأصابعه الخمس . فسأل الامام أخمس سنوات ، أم شهور أم أيام ؟ ولكن الملك لم يجبه . واستيقظ الامام من نومه ، وذهب إلى أحد العلماء الذين يعبرون الرؤيا ، وقصها عليه ، فقال له العالم : ليست الخمسة أعواما ولا شهورا ولا اياما ، ولكن ملك الموت يريد أن يقول لك : إن سؤالك هذا فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمهن إلا الله : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير** ﴾ .

فسبحان من له العزة القائمة والمملكة الدائمة ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور** ﴾[٣] .

* كفالة عمه أبى طالب *

كان أبو طالب رجلا كثير العيال قليل المال ، لكنه بعد كفالته لابن أخيه محمد صار القليل فى يده كثيرا ، وشعر بتوسعة الله عليه فى رزقه ، ببركة هذا اليتيم ، الذى امتن به ربه عليه بقوله : ﴿ **ألم يجدك يتيما فأوى** ﴾[٤] .

كان أبو طالب إذا وضع الطعام لا يقربه أحد قبل محمد ، فإذا جاءت أقداح اللبن فإن محمدا يكون أول من شرب .

---

١ - الآية ٤٥ من سورة الأحزاب
٢ - الآية ٨٥ من سورة الاسراء
٣- الأيتان ١ ، ٢ من سورة الملك
٤- الآية ٦ من سورة الضحى

وهكذا أحاطه الله بالعناية فى كفالة عمه أبى طالب .
سيدى أبا القاسم يارسول الله :

يـاسيد السـادات يامن قـدره — لا تستطيع له الورى إدراكا
ماذا يقول الناس فيك وربهم — بـأتـم تـربيـة لـه ربـاك
حلاك بالخلق العظيم ، وفضله — الفضل العظيم عليك ما أعلاك
آواك من يتم واعطاك الغنى — ولدينه الـدين القويم هـداك
شكرا لك اللهم أنت كفلته — نعم الكفيل تقدست أسماك

سـفره إلـى الشـام

لما بلغ الرسول ـ ﷺ ـ اثنتى عشرة سنة سافر عمه أبو طالب إلى الشام فى ركب للتجارة . فأخذه معه ولما نزل الركب مدينة (بصرى) مروا على راهب هناك يقال له (بحيرى) وكان عليما بالانجيل خبيرا بشئون النصرانية وهناك أبصر بحيرى النبى ـ ﷺ ـ فجعل يتأمله ويكلمه ثم التفت إلى أبى طالب وقال له ما هذا الغلام منك ؟

فقال : ابنى وكان أبو طالب يدعوه بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه ـ فقال له بحيرى : ما هو بابنك وما ينبغى أن يكون أبو هذا الغلام حيا .
فقال : هو ابن أخى
قال فما فعل أبوه ؟
قال مات وأمه حبلى به
قال بحيرى : صدقت فارجع به إلى بلده واحذر عليه يهود فو الله لئن رأوه هنا ليبلغنه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .
فأسرع به أبو طالب عائدا إلى مكة
سيدى أبا القاسم يارسول الله

يا مبعث النور الذى عم الورى — فسـار على مشكـاته الحيران
أفسحت للفكر الصحيح سبيله — فسما الحجا واستعصم الوجدان
ودعـوت للتفكيـر حتى أذعن — العلماء والأحبـار والـرهبـان

لم يكن الرسول ـ ﷺ ـ يريد الحياة عالة على غيره ، كذلك لم يردها عبثا على أحد . خرج يستقبل

الحياة ويأكل لقمة عيشه بكدِّ اليمين وعرق الجبين فاستقبل فترة شبابه بالسعى للرزق وراح يشتغل برعى الغنم وقال عن نفسه فيما بعد (كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة)[1] .

إن فى رعى الغنم حكمة بالغة فهى تعرس فى النفس صفات القيادة الحكيمة وما من نبى إلا ورعى الغنم ففى رعيها يتعلم الانسان الحكمة والحلم والصبر وبعد النظر إذ أن فيها الشاردة والواردة ، وكأن فى هذا العمل تدريبا عمليا على معاملة الناس والصبر على أذاهم والحلم مع سيئهم والحكمة مع سفهائهم .

إذا شئت ان تحيا سليما من الأذى ... وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء ... فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئا ... فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتى هى أحسن

عناية الله به فى شبابه

أحاطه الله بعنايته وحماه برعايته فحفظه عن التلبس بما تنبو عنه الأذواق السليمة وتنفر منه الطباع المستقيمة .

فكان - ﷺ - فى شبابه نظيف السمع والبصر والقلب والثياب واليدين والقدمين .

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه

(ما هممت بشىء مما كانوا فى الجاهلية يعملونه غير مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبينه .

ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله بالرسالة

قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب .

فقال : أفعل

فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا عرس فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ثم ماهممت بعده بسوء[2]

---

١ - الحديث فى صحيح البخارى - باب فى الايجارة - ج٣ ص ١١٦

٢ - الحديث فى مجمع الزوائد - كتاب علامات النبوة - باب عصمته ﷺ - من الباطل - ج٨ ص ٢٢٦

سيدى أبا القاسم يارسول الله

يامن لحضرته الشفاعة واللوا	والحوض قد أعطاكها المنان
لولا كتابك فى البرية لم يقم	للحق قسطاس ولا ميزان
فلك التحيات الزكيات العلى	ما هيئت للعاملين جنان

تجارته فى مال خديجة

يروى ابن الأثير وابن هاشم أن السيدة خديجة كانت تاجرة وكانت ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم منه .

فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ومعه غلامها ميسرة .

وقد قبل محمد بن عبد الله - ﷺ - هذا العرض فرحل إلى الشام عاملا فى مالها ومعه ميسرة فحالفه التوفيق فى هذه الرحلة أكثر من غيره وعاد !! خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه فى أمانة تامة ونبل عظيم

شهادة ميسرة له

وجد ميسرة من خصائص النبى - ﷺ وعظيم أخلاقه ما ملأ قلبه دهشة له وإعجابا به .

رأى الصدق فى صورته الحقيقية ورأى الأمانة مجسمة فى معاملته . رآه سمحا إذا باع سمحا إذا اشترى سمحا إذا قضى سمحا إذا اقتضى رأى فيه الأمانة فى أسمى معانيها وقد صدق أبو حامد الغزالى - رحمه الله تعالى - إذ يقول : إذا اثنى على الرجل جيرانه فى الحضر ورفقاؤه فى السفر ومعاملوه فى الأسواق فلا تشكوا فى دينه .

نعم ليس الاسلام خطبا رنانة ولا عبارات طنانة .

ولا فلسفات عقيمة .

إن الاسلام فى حقيقته عقيدة وعمل .

وقد صدق الرسول إذ يقول (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[1] .

أدلى ميسرة بهذه الشهادة	وإنها لشهادة حق ومازاد
ميسرة على الحقيقة شيئا	فأنت يارسول الله أهل لذلك

(١) الحديث فى فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٥٧٢ رقم ٢٥٨٤

وأكثر من ذلك

القول فيك معطر الكلمات ... يا صاحب الأخلاق والآيات
أيام مولدك الكريم مضيئة ... فى كل ماض فى الزمان وآت
يوم أتى بك فى الوجود فإنه ... تاج الزمان وغرة السنوات
تتعاقب الأيام فى دورانها ... وترد كل جديدة لمرات
وضياك يسطع كل يوم نوره ... ويزيد فى الاشراق والنفحات

قصة زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها

أدلى ميسرة بهذه الشهادة البريئة إلى السيدة خديجة فوجدت فى نفسها قلبا طهورا طيبا فتمكنت من القلب كل تمكن لقد أعجبت بصدقه وأمانته وكفى بهما . . إنهما رأس مال ضخم ورصيد لا يلحق به ولا يشق له غبار .

الصدق أمانة والكذب خيانة وكل أمة تتصف بالصدق والأمانة فالسعد رائدها والتوفيق حليفها ويلبسها الله لباس العز والشرف وكل أمة تتصف بالكذب والخيانة فالذل رائدها والخذلان حليفها ويذيقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

لقد نالت خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبه تخطبه لنفسها ورأى الرسول فى خديجة سيدة ذات خلق كريم وعقل راجح رغم فارق السن بينه وبينها كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة .

ولم ينظر إلى مالها ولا إلى جمالها ولا إلى حسبها وإنما نظر إلى عقلها وخلقها وهكذا عظماء الرجال .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغيرها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم

كلم الرسول أعمامه فوافقوا على هذا الزواج فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك .

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين: الأول منهما (عتيق بن عائذ التميمى) ثم خلفه عليها (أبو هالة التميمى) واسمه (هند بن زرارة) وبعد موتهما طرق كثير من الرجال بابها لتكون لهم زوجا فلم تفتح لهم بابها ، لأنها رأت فيهم طلاب مال خديجة حتى إذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة .

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط كسماسرة الأسواق .

لكنها رأت فى محمد الانسان الصادق الأمين خطبته لنفسها ورأى فيها محمد السيدة العفيفة

الطاهرة فرضيها زوجا .

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقى خطبة الزواج وقف يقول :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعل لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما وجعلنا الحكام على الناس . أما بعد/ فإن محمد بن عبد الله ابن أخى لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا وإن كان فى المال قلا فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة وإن لمحمد رغبة فى خديجة ولها فيه مثل ذلك وما طلبتم من الصداق فعلى » .

دعـــوى باطلـــة

نعم إنها دعوى ، لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها ،وباطلة ، لأنها جاءت بدافع الحقد والحسد على رسول الاسلام ونبعت من قلوب تفرز البغضاء كما يفرز الكبد عصارة الصفراء .

لذلك رأينا ونحن نتكلم عن زواج رسول الله - ﷺ - بالسيدة خديجة رضى الله عنها أن نعقب بهذا البحث لنلجم ألسنة الحاسدين الحاقدين الذين يحاولون ان يثيروا غبار الشبهات الباطلة على التعدد فى أزواج رسول الله - ﷺ - وهم بذلك يفضحون ما فى قلوبهم من زيغ .

فلو تحول الناس جميعا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فسيثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

ماضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة   لا يرى نورها من ليس ذا بصر

نعم يا أعداء الله من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين وأدعياء الثقافة وأبناء الغزو الثقافى إن الرسول لن يضيره أن تنبح عليه هذه الأصوات فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .

وما ضر الورود وما عليها .   إذا المزكوم لم يطعم شذاها

نعم ثم نعم

هل عرفتم من هو ذلك الذى تحاولون أن توجهوا إليه هذه السهام الطائشة

إنه الرجل الذى بعثه الله شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

ما يضر البحر أمسى زاخرا   أن رمى فيه غلام بحجر

وما نحن أولاء نسلط مدفعية الاسلام الثقيلة على هذه المواقع فنأتى عليها جميعا فنذرها قاعا صفصفا

إن قصة زواجه - ﷺ - من خديجة - رضى الله عنها - كما ذكرنا توضح للإنسان وضوحا لا تلتبس معه الرؤية أن رسول الله - ﷺ - لم يكن فى اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها فلو كان مهتما بذلك كبقية أقرانه من الشباب لطمع فيمن هى أقل منه سنا أو فيمن ليسْت أكبر منه على أقل تقدير .

ويتجلى لنا أنه - ﷺ - إنما رغب فيها لشرفها ونبلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب فى الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

ولقد ظل الزواج قائما حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاما وقد ناهز النبى - ﷺ - الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأية امرأة أخرى .

وما بين العشرين والخمسين من عمر الانسان هو الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمدا - ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر بأن يضم إلى خديجة مثلها من الاناث : زوجة أو أمة ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الاماء دون أن يخرق بذلك عرفا أو يخرج على مألوف أو عرف بين الناس هذا فضلا عن انه تزوج خديجة وهى أيم وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره وفى هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الاسلام وقوة سلطانه من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ينعقون بما لا يسمعون إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون إنهم يهرفون بما لا يعرفون ويحاولون أن يطاولوا السماء وان يمدوا إلى الشمس يدا شلاء .

إنهم يمضغون الهواء ويفتلون من الرمال حبالا لقد ظنوا أنهم واجدون فى موضع زواج النبى -ﷺ- مقتلا يصاب منه الاسلام ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى . ﷺ -

وتخيلوا أنه بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذة الجسد العازف فى معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح حاشا لله يارسول الله .

والله ما علمنا عليك من سوء انها فرية ما فيها مرية

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا ﴾[1] .

علمتنـا سر الحياة وقـدتنا	للخيـر والتـوفيق والبـركـات
جنبتنا الزلـل الكبير وصنتنا	من شهوة تطغى ومن نزوات
إن شرق القوم الكبار وغربوا	فإليك حتـما منتهى الخطوات
ضلت علومهم برغم نبوغهم	وتعـرضـوا لمهـالـك خـطـرات
وتنكبوا سبل السـلام واقبلوا	يتشـدقون بـأجـوف الكلمـات
لو أحسنوا فهم السلام لأسلموا	مـا غير دينـك سلم لنجاة

(١) الآية ٥ من سورة الكهف

ما ثمة أدنى شك فى ان المستشرقين والمبشرين هم الخصوم المحترفون للاسلام . يتخذون القدح فى هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها . كما هو معلوم .

أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم فأكثرهم يخاصمون الاسلام على السماع والتقليد ، ولا يعنيهم أن يفتحوا أذهانهم لبحث أو فهم ، إنما هو هواية التقليد والاتباع ، فخصامهم للاسلام ليس إلا من نوع الشارة التى قد يعلقها الرجل على صدره لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماؤه لجهة معينة . ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز فخصومة هؤلاء للاسلام ليست سوى الرمز الذى يعلنون به عن هويتهم بين الناس .

إنهم ليسوا من هذا التاريخ الاسلامى فى شىء ، وإن ولاءهم ، إنما هو لهذا الفكر الاستعمارى الذى يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكرى من مبشرين ومستشرقين . فهذا هو اختيارهم من قبل أى بحث ودون محاولة أى فهم !!

أجل ، إن مخاصمتهم للاسلام ليست إلا مجرد شارة يسمون بها أنفسهم بين قومهم وبنى جلدتهم ، وليس عملا فكريا لقصد البحث أو الحجاج .

وإلا فموضوع زواج النبى (ﷺ) من أ هون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماما .

يريدون أن يلصقوا به (ﷺ) صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد !! .

وموضوع زواجه (ﷺ) هو وحده الدليل الكافى على عكس ذلك تماما . فالرجل الشهوانى لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر فى بيئة مثل بيئة العرب فى جاهليتها عفيف النفس دون أن ينساق فى شىء من التيارات الفاسدة التى تموج من حوله . والرجل الشهوانى لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب . ضعف عمره . ثم يعيش معها دون ان تمتد عينه الى شىء مما حوله وإن من حوله الكثير ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ويدخل فى مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة ، ثم من غيرها ، فإن لكل منهم قصة ، ولكل زواج حكمة وسبب ، يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد (ﷺ) ورفعة شأنه وكمال أخلاقه .

أيا كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة الرغبة الجنسية ، إذ لو كان كذلك لكان احرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية فى الوقت الطبيعى لهذه الرغبة وندائها خصوصا وقد كان إذ ذاك خالى الفكر ، ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجته الفطرية والطبيعية . يقول بعض المحققين الباحثين فى الرد على هذه الفرية ما نصه . لقد طعن كثير من سفلة البشر من أراذل المحترفين لمهنة التبشير فى محمد عليه الصلاة والسلام ، واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه بها ومنقصة يلصقونها به ، وقالوا : إنه رجل شهوانى يميل إلى النساء ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾[1] . فى حين ان زواجه (ﷺ) يسمو بانسانيته إلى الحد الذى لا يجاريه

---

(1) الآية ٥ من سورة الكهف

فيها إنسان ولا يباريه فيها بشر .

فلو أراد ان يضم فى بيته كرائم العقائل ونفائس الخدائد، لكان له ما يريد من أسمى بيوت العرب ، وأجمل الجوارى من سبايا فارس والروم ، يرفلن فى حلل الدمقس ، ويتحلين بأفخر الجواهر ، ولكان سماطه كسماط . قيصر وكسرى .

كيف لا وقد كانت تحمل إليه الأموال حتى يضيق بها مسجده فلا يقوم وفى كفه منها شيء .

وما شبع هو وآله من خبز الشعير ، وحاله من الغنى والجاه ما قدمنا وما وصفنا .

ولم يضم فى حريمه سوى المغتربات المكتهلات ، التى مات عنها زوجها ، فلم تجد مأوى ، والتى عز عليها العيش فى كنف غيره من الأزواج ، ولم تكن بينهن من فتاة عذراء سوى واحدة ، هى عائشة ابنة رفيقه وصديقه أبي بكر الصديق ﴿ **ثانى اثنين إذ هما فى الغار** ﴾[1] .

وعندما بلغت قسوة الحياة منتهاها ، وجاوزت الشدة مداها ، نزلت آية التخيير :

﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما** ﴾[2] .

وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق الى حسن الاختيار ، واخترن دار القرار وقلن جميعا : بل نريد الله ورسوله والدار الآخرة فتحت لهن بذلك السعادة ، وحزن الحسنى وزيادة .

وقد تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة خديجة - رضى الله عنها - ولها أربعون سنة وهو ابن خمس وعشرين ، ولم يدفعه لزواجها سوى انها خطبته لنفسها بنفسها ، وكانت من أعف النساء وأعرقهن نسبا وحسبا ، ولها بعد ذلك فضل السابقة فى الاسلام ، فلم يتقدمها إليه رجل ولا إمرأة ، وماتت وسنها خمس وستون سنة ، وكانت مدة مقامها معه (ﷺ) خمسا وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

ولم يكن وفاؤه لخديجة رضى الله عنها وفاء المتعة والحسن ، بل وفاء الروح والنفس ، فلقد فضلها بعد ذلك على عائشة وهى اصغر زوجاته واحبهن إليه .

فترى من هذا أنه (ﷺ) قضى عنفوان شبابه وزهرة حياته مع خديجة ولم يتزوج عليها وإنما تزوجها لعفافها وعقلها وطهرها ، ومعاونتها له ومناصرتها إياه .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل الى النساء فى هذا ؟!

* زواجه بالسيدة سودة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة - رضى الله عنها - وكانت زوجا للسكران بن عمرو ، وكان قد أسلم قديما وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ومات حين قدما مكة ، ولو عادت إلى أهلها - بعد

---

١ - الآية ٤٠ من سورة التوبة
٢ - الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب

موت زوجها ـ لعذبوها وفتنوها فى دينها ، فكفلها (ﷺ) ، وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ، وكانت مسنة ولم يكن معه غيرها ، ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة رضى الله عنها فى السنة الأولى من الهجرة . فترى من هذا أنه (ﷺ) لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيرا من زوجها الذى مات معها حريصا على إيمانه فارا بعقيدته وتألفا لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته (ﷺ) فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

* زواجه بالسيدة عائشة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكلنا يعلم من هو أبو بكر الصديق ، الذى كان معه ﴿ ثانى اثنين اذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾[1] ولم يتزوج بكرا غيرها .

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة علمنا أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما ، وقد كانت رضى الله عنها واسطة فى نقل شتى الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الاسلامية ، خصوصا ما يتعلق منها بالنساء . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

* زواجه بالسيدة حفصة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ وكانت زوجا لخنيس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته ببدر ، وتزوجها ـ ﷺ ـ مكافأة لها وحبا فى أبيها الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ، ورغبة فى إيوائها وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله ، وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

* زواجه بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته ، وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير ، ويعلى من قدره ، ويجعله أصلا لمصاهرة بنى هاشم ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] .

وقد تزوجها (ﷺ) بعد طلاقها من زيد بوحى من الله تعالى للتشريع ﴿ لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾[3] .

---

١ ـ الآية ٤٠ من سورة التوبة

٢ ـ الآية ١٣ من سورة الحجرات

٣ ـ ٣٧ من سورة الاحزاب

وقد كان زواجه إعفاء لها من إهمال يصيبها بعد طلاق يذلها ، فيقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار ، فما بالك بمطلقات الأرقاء ؟
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

* زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة ، وكانت زوجا لعبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنهما ، فقتل عنها يوم أحد فتزوجها (ﷺ) إيواء لها وجبرا لمصابها فى زوجها ، وحفظا لدينها .
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة أم سلمة رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة أم سلمة (هند بنت أبى أمية) وكانت زوجا لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد ، وكانا أسلما قديما ، وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما مكة ، وهاجرا إلى المدينة ، فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد . فتزوجها (ﷺ) .
ويروى عنها أنها سمعت رسول الله (ﷺ) يقول (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع ويقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلفنى خيرا منها إلا أخلفه الله خيرا منها) فلما مات أبو سلمة تذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام وقالت فى نفسها : ومن خير من أبى سلمة ؟
رجل نال الصحبة ، وشهد المشاهد مع رسول الله (ﷺ) . ولكنها استرجعت وقالتها ، فأخلف الله تعالى لها رسول الله (ﷺ) فآواها وحفظها .
فترى من هذا أنه (ﷺ) تزوجها ليعوضها خيرا من زوجها الذى فقدته ، وكانت كثيرة الأولاد ، فأواها وآوى أولادها ، وقام بشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها .
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

* زواجه بالسيدة أم حبيبة ـ رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة أم حبيبة « رملة بنت أبى سفيان » وكانت زوجا لعبيد الله بن جحش ، وقد هاجر إلى الحبشة ، الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها ، ومات بالحبشة ، وثبتت هى على إسلامها ، وأبت أن تتنصر معه وخالفته ، واختارت الاسلام عليه ، فأتم الله تعالى لها : الاسلام والهجرة والصحبة ، وأكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ .

ويروى أن أباها ـ أبا سفيان ـ قدم المدينة فدخل عليها ، فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته دونه ، فقال : يابنية أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟

فقالت : بل هو فراش رسول الله ـ ﷺ ـ وأنت امرؤ نجس .

فقال : لقد أصابك بعدى شر . قالت : بل خير .

وقد خطبها (ﷺ) من ملك الحبشة حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها ؟

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها ، وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة ، وقد تزوجها إيواء لها وتألفا لقومها . وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها منهم : ابن أختها : سيف الاسلام خالد بن الوليد فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار ، وكانت زوجا لمانع بن صفوان المصطلقى . وقد قتل كافرا يوم المريسيع . وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق . وكانت سيدة بنى المصطلق وبنت سيدهم . فأعتقها ـ ﷺ ـ وتزوجها ، فلما سمع المسلمون بذلك أعتقوا ما فى أيديهم من سبى بنى المصطلق ، وقالوا : هم اصهار رسول الله ـ ﷺ ـ فأسلم بسببها بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وحُسن أسلامهم .

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها ، وقد أنقذها من الأسر ، وأعتقها من الرق ، وأعزها من الذل .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير ، قتل أبوها مع بنى قريظة ، وكانت

زوجا لسلام بن مشكم القرظى ، ثم فارقها ، فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق ، وقتل عنها يوم خيبر ، فأخذت رضى الله عنها فى السبى ، فخيرت بين العودة إلى قومها ، وزواجها بالرسول ، فاختارت الخيرة ، فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى إسلام قومها (اليهود) وقد أسلم كثير منهم .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

حكمـــــة راشـــــدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ، ومقاصد أخروية ، لا تمت إلى الشهوة بسبب ، ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة .

هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم ، وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء ، والتى لا يستطيع تبليغها الرجال ، كالطهارة ، والغسل ، والحيض ، والنفاس ، والولادة ، والرضاع إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها للنساء ـ على وجهها الأكمل ـ سوى النساء .

ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين ـ إمرأة واحدة ، بل عدة نساء من عدة قبائل . وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من اظهار نوره ، وبسط شرائعه .

وقد ثبت أنهن أذعن عنه ـ ﷺ ـ علما وفضلا وفقها ، ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريد سائر الملوك والأمراء ـ من التمتع واللذة ليس غير ، لا نتخب الحسان الأبكار ، والكواعب والأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات .

فهل بعد هذا لمبشر ـ غر سمج ، عتل زنيم أن يقول عنه ﷺ ـ إنه شهوانى يميل إلى النساء ؟!

فى حين أن فى دياناتهم ومعتقداتهم ما ننزه ألسنتنا عن ذكره ، وأقلامنا عن تدوينه ؟

فسبحان من هدانا لدين الحق ، دين النور ، دين الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

وفضلا عن ذلك ، فلم تكن علاقاته ـ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ـ بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا ، بأى زوجة مهما علت !

فقد عاشرهن السنين الطوال ، فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية ، بل الكلمة الرفيقة ولم تبد على سماته النظرة القاسية ، بل النظرة الحانية .

وما من رجل ـ بالغ ما بلغ من المروءة والرقة وسعة الصدر ـ الا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعة ما ، وبدأ منه التذمر والتضجر إزاء تصرف ما وبدرت منه بوادر الشر ونذر السوء حيال عمل ما .

ولكن الرسول ـ ﷺ ـ الذى أوتى جماع الفضائل ، وبعث ليتمم مكارم الأخلاق . .

الرسول الذى أرسل من البشر ليعلى من أقدار البشر . ويرفع من شأنهم ويسمو بنوعهم : لم يكن آنذلك .

ولم يكن هذا منه ـ ﷺ ـ جبنا أو ضعفا ، بل كان كمالا وجلالا .

فإن الضعف الاختيارى : أقوى من سائر القوى ، وأكمل من سائر الكمالات ، وهو خير مقياس للعظمة الانسانية فى أجمل صورها وأرفع مراتبها . فإن من يقهر نفسه باختياره ليترفق بضعيف ، لا طاقة له باحتمال القهر ، ولا غنى له عن طلب اللين والرفق ، لهو الشجاع الباسل القوى وننتقل بعد ذلك إلى موقف اخر يتعلق بزواج الرسول ﷺ ، وهو قصة التخيير ، فما هى تلك القصة ؟

قصـــة التخييـــــر

قال تعالى :

﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾[١] .

إن رسول الله - ﷺ - لم يرد الحياة متعة فانية ، ولا زخارف براقة ، لأن قلبه كان مليئا بالقناعة والرضا ، والايمان والحكمة ، لقد خيره الله بين أن يكون نبيا عبدا أو نبيا ملكا ، فاختار أن يكون نبيا عبدا ، وقال فى ذلك « أجوع يوما فأذكرك ، وأشبع يوما فأشكرك ، ورفض الحياة فى زخارفها ومباهجها ومفاتنها ، ولو أرادها مملكة ونعيما وخدما وحشما وترفا . لكان له ذلك .

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

أيقال على هذا النبى الكريم إنه كان غارقا فى ملذات الحياة ، وكان شهوانيا إلى النساء ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

إن حياة هذا النبى كما أخبرت أم المؤمنين عائشة قالت : إن كنا لنمكث الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة بشهرين ولم يوقد فى بيت رسول الله - ﷺ - نار يطبخ عليها .

أعلمت كيف كانت حياة هذا الرسول فى بيته ؟

كان طعامهم فى معظم الأحيان التمر والماء ، ومع ذلك كانت العيشة راضية لا تسمع فيها لاغية .

إن السعادة مملكة قائمة بالنفس ، كما صورها السيد الجليل محمد - ﷺ - فى هذه الكلمات[٢] « **اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ،**

---

١ - الأيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب

٢ - الحديث فى مسند أحمد - مسند أبى هريرة - ج٢ ص ٣١٠

وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

ليست السعادة فى انتشاء الكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد أنما السعادة فى رضاك عن الله ؟ وفى رضا الله عنك ، وفى تزكية النفس واشراق العقل وانتصار الذهن واستعلاء النفس على مطالب المادة ، وسيطرة القيم والمبادىء التى تحقق فى الانسان انسانيته . كيف يقال على هذا النبى إنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية وهو الذى كان يمكث فى بيته شهرين ولم توقد فى بيته نار يطبخ عليها ؟

لله درك يارسول الله

الحق أنت وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقها تيها من الأهوال والظلمات

إن الله تعالى خاطب نبيه - صلى الله عليه وسلم - بهاتين الآيتين فى أمر عرض له من أزواجه عندما طلبن منه زينة الحياة الدنيا .

فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية ، وشهوة نسائية ، لوفر لهن هذه المطالب وأكثر منها ، كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ولكن ماذا حدث ؟

أسمع إلى العلامة ابن كثير ، يفسر هذا المشهد القرآنى بما تيسر من التقدير يقول رحمه الله تعالى :

« هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله - ﷺ - ان يخير نساءه بين ان يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن - رضى الله عنهن وأرضاهن - الله ورسوله والدار الآخرة - فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى - ﷺ - أخبرته أن رسول الله - ﷺ - جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت ، فبدأ بى رسول الله - ﷺ - فقال : إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تستعجلى حتى تستأمرى ابويك ، وقد علم ان ابوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : إن الله تعالى قال ﴿ يأيها النبى قل لازواجك ﴾ .. إلى تمام الآيتين فقلت له : ففى أى هذا استأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . وروى الامام أحمد بسنده عن جابر رضى الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن رسول الله - ﷺ - والناس ببابه جلوس ، والنبى - ﷺ - جالس ، فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه ، فاستأذن ، فلم يؤذن له ، ثم اذن لأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فدخلا ، والنبى - ﷺ - جالس وحوله نساؤه ، وهو - ﷺ - ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبى - ﷺ - عله يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه - يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها ؟ فضحك النبى - ﷺ - حتى بدت نواجذه وقال « هن حولى يسألننى النفقة » فقام أبو بكر رضى الله عنها إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله

عنه إلى حفصة - كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله - ﷺ - فقلن والله لا نسأل رسول الله ﷺ - بعد هذا المجلس ما ليس عنده قال . وأنزل الله - عز وجل - الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال « انى ذاكرلك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت : وما هو؟ قال : فتلا عليها (يا أيها النبى قل لأزواجك) الآية : قالت عائشة - رضى الله عنها -: أفيك أستأمر أبوى ؟ بل اختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ، لكن بعثنى معلما ميسرا ، لا تسألنى أمرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها ، مسلم .

أرأيت يا أخا الاسلام لم كان التخيير وفيم كان ؟؟

لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرن بين الحياة الدنيا وزينتها والتسريح الجميل ، وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى (أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا) أى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

لو كان هذا الانسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعة وصاحب رغبة شهوانية هل كان يمانع فى أنه يأتى لهن بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة ؟

سبحانك ربى ، لقد بعثته أسوة حسنة وقدوة طيبة . إن هذا البيت بيت النبوة لقد قال الله - تعالى - لنساء هذا البيت ﴿ **وأذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا** ﴾[1] .

بيت يهبط فيه الأمين جبريل ورفقاؤه من كبار الملائكة . بيت يتلقى الوحى من رب الماء . بيت قرآنى يفوح من أريج القرآن عطرا وريحانا .

إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾[2] .

بحـــث قيـــم

جاء فى كتاب (الاسلام والعلم الحديث) للأستاذ عبد الرازق نوفل بحث قيم فى زواج النبى - ﷺ - وقد آثرنا ان نثبته ونحن بصدد الكلام عن هذا الموضوع . وها هو ذا نسوقه بنصه قال المؤلف : « لم تظهر حكمة زواج الرسول - ﷺ - بمن تزوجهن إلا عندما اتسع أفق الفكر فى العصر الحديث . فإذا ما استعرضنا زواج النبى - ﷺ - نجد أن كل زواج انما كان يحقق غرضا ساميا أو كسبا للدين ، أو

---

١ - الآية ٣٤ من سورة الأحزاب
٢ - الآية ٣٣ من سورة الأحزاب

عملا بتشريع جديد . وإن الرسول الأمين كان بعيدا كل البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوة أو مغنم .

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد ، كانت تزوجت عتيقا المخزومى ولما مات تزوجت أبا هالة التميمى فمات أيضا ، بذلك ورثت عنهما مالا وفيرا علاوة على ما كانت تملكه . وقد كانت ذات شهرة كبيرة بين قومها ، لما امتازت به من جاه وحسب ونسب ، علاوة على مالها ، ولكنها كانت ترد كل طالب ، فقد كانت عازفة عن الزواج ، وكانت ترسل الرجال على تجارتها ، فأرسلت نبى الله ليشرف على هذه التجارة لما سمعت عنه من أمانة واستقامة ، وعادت القافلة وقد حققت أرباحا لم تعهدها ، ورواجا لم تكن تتوقعه . فلما سألت غلامها ميسرة الذى صاحب الرسول ـ ﷺ ـ روى لها رقة شمائل محمد ، وجمال نفسه ، وصفاء قلبه ، وطهارة سريرته ، وحدثها مما شاهده من أمانته المطلقة . ونزاهته وعفته . . فأرسلت له صديقتها (نفيسة بنت منبه) تقترح عليه أن يتزوجها ـ وتزوجها الرسول وهو شاب فى ريعان شبابه ، إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره فى حين كانت السيدة خديجة قد بلغت الأربعين من عمرها .

فهل كان سيدنا محمد رجل متعة ؟ وهل كان كما يقول أعداء الاسلام شغوفا بالنساء ؟

وها هو ذا يتزوج من سيدة تزوجت قبله مرتين ، وتكبره بخمسة عشر عاما ؟

لقد شدت خديجة أزر الرسول بمالها ورجالها وعصبيتها ، حتى إنه عندما جاء الوحى وخشى منه ، سألت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل ، الذى كان أول من بشر بنبوته ، وشجعه على إعلان الدعوة ، حيث قال له ، وقد قابله فى طواف الكعبة ، (والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الذى جاء به موسى ، ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه » ثم قبله وشجع ذلك النبى على أن يدعو قريشا فيعلن لهم دعوة الله .

كما أن السيدة خديجة شاركت الرسول فى جهاده ، فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له وتدفعه إلى النضال والصبر ـ وعاشت معه خمسة وعشرين عاما أمضت منها خمس سنوات فى جهاد الدعوة ، تقاسمه ما يلقى من عنت وشدة حتى لقيت ربها ولها من العمر خمسة وستون عاما ـ وبعد موت خديجة ازدادت قريش فى اذاها للنبى ـ ﷺ ـ فخرج إلى الطائف يدعو إلى الاسلام فوجد من ثقيف التكذيب والاعراض ، وبعد عام من جهاده عاد إلى بيته بمكة فوجده قفرا . فلما أحس المسلمون بما شعر الرسول به من وحشة أو عزوا إلى خولة بنت حكيم حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه ، وتقضى حاجة بيته ، وتقوم على شأنه ، فعرضت العذراء عائشة بنت أبى بكر أو سودة بنت زمعة التى آمنت به وأسلمت وهاجرت ، إلى الحبشة مع زوجها الذى مات وتركها وحيدة ، فقبل الرسول العزيز الزواج من الأخيرة التى كانت كبيرة السن ضامرة الجسد ، ليس فيها مشتهى للرجال ، ولكنها كانت مؤمنة مجاهدة من الصابرات .

هذا هو زواج الرسول ـ ﷺ ـ إذ أن ما تم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى إلى تحقيق هدف أو كسب للدين ، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ماجد بعد ذلك من زواج .

فالمشاهد فى العصر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولون ان يرتبطوا مع وزرائهم وقوادهم

برباط المصاهرة ، بل إن قادة الأمم المختلفة يجعلون المصاهرة بينهم من وسائل التقريب بين الأمم بعضها ببعض ، وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم إلى تحقيقها .

فلربط رجال المسلمين الأول بعضهم ببعض تزوج الرسول ـ ﷺ ـ بعائشة بنت وزيره الأول أبى بكر ، ثم تزوج بحفصة بنت عمر عندما مات زوجها ، ولهذا السبب نفسه زوج بنته رقية لعثمان بن عفان فلما ماتت زوجه بعدها أختها أم كلثوم ، كما زوج ابنته فاطمة لعلى بن أبى طالب .

وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمدا ـ ﷺ ـ برجاله الأوائل : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ـ أقوى الرجال فى الاسلام وأول من أسلموا .

ـ وهناك هدف آخر هدف إليه الرسول بزواجه ، فقد كان من عادة العرب إذا مات الرجل ذهب اخواته وأصدقاؤه إلى أرملته يواسونها ويعرض أقربهم إلى زوجها مرتبة أن يتزوجها إكراما لزوجها ، وذلك للاشراف على شئون بيته .

وقد أبلى من المسلمين فى الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به فى سبيل الله ورسوله . ومن هؤلاء المسلمين من لقى حتفه فى سبيل دين الله ، فتزوج الرسول من بعض نساء قتلى المسلمين . ممن تحدث التاريخ عن جليل أعمالهم ، ولم يجدن أزواجا لهن ، إما لكبر سنهن أو لكثرة أولادهن ، فزاد تلك من تعلق المسلمين برسولهم ، ورفع من روحهم المعنوية ، وأصبح المسلم يعرف أنه لو قتل فى سبيل الله لم يعدم رجلا يشرف على بيته ، ولم يعدم أبا يحنو على أولاده ، ولو لم يجد من المسلمين لوجد نبى الله نفسه ، بل حبب ذلك الاسلام لغير المسلمين فأسلموا .

ولذلك تزوج الرسول من زينب أم المساكين زوجة عبد الله بن جحش أحد امراء المسلمين الذى قتل فى وقعة أحد ، وكان على رأس أول سرية خرجت للغزو فى الاسلام .

كما تزوج للسبب نفسه هندا أم سلمة زوجة أبى سلمة أحد مهاجرى المسلمين إلى الحبشة ، الذى أبلى بلاء حسنا فى الدعوة ، فلما مات تقدم لخطبتها كبار العرب ، ومنهم أبو بكر وعمر ، فرفضت حيث قالت (إنى أمرأة مسنة وأم أيتام) وعز على الرسول ـ ﷺ ـ أن تظل السيدة حزينة وحيدة فتزوجها .

وهناك تشريع هدف إليه الاسلام فى زواج الرسول ـ ﷺ ـ يقول الله تعالى فى سورة الحجرات **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾**[1] وقد كان الرق منتشرا فى بلاد العرب . فدعا الاسلام إلى العتق وتحرير الرقيق وكان للسيدة خديجة زوجة النبى ـ عبد اسمه « زيد » وهبته لسيدنا محمد ، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوة وقربه الرسول إليه حتى كانوا يطلقون عليه اسم زيد بن محمد هذا العبد الذى تحرر .

هل من بين العرب من يجرؤ فيعتبره ندا له فيزوجه من قريبته مثلا ؟

لقد طلب زيد يوما من الرسول ـ ﷺ ـ أن يزوجه زينب بنت جحش ابنة عمة الرسول فوافق عليه الصلاة والسلام ، ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها ومن ذويها . ولكن الله تعالى أمر

---

١ ـ الآية ١٣ من سورة الحجرات

بأتمام هذا الزواج حيث قال ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾[١] .

وتزوج العبد السابق من سيدة قريش سليلة المجد والحسب ، وكان ذلك تشريعا جديدا للمسلمين ، وعملا بقول الله تعالى فى سورة البقرة ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾[٢] .

ولم يدم ذلك الزواج طويلا ، فطلب زيد الطلاق من زينب ، فكان رد النبى كما فى جاء فى سورة الأحزاب ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾[٣] . وأراد الله تعالى تشريعا جديدا ، إذ كانت التقاليد لا تجيز للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمن ادعاه ، كما لا تجيز للمتبنى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمتبناه ، ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة عبد .

فنهى عن ذلك الله تعالى إذ يقول فى سورة الأحزاب :

﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذالكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾[٤] .

لذلك أمر الله تعالى بأن يكون الرسول القدوة للناس فى ذلك ، وخشى فى نفسه ـ ﷺ ـ أن يقول عنه الناس : تزوج من كانت زوجا لدعيه ، وكان يخفى فى نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما لبعض حتى لا يتزوجها ، ولكن الله مبدى هذا ﴿ وتخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

هذه هى حكمة زواج الرسول من زينب بنت جحش ، وهى بعيدة كل البعد عما يرويه خصوم الاسلام من أن الرسول ـ ﷺ ـ كان قد ذهب لزيارة زوجها فاستهواه جمالها ، فطلب من زوجها ان يطلقها ليتزوجها .

وأين كان الرسول يوم أن كانت زينب عذراء وهى ابنة عمته ، والتى كانت يعرفها تماما ؟؟

أو لم تستهوه محاسنها وهى عذراء ؟ ولكنه الحقد على الاسلام ، ونبى الاسلام الذى يجعل الخصوم يفترون .

وهناك حكم من زواج الرسول . إذ حقق به أهدافا سياسية ، فعندما هزم المسلمون بنى قريظة بعد حصار طويل ، كانت ريحانة بنت عمرو زوجة الحكم احد كبار بنى قريظة من نصيب الرسول فى الغنائم ، فعرض الرسول عليها الاسلام ، فأسلمت وتزوجها ، وكان لزواجه منها أكبر الأثر فى نشر الدعوة الاسلامية بين قبائل اليهود الذين هدأت ثائرتهم ، وهز مشاعرهم إكرام الرسول لإحدى سيداتهم بزواجه منها .

---

١ ـ الآية ٣٦ من سورة الأحزاب
٢ ـ الآية ٢٢١ من سورة البقرة
٣ ـ الآية ٣٧ من سورة الأحزاب
٤ ـ الآية ٤ من سورة الأحزاب

وكذلك عندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق . كانت جويرية بنت الحارث بنت سيد قومها من نصيب ثابت بن قيس الذى طلب منها أن تفتدى نفسها فاستعانت بالرسول فى فك أسرها ، فعرض عليها الرسول الاسلام فأسلمت فتزوجها ، وكان لذلك أثره فى نفس بنى المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسول ، فدخلوا جميعا فى الاسلام .

ـ ولما انتصر المسلمون على يهود خيبر ، كانت صفية بنت حيى بن أخطب ضمن الأسرى ، فأعتقها الرسول وتزوجها ، وهذا ما يفعله الفاتحون من ذوى الرحمة إذ يتزوجون من بنات الملوك والعظماء فى الدول المهزومة حفظا لكرامتهم ، وتخفيفا من وقع الهزيمة عليهم .

وبعد أن انتشر الاسلام فى جزيرة العرب ، أرسل الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة الذى آوى المسلمين المهاجرين وأكرمهم ، ليكون النجاشى رسوله فى طلب الزواج من أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش الذى كان قد أسلم ثم ارتد ، وبقيت زوجته مسلمة صادقة العقيدة ، وكانت لفتة كريمة لسيدة مسلمة ارتد زوجها المسلم وتمسكت بدينها ، تحافظ عليه ، وتقيم شعائره فى دولة غريبة كما كانت سياسية بارعة ؟ إذ أن أم حبيبة بنت أبى سفيان عدو الرسول الألد ، وأكبر مهاجمى الاسلام ؟ وبزواجه منها انتصر على آخر معاقل الكفر والشرك فى قريش ، انتصارا دون إراقة دماء ، وبدون حرب أو اعتداء .

وعندما بدأ الرسول فى نشر الدعوة إلى الخارج ، أرسل رسله إلى الملوك والأمراء . منهم : هرقل ، وكسرى ، والمقوقس ، يدعوهم إلى الاسلام ، فكان من ضمن رد المقوقس عظيم القبط فى مصر أنه أرسل للرسول هدايا فيها جاريتان احداهما مارية القبطية التى تزوجها الرسول ، وسيرين التى اهداها إلى حسان بن ثابت .

ولما أحل للنبى الدخول إلى مكة وزيارة الكعبة الشريفة بعد صلح الحديبية دخل الرسول على رأس المسلمين فى عمرة القضاء وظلوا أياما ثلاثة هى ما اتفق عليه فى المعاهدة .

وكان المسلمون من الكثرة والقوة والخلق الكريم لا يشربون خمرا ، ولا يأتون معصية ، ولا يتقاتلون على شراب أو طعام ، ولا يعبدون أحجارا أو أوثانا وانما دعوتهم الله أكبر الله أكبر . زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار ، فأسلم ضمن من أسلم ميمونة بنت الحارث خالة خالد بن الوليد ، فخطبها الرسول وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها وأى تكريم ، وفتح لعائلتها التى كانت ومازالت على الكفر ، وقد صحت فراسة الرسول ـ ﷺ ـ ، كما كانت تصح دائما ، فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذى هدم العزى ، وقتل سدنتها ، وأسلم عمرو بن العاص الذى هدم سواعا . وكذلك أسلم عثمان ابن طلحة حارس الكعبة . وباسلامهم أسلم كثيرون من أهل مكة .

هذا هو زواج رسول الله ـ ﷺ ـ فهل منه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج لحبه النساء !؟

وهل فى أزواجه كلهن واحدة كان جمالها أو شبابها سببا فى زواجه منها ؟ وهذه هى الأهداف التى هدف إليها الرسول من زواجه لمصلحة الدعوة والدين .

لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره ، ولما تحقق الهدف ، وانتفت الأسباب التى من أجلها

أحل الله لنبيه تعدد زوجاته نزل قول الله تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ لا يحل لك النسَّاء من بعد ﴾ .

هذا هو زواج الرسول - ﷺ - فهل فيه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج بأكثر من واحدة لحبه للنساء ؟

وهل كان بين كل هذه الزوجات عذراء سوى عائشة ؟

أو ليس قول الخصوم بعد ذلك افتراء على النبى - ﷺ - وعلى الحق أى افتراء ، ، انتهى ؟؟

***

وإلى هنا نكون قد أتينا على الحكمة البالغة التى من أجلها تعددت زوجات الرسول - ﷺ - سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

لما أراد الله جل جلاله	ان ينقذ الدنيا من العثرات
أهداك ربك للورى ياسيدى	فيضا من الأنوار والرحمات
يا صاحب الخلق الكبير عرفته	وبسطته فى حكمة وأناة
وطلعت فى الليل البهيم مؤذنا	بالحق والأنوار والصلوات
ودعوت للخيرات قوما ضللوا	ما كان أبعدهم عن الخيرات
ودعوت حتى كنت أصبر من دعا	وأقمت بين إساءة واذاة
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت فى	أعناقهم فى عزة وثبات
فحظيت بالنصر المبين مؤزرا	وأقمت حقك خافق الرايات
وضربته مثلا لكل مكابر	لا يستوى حق بغير حماة

الاسلام وتعدد الزوجات

رأينا من المناسب بعد الكلام عن أزواج سيدنا محمد - ﷺ - أن نعقب هنا بكلمة عن حكمة الاسلام البالغة فى إباحة تعدد الزوجات .

وقبل هذه السطور ، نود أن نبدأ بهذه القواعد التى تنبنى عليها دائما الحكم البالغة ، والأهداف السامية لتشريعات الله أحكم الحاكمين وأعدل العادلين .

عالمية الدعوة

القاعدة الأولى من تشريعات الاسلام أنه شريعه عالمية ، وليس حكما إقليميا قال سبحانه وتعالى ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[1] .

١ - الآية ١ من سورة الفرقان

وقال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[١] وقال ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[٢].

وقال ﷺ - (كل بنى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود)[٣].

وإذ قد تقرر ذلك فلابد أن يكون تشريع الاسلام شاملا لكل مقتضيات الزمن ومحيطا بكل نواحى الحياة .

عدالــــة الاســــلام

القاعدة الثانية أن الاسلام دين العدالة ، فهو فى كل ما شرع لا يعرف الجور ، ولا يتطرق الجور إلى أى مسألة من سائله . ولذلك فإن العدالة هى السمة الحقيقية فى تشريعات الله . فليس لمكابر أو مجادل أن يقول إن فى تعدد الزوجات أو غير ذلك من القضايا الاسلامية جورا أو ظلما لأن الله تعالى أحاط تشريعاته بالعدالة والمودة والرحمة .

قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٤] .

وقال ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٥] .

وقال سبحانه ﴿ يا أيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ﴾[٦] .

وقال سبحانه ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾[٧] .

الاســـلام يخــــاطب العقــــل

القاعدة الثالثة : أن الاسلام فى تشريعاته منطقى وسديد ورشيد ، فهو لم يشرع ما تأباه العقول ، وتنبو عنه الأفهام ، وتمجه الأذواق ، بل جاء بشرع هو للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم .

جاء ليوحد العقائد لا ليفرق القواعد . وقد قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل : ليته ما أمر ، ولم ينه عن شىء وقال العقل: ليته مانهى .

وقد صدق الله تعالى إذ يقول ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها ﴾[٨] وإذ يقول ﴿ قل إننى

١ - الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء
٢ - الآية ٩ من سورة الصف
٣ - الحديث فى اتحاف السادة المتقين - صفة الشفاعة - ج ١٠ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨
٤ - الآية ٢١ من سورة الروم
٥ - الآية ٣ من سورة النساء
٦ - الآية ٨ من سورة المائدة
٧ - الآية ٢٣٧ من سورة البقرة
٨ - الآية ٣٠ من سورة الروم

هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا ومكان من المشركين ﴾[١].

وإذ يقول ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[٢].

وبناء على ما تقرر من قواعد كان كل تشريع إسلامى له حكمته البالغة وله هدفه الرفيع .

الاسلام : دين عالمى ، دين العدالة ، لايجافى العقل الرشيد ولا المنطق السديد .

وقد جاءت حكمة الاسلام بالغة فى تعدد الزوجات .

إن إباحة تعدد الزوجات دواء لابد من وجوده فى صيدلية الاسلام العالمية ، وإلا فما الذى يعالج مشاكل العالم إذا كان الدواء الذى يعالج به الداء ـ هو غير تعدد الزوجات ؟ .

إن أحداث الحياة لا تثبت على حال واحدة ، فلابد أن يعالج الاسلام جميع مشاكلها ، ويداوى بالحكمة جراحها .

والاسلام كما عهدناه فى علاجه كالنسيم الهادىء يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

إن القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى على رسوله هدى وشفاء لم يدع شيئا لصالح البشرية إلا بينه ، ولا أمرا فيه صلاح الدنيا والآخرة إلا فصّله ، وقد كان أوائل هذه الأمة ـ رضى الله عنهم ـ حين يحزبهم أمر أو تعترضهم مشكلة يهرعون إلى كتاب ربهم ، فيطيعونه فيما أمر وينتهون عما نهى عنه وزجر .

ولن يرضى الله أن يؤول كتابه تأويلا يميل به إلى الهوى ، فإن هوى النفس شرداء تبتلى به المجتمعات .

فقد صرح القرآن أنه لا اختلاف فيه ولا مجال لأصحاب الهوى فى فهمه قال سبحانه ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[٣] .

الله جل جلاله أباح تعدد الزوجات بمقتضى قوله ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع[٤] .

وهذه الاباحة ليس فيها غموض : إذ الأمر فى هذه الآية دليل الاباحة كما فى قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلال طيبا ﴾ .

فالأمر هنا لإباحة الفعل .

ولما أورد الله تعالى قيد العدل فى قوله تعالى ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٥] علم أن هناك صنفين من التعدد : أحدهما تعدد مع العدل وثانيهما تعدد مع الظلم .

---

١ - الآية ١٦١ من سورة الأنعام
٢ - الآية ١٢٣ من سورة طه
٣ - الايه ٨٢ من سورة النساء
٤ - الآية ٣ من سورة النساء
٥ - الآية ٣ من سورة النساء

والصنف الأخير هو المنهى عنه من مفهوم الآية الكريمة . أما الذين زعموا أن التعدد غير جائز ، لأنه مبنى على العدل ، والعدل منفى كما جاء فى قوله تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[١] فقد غاب عنهم أن هذا المعنى لو تحقق - كما فهموا - لكان تناقضا ولغوا ، والقرآن الكريم منزه عن ذلك تنزيها كاملا . ألم يقرأوا قوله تعالى :

﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[٢] .

ألم يقرأوا قوله تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[٣] .

إذ ليس من المعقول ، ولا من المستساغ ولا من المقبول ان يقول الله تعالى تزوجوا من تحبون متى تشاءون فى حدود الأربع ، فإن خفتم الجور فواحدة فحسب وبعد ذلك يقول : الجور محقق فى كل واحد من راغبى التعدد .

تعالى الله من ذلك علوا كبيرا .

وكان الأحرى والأجدر إذا كان هذا هو المعنى المقصود ألا يذكر العدد أصلا ، إباحة وحظرا .

أما وقد ذكر التعدد فى القرآن ، وأجمعت عليه الأمة الاسلامية فى شتى العصور بالقول والعمل ، فقد وجب فهم الآية القائلة بعدم استطاعة العدل وهى قوله تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) .

وجب فهمها بما فهمه أئمة التشريع وأساطين التفسير الذين قالوا : إن المقصود بالعدل غير المستطاع إنما هو العدل فى الميل القلبى والمحبة القلبية ، إذ أن قلوب بنى الانسان بين يدى الرحمن يصرفها ويقلبها كيف شاء . قال سبحانه ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾[٤] .

لذا كان - ﷺ - يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول (اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك) .

ولو أنهم قرأوا بقية الآية الكريم وهو قوله تعالى ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾[٥] . لعلموا أن العدل هنا قلبى . إذ أن الله لم يقل فلا تميلوا بعض الميل لأن بعض الميل قد يقع ، وإذن فالمنهى عنه هو الميل كله ، الذى يؤدى إلى كسر القلوب وعدم جبرها ، وإيجاد الجراح المؤلمة بها ولذلك عقب الله تعالى بعد ذلك بقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾[٦] والمعلقة هى المرأة التى اساء زوجها معاشرتها فلا هى مزوجة ولا هى مطلقة .

وبناء على ما سبق فلا تناقض فى كتاب الله ولا اختلاف ، إذ أن العدل فى قوله تعالى ﴿ فإن خفتم

---

١ - لآية ١٢٩ من سورة النساء
٢ - لآية ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت
٣ - الآية ٨٢ من سورة النساء .
٤ - الآية ٢٤ من سورة الأنفال
٥ - الآية ١٢٩ من سورة النساء
٦ - الآية ١٢٩ من سورة النساء

الا تعدلوا فواحدة ﴾[1] المقصود به العدل فيما يملك الانسان من الأمور المادية المحسوسة . كالمساواة بين الزوجات فى المسكن والكسوة والنفقة والمبيت . أما العدل فى الآية الثانية وهو قوله جل شأنه ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ .

فالمراد منه العدل القلبى والمحبة القلبية وهذا عالجه القرآن بقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ وعلى هذا يستقيم الميزان فى الفهم وينتفى التناقض والاختلاف عن أحكام الله سبحانه وتعالى جلت حكمته وعظمت رأفته .

ونخلص مما تقدم إلى أن التعدد للزوجات مباح شرعا مادام ذلك قد شرعه الله وأباحه فى قوله ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾[2] .

وقد تأيد التعدد من سائر مصادر الشريعة فها هو ذا صريح القرآن وها هو ذا الاجماع .

فإذا ماذهبنا إلى السنة النبوية نستهديها وجدنا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم)[3] .

ومفهوم المخالفة يقتضى جواز الجمع بين من عداهن وقد جاء فى قوله تعالى ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾[4] جواز الجمع بين من عداهما .

وقد أمر ﷺ غيلان الثقفى حين أسلم وله عشر نسوة أن يستبقى أربعا منهن هذا يدل دلالة قاطعة لا تقبل الشك أو الجدل .

أن التعدد من بديهات المباحات وأن التكلم فى منعه أو تحريمه يدخل تحت طائلة تحريم ما أحل الله وهو جريمة ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾[5] .

ليس فى تعدد الزوجات أى مساس بمصلحة المرأة سواء كانت متزوجة على أخرى أو متزوجا عليها بأخرى فأما الحالة الأولى فلا يوجد عقد زواج إلا وأحد طرفيه امرأة تملك زمام أمرها بيدها ففى وسعها ألا تتزوج بمتزوج وإن كانت فى عسر من أمرها ولا تستطيع أن تقوم بأودها فقد فرج الله عليها بالزوج الذى يرفع عن كاهلها عبء الفاقة وذل العوز وغائلة الجوع وأما الحالة الثانية : التى تعتبر أن الزواج عليها فاجعة لها فلا بأس من طلبها الطلاق لأن الاسلام لا يرضى بالضرر وشريعتنا السمحة تأبى ذلك .

ومهما يكن من شىء فإن تعدد الزوجات لا يخلو من خير ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله

---

١ - الآية ٣ من سورة النساء

٢ - الآية ٣ من سورة النساء

٣ - الحديث رواه أبو داود - كتاب النكاح - ج٢ ص ٥٥٣ رقم ٢٠٦٥ وأخرجه البخارى تعليقا فى النكاح باب وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف - ج ٦ ص ٩٨ .
والترمذى فى باب النكاح حديث رقم ١١٢٦

٤ - الآية ٢٣ من سورة النساء

٥ - الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس

ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾[١] .

فقل لهؤلاء المجادلين ﴿ ءأنتم أعلم أم الله ؟ ﴾[٢]

ثم قل لهم ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[٣]

ويراعى الاسلام مراعاة دقيقة أن يكون التعدد بقصد الاستعفاف لا بقصد الاسفاف أو الاسراف إذ أن الاسلام لا يرضى بالضرر أو الضرار فقاعدته الأولى « لا ضرر ولا ضرار »[٤] .

وقد يكون فى التعدد ناحية انسانية أخلاقية قد تكون الزوجة مريضة مرضا لا يمكنها من أداء واجبها نحو زوجها من ناحية المباشرة أو القيام بخدمته فهل الأولى والأفضل ان يرميها بعيدا ويقطع ما بينه وبينها من علاقة أم يبقى عليها مع زوجة تؤدى له حقوقه الشرعية ؟

وقد تكون الزوجة عاقرا ولا تنجب والزوج يريد ولدا فهل الأفضل والأليق أن تطرد هذه الزوجة العاقر بعيدا عن كنفه بعد طول معاشرة أم يتزوج ويبقى على عشرتها فى حدود العدالة والمساواة الانسانية التى أمر الله بها فى قوله ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما ﴾[٥] ما من شك فى أن جانب الانسانية يبدو واضحا فى التعدد الذى أباحه أحكم الحاكمين .

وأما ما يدعيه البعض من أن التعدد يؤدى إلى إفساد العلاقات بين الأخوة غير الأشقاء فهى دعوة فاسدة فكم رأينا شقيقين يقتتلان وأخوين لأب متصافيين متحابين .

هذا وقد غاب عن هؤلاء الطاغين أن البلدان التى حرمت التعدد نشأ فيها الفجور والمخادنة وملئت فيها الملاجىء بأبناء الزنا والبيوت بالابناء غير الشرعيين إن خالق الناس ومن هو أدرى بالناس من الناس قال بالتعدد فهل يجوز لانسان مهما أوتى من علم وفهم أن يأتى فيقول : لا . . إن التعدد نظام بغيض يقضى على المجتمع ويشتت شمل الأسرة ؟

هذا ولا يخفى ما فى تعدد الزوجات من مصلحة عظيمة وحكمة بالغة فإن الرجال فضلا عن زيادة عدد النساء عليهم معرضون لنقصان مستمر بسبب قيامهم بشاق الأعمال وبأعباء الحروب وغيرها وتعرضهم للمهالك وليس من الحكمة فى شىء أن ندع جانبا كبيرا من بناتنا بدون إحصان .

إن الأوربى يرفض تعدد الزوجات فى الوقت الذى يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات ويرى والد الفتاة مع ابنته عشيقها فيسر ويغتبط بل ويمد لهما جميع الوسائل وكافة السبل المؤدية لراحتهما وطمأنينتهما .

أما ديننا القيم وشريعتنا الغراء التى تحرم على الرجل النظر إلى المرأة وتحرم المرأة النظر إلى الرجل فقد كان من العدالة أن توجد توازنا لهذه القاعدة فجعلت الزواج مكان السفاح ووضعت الحلال مكان

---

١ - الآية ٣٦ من سورة الاحزاب
٢ - الآية ١٤٠ من سورة البقرة
٣ - الآية ٦٦ من سورة آل عمران ، ٢٣٢ من سورة البقرة
٤ - الحديث رواه الأمام أحمد فى مسنده ج١ ص ٣١٣
٥ - الآية ١٢٩ من سورة النساء .

الحرام وإلا فمن للعوانس وربات الخدور ؟ ألهن العهر والفجر ولنا العفاف والطهر ؟ أم لهن الجحيم ولنا النعيم ؟

وهل من المستحسن أن يكن ضرائر أم يكن فواجر ؟

إن الاسلام شرع مبدأ تعدد الزوجات ليحمى المرأة من عدوان الرجل الظالم . فلم يقبل أن تكون فى علاقاتها معه إلا على حالة واحدة وهى أن تكون زوجة لها ولأولادها حقوق مقررة لايستطيع الرجل التنصل منها وفى الوقت نفسه حرم الزنا والمخادنة وجميع ما من شأنه الحط من مستوى المرأة وإنزالها من مرتبة الانسانية إلى مرتبة الحيوانية .

والآن يوجد أمامنا ضربان من السلوك أولهما يبيح تعدد الزوجات ويحرم ما وراء ذلك من العلاقات الآثمة ويضرب بيد من حديد على أيدى المتلاعبين بالأعراض الخائضين فى ضروب الفحشاء والفساد .

وثانيهما يحرم تعدد الزوجات ويبيح سائر العلاقات الآثمة ويجيز التلاعب بالأعراض والخوض فى ضروب الفحشاء .

بديهى أنه لا يوجد انسان عنده ذرة من عقل فيختار القسم الثانى ولا توجد نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه كحظ البهائم العجماء وفى أى دين أو أى نظام أو أى عرف تكون الخليلة أفضل من الحليلة ؟

ويقولون أيضا : إن الرجل الذى يعقب أولادا من زوجتين يعتبر فى نظر المجتمع آثما ، لأنه يخلق العداوة بين نسائه والبغضاء بين ابنائه فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولادا من امرأتين إحداهما شرعية والأخرى غير شرعية لا يعتبر آثما ولا يكون خالقا للعداوة بين نسائه وابنائه وقد صدق الله تعالى إذ يقول ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون[١] .

هذه شريعة الله شريعة الحق شريعة العدل وهذا منهاج الخالق البارىء المصور .

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٢] .

شهادات الخصوم لنبى الاسلام

لم تكن شهادات الخصوم لنبى الاسلام مقصورة على الفلاسفة أو المفكرين فى القرن العشرين أو ما قبله من القرون القريبة إنما سبقت ذلك شهادات له ـ ﷺ ـ من بنى قومه الذين لقبوه قبل بعثته

---

١ ـ الآيات ١ ـ ١١ من سورة المؤمنون

٢ ـ الآية ١٤ من سورة الملك

بالصادق الأمين لما رأوا فيه من كريم الخلق وحميد السجايا ورفيع الشمائل ونذكر هنا على وجه المثال لا الحصر هذا المشهد الذى شهد له فيه كبار القوم بالحكمة والذكاء والفطنة وسرعة البديهة وقوة الادراك ذلك المشهد هو اشتراكه - ﷺ - فى بناء الكعبة بعد ما تصدعت ووقوفه بعد ذلك لحل مشكلة استعصى علاجها بين قومه ألا وهى وضع الحجر الأسود من الذى ينال هذا الشرف ويفوز بتلك الرفعة ؟

لقد أوشكوا أن تفصل السيوف بينهم وما أدراك ما السيوف إذا كانت هى الحكم فى الخلاف إذن فلتسفك الدماء ولتفصل الرؤوس فما الذى حدث ؟

ها نحن أولاء نذكر نبذة عن الكعبة شرفها الله وأبقاها كريمة عزيزة طاهرة تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس فى الجلاء

الكعبة أول بيت بنى على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ، بناه أبو الانبياء ابراهيم عليه السلام بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التى نصبت ، بناها بوحى من الله تعالى وأمره له بذلك **﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ﴾**[1] .

وقال سبحانه وتعالى **﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾**[2] وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادى التى أوهت بنيانها وصدعت جدرانها وكان من بين هذه العوادى سيل عرم جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها فلم تجد قريش بدا من إعادة تشييد الكعبة حرصا على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظا من شرعة ابراهيم عليه السلام بين العرب ولقد شارك الرسول ﷺ - قبل البعثة فى بناءا لكعبة وأعاد تشييدها مشاركة فعالة فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه إلا ازاره وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة فى الأصح .

ولقد كان له - ﷺ - أثر كبير فى حل المشكلة التى تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذى ابداه حلا للمشكلة علما منهم بأنه الأمين المحبوب من الجميع .

لقد كان لهذا الحكم الذى وفق الرسول له عظيم الأثر لقد اختلفت قريش أيهم له الفخار بوضع الحجر فى هذا المكان واستمر الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببه .

تحالف بنو عبد الدار وبنو عدى أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم وأقسموا على ذلك جهد أيمانهم حتى قرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما وأدخلوا أيديهم فيها توكيدا لأيمانهم ولذلك سموا (لعقة الدم)

فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومى ما صار إليه أمر القوم ، وكان أسنهم وكان فيهم شريفا مطاعا قال لهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا فلما رأوا محمدا أول من دخل

---

١ - الآية ٩٦ من سورة آل عمران

٢ - الآية ١٢٧ من سورة البقرة

قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه وقصوا عليه قصتهم وسمع هو لهم ورأى العداوة تبدو فى أعينهم ففكر قليلا ثم قال : هلم إلى ثوبا فأتى به فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ثم قال ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب فحملوه جميعا إلى ما يحازى موضع الحجر من البناء ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه فى موضعه وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر وأتمت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانى عشرة ذراعا ورفعوا بها عن الأرض هكذا وقف الصادق الأمين موقفا شهد له التاريخ فيه بالحكمة وبعد النظر فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ثاقب الفكر صائب الرأى عبقرى الفؤاد ذكى القلب .

شهادات الفلاسفة والمفكرين

تولستوى

قال تولستوى الفيلسوف الروسى تحت عنوان (من هو محمد) ؟

(إن محمدا ـ ﷺ ـ هو مؤسس ورسول الديانة الاسلامية التى يدين بها فى جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس (يعنى فى حساب وزمان تولستوى)

ثم قال : ولد النبى محمد ـ ﷺ ـ فى بلاد العرب سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح عليه السلام من أبوين فقيرين وكان فى حداثة سنة راعيا يرعى الغنم وقد مال منذ صباه إلى الانفراد فى البرارى والأماكن الخالية حيث كان يتأمل فى الله وخدمته ـ أى طاعته ـ إن العرب المعاصرين له عبدوا أربابا كثيرة وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها فأقاموا لها أنواع التعبد وقدموا لها الضحايا المختلفة ومنها الضحايا البشرية ومع تقدم سن محمد كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب وأن ديانة قومه ديانة كاذبة وأن هناك إلها واحدا حقيقيا لجميع الشعوب .

وقد ازداد هذا الاعتقاد فى نفس محمد حتى اعتزم أن يدعو مواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الصحيح الراسخ فى فؤاده ثم دفعه إلى ذلك عامل داخلى وهو أن الله اصطفاه لارشاد أمته وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة وإنارة أبصارهم بنور الحق فأخذ من ذلك العهد ينادى باسم اعتقاده الراسخ .

وبعد ما وصف تولستوى الديانة الاسلامية وصفا صحيحا موجزا قال :

(وفى سنى دعوة محمد الأولى تحمل محمد كثيرا من الاضطهاد شأن كل نبى بعث قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه بل ثابر على دعوة أمته مع أن محمدا لم يقل إنه النبى الوحيد بل جاء متمما للرسالات السابقة ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضا) .

ومما يذكر أن هذا الفيلسوف قد نال خطاب ثناء وشكر من الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق .

(كارليل)

يقول الفيلسوف كارليل فى كتابه الأبطال: (وإنى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وإكبارا واعظاما وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله لقد كان فى هؤلاء

العرب جفاء وغلظة وكانوا حماة الأنوف وأباة الضمير فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى خضعوا له واستفادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا فى طاعتهم مقدار ما ناله فى ثوبه المرقع بيده فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال .

دائرة المعارف البريطانية

جاء فى دائرة المعارف البريطانية ما نصه :

(كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحا وتوفيقا) .

دينســـــــون

يقول دينسون عنه - ﷺ - فى كتابه (الحركات كأساس للحضارة) .

(وفى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها وكان يبدو إذذاك أن المدنية الكبرى التى قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية .

إذ القبائل تتحارب وتتناحر لا قانون ولا نظام وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم بأجمعه) .

جيمـــــس متشـــــز

يقول عن رسول الله ﷺ :

(إن محمدا هذا الرجل الملهم الذى اقام الاسلام ولد حوالى ٥٧٠ ميلادية فى قبيلة عربية تعبد الأصنام ولد يتيما محبا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة فى شبه الجزيرة العربية وفى الشرق كله فقد حطم الأصنام بيديه وأقام دينا يدعو إلى الله وحده وأرشد العالم إلى أنه بشر مثلهم أرسله الله بشيرا ونذيرا) .

البروفيسور جارسون دى تاس

قال فى كتابه (الاسلام) إن محمدا رسول الله - عليه الصلاة والسلام كان منذ نعومة أظفاره مجانبا للرذيلة محبا للفضيلة حتى أطلق عليه بنو قومه الصادق الأمين .

البروفيســور كـــارادى فـــو

(إن محمدا أتم طفولته فى الهدوء ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود وقد عاش هادئا فى سلام حتى بلغ الأربعين من عمره وكان بشوشا تقيا لطيف المعاشرة وكان النبى والملهم والمؤسس ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا التى كان عليها ومع ذلك فإنه لم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين إن شعور المساواة والاخاء الذى أسسه محمد بين اعضاء الكتلة الاسلامية كان يطبق عمليا حتى على النبى نفسه) .

(رأى المستشرق الأمريكى إدوارد ورمسى)

رأى المستشرق الأمريكى ادوارد ورس

قال : (كانت بلاد العرب غارقة قبل نبوة محمد - ﷺ - فى أحط الدركات ، حتى يصعب علينا وصف تلك الخزعبلات التى كانت سائدة فى كل مكان ، فالفوضى العظيمة التى كان الناس منهمكين فيها فى ذلك العصر ، وجرائم الأطفال [يعنى قتلهم خشية الاملاق] ووأد البنات وهن أحياء والضحايا البشرية التى كانت تقدم باسم الدين ، والحروب الدائمة التى تنشب آنا بعد آن بين القبائل المختلفة ، والنقص المستديم فى نفوس أهل البلاد وعدم وجود حكومة قوية ، كل هذه كانت سببا فى سيادة الهمجية بين الناس ، وازدياد الجرائم وانتهاك الحرمات ، وهذه حقيقة يحملها التاريخ ولا يمكن إنكارها) .

ثم قال :

(كانت بلاد العرب فى حالة تشويش وبلبلة ، وفى فوضى منتشرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ أية أمة من الأمم ، حتى أن بيت الله الحرام الذى بناه ابراهيم الخليل - عليه السلام - لاقامة الشعائر الدينية فيه قد حول إلى معبد يحتوى على أربعمائة صنم لكل قبيلة صنم يعبدونه) .

ثم يقول :

(كان العرب يعيشون فى جو فاسد مملوء بالغبار والميكروبات الاجتماعية ، حتى أن مجرد ذكرى هاتيك الأيام تقشعر منها النفوس ، وهكذا كانت أحوال سكان شبه جزيرة العرب وتلك هى عاداتهم حينما جاء محمد - ﷺ - شارحا للعالم رسالة الواحد القهار حاملا بيده اليمنى الهدى والفرقان [يعنى القرآن] وبيده اليسرى نور المدينة الوضاء ، وإنما ذلك ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن (به - عز وجل -) .

ثم قال : (وهناك بزغ فجر عصر جديد كان يرى فى الأفق ، وبشرت الأيام بسطوع شمس العرفان وانقشاع سحب الجهالة المظلمة التى أخفت النور السماوى عن أبصار الناس زمنا طويلا ، وأتى اليوم الذى أعادت فيه يد المصلح العظيم محمد - ﷺ - ما فقد من العدل والحرية والتسامح والفضيلة ، أتى الوحى من عند الله إلى رسوله الكريم ، ففتحت حججه العقلية السديدة أعين أمة جاهلة فانتبه العرب وتحققوا أنهم كانوا نائمين فى أحضان الرذيلة المظلمة ، ولنتصور سكان البادية حينما رأوا أصنامهم تكسر على مرأى ومسمع منهم ، وهم المشهورون بالشجاعة والصلابة فى الرأى وعدم الخضوع للغير ، أفلا يثور ثائرهم ويهبون لقتل محمد - ﷺ - ؟ ولكنه كان يتكلم بكلام الله ربه فقد كانوا يشعرون بذلك حيث يجدون فى نبرات صوته هدى وتأثيرا كبيرا ، ولهذا لم يستطيعوا القيام ضد تيار الحق ولم يجدوا بدا من السلوك فى النقاء الجديد ، لأنه اجتاح كل الموانع والسدود كما يجتاح السيل الجارف كل شىء يقف فى طريقه ، وهكذا انتصرت الفضيلة على الرذيلة ، وأخمدت قوة الله هاتيك الشرور والآثام ، وحررت الانسانية من قبضة الوحشة) .

وفى الختام قال :

(وبالاجمال أتى الوحى من عند الله العلى القدير إلى رسوله ونبيه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ففتحت حججه العقلية أعين تلك الأمة الغافلة) .

لويل توماس

وقال الكاتب الانجليزى الكبير لويل توماس : (قبل أن يكتشف كولمب أمريكا بألف سنة أبصرت عينا الطفل القرشى محمد بن عبد الله النور فى مكة ، فكأن الله اختار هذا الطفل ليغير به تاريخ العالم ، وكان فى طفولته يرعى الماعز والغنم فيقودها إلى أعالى الجبال التى تحيط بمكة إحاطة السوار بالمعصم ، ولما شب وأينع راح يذهب إلى سوريا فى تجارة بمال إحدى نساء قريش - يشير إلى السيدة خديجة - وسرعان ما يشعر بأن قومه الذين يعبدون الأوثان كانوا على ضلال يتمسكون بدين منبعث من الأوهام والأساطير ، فبعث بدين متسامح رضى أن يقبله الانسان بدون مشقة ، وقد علَّم أصحابه حب آدم وابراهيم وموسى وعيسى واعتبارهم أنبياء مرسلين) .

ثم قال توماس : (لقد كان محمد العربى القرشى النبى الهاشمى والرسول التهامى أول من وحد قبائل العرب المتنافرة فى تلك الجزيرة ، وأول من ألف قلوب شعوبها المتقاتلة ، وجمع كلمتها تحت راية واحدة جاء محمد وجمع كلمة العرب ووحد صفوف العرب ولكن لا باستعمال القوة والاعتماد على الشدة ، بل بكلام عذب حكيم ، أخذ منهم كل مأخذ ، فاتبعوه وآمنوا به وقد فاق فتى مكة جميع الرسل وقادة الرجال بصفات لم تكن معروفة لدى العرب ، فجمع بين القلوب المتفرقة وجعل منها قلبا واحدا .

ومات النبى محمد - ﷺ - وتدفقت بعده موجة فتوحات الاسلام فاجتازت الصحارى ودخلت المدن ، وذلك لتجعل ذكرا خالدا أبديا لذلك الرجل العظيم الذى انتجته وأنبتته صحراء قاحلة ، فأثمر ثمرا لم يحلم به العالم من قبل ، وامتدت هذه الموجة فعمت آسيا وافريقيا إلى أن استولت على أواسط أوربا ، تلك الموجة التى لم تلحق بها موجة الرومان فى إبان مجدهم وعهد عظمتهم) .

وفى الختام قال توماس :

(وفى ذلك العصر عصر الفتوحات الاسلامية قدم العرب للعالم أجمع أعلم رجال الاسلام وأكثرهم ثقافة ومعرفة وبذلك فإن الاسلام قد حل بالعالم وانتشر فى ربوعه بسرعة البرق .

ادوارد مونيته مدير جامعة جينيف

قال فى محاضراته التى ألقاها :

(ولقد انتشر الاسلام منذ نشأته بسرعة ، وقلما توجد ، بل لا توجد أبدا ديانات كانت تنتشر بمثل هذا الانتشار ، وإن ما صادفه الاسلام من أول عهده كان عظيما وباهرا ، حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التى وطدت سلطة نبى الاسلام - ﷺ - وإصلاحه بعيدا عن حدود بلاد العرب ، لقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن أن نجاح العقيدة الاسلامية يرجع إلى العنف وإلى قوة السيف فى عهد محمد - ﷺ - وعهود خلفائه الأولين (يريد الخلفاء الأربعة) ولكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع ، فإن الفكرة لا تضع موضع الاعتبار العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها والوقوف على حقيقتها) .

وقال مونتيه فى محاضرة أخرى بجنيف ما ترجمته :

(الاسلام فى واقع الأمر ينتشر نوعا ما من تلقاء نفسه ، أريد أن أقول : (إنه ينتشر بواسطة المسلمين انفسهم لأن كل مسلم فى البلاد الوثنية رسول لدينه مبدئيا ، فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوى العقيدة ، تلك خاصية من خاصيات الدين الاسلامى أن يستحوذ تماما على نفس المؤمن بكليته وجزئيته ، وأنه إن وجد عدد من المسلمين فاترى العزيمة أو من غير المبالين فإن الحمية من الصفات المميزة للدين الاسلامى ، وإننى اكرر أن المسلم غالبا يحمل فى جسمه أنسجة المبشر ، فالاسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه ، فهو ينتشر بواسطة القوافل التى تذهب للتجارة إلى البلاد الوثنية ، أو الديار التى تعبد فيها الأصنام ، فرسل الاسلام تدفعهم الغيرة للتبشير إلى الالتجاء إلى الوسائل المختلفة الملائمة لكل حالة خاصة فى البلاد وفى الشعوب التى يقومون فيها بأداء عملهم الدينى ، وهنا نرى العامل الدينى يعمل عمله بجانب العاملين : الاجتماعى والاقتصادى ، فالاسلام فى البلاد الشاسعة التى ينتشر فيها ويمتد نفوذه ينم لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية فى أرقى الحالات وتباعا يعتبر من أولى وسائل التقدم والرقى) .

الدكتور ليتز

يقول : (إننى لأجرؤ بكل أدب أن أقول : ان الله الذى هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها لو كان يوحى إلى عباده فدين محمد ـ ﷺ ـ هو دين الوحى ، ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوى ووسائل التمييز بين الخير والشر ودفع الباطل هى الشاهدة على الالهام فرسالة محمد هى هذا الالهام) .

البروفيسور بورسورث سميث

يقول : (عندما ألقى نظرة إجمالية أستعرض فيها صفات محمد وبطولته ، ما كان منها فى بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة ـ وكم من البطولات المعجزة أحدثوا ـ أجده أقدس الناس وأعلاهم مرتبة حتى إن الانسانية لم تعرف له مثيلا) .

